

ول
وايرل ديورانت

قصة الحضارة

29

بداية عصر العقل



قصة الحضارة

ول وائريل ديورانت

بداية عصر العقل



مراجعة
عالم أدهم

General Organiz
Pub.

ترجمة
فؤاد أندراوس

ria Library (GOAL
nducap

الجزء الثاني من المجلد السابع

٢٩



تونس

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف
رقم التسجيل	١٩٠٧٨ / ١٥
	٤٢



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

ولاء الجيوش : ص. ۸۷۳۷ - ت: ۲۶۶۱۵۸ - ۲۶۰۴۶۵ - تلس: ۲۳۴۳
العنوان البرقي: نار هيلاب - بيروت - لبنان

الكتاب الثاني

صراع العقائد على السلطة

١٥٥٦ - ١٦٤٨

فهرس

الجزء الثاني من المجلد السابع

صراع العقائد على السلطة

١٥٥٦ - ١٦٤٨

الفصل التاسع

إيطاليا : الأم الخيرة

١٥٦٤ - ١٦٤٨

صفحة

١	١ - الخداء السحري	...
٢	أ - في سفوح الألب	...
٥	ب - البندقية	...
١٢	ح - من بادوا إلى بولونيا	...
١٧	د - نابلي	...
٢١	٢ - روما والبابوات	...
	٣ - اليسوعيون	...
٣٢	أ - في أوروبا	...
٣٦	ب - في الأقطار غير المسيحية	...
٤٣	٤ - أيام إيطاليا وليالها	...
٤٦	٥ - مولد الأوبرا	...
٥١	٦ - الآداب	...

٥٥	٧ - تاسو
٦٥	٨ - مجيء الباروك : ١٥٥٠ - ١٦٤٨
٦٩	٩ - الفنون في روما
٧٣	١٠ - برنيني

الفصل العاشر

تجاهة اسبانيا وانحطاطها

١٥٥٦ - ١٦٦٥

٧٩	١ - الحياة الاسبانية
٨٥	٢ - فيليب الثاني ١٥٥٥ - ١٥٩٨
٩٨	٣ - فيليب الثالث ١٥٩٨ - ١٦٢١
١٠١	٤ - فيليب الرابع ١٦٢١ - ١٦٦٥
١٠٤	٥ - البرتغال ١٥٥٧ - ١٦٦٨

الفصل الحادى عشر

العصر الذهبي للأدب الاسباني

١٥٥٦ - ١٦٦٥

١١١	١ - السيجلو دى أورو (القرن الذهبي)
١١٦	٢ - سرفانتس ١٥٤٧ - ١٦٦٦
١٢٥	٣ - الشعراء
١٢٩	٤ - لوبي دى فيجاسا ١٥٦٢ - ١٦٣٥
١٣٤	٥ - كالديرون ١٦٠٠ - ١٦٨١

الفصل الثانى عشر

العصر الذهبي للفن الاسباني

١٥٥٦ - ١٦٨٢

١٤٠	١ - الفن واحد وألوانه ألف
١٤٤	٢ - إلجريكو ١٥٤٨ - ١٦١٤

صفحة

- ٣ — ثورباران ١٥٩٨ — ١٦٦٤ ... ١٥٠
 ٤ — فيلاسكويز ١٥٩٩ — ١٦٦٠ ... ١٥٣
 ٥ — موريللو ١٦١٧ — ١٦٨٢ ... ١٦٤

الفصل الثالث عشر

الصراع على فرنسا

١٥٥٩ — ١٥٧٤

- ١ — القوى المتنافسة ... ١٧٠
 ٢ — كاترين دي مديشي ... ١٧٧
 ٣ — حكم الدم ١٥٦٢ — ١٥٧٠ ... ١٨٥
 ٤ — المذبحة ... ١٩٠

الفصل الرابع عشر

هـ — هري الرابع

١٥٥٣ — ١٦١٠

- ١ — الحب والزواج ... ٢٠٥
 ٢ — هـ — هري الثالث ١٥٧٤ — ١٥٨٩ ... ٢٠٧
 ٣ — الطريق إلى باريس ١٥٨٩ — ١٥٩٤ ... ٢١٣
 ٤ — الملك الخلاق ... ٢١٨
 ٥ — زير النساء ... ٢٢٣
 ٦ — مصرعه ... ٢٢٧

الفصل الخامس عشر

ريش-الميو

١٥٨٥ — ١٦٤٢

- ١ — بين ملكين ١٦١٠ — ١٦٢٤ ... ٢٣٢
 ٢ — لويس الثالث عشر ... ٢٣٩

٢٤١	٣ - الكاردينال والهيجونوت
٢٤٥	٤ - الكاردينال والأشراف
٢٤٩	٥ - الكاردينال صاحب الكلمة العليا
٢٥٤	٦ - رثاء

الفصل السادس عشر

فرنسا إبان الحروب

١٥٥٩ - ١٦٤٢

٢٦١	١ - الأخلاق
٢٦٤	٢ - آداب السلوك
٢٧٠	٣ - ميشيل دي مونتيني
	أ - تعليمه
٢٧٢	ب - صداقته وزواجه
٢٧٥	ج - مقالاته
٢٧٩	د - الفيلسوف
٢٨٨	هـ - الحجر الدوار
٢٩٤	٤ - خالidon يوماً واحداً
٣٠١	٥ - بيير كورني
٣١٠	٦ - العمارة
٣١٣	٧ - فنون كثيرة
٣١٧	٨ - بوسان والمصورون

الفصل التاسع

إيطاليا الأم الخيرة

١٥٦٤ - ١٦٤٨

١ - « الحذاء السحري »

بعد أن هدأ عنف المعركة التي خاضتها إيطاليا في ميداني النهضة والاصلاح البروتستنتي ، راحت تستكين إلى حكم الأسبان استكانة يزعمها الفقر ، ويواسيها الدين ، ويضفي عليها السلام بريقا خداعا . كانت معاهدة كاتو - كامبريزي (١٩٥٩) قد خلعت دوقية سافوا على ايمانويل فيليبرت ، أما جنوا ولوكا والبندقية وسان مارينو فقد مد في أجلاها فبقيت جمهوريات مستقلة . وأما مانتوا فظلت خاضعة لأمرآء جونزاجا ، وفيرارا لأمرآء استنزي ، وبارسا لأمرآء فارينزي . وحكمت أسرة مديتشى توسكانيا - فلورنسة وبيزا وأريتزو وسيننا - ولكن موانها كانت تحت سيطرة أسبانيا . وحكمت أسبانيا عن طريق نواب ملكها دوقية ميلان ومملكة نابلي التي كانت تضم صقلية وكل إيطاليا جنوب الدويلات البابوية . وحكم هذه الدويلات ، التي اخترقت وسط شبه الجزيرة من البحر المتوسط إلى الأدرياتي ، بابوات تحدد بهم القوة الأسبانية .

على أن هذه القوة لم تكن عدوانية عسكريا ، فهي لم تتدخل في الشؤون الداخلية للدويلات ، اللهم إلا ميلان ونابلي ، ولكن عزوفها عن التجارة وخوفها من الفكر الحر ألقيا حجابا كثيفا على الحياة الإيطالية . وكان من أثر استيلاء أمم الأطلنطي على تجارة الشرق وأمريكا أن انتقلت إليها تلك الثروة التي كانت من قبل تنفق على حركة النهضة ، فأصبحت الآن تغذي الازدهار الثقافي الذي بدأ في أسبانيا وإنجلترا والأراضي المنخفضة . وعانت إيطاليا فوق ذلك من اضمحلال الموارد البابوية نتيجة لحركة الاصلاح

البروتستنتي . كان الفلاحون الصابرون يكدحون ويصلون ، والرهبان الذين يفوقون الحصر يتعبدون ، أما التجار ففقدوا الجاه والثروة ، وأما النبلاء فضيعوا الحياة جريا وراء الألقاب وتعلقا بمظاهر البذخ والترف .

ومع ذلك أنجبت إيطاليا وسط هذا الانهيار السياسي جاليليو أعظم العلماء في جيله ، ووهبت العالم فلسفة برونو الخريثة البعيدة النظرة ، وهبته برينني أعظم مثالي العصر ، ومونتيفردى أكبر مؤلفيه الموسيقيين أثرا ، ووهبته أشجع مبعريه الدينيين ، وواحدا من أعظم الشعراء الإيطاليين هو تاسو ، كذلك وهبته - في بولونيا ونابلي وروما - مذاهب في التصوير لا ضريب لها إلا في الأراضي المنخفضة الوافرة الثراء . وهكذا ظل لواء الثقافة معقودا لإيطاليا .

١ - في سفوح الألب

يطيب لنا أن نجوس من جديد خلال تلك الحديقة وقاعة الفن المسماة إيطاليا ، ولو بالفكر والقلم ، وأن نمر بها ولو مرور الكرام . فأما تورين فقد غدت عاصمة كبيرة تحت حكم كفاء على رأسه إيمانويل فيليبرت ، وبفضل تشجيع زوجته مرجريت الأميرة الفرنسية السافواوية للأدب والفن . وأما ميلان فظلت محتفظة بأبتها على الرغم من خضوعها لأسبانيا . قال ايفلين عام ١٦٤٣ في وصفها : « انها من أفخم مدن أوروبا ، ففيها ١٠٠ كنيسة ، و ٧١ ديرا ، ٤٠٠٠٠ من السكان . فيها القصور الباذخة ، وفيها الفنانون النادرون^(١) » وبعد أن دمرت النار داخل باسليقا سان لورنزو ماجيوري (١٥٧٣) عهد كارلو بوروميو ، مطران ميلان الورع ، إلى مارتينو باسي ببناء داخلها وفق الطراز البيزنطي الرائع الذي بنيت به كنيسة سان فيتالي في رافنا . وبقي الكردينال فيديريجو بوروميو ، وهوابن أخى كارلو ، قصر أمبروز (١٦٠٩) ، وشيد فيه مكتبة أمبروز الشهيرة . أما قصر بريرا ، الذي بديء تشييده عام ١٦١٥ ليضم كلية لليسوعيين ، فقد أصبح منذ عام ١٧٧٦ مقرا لأكاديمية الفنون الجميلة ، ومنذ عام ١٨٠٩

لقاعة بريرا الذائعة الصيت ، التي أصابتها الحرب العالمية الثانية بأضرار بالغة ، ولكنها رُممت الآن ترميماً جميلاً ، وفيها نجد الكثير من آثار أسرى بروكاتشيني وكرسبي ، وهما الأسرتان اللتان غلب تأثيرهما على التصوير الميلائي في العصر الذي نتناوله .

وأما جنوه ، « الهادئة جدا » ، فما زالت من تلالها المرصعة بالقصور تختال فوق بحر متوسط انتشرت فوق أمواجه المراكب الجنوية . حقا لقد فقدت هذه الجمهورية التاجره أملاكها الشرقية التي استولى عليها الترك ، وانتقلت بعض تجارتها مع دول الشرق إلى دول الأطلنطي ، ولكن التل الكبير الذي تقوم فوقه قبض لها ميناء ممتازا ظلت بفضلها ، وما زالت إلى اليوم ، أهم الثغور الإيطالية . هنا شاد أمراء التجارة أو ملوك المسال طائفة من أعظم بيوت إيطاليا ترفا . وفي رأى ايفلين أن « الشارع الجديد » الذي صممه روبنز وازدان بقصور من الرخام المصقول « يزرى بأى نظير له في أوربا » (٢) . وقد صمم جالياتزو أليسى وتلاميذه الكثير من هذه القصور الفاخرة التي اشتهرت بما حوت من قاعات فن ، وسلام فخمة ، وجدران زينت باللوحات أو الرسوم الحصية ، وأثاث مترف - « موائد وأسرة كاملة من الفضة الثقيلة » ، ولا عجب ، فقد حذق أقطاب المال الجنوبيون تحويل عرق الشعب إلى ذهب . وفي عام ١٥٨٧ بى « جاكومو ديلا بورتا » باسليقا « البشارة المقدسة » التي كانت أعمدها المحززة ، ومنبرها البديع ، وقوسها المزخرف ، مفخرة الأتقياء من أهل جنوه . على أن هذه الكنيسة وكثيرا غيرها من كنائس جنوه وقصورها لحقتها دمار كثير في الحرب العالمية الثانية .

وأما فاورنسة فقد ظلت ، حتى إلى عهد فازارى ، تلقب بأثينة إيطاليا ، إذ تميزت بنحسوبتها سواء في الأدب أو الدرس أو العلم أو الفن . لقد زكا فيها كل شيء إلا العفة ، ففي عهد الدوق الكبير فرانشسكو الأول (١٥٧٤ - ٨٧) انحدرت أسرة مديتشي العظيمة إلى حمأة الفجور والدعارة . ثم تخلى الكردينال فرديناندو مديتشي عن وظيفته الكهنوتية

وأصبح « الدوق الكبير فرديناند الأول » ، فأناح بذلك لتوسكانيا طوال اثنين وعشرين عاما (١٥٨٧ - ١٦٠٩) عهدا من العدل والاستنارة ، ووسع تجارتها إذ جعل ليفورنو (ليجهورن) ثغراً حراً مفتوحاً لكل التجار من كل الأديان ، وأصلح بالقدوة الفاضلة أخلاق شعبه . أما خلفاه كوزيمو الثاني وفرديناند الثاني فكان لهما فضل إعانة جاليلو بالمال . ونقش بارتولوميو أماناتي نافورة نبتون الكبرى لميدان « السنيوريا » بفلورنسة ، وصمم قصر دوكالى بلوكا . وفي عام ١٥٨٣ أكمل جوفاني دابولونيا « اغتصاب السابن » ، وهو التمثال القائم في « لوجا (قاعة) دى لانزى » ، وصب تمثال هنرى الرابع الذى أهده كوزيمو الثانى إلى مارى مديتشى ليزين « البون نوف » فى باريس . وواصل اليساندرو أللورى وابنه كريستوفانو التقليد الذى درج عليه التصوير الفلورنسى من خيال جامع فى التلوين ، فى شىء من التخفيف ، وأشرف بيتر داكورتونا على الكمال فى رسومه الحصية التى زين بها ستوف قصر بيتى ليصور مناقب الدوق كوزيمو الأول .

وأما بارما فقد كان يحكمها فى هذه الفترة دوق مشهور يدعى اليساندور فارينزى ، ولكن بلغ انشغاله بقيادة الحيوش الأسبانية فى الأراضي المنخفضة حدا لم يتح له أن يتربع على عرشه قط : وفى عهد ابنه رانوتشو ذاع صيت جامعة بارما فى أرجاء أوربا ، وبني أليوتى (١٦١٨) مسرح فارينزى الذى اتسع لسبعة آلاف متفرج فى مدرج نصف دائرى لا يضارعه فى إيطاليا الحديثة سوى المسرح الأولمبى الذى بناه أستاذه باللابيو .

وأما مانتوا فقد دخلت عهدا من الرخاء اعاد إلى الأذهان ذكرى أيام ايزابللا ديستى المجيدة . فبفضل صناعة النسيج المزدهرة أقبل الناس على شراء القماش المانتوى ، حتى فى إنجلترا وفرنسا المنافستين لمانتوا . وظل بيت جونزاجو الذى حكم هذه الدوقية منذ عام ١٣٢٨ ينجب الأكفاء من الرجال . ففى الدوق فنشزو الأول تمثلت من جديد فضائل أمراء النهضة : وجل حلول الصورة لطيف المعشر ، يرعى روبنز المحظوظ وتاسو التعس على

السواء ؛ يجمع الآثار القديمة ، والتحف الصينية ، والآلات الموسيقية ،
والسبيج المرسوم الفلمنكى ، وأزهار الطوليب الهولندية ، والنساء الجميلات ؛
يهوى الشعر والقمار ، مقاتل باسل ورجل دولة جرئ ، ولكنه يهلك
نفسه بالفجور والحرب ، ويموت غير متجاوز الخمسين (عام ١٦١٢) .
ثم يخلفه ثلاثة أبناء على التوالي ، وآخرهم وهو فاشنزو الثانى لم يعقب ،
وكان من أثر تنافس فرنسا والنمسا وأسبانيا على تعيين خلف له والتحكم
فى هذا الخلف أن غدت الدوقية مسرحا عاجزا لحرب الوراثة المانتوية
(١٦٢٨ - ٣١) وكانت حربا ضروسا أوشكت أن تمحو مانتوا من
سجل التاريخ .

وأما فيرونا فقد تكاسلت ثقافيا خلال هذه الحقبة واعتمدت على
تراث النهضة . ففى فيشنزا كانت واجهات باللاديو الكلاسيكية تحدد
الطراز الذى اتبعه كرسنوفر رن فيما بعد . وقد أكمل فنشترى سكاموتزى
مسرح باللاديو الأولي ، ثم صمم قصر تريسينو - بارتون . وأصبح
سكاموتزى هزة الوصل بين الكلاسيكية وفن الباروك بفضل ولعه
بالزخرف ، وهو ولع لم يستطع باللاديو كبجه فى فنه .

ب - البندقية

كان اضمحلال ملكة الأدرياتي ، كاضمحلال روما القديمة ، طويلا
بها . انها تفقد تجارتها البحرية مع الهند لتستولى عليها البرتغال ، وعماء قليل
ستشعر بمنافسة الهولنديين لها . لقد تحملت وطأة توسع الأتراك بحرا ،
وكانت بحريتها وقوادها عاملين رئيسيين فى الانتصار عليهم فى ليبانتو
(١٥٧١) ، ولكنها تخلت عن قبرص بعدها بشهور ، ومن ثم غدت
تجارتها مع بحر المشرق مرهونة برضى الأتراك وشروطهم . ولقد كافحت
ببسالة لتواجه تحدى الزمن المتغير ، فاستطاعت باتصالها بالقوافل القادمة
من وسط آسيا عند حلب أن تعوض بعض التعويض ما خسرت من تجارتها
البحرية مع الشرق . وظلت سفنها تسيطر على الأدرياتي ، وشاركت فى

أرباح تجارة الرقيق التي أصبحت الآن تسمى إلى سمعة البرتغال وأسبانيا وإنجلترا ، أما أملاكها في البر - وهي فنشتر و فيرونا وتويسته وترنت واكويلا وبادوا - فقد أثرت وكثر سكانها ، وأما صناعتها فقد واصلت تفوقها في الزجاج والحريز والحمرات والطرف الفنية المترفة . كذلك كان لمصرفها المسمى « بانكو دى ريالزو » ، والذي أنشأته عام ١٥٨٧ بعد أن أخفق كثير من المصارف الخاصة ، الفضل في دهم مالية البنادقة بقوة الدولة ، وكان المثال الذي احتذته بلاد أخرى في إنشاء مؤسسات مماثلة في نورمبرج وهامبورج و أمستردام . وقد تعجب الرحالة من جمال عمارتها ، وفتنة نسائها ، ونظافة شوارعها ، وثبات حكومتها في حزم وإصرار .

استهدفت سياستها الخارجية حفظ توازن القوى بين فرنسا وأسبانيا مخافة أن تبتلع احدهما الجمهورية التي لم تعد قوية البأس كما كانت من قبل . ومن هنا مبادرتها إلى الاعتراف بهنرى الرابع ملكا على فرنسا دعما لبلد مزقته الحرب . وفي عام ١٦١٦ اشترك الدوق أوزونا ، نائب ملك أسبانيا في نابلي ، مع السفير الأسباني في البندقية ، في مؤامرة للاطاحة بمجلس شيوخها واخضاع الجمهورية لحكم أسبانيا . وبارك فيليب الثالث المشروع ، ولكنه جريا على أسلوب الحكومات المهذب ، أمر أوزونا بالمضى فيه « دون أن تدع أحدا يعلم أنك تنفذه بعلمي » ، وتظاهر بأنك تتصرف دون أوامر « (٢) » . غير أن حكومة البندقية كانت تستخدم أبرع الخواسيس في أوروبا ، فكشفت المؤامرة ، وقبض على المتآمرين المحليين ، وذات صباح تعلم الناس درسا يتفهمهم ، إذ رأوهم يتدلون من المشانق في ميدان القديس مرقس ، محذقين في الهائم السعيدة بعيون انطفأ نورها .

هذه الاولجركية الهادئة الصارمة ، التي انجمرت مع الناس من جميع العقائد ، ومنحهم الحرية الدينية ، كان موقفها من البابوية . فلا على نحو ملحوظ . جبت الضرائب من رجال الدين ، واخضعتهم للقانون المدني ، وحظرت بغير موافقتها بناء أى معابد أو أديار جديدة ونقل ملكية الأراضي

الكنيسة : وراح حزب من سياسة البندقية يتزعمهم لوناودو دوناتو ونيكولو كونتاريني ، يقاوم بصفة خاصة دعاوى البابوية بأن لها سلطانا على الأمور الدينية . وفي عام ١٦٠٥ ارتقى كاميللو بورجيزي كرسي البابوية باسم يولس الخامس ، وفي السنة التالية اختير دوناتو « دوجا » للبندقية ، ووقف الرجلان اللذان كانا بالأمس صديقين ، يوم كان دوناتو مبعوثا لدى روما ، يواجه أحدهما الآخر في صراع بين الكنيسة والدولة ردد عبر قرون خمسة أصداء ذلك النضال الذي احتدم من قبل بين البابا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع . وكانت صدمة البابا يولس أن يعلم أن الزعيم الفكري للحزب المناهض للاكليروس في البندقية راهب سمي له ، ينتمي لجماعة « خدام العذراء » هو فرا باولو ساربي .

وساربي هذا كان في رأى مولنتي « ألمع العقول التي أنجبها البندقية قاطبة » (٤) . كان أبوه تاجرا ، والتحق الصبي بجماعة « الخدام » وهو في الثالثة عشرة ، وتشرب العلم في شغف ، وحين بلغ الثامنة عشرة دافع عن ٣١٨ قضية علمية في جدل علني بمائتوا ، ووفق في دفاعه توفيقا حمل دوقها على تعيينه لاهوتيا لبلاطه . ثم رسم كاهنا في الثانية والعشرين ، وأصبح أستاذا للفلسفة ، وفي السابعة والعشرين انتخب ممثلا اقليميا لرهبته لدى جمهورية البندقية . وواصل دراساته في الرياضيات ، والفلك ، والفيزياء ، وشتى العلوم . واكتشف انقباض القرصية ، وكتب مقالات علمية ضاعت ، وشارك في الأبحاث والتجارب التي قام بها « فابريزو داكوابندنتي » و « جامباتيستا ديلا بورتا » ، الذي قال انه لم يصادف قط « رجلا أغزر علما ولا أكثر دقة في محيط المعرفة بأسره » (٥) . وربما آذت هذه الدراسات الدينية عقيدة باولو ، فقد رحب بصدقة بعض البروتستنت ، وقدمت اتهم ضده لمحكمة تفتيش البندقية - وهي نفس الهيئة التي لن تلبث أن تلقى القبض على جوردانو برونو . وشرحه مجلس الشيوخ اسقفا ثلاث مرات ، وثلاث مرات رفض الفاتيكان الترشيح ، وقوت ذكرى هذه الهزائم من عداائه لروما .

وفي عام ١٦٠٥ قبض مجلس الشيوخ على كاهنين وأدنهما بجرائم خطيرة فطالب اليانبا برئيس الخامس بإحالة الرجلين إلى القضاء الكنسي ، وأمر بإلغاء القوانين الموجهة ضد الحديد من الكنائس والديورة والطرق الدينية . ورفضت حكومة البندقية في أدب ولباقة . فأهل البابا اللوج والحكومة ومجلس الشيوخ سبعة وعشرين يوماً للامتنثال لأوامره . وهنا استدعوا فرا باولو باعتباره مستشاراً في القانون الكنسي ، وأشار ساربي بمقاومة البابا ، وحجته في ذلك أن سلطاته لا يسرى إلا على الأمور الروحية ، واعتنق مجلس الشيوخ رأيه هذا . وفي مايو ١٦٠٦ حرم البابا دوناتو والحكومة وأوقع حظراً على جميع الخدمات الدينية في أراضي البندقية . وأصدر اللوج تعليماته للكهنة البنادقة بتجاهل الحظر ومواصلة أداء وظائفهم ، ففعلوا إلا اليسوعيين واليائتين والكبوشيين . ورحل اليسوعيون بحملتهم عن البندقية ، لأن قوانينهم تلزمهم بطاعة البابوات ، وذلك رغم انذار الحكومة لهم بأنهم ان رحلوا فلن يسمح لهم بعدها بالعودة . ونشر ساربي خلال ذلك ، رداً على الكردينال بلارميني ، كراسات دعا فيها إلى تقييد سلطة البابا . وأعلن أن للمجامع العامة سلطاناً يسمو على سلطان البابوات .

ولجأ بولس الخامس إلى أسبانيا وفرنسا ، ولكن أسبانيا هذه طالما رفضت المراسيم البابوية ، أما هنري الرابع ملك فرنسا فكان مديناً للبندقية بصنيعها معه . على أنه أوفد إليها رجلاً حكماً هو الكردينال دجوايوز ، الذي ابتكر ما اقتضاه الموقف من صيغ تحفظ ماء الوجه . فافرج عن الكاهنين وسلموا إلى السفير الفرنسي ، الذي أسلمهما بعد قليل إلى روما . ورفض مجلس الشيوخ إلغاء القوانين التي اعترض عليها البابا ، ولكنه - أملاً في المعونة البابوية ضد الترك - وعد بأن الجمهورية « ستسلك بما عهد فيها من ولاء » . وأوقف البابا لومه ، ورفع جوايوز الحرم عن المحرومين . يقول مؤرخ كاثوليكي « لقد غلت مزاعم البابا بولس الخامس في تشبهها بمزاعم القرون الوسطى غلوا جعل تحقيقها ضرباً من المحال (٦) » . وكانت هذه آخر مرة أوقع فيها الحرم على دولة بأسرها .

وفي ٥ أكتوبر ١٦٠٧ هاجم بعض القنلة المستأجرين ساربي وتركوه وهم يحسبونه ميتا ، ولكنه أفلق ، وروى أنه علق على الهجوم بهذه الحكمة ، التي فيها من البراعة ما يجعل صدورها عنه لحظتها بعيد الاحتمال ، « انى تبين أسلوب الادرة البابوية الدقيق (٧) » (٨) . ووجد القنلة الحماية والاستحسان في الدويلات البابوية (٨) . بعد هذا عاش ساربي معتكفا في صومعته يتلو القديس كل يوم ، ولكن « مرقم » لم يكن معطلا . ففي عام ١٦١٩ نشر تحت اسم مستعار وعن طريق دار نشر لندنية « تاريخ مجمع ترنت » ، وهو اتهام ضاف للمجمع ، صور فيه حركة الاصلاح الديني تصويرا بروتستنتيا خالصا ، وأدان المجمع لأنه باذعانه التام للبابوات حال دون رأب الصدع في الكنيسة . وتحمس العالم البروتستنتي للكتاب ، وأطلق ملتن على مؤلفه « ممزق القناع العظيم » . أما اليسوعيون فعهدوا إلى فقيه منهم يدعى سفورتزا باللافتشينو بكتابة تاريخ معارض (١٦٥٦ - ٦٤) كشف تحيز ساربي وعدم دقته وباراه فيهما (٩) . وعلى الرغم من تحيز الكتابين فانهما سجلا تقدما في جمع الوثائق الأصلية واستخدامها ، وفي سالة ساربي المسهبة سحر البلاغة النارية ، وهذا تشويق اضافي ذو خطر . لقد كان الرجل متقدما كثيرا على جيله في الدعوة إلى الفصل التام بين الكنيسة والدولة :

في ظل هذه الحكومة الآبية ، وفوق تلك القنوات المطمئنة العطرة ، واصلت البندقية سعيها وراء المال والجمال تسترضى المسيح بالعمارة ، والعدراء بالابتهالات ، فلكل أسبوع عيد يتذرع الاحتفال به بقديس ما ، وفي رسوم جواردي نرى أمثلة من هذه الانتشاءات الجماهيرية ، وتلحظ في صور الأشخاص ذلك الترف الشرقى الحسى ، ترف الثياب والحلى .

(*) التورية هنا في كلمة Stilus و Style . والسكلة الأولى كانت في الأصل تمنى حديدة مستدقة الطرف ، ثم سناً من حديد استعمل في الكتابة على ألواح من الشمع ، ثم قلما ، ثم طريقة في الكتابة ، أى أسلوبا . والتصغير الايطالى Stiletto كان له معنيان : المرقم ، والحنجر الصغير .

وكان في وسع المرء في أية أمسية أن يسمع الموسيقى تعزف في الزوارق (الجوندولا) . ولو وطئت قدماه زورقا من هذه الزوارق السحرية ولم يفه بأى توجيه للملاح ، لمضى به دون كلام كثير إلى بيت مومس شريكة له . وقد دهش مونتيني لكثرة بنات الهوى البندقيات ، وغلوهم في التحرر ، وما هر بالرجل المفروض المتحيز ، وكن يدفعن ضريبة للدولة ، لقاء سماحها لمن بأن يسكن حيث شئن ، ويلبسن ما يشتهن ، ولقاء دفاعها عنهن ضد الزبائن الذين يأكلون حقوقهن (١٠) .

واكتسبت « القناة الكبرى » وأفرعها مزيدا من الحسن عاما بعد عام بفضل ما قام على ضفافها من كنائس فخمة أو قصور جديدة مشرقة أو جسور رشيقة . ففى عام ١٦٣١ عهد مجلس الشيوخ إلى بالداسارى لونجينا ببناء كنيسة رائعة للعلماء « سانتاماريا ديللا سالوتى » وفاء بئذ لأنها ردت إلى أهل المدينة عافيتهم عقب طاعون كبير . وفى ١٥٨٨ - ٩٢ أقام انطونيو دا بوننى بدلا من الجسر الخشبي العتيق « جسر رياتو » الحديد الذى امتد عبر القناة الكبرى فى قوس واحد من الرخام طوله تسعون قدما ، وقامت المتاجر على جناحيه . وحوالى عام ١٦٠٠ بنى « جسر التهذات » (بونتى دى سوسپيرى) عاليا فوق قناة تجرى بين قصر الدوج وسجن القديس مرقس - « فقصر على طرف وسجن على الطرف الآخر - » (١١) . وأتم سكاموتزى كنيسة باللاديوو « سان جورجو » ومكتبة فيكيا التى بدأها سانسوفينو . وبنى سكاموتزى ولونجينا « البروكوراتى نوفى » (١٥٨٢ - ١٦٤٠) الملاصق لميدان القديس مرقس ليستخدم مكاتب جديدة لحكومة البندقية . وقامت الآن قصور شهيرة على ضفاف القناة الكبرى : بالي ، وكونتاربنى ديلى سكرينى ، وموتشينجو ، حيث عاش بايرون فى ١٨١٨ . والذين لم يروا من قصور البندقية سوى ظاهرها لا يستطيعون أبدا تصور ما فى باطنها من بدخ - يجعله الذوق الرفيع سائغا : تلك السقوف ذات الرسوم الحصية أو الزخارف الغائرة ، والجدران المزدانة بالصور أو قطع النسيج المرسوم ، والمقاعد المكسوة بالساتان ،

والكرامى والموائد والصناديق المنقوشة ، والدواليب المطعمة بالصدف والعاج ، والسلام العريضة الفخمة التى بنيت لتعيش القرون الطويلة . هنا نعمت أوجركية غيور ، قوامها عسدة ماثات من الأسر ، بكل ثراء أقطاب التجارة ، وبكل المعايير الفنية المرفهة التى أتاحت للأرستقراطيات العريقة .

ولا يبرز فى هذه الفترة بين مثالى البندقية غير مثال واحد هو أليساندرو فينوريا ، ولكن فن التصوير البندقى أنجب اثنين من مصورى المرتبة الثانية . فقد أورث بالما فيكيو (مات ١٥٢٨) فنه عبر الأجيال إلى حفيد لأخيه يدعى بالما جوفانى - أوياكوبو بالما الأصغر - الذى مات بعد موت جده بمائة عام تماما . والرأى فى فن جوفانى - إنه « منحط » لأن الرجل كان يرسم فى عجلة يشويها الإهمال ، ولكن بعض صوره ، كصورة « البابا اناكلييتوس » فى كنيسة الصلب ، تدنو من العظمة ، وفى هذه السطور التى خلفها مولنتى يفقر هذا الفنان الأصغر المهمل إلى الحياة .

« لم يكن لبالما جوفانى من هدف . . . سوى فنه ، الذى عجز أشد الأجزاء عن أن يصرفه عنه . ففى فنه التمس العزاء عن موت ولديه ، اللذين مات أحدهما فى نابلى ، وقضى الآخر فى حياة الفجور . وبينما كانت زوجته تحمل إلى قبرها عكف على الرسم هروبا من الألم » (١٢) .

أما برنارد وستروتزى فقد حصر بين ساقيه قمة الحذاء السحرى ، إذ ولد فى جنوه ، ومات فى البندقية (١٦٤٤) ، وخلف صورا لكل قاعة فن تقريبا بين البلدين . انفق بعض عمره راهبا كبوشيا ، ثم خلع رداء الرهبة ، ولكنه لم يستطع قط ان يخلع كنيته « الكبوشى » . وبعد أن بذل محاولات كثيرة ، وجد التسامح والتوفيق فى البندقية ، وفيها انتج أنتج أفضل أعماله . ويكفى أن نذكر مثلا منها « هو صورة أخ دومنيكى » (برجامو) : « البيريه » العالية تزين الجبين العريض ، والعينان عابستان

مركزتان ، والأنف والفم. ناطقان بقوة الشخصية ، واليد الرقيقة تنبئ بعراقة الأصل ؛ أن تتسيانو نفسه لم يكن في وسعه أن يبدع خيرا من هذا الفن . ولو ظهر هذان الوريثان للعمالقة من السلف في أي وطن آخر لحسبا من العمالقة .

ح - من بادوا إلى بولونيا

انحصر فخر بادوا بجملته الآن في جامعتها . ففيها درس هارفي في هذه الحقة ، وفيها علم جاليليو . وفي إمارة فيرارا لم يبد الفونسو الثاني (حكم ١٥٤٩ - ٩٧) تقاعسا أو فتورا في همة آل ايستي الذين حكموا الامارة منذ ١٢٠٨ . وصورته التي يحتفظ المتحف البريطاني بنسخة منها غفل من التوقيع يطل منها رأس قوى . ولحية آمرة ، وعينان تنبئان بعقل حازم مكتئب . كان في وسعه أن يكون قاسيا لا يرحم الذين يقاومونه ، رفيقا بغيرهم ، صبوراً على غضبات تاسو ، جريئاً في الزوال ، مشتتاً في فرض الضرائب . وقد واصل التقليد الذي جرت عليه أسرة ايستي في بسط رعايتها على الأدب والعلم والفن ، وجمع ثمارها كلها في ثقافة بلاطه وبهائه ومرحه . أما الشعب فكان عليه أن يقنع بالكفاف - وأن يستمتع بثمار كده في شخص وكلائه . وقد أخفق الفونسو في أن يعقب ولدا برغم جبروته كله ، وبرغم زواجه من ثلاث نساء على التعاقب ، وأصبحت فيرارا دويلة بابوية في ١٥٩٨ بمقتضى اتفاق كان قد أبرم في ١٥٣٦ ، بعد أن ذلت طويلا اقطاع بابوية - وهكذا انتهى تاريخها الثقافي .

أما بولونيا التي خضعت للحكم البابوي منذ ١٥٠٦ فقد اتبعت لها في هذا العصر ازدهار ثان تمثل في مدرسة للتصوير سادت ايطاليا مدى قرنين. ومدت نفوذها إلى أسبانيا وفرنسا وفلاندر وانجلترا . عاد لودوفيتشو كاراتشي ، وهو ابن جزار غنى ، إلى بولونيا بعد أن درس الفن في البندقية وفلورنسة وبارما ومانتوا . وكان تنتوريتو قد حذرته بأنه لم يوهب عبقرية التصوير ، ولكنه أحس أن الاجتهاد يمكن أن يقوم مقام العبقرية .

ثم أن العبقرية لا تعوزهم : وبعبث بحماسة الحمية في اثنين من أبناء عمومته هما أجوستينو وأنيبالي كاراتشى — وكان أحدهما صائغا والآخر خياطاً ، فرجلا إلى البندقية وبارما ليدرسا فن تيشان « (تتسيانو) وكوريدجو : فلما عاينا انضمما إلى لودوفيتشو وفتح الثلاثة أكاديمية « للبادئين على الطريق (١٥٨٩) . وقد وفروا فيها تعليم أصول الفن وتاريخه وطرائقه ، والدرس المدقق لأئمة الفن ، ورفضوا التشديد على « اللزمات » أو الاغرابات التي التزمها أى من الفنانين ، بل آثروا الجمع بين نعومة رفايل الأنثوية ، وبلاغة كوريدجو الرقيقة ، وفحولة ميكلانجلو ، وتنوع ليوناردو الضوئي ، وتلوين تيشان الدافئ — كلها في مذهب شامل واحد . هذه « المدرسة الانتقائية » أثاحت لبولونيا أن تنافس روما ، عاصمة فنية لاطاليا .

والصور التي خلفها المصورون كاراتشى لا تخصى ، وكثير منها محفوظ في أكاديمية بولونيا للفنون الجميلة ، وبعضها في اللوفر ، ولكننا نجد لها في أماكن أخرى كثيرة . ونتاج لودوفيتشو أقلها جاذبية ، ولكنه يبلغ غايته في صورة « البشارة » المشرقة ، وصورة « استشهد القديسة أورسولا » ، وكتلتاهما في « قاعة صور الأكاديمية » . أما أجوستينو ففنه يتجلى في لوحة « عشاء القديس جيروم » القوية — التي لم تمنعه من الاستجابة للطلب الكثير على نسخ من الصور الفاجرة . وأما أنيبالي فكان ألمع أفراد الأسرة موهبة ، وقد نقل عن كوريدجو رهافة في الخطوط والألوان ندر أن طاولها ابناعمه . تأمل الأناقة الشهوانية في لوحته « الباخوسية » المحفوظة بقاعة الأوفيزي ، وصورة الأنثى الكاملة في « الحورية والساير » المحفوظة بقصر بيتي ، وصورة الذكر الكامل في « عبقرية الشهرة » المحفوظة بمرسدن ؛ وقد أبدع في لوحته « المسيح والمرأة السامرية » (فينا) آية من آيات الفن في هذه الحقبة — صورا جديدة بريشة رفايل ، ومنظرا طبيعيا سبق به بوسان .

وفي عام ١٦٠٠ قبل أنيبالي وأجوستينو دعوة الكردينال فارنيزي لهما ليذهبا إلى روما ويرسما صالة قصره فيها . فاختارا موضوعا مناسباً ورسما « انتصار باخوس » ، وهى مهرجان روبرتزي من المفاتن الأنثوية .

ومن روما انطلق أجوستينو إلى بارما حيث رسم لوحة جصية هائلة للكازينو ، ومضى أنيبالي إلى نابلي حيث يرى في متحفها القوي إلى اليوم. ذلك المزج الذي اختص به بين لوحة « العائلة المقدسة » ولوحة « فينوس ومارس » . وقد ودع أبناء العم الثلاثة الحياة متفرقين ، وهم الذين طالما جمع الفن بينهم . فمات أجوستينو في بارما (١٦٠٢) ، وأنيبالي في روما (١٦٠٩) ، ولودفيتشو في بولونيا التي ظل فيها لها - فكان أول الوافدين عليها وآخر الراحلين عنها (١٦١٩) .

لقد دربت المدرسة الجديدة نفرا من أشهر رسامى ذلك العهد . وكان لأحدهما - وهو جيدو رينى - من الأتباع أكثر مما كان لأى مصور في أوروبا . فبعد تفتح مواهبه المبكر بفضل عناية المصورين كاراتشى ، استسلم لإغراء روما (١٦٠٢) ، واشتغل فيها عشرين عاما - ثم عاد إلى بولونيا ليرسم صورا فيها من حس التقوى ، وجمال العاطفة ، ما جعلها همزة وصل مرحبا بها بين سنية الايمان وهرطقات الجسد . أما جيدو نفسه فيبدو أنه كان مخلصا في تدينه ، واثرا عنه احتفاظه بعذريته كاملة إلى النهاية . وصورته الذاتية المحفوظة بمتحف الكايتولينى تظهره في شبابه ، فتى وسيما كالصبايا ، أشقر الشعر أبيض البشرة أزرق العينين . وأروع صوره صورة « الفجر » الجصية المرسومة على سقف قصر روسبليوزى بروما . وفيها ترى ربة الفجر تخلق في الجو ومن خلفها جياذ رشاق تجر فيبوس الأشعث في مركبته ، تصحبه راقصات ملاح الوجوه حسان الأجساد ، يمثلن ساعات اليوم ، وكارويم مجنح كأنه خاتم المسيحية على هذه النشوة الوثنية . ورسم جيدو أساطير أخرى - مثل « اغتصاب هيلانة » في اللوفر ، و « قفاحات الهسبريد » في نابلي ، ولوحة « فينوس وكيوبد » الشهوانية في درسدن . وعن العهد القديم أخذ لوحته المشهورة « سوسنه والشيوخ » (الأوفتري) . ولكنه في أكثر رسومه قنع بإعادة تصوير الموضوعات القديمة القريبة إلى قلوب الناس المحبة إلى الكنيسة ، كقصص المسيح وأمه -

وكلها ينضج بما ندد به قساة النقاد من اسراف « مجدى » (٥) فى العاطفة ، على أنه أجاد فى تصوير الرسل ، كما تشهد بذلك لوحة « القديس متى » المحفوظة بالفاتيكان ، وقد رسم رأسا رائعا للقديس يوسف (بريرا) ، وفى لوحة « استشهاد القديس بطرس » بالفاتيكان جرب واقعية كارافادجو الصارمة . وحين عاد إلى العاطفة رسم لقاءات الفن لوحدة « القديس سباستيان » المشهورة ، وفيها يبدو القديس وهو يتلقى السهام فى جسده الكامل هادئا رابط الجأش . وفى كل آثاره نلمح براعة الأسلوب المدرب خير تدريب ، ولكننا حين نقارن هذه اللوحات المقدسة ، المفرطة الحلاوة ، بلوحة رفائيل « ستانترى » أو بسقف كنيسة السستين الذى رسمه ميكلانجلو ، لا نحركنا فى فن رينى غنى اللون ولا نعومة الخط ، بل « الافتقار إلى الجرأة » . كان يحلم حلما يغتفر له حين كتب يقول : « أحب أن اخلع على الوجه الذى أرسمه جمالا كالجمال الكامن فى الفردوس (١٣) » ، ولكنه فضح نفسه حين فاخر بأن لديه « مائتى طريقة لجعل العيون تطلع إلى السماء (١٤) » .

اتبع دومنيكينو (دومنيكو تزامبيرى) سياسة جيدو فى ارضاء الوثنيين والمتدينين جميعا ، ولما كان هذان فى كثير من الأحيان واحدا فان الخطبة أثمرت . كان معقدا أكثر من جيدو ، فيه تواضع وحياء ، يحب الموسيقى ويعشق زوجته . وقد تعلم هو أيضا التصوير فى بولونيا ثم انطلق إلى روما سعيا إلى الفن والمال . وأثار نجاحه هناك حسد منافسيه فيها ، فاتهموه بانتحال صور غيره ، فقفل إلى بولونيا راجعا ، ولكن جرينجورى الخامس عشر استدعاه ليسكون كبير معماري الفاتيكان ومصوريه . فصمم فيللا لودوفيزى بروما ، وهى اليوم أثر بعد عين ، كما صمم جزءا من فيللا الدوبراندنى بفراسكاتى ، مستعينا فى فنه بشيء من تعدد البراعات الذى

(*) لاحظ أن هذه الكلمة maudlin تحريف لكلمة magdalen - التى

ما زالت تطلق « مودلن » فى اسمى كلية مودلن باسفورد ، وكلية مودلن بكبريدج . أما مريم المجدلية ذاتها فلم ينفها ريشة جيدو الحسية من انطردة الخلصة .

أثر عن رجال النهضة . ولما انتقل إلى نابلي بدأ سلسلة من الصور الجصية في كاتدرائيتها . وكاد يتم مهمته برغم ما لقي من مشاق ضاعف منها مصورو نابلي ، ولكنه مات (١٦٤١) في الستين من عمره وهو لا يزال في عنفوان فنه . وأعظم لوحاته « عشاء القديس جيروم الأخير » المحفوظة بالفاتيكان . واستنادا إلى هذه الرائعة لم يفضل بوسان عليه من المصورين سوى رفائيل (١٥) ، ونحن نحترم هذا التحمس أكثر مما نحترم الحكم . أما رسكن ففي رأيه أن دومينيكنو « عاجز بصورة واضحة عن الإتيان بشيء حسن ، أو عظيم ، أو صواب ، في أى ميدان ، أو سبيل ، أو فرع ، كائن ما كان (١٦) » ، ونحن لا نعجب بالحكم ولا ببلاغة العبارة هنا :

أما آخر تلاميذ آل كاراتشى الثلاثة المشهورين فقد شتهر بكنية مؤسفة هى جويرتشنو — « الأحول » — ما أصاب عينه من تشويه أثر حادث وقع له في طفولته ، ولكن أمه سمته جوفا في فرانسكرى باربيرى . مارس التصوير فعلا ، متأثراً بأسلوب كارافادجو القوي ، قبل أن يأتي ليدرس على يد آل كراتشى ، لذلك توسط في فنه بين بولونيا وروما . وظل أعزب مثل جيدو ، وعاش عيشة التقشف ، وأظهر خير فضائل حركة الإصلاح الكاثوليكي في حياته الهادئة الكريمة . وقد خلف لنا الكثير من الصور اللطيفة ، منتشرة من روما إلى شيكاغو ، وكان أضعف مصورى المدرسة البولونية وأجهم إلى الناس .

إن النظرية الأساسية التى قامت عليها المدرسة الانتقائية — وهى أن فى الاستطاعة تكوين الفنان العظيم بمحاولة الجمع بين مختلف المزايا التى تفرد بها سابقوه — هذه النظرية كانت خطأ بغير شك ، ذلك لأن شيمة العبقرية كثيرا ما تكون التعبير عن شخصية وشق مسالك جديدة ، بيد أن « أكاديمية البادئين على الطريق » أفادت فى بث تقليد ونظام ربما اشتطت العبقرية لولاها وأغربت .

والنجاح الذى أصابته المدرسة يعزى جزئيا إلى تعاونها الحاضر مع

حاجات الكنيسة ، فقد احتاجت البابوية بعد اصلاحها ، كما احتاج
اليسوعيون بعد اتساع منظمهم ، إلى ألوان جديدة من التعبير عن قصة
المسيح . ومن التحريض الحى على التقوى والإيمان . وقد مس المصورون
اليواريون كل وتر عاطفى فى العابدين ، وانتشرت الصور التى رسموها
للغلاء واجدلية فى العالم المسيحى الكاثوليكي قاصيه وذانيه . ومنذ الذى
يشكر أن الناس أقروا بالفضل لهذه الإلهامات ، أو أن الكنيسة حين وفرتها
اثبتت أنها أعظم السيكلوجيين فى التاريخ فهما لطائف البشر ؟

كانت الآثار البابوية قد استوعبت منذ زمن فورلى ورافنا وريمى
وأنكونا ، ثم ضمت إليها أوربينو عام ١٦٢٦ ، وبيزارو عام ١٦٣١ .
وإذا اتجهنا جنوبا ، مارين بقودجا وبارى وبرنديزى حتى سب « الحذاء
السحري » - ومارين بتارانتو وكروتونى وريدجو كالابريا حتى إيهامه ،
وعرضا من سيلا إلى كاريديس مخترقين صقلية ، وشالا على طول
الساحل الغربى إلى كابوا - وجدنا مملكة نابلى ، التى أصبحت ولاية
أسبانية منذ ١٥٠٤ . هنا كان ثلاثة ملايين من السكان المشوبى العاطفة ،
يكدحون فى ذل الفقر بين أرجاء هذه المملكة المنبسطة فى غير نظام ليدبروا
المال الذى تطلبه بهاء عاصمتها المتألقة . وقد رأى ايفلين نابلى عام ١٦٤٥
وقال فى وصفها : -

« إن كبار الحكام يفتنون فى الاثراء من كد الشعب النعس لما فيهم
من شره شديد للمال . وعمارة المدينة إذا قيست بحجمها أفخم من أى
نظير لها فى أوربا : فالشوارع واسعة جدا ، جيدة الرصف ، كثيرة الأنفاق
لصرف الأقدار ، ومن ثم أصبحت غاية فى الجمال والنظافة . . وتملك
المدينة أكثر من ٣٠,٠٠٠ كنيسة ودير ، وهى خير ما فى إيطاليا بناء
وزخرفا . والقوم شديدو النظاير بالوقار الأسبانى فى لباسهم ، وهم يهون
الحياة الفارهة ، والشوارع حافلة بالوجهاء المتأنقين يمتطون الخيل أو

يركبون المركبات أو الخففات . أما النساء ففلاح الوجوه عموما ، ولكن
فيهن شبق شديد (١٧) » .

كان الكل يسدون مرجين ، تفيض لقوسهم بالموسيقى والشعر
والتقوى ، ولكن تحت هذا السطح المرح ، وتحت بمصر محكمة التفتيش ،
كانت النفوس تجيش بالهرطقة والثورة . ففي هذا العهد عاش الفيلسوف
تيليزيومات (١٥٨٨) ، وفي نولا ، القرية من نابلي ، ولد برونو
(١٥٤٨) . وفي عام ١٥٩٨ اشترك كامبانيلا في حركة تمرد استهدفت
جعل كالابريا جمهورية مستقلة ، ولكن المؤامرة فشلت ، وقضى الشاعر
الفيلسوف بعدها سبعة وعشرين عاما في غياهب السجن .

وفي عام ١٦٤٧ انتاب نابلي ضرب من الهوس من جراء انتفاضة من
هذه الانتفاضات المسرحية التي عطلت بين الحين والحين الاستغلال الزراعي
في إيطاليا . ذلك أن تومازو أنييللو ، المشهور بمازانيللو ، كان بائع سمك
متجولا حكم على زوجته بغرامة كبيرة لتهريبها القمح . فلما فرض
الحاكم الأسباني ضريبة على الفاكهة ليمول البحرية ، وأبى زراع الفاكهة
وباعها أداء الضريبة ، دعا تومازو الناس إلى العصيان المسلح . ف تبعه مائة
ألف إيطالي حين زحف على قصر الحاكم مطالبا بسحب الضريبة . وروع
الحاكم فأذعن للطلب ، وأصبح تومازو - الذي كان يومها في الرابعة
والعشرين - سيداً على نابلي ، وحكمها عشرة أيام ، أعدم خلالها ألفا
وخمسمائة من الخصوم في حمى الدكتاتورية ، وسعر الخبز بثمان أقل ، وكان
عقاب خباز رفض الامتثال للتسعيرة ان شوى حيا في فرنه (١٨) - ولكن
أعداء تومازو هم الذين كتبوا التاريخ ، وذكروا أن تومازو ، الذي ارتدى
ثوبا من الذهب ، أحال بيته المتراضع إلى قصر يرفل في مظاهر السلطان ،
وطاف حول الخليج في زورق فاخر . ولكن فناكا استأجرتهم أسبانيا
اغتالوه في ١٧ يوليو . وأخذ أتباعه الجثة التي قطعت أوصالها فجمعوها
الأشلاء وشيعوها في مشهد جليل . وماتت الحركة بعد أن فقدت قائدها .

استطاع ضرب من الفن الدينى القائم أن يحتفظ بالحياة برعاية المطارة والحكام . ففي عام ١٦٠٨ انفتحت الكنيسة مليونا من الفلورينات لتشييد فى كاتدرائية سان جينارو كنيسة صغيرة تسمى « كاييلا ديل تيرورو » لتكون ضريحاً لأنائب يحتويان الدم المتخثر الذى تخلف عن القديس يانوارىوس حامي نابلى . وقيل للشعب انه لا بد أن يسيل الدم ويهجرى مرتين فى العام لكى تزدهر نابلى وتأمين غائلة فيزوف .

أما التصوير فى نابلى فقد ظل يهيمن عليه حيناً ثلاثى من الفنانين الغيورين - كورينزيو ، وكاراتشولو ، وريبيرا - الذين عقلوا العزم على أن يكون كل التصوير فى نابلى وقفاً عليهم أو على أصحابهم . وقد بلغ من تهديداتهم لانيبالي كاراتشى أنه أكره على الفرار إلى روما ، حيث ادركه الموت بعد قليل من جراء رحلته المحمومة التى اضطرت إليها تحت شمس حامية (١٩) : وحين حضر جيسدو رينى لزخرفة « كنيسة الكنز » تلقى انذاراً بأن يرحل عن نابلى أو يموت ، فرحل من فوره تقريباً وهو لم يكذبداً مهمته . وأركب اثنان من مساعديه بقيا بعد رحيله سفينة كبيرة لتشغيل العبيد وانقطع خبرهم بعدها . ثم حضر دومينيكنو ، وأتم اربع صور جصية فى الكنيسة على الرغم من أن الصور محيت غير مرة ، وأخيراً فر من تهديدات ريبيرا ، ثم عاد بعد أن تعهد الحاكم بحمايته ، ولكنه مات بعد قليل ، ربما مسموماً (٢٠) .

على أننا لا بد أن نشيد بذكر جوزى أو جوزيبي ريبيرا ، برغم كل جرائمه ، لأنه أعظم مصورى هذا العهد فى إيطاليا . وتدعيه أسبانيا لنفسها استناداً إلى أنه ولد فى زاتيفا قرب بلنسية (١٥٨٨) ، وقد درس حيناً على فرانشيسكو دى ريبالتا ، ولكنه قصد روما فى بواكير شبابه . هناك عاش فى فقر مدقع ، ينسخ الصور الحصية ولا يجمع غير الفتات ، حتى قبض الله له واحداً من هؤلاء الكرادلة عشاق الفن كان لا يزال يشعر بوحي النهضة ، فاستضافه فى قصره ويسير له الغذاء والفراش والألوان

والكساء . وراح جوزيبي ينسخ في جلد ومثابة لوحات رفائيل في القاتيكان ونصور آل كاراتشي في قصر فارنيزي . ثم فر « الأسباني الصغير » إلى بارما ومودينا ليدرس كوريدجو حين وجد أن الراحة اطفأت حماسه . وعاد إلى روما ، وتشاجر مع دومينيكنو ، ثم انتقل إلى نابلي . وفيها أوفى روما وقع تحت تأثير كارافادجو ، الذي زاده أسلوبه الوحشي رسوخا في المذهب الطبيعي القاتم ، ولعله أخذه من قبل عن ريبالتا . واستلطفه تاجر حضور غنى فعرض عليه أن يتزوج ابنته الحسناء . وظن جوزيبي المملق أن الرجل يسخر منه ؛ ولكن حين أعاد العرض قفز صاحبنا إلى حياة الزواج والثراء .

ورسم الآن لوحته المسماة « سلخ جسد القديس برتوليو » ، وفيها من احتمال الحقيقة الدامي ما جعلها — حين عرضت — تجتذب حشدا من المتفرجين استهواهم الدم أكثر من الفن . أما الحاكم الأسباني — وهو أوزونا الذي عرفناه متأمرا على البندقية — فقد أرسل في طلب اللوحة والمصور ، واقتن بها ، ثم عهد إلى ريبيرا بكل أعمال الزخرفة في القصر . وأقصى الأسباني النهم كل منافسيه ، حتى عهد إلى جوفاني لانفرانكو صديقه برسم الصور الخفية لكنيسة الكنز ، . وقام هو نفسه بتنفيذ صور المذبح التي مثل فيها ياثواريوس ، القديس الذي لا تؤذيه النار ، يخرج من أتون مشتعل دون أن يحس به طيبه .

بعد هذا أصبح ريبيرا إمام فنه غير منازع في نابلي . وبدأ أن في استطاعته إن شاء أن يضارع نعمة رفائيل وكوريدجو دون أن يقع في عاطفية جيروني أو موريللو ، وأن يرتفع بواقعية كارافادجو إلى مزيد من القوة بفضل حدة تصويره وعمق تلوينه . وحسبنا أن نستشهد بلوحتين فقط من لوحاته « بيتا » و « الرثاء » ، في كنيسة سان مارتينو وديرها — « عمل إذا نظر إليه على أنه تجسيد لخلال الحزن الرهيب لهبطت كل التعبيرات المعمالة له في ذلك القرن إلى درك المشاهد المسرحية (٢١) » ، وأخذ من الأساطير لوحته « أرخيدس » . في متحف البرادو — فهو بالضبط ذلك

الصقلي العجوز المتغضن الذى قد يلتقى المرء بأشباهه اليوم فى سيراقيوز .
وحين انتقل ريبيرا من الكتاب المقدس والتاريخ إلى الشارع ، وجد التنويع
لقنه فى لقطات واقعية من صميم الحياة العامة ، فكان فى لوحة « الصبي
الخافى » المثال الذى احتذاه فلاسكويز وموريللو * .

وعيوب ريبيرا تقفز إلى العين - غلو فى العنف ، وولع بالتجاعيد
والضلوع ، وظمأ للدم . وقد لاحظ بايرون أن « هذا الأسبانى الصغير
لوث ريشته بكل دماء القديسين (٢٢) » . ان ألوانه الكايبية وتشديده على
الجانب القاتم من الحياة يروع ويغم ، ولكن هذا الأسلوب المظلم وجد
قبلا حاضراً فى بلد كنبلى كابد حكم الأسبان وتقلبات مزاجهم . وتنافست
عليه كل كنيسة أو دير جديد ، وكان فيليب الرابع وحكام نابلى بعض
زبائنه الشرهين . وانتشرت رسوم ريبيرا ومحفوراته فى أسبانيا انتشاراً
أوسع من أعمال فيلاسكويز - الذى زاره مرتين فى إيطاليا . أما بيته
فكان من أفخم بيوت نابلى ، وأما ابنتاه فايتان فى الفتنة السمراء ، وقد
شرفت إحداهما باغواء « دون خوان » آخر لها - هو الابن غير الشرعى
لفيليب الرابع ، الذى هرب بها إلى صقلية ، ولكنه سرعان ما ملها
وهجرها ، فاعتكفت فى دير للراهبات ببالرمو . أما ريبيرا فأشرف على
التلف كمداء وعارا ، والتمس العزاء فى صور للعذراء يتخلع عليها الملامح
التي لم ينسها ، ملامح ابنته ماريان روزا التي فقدتها ، ولكنه مات بعد مأساتها
بأربع سنوات (١٦٥٢) .

٢ - روما والبابوات

أصبحت عاصمة الدويلات البابوية (**) وقصبة العالم الكاثوليكي الرومانى

(*) يجد رواد المتاحف من صور ريبيرا ثلاثاً وستين فى البرادو ، وملء نصف قاعة
فى رواق الصالون كاريه بالوفى : وتحفظ نيوبورك بصورة « العائلة المقدسة » فى متحف
التروبوليتان للفنون ، وبصورة للمجدلية فى الجمعية الأسبانية .
(**) أهمها هذه المدن وما يحيط بها : روما ، وأوستيا ، وفينزو ، وتيرنى ،
وسبوليتو ، وفولينو ، وأسييسى ، وبروجيه ، وجويو ، وأورينو ، ولوريتى ، وأنتوكوفا ،
وبزارو ، وريميني ، وفورلى ، ورافينا ، وبولونيا ، وفيرارا .

مدينة من مدن المرتبة الثانية ، فيها من الأنفس ٤٥,٠٠٠ عام ١٥٥٨ ، زادوا إلى ١٠٠,٠٠٠ في عهد سيكستوس الخامس (١٥٩٠) . وحين وفد عليها مونتيني عام ١٥٨٠ خيل إليه أنها أكثر من باريس اتساعا ، ولكن بيوتها لا تعدو ثلث بيوت باريس ؛ وبين السكان عدد غير قليل من المجرمين والبغايا (قبل سيكستوس الخامس) ، وكان كثير من النبلاء يحتفظون بنفر دائم من الفتاك . أما الفقر فانتشر ولكنه حين تكسر من حدته احسانات البابا ، والاحتفالات الكنسية ، والأحلام الدينية . وأما عشائر النبلاء العريقة — كأورسيني ، وكولونا ، وسافلي ، وجيتاني ، وكيجي — فقد تناقص دخلها وسلطانها وإن لم تفتر دعاواها وكبرياؤها ، وكانت الأسر الأحدث عهدا — كالدوبرانديني ، وباربريني ، وبورجيزي ، وفارنيزي ، وروسبليوزي — تتصدر غيرها ثراء ونفوذ ، بفضل اتصالاتها بالبابوات عادة . وظفر أقرباء البابا بعهد جديد من المحابة . فجنى آل الدوبرانديني المنافع من انتخاب كلمنت الثامن ، وآل لودوفيزي من انتخاب جريجوري الخامس عشر ، وآل باربريني من انتخاب أوربان الثامن ، وآل بورجيزي من انتخاب بولس الخامس . ووضع الكردينال سكيوني بورجيزي ابن أخى بولس خطة لبناء فيلا بورجيزي ، وبني الكازينو (١٦١٥) ، إذ كان يتمتع بأكثر من دخل كنسى وبراتب قدره ١٥٠,٠٠٠ سكودي في العام ، ثم انشأ للكازينو مجموعته الفنية الغنية ، ونال قسطا لا بأس به من الخلود في الرخام على يد محسوبة برنيني . وقد استخدم كثير من الكرادلة ماله في تشجيع الآداب والفنون .

وأعان كنيسة روما على البقاء سلسلة من البابوات الأقوياء الشكيمة برغم فقدائها ألمانيا والأراضي المنخفضة واسكندناوة وبريطانيا — وكلها سلحتها منها حركة الإصلاح البروتستنتي . وكان مجمع ترنت قد أكد سيادة البابوية على المجامع وزاد منها ، كذلك كانت جمعية يسوع (اليسوعيون) الفنية القوية تدين بالولاء للبابوية وتخلص لها الحب . وفي عام ١٥٦٦ ارتقى أنطونيو جيسلييري — الأخ الدومنيكي والرئيس الأعلى لمحكمة التفتيش —

عرش البابوية باسم بيوس الخامس وهو فى الثانية والستين . . . وخيل إليه أن قداسة حياته الشخصية تنسجم تمام الانسجام مع الصرامة التى تعقب بها البدع الدينية . فسحب من كاثوليك بوهيميا الحق الذى منحوه من قبل ، حق تناول الأسرار بالخمير كما يتناولونها بالخبز . وحرم الزباث ملكة إنجلترا وأحل الكاثوليك الانجليز من الولاء لها . وحض شارل التاسع ملك فرنسا وكاترين مديتشى على مواصلة الحرب على الهيجونوت حتى يبادوا بغير رحمة (٢٣) . وامتدح الأساليب الفظة التى اتبعها ألبا فى الأراضى المنخفضة (٢٤) . وجاهد بقواه المحتضرة لتجهيز الأرمادا الذى هزم الترك فى ليبانتو . وما خفف فى حياته حكما كنسيا (٢٥) ، بل شجع محكمة التفتيش على تنفيذ قواعدها وعقوباتها بالقوة .

على أنه عنف مثل هذا العنف فى فرض الاصلاح الكنسى . فالأساقفة الذين يغفلون الإقامة فى اسقفياتهم يشلحون ، وعلى الرهبان والراهبات أن يعتزلوا الناس اعتزالا تاما ، وكل اخلال بالوظائف الكنسية يجب أن يكشف أمره ويعاقب . وحين شكوا بعض من طردوا من رجال الحاشية الزائدين عن الحاجة من أنهم سيموتون جوعا ، أجاب بيوس بأنه خير للإنسان أن يموت جوعا من أن يحسر نفسه (٢٦) . وكانت الكفاية ، لا المحسوية ولا محابة الأقرباء ، رائده فى التعيينات والترشيحات . أما هو فكان دعوبا على العمل ، يجلس الساعات الطوال يقضى فى الدعاوى ، لا يكاد يصيب من النوم أكثر من خمس ساعات فى اليوم ، ويضرب المثل لرجال الاكليروس بما أخذ به حياته الخاصة من بساطة وتقشف . فهو كثير الأصوام ، لا يزال يلبس قميص الرهبان الصوفى الخشن تحت عباءته البابوية . ولقد أفنى نفسه بهذا النسك الصارم ، فكان فى الثامنة والستين يبدو أكبر من عمره بعشر سنين - شيخا نحيل الجسد ، أعجف الوجه ، غائر العينين ، قد اشتعل رأسه شيئا . وأصر وهو لا يكاد يقوى على المشى على أن يحجج إلى باسليقات روما السبع ، راجلا أكثر الرحلة . ولم تمض

على ذلك الحج تسعة أيام حتى مات بعد شهر من العذاب ، مرتديا ثوب القديس دومنيك . كتب مؤرخ بروتستنتي كبير يقول « قليل من البابوات من تدين لهم الكاثوليكية بفضل أكثر من دينها أيبوس الخامس ، حقا لقد قسا في اضطهاد البدع ، ولكن ادراكه لضرورة الاصلاح ، وعزمه الوطيد على تنفيذه ، ردا إلى الكنيسة كثيرا من الاحترام الذي فقدته (٢٧) . وقد أدخلت الكنيسة بيوس في عداد القديسين عام ١٧١٢ .

وواصل جريجورى الثالث عشر (١٥٧٢ - ٨٥) اصلاح الكنيسة بروح أكثر اعتدالا . ونحن نذكر فيه الرجل الذي أعطانا تقويمنا واحتفل بمذبحه القديس برتولوميو بقداس شكر لإله رحيم . على أنه كان رجلا فاضلا ، عيوفا ، رقيق الخلق . وكان له ولد غير شرعى قبل أن يدخل في زمرة الكهنوت ، ولكن أمثال هذه الزلة كان يغتفرها أهل روما الشهوانيون . كان سخيا في العطاء ، دمويا في الادارة . وقد أنى البروتستنت على اختياره لمن يلون مناصب الكنيسة (٢٨) . ورأى فيه موتيتي . عام ١٥٨٠ « شيخا وسيما ، ذا وجه يطفح هبة ، ولحية بيضاء طويلة ، صحيح البدن موفور العافية مع أنه ينيف على الثامنة والسبعين . . . دمث الطبع قليل الارتباك بشئون الدنيا (٢٩) » .

يبد أن مشاريعه الخزيئة - كتمويل المدارس اليسوعية ، وقمع الهيجونوت ، وخلع اليزابث - كانت تحتاج إلى المال . ولكي يجمعه أمر بتطبيق القانون بمخافه على ملاك الضياع الكائنة في الأملاك البابوية . وعلى عقود التملك . وهكذا صادر البابا كثيرا من الأملاك التي كان مآلها إلى البابوية لانقطاع خط الوراثة المباشر ، أو لعدم أداء الضرائب المفروضة على الاقطاعات البابوية . على أن ضحايا هذا الأمر البابوي ، الجالين منهم أو المنتظرين ، سلحوا أتباعهم ، وقاوموا نزع ملكياتهم ، واتخذوا قطع الطريق سبيلا للانتقام . فتزعم رجال من أسر نبيلة ، كألفونسو بيكولوميني وروبرتو مالاتستا ، عصابات من طريدى العدالة واستولوا على

المدن وسيطروا على الطرق . فاستحال بعد ذلك جمع الضرائب ، وسد الطريق على الذهب المتدفق على روما ، وما لبثت الفوضى أن عمت الادارة البابوية . هنا أوقف جريجورى مصادراته ، واصطلح مع بيكولوميني ، ثم مات في ذل الهزيمة وهوانها .

يقولون ان الضرورات صانع الرجال ، وقد صنعت هذه الضرورة من فليتنشي بيريتي (سيكستوس الخامس ١٥٨٥ - ٩٠) رجلا من أعظم البابوات وأجلهم قدرا . رأت عيناه النور أول مرة في جروتامارى ، قرب أنكونا ، في كوخ كان سقفه مهلهلا حتى لقد نفذت منه أشعة الشمس ، قال وهو كبير على سبيل المزاح انه « ولد في بيت منير (٣٠) » . تعلم في د. فرانسيسكاني بمونتالتو ، وحصل على دكتوراة اللاهوت بدراسته في بولونيا وفرارا ، ثم ارتقى سريعا بفضل بلاغته واعطا وكفايته إداريا . فلما اختير لكرسي البابوية وهو في الرابعة والستين ، كان الدافع لهذا الاختيار أن مجمع الكرادلة تبين فيه الشخصية الصلبة التي تتطلبها سلامة الدويلات البابوية وكفايتها المالية .

يبد أن أقاربه تراحوا من حوله يمدون إليه أكفهم فلم يقو على ردهم ، وهكذا عادت محابة الأقرباء ترفع عقيرتها ، ولكنه في غير ما يتصل بأسرته كان رجلا صلبا لا تلين له قناة . كان في مظهره ذاته ما يستوقف النظر : رجل قصير القامة ، عريض المنكبين ، متين البنية ، واسع الجبين ، أبيض اللحية كثها ، كبير الأنف والأذنين ، ضخم الحاجبين ، له عينان نفاذتان قادرتان على إسكات المعارضة دون كلمة . وكان وجهه المتورد ينسجم مع عنف طبعه ، ورأسه الكبير يوحي بارادة لا تثني . على أنه مع كل صرامته كان يملك معينا من روح الفكاهة ومن النكتة الذكية النفاذة أحيانا كثيرة . وقد تنبأ بأن هنري الرابع سيهرم ماين ، لأن هنري ينفق في الفراش وقتا أقل مما ينفقه ماين على موائد الطعام (٣١) . أما هو نفسه فكان قليل النوم شديد العكوف على العمل .

عقد العزم أولاً على الضرب على أيدي قطاع الطرق المنتصرين . فبدأ بتنفيذ حظر مفروض على حمل الأسلحة الفتاكة ولكنه كان مهملاً إلى حد كبير . وفي اليوم السابق لتتويجه قبض على أربعة شبان لانتهاكهم هذا الحظر ، وأمر سيكستوس بشنقهم فوراً . واتمس أقرباؤهم العفو عنهم أو تأجيل التنفيذ ، فأجاب « ما دمت على قيد الحياة فلا بد أن يموت كل مجرم أثيم » ؛ وما لبثت أن تدلت أجسادهم من مشنقة نصبت على مقربة من جسر سانتانجيلو ، وسط احتفالات التتويج ، فكان هذا بمثابة الخطاب الافتتاحي لسيكستوس والبيان لسياسته في أمر الجريمة .

وأمر البابا النبلاء بطرد فتاكهم ، ووعد كل قاطع طريق يسلم إليه آخر حياً أو ميتاً بالعفو عنه ومكافأته ، أما المكافأة فتدفعها أسرة اللص الأسير أو موطنه . فإذا أذاع لص منهم تحديه للأمر ، أمر سيكستوس أسرته بأن يعثروا عليه ويأتوا به أو يلقوا الموت جزاء لهم . وقد أَرْضَى دوق أوربينو البابا (٢٢) . بأن حمل بغالا طعاماً مسموماً وأمر سائقها بالمرور بمخبأ قاطع طريق منهم ، وسرق اللصوص الحمل وأكلوا الطعام وماتوا . ولم يكن هناك أى اعتبار للمراتب الكهنوتية أو الاجتماعية ، فالمذنبون من « الأسر الأولى » يعدمون دون رحمة أو تأجيل ، وكان بين المشنوقين قسيس خارج على القانون . وما لبث الريف أن انتشرت فوق أرجائه ألحش تتأرجع في الريح ، وقال ظرفاء روما إن عسدر العروس المقطوعة المعلقة على جسر سانتانجيلو يفوق عدد ثمار الشام المعروضة في أكشاك السوق (٢٣) . ولغظ الناس بقسوة البابا الهمجي ، ولكن السفراء أخبروه أنهم « أينما ساروا في دويلاته كانوا يجتازون بلداً رفرف عليه السلام والأمن (٢٤) » وأمر الجبر الفخور بضرب عملة كتب عليها *Noli me tangere* « حذار أن تمسني » . وفي غضبة مضرية للفضيلة أمر بحرق قسيس وغلّام جزاء ارتكابهما اللواط ، وأكره شابة على أن تشهد شق أمها التي باعها للبغاء . أما كل جرائم الزنى التي يكشف أمرها فيجزاؤها الموت الزؤام . وكان يقبض على الناس لجرائم

ترتد إلى تاريخ بعيد، حتى أن اعلانا جداولياً نقل عن القديس بطرس ارتعاده فرقاً ، مخافة أن يوجه سكستوس إليه النهمة لقطعه أذن مالحوس عند إلقاء القبض على المسيح .

على أنه في غمرة هذه المطاردة المخنونة وجد الوقت للحكم والاصلاح . فانهى حرب المصادرات التي خاضها جريجورى الثالث عشر مع الأشراف . ووفق بين عدوين هديمين هما آل أورسينى وآل كولونا إذ وحد بينهما بالزواج . ووزع الكرادلة على أحد عشر « جمهوراً » جديداً من العابدين وأربعة من القضاة ، وقسم بين هؤلاء وظائف الادارة البابوية . وأمر رجال الاكليروس باتباع جميع مراسيم الاصلاح الصادرة عن مجمع ترنت ، وطلب إلى الأساقفة نفقة الاديرة دورياً واصلاحها . وكانت عقوبة مضاجعة راهبة هي الموت للمذنبين جميعاً . وقد نفخ الحياة فى جامعة روما فنشطت بكامل قوتها . ورغبة فى تدبير المكان الكافى للعدد المتعاظم من الكتب كلف دومنيكو فونتانا بتصميم بيت جديد فخيم يضم مكتبة الفاتيكان . وأشرف بنفسه على طبعة منقحة من ترجمة جيروم اللاتينية للكتاب المقدس — وهى تضارع فى روعتها الترجمة الانجليزية للكتاب فى عهد الملك جيمس الأول .

بيد أنه لم يشارك أسلافه من بابوات النهضة شعور الاحترام لخلفاء الفس الوثنى . فأتى هدم سبترونيوم سيفيروس ، ليوفر الأعمدة لكنيسة القديس بطرس . واقترح هدم مقبرة سسيلييا ميتيلا . وهدم الكايتول ذاته ان لم تنزع منه تماثيل جوبيتر تونانس ، وأبوللو ، ومنيرفا ، ثم أبقي على منيرفا ، ولكنه أطلق عليها اسماً جديداً هو روما ، واستبدل برمجها صليبا . وأخرج الشياطين من أعمدة تراجان وماركوس أوريليوس بأن وضع فوق قبتها تماثيل للقديس بطرس أو القديس بولس وأطلق اسميهما على الأعمدة . وامعاناً فى الرمز على خضوع الوثنية للمسيحية كلف دومنيكو فونتانا بأن ينقل إلى ميدان القديس بطرس المسلة التي جلبها كاليجولا من

من هليوبوليس وأقامها نيرون في ملعب مكسيموس . وكانت هذه الكتلة الواحدة من الجرانيت الوردى تعلو ثلاثة وثمانين قدماً ، وترن أكثر من مليون رطل روماني . وكان أساطين المعمار ، من أمثال أنطونيوس دا سانجالو وميكلانجلو ، لا قد أفتوا بأن لا طاقة للمهندسين النهضة بنقلها . واستغرق إنجاز هذه المهمة عاماً كاملاً من دومنيكو وأخيه جوفاني (١٥٨٥ - ٨٦) . وأزيلت الآلات الضخمة هذا الأثر ونقلته ، وقام ثمانمائة من الرجال تشد أزهرم الاسرار المقدسة ، و ١٤٠ حضناً ، بجر أربعة وأربعين حبلاً سمك الواحد منها كذراع الرجل ، ليقيموا المسلة فوق موقعها الجديد . وغدا دومنيكو بطل روما بعد نجاحه في المهمة ، أما سيكستوس فصرب المداليات التذكارية ، وأعلن النبأ رسمياً للحكومات الأجنبية . واستعفى عن الكرة التي في قمة المسلة بصليب يحوى قطعه من «الصليب المقدس» الذي مات عليه المسيح . وأحس سيكستوس أن المسيحية استعادت سلطانها بعد أن عطلته النهضة حيناً .

وجدد هذا البابا الذي لم يعرف الكلل عمارة روما غير الدينية خلال بابويته القصيرة التي لم تزد على خمس سنوات ، فجلب لها كمية جديدة من الماء الصالح — تغذى سبعا وعشرين عيناً جديدة — وذلك بإعادة بناء أكوا السندريا ، التي أطلق عليها اسمه «أكوا فيليني» . وطهر الهواء بتمويل تخفيف المستنقعات ، وأمكنه تحقيق تقدم طيب في هذا الميدان واستصلح من الأراضي ٩,٦٠٠ فدان ، ولكن المشروع هجر بعد موته . وتنفيلاً لأمره شق دومنيكو فونتانا شوارع فسيحة جديدة وفق النظام الكلاسيكي ، نظام الخطوط المستقيمة ، ومد طريق سيستينا وغير اسمه إلى طريق فيليني ، وأصبحت كنيسة سانتا ماريا مادجوري الرائعة مركزاً يتوسط عدة شوارع تنفرع منه ، وبدأت روما تتخذ شكلها الحديث . ولكي يحول سيكستوس مشاريعه وخزائنه التي كانت خالية الوفاض عند البدء بتنفيذها فرض الضرائب حتى على ضروريات الحياة ، وملك العملة ، وباع المناصب ، وأصدر

تأميناً بدخل سنوى يدفع مدى الحياة لقاء ما يقهه للخراتة البابوية من عطايا ،
وتهد أهلوا ماليته بكفالية وعناية ، وخلف خمسة ملايين كراون فى خزائنه
عند موته .

أما شغله الشاغل فكان السياسة الخارجيه . فهو لم يطلق الأمل قط من
إعادة إنجلتريه وألمانيا إلى حظيرة الكاثوليكية وتوحيد كلمة العالم المسيحي
ضد الإسلام . أعجبته كفاية الترابث فى السياسة والحكم ، ولكنه مد يد
المعونة للمؤامرات التى استهدفت خلعه . ووعد بالمساهمة فى نفقات الأرمادا
الأسبانية ، ولكنه ارتأب فى تباطؤ فيليب ، واشترط فى دهاء أنه تكون
معونته وهنا ينزل الجيوش للإسبانية فعلا على أرض إنجلتريه ، وكانت
فرنسا مشكلته الكبرى . فالهيجونوت الذين افترض أنهم أيبدوا عام ١٥٧٢
كانوا يزحزون على باريس بقيادة هنرى نافار الذى لا قفل له عزيمة . وكان
فيليب الثانى يمول الحلف ليقض فرنسا من برائن البروتستنتية ويحفظها
للكاثوليكية - ولأسبانيا . وكان على سيكستوس أن يختار بين أمرين :
فإذا أن يترك فرنسا تنحرف إلى البروتستنتية ، ولما أن يعين فيليب على
تحويل فرنسا إلى ولاية أسبانية . ولكن توازن القوى بين فرنسا وأسبانيا
يدا أمراً لا غنى عنه للبابوية إن أرادت التحرر من سلطان القوى الدنيوية .
وفى عام ١٥٨٩ وعد سيكستوس بالاشتراك فى حرب ضد هنرى ، ولكنه
انسحب من هذه الخطوة حين تعهد هنرى باعتناق الكاثوليكية . وهدد
فيليب بسلخ أسبانيا من واجب الطاعة للبابا ، وندد يسوعى أسبانى بالبابا
لأنه يحرض على الهرطقة ، ولكن سيكستوس لم يهتر ، فاستقبل سفير هنرى
بالترحيب ، وتبين آخر الأمر أنه على حق فى ثقته بهنرى ، فقد استنفذت
الكنيسة فرنسا ، واستمرت فرنسا ميزان قوة ضد أسبانيا .

وكان هنا آخر انتصاراته ، ولعل الجهد الذى بذله فيه أضناه . ولم
يحزن على موته (١٥٩٠) لا الكرادلة ولا الأشراف ولا الشعب ، أما
الكردالة فقد أفضلتهم صرامته ، وأما الأشراف فقد أكرهوا على طاعة

القانون برغم ما ألقوا من عادات تقدمت كثيراً بحكم القدم ، وأما الشعب الذى فرض عليه أقصى ما يمكن فرضه من ضرائب وأذبح ليلزم سلاماً لم يألفه ، فقد حاول تحطيم النثال الذى أقيم لسيكستوس فى الكايتول ، ولكن بعد أن فقدت الضربات التى كالحا لذعتها ، استطاع الخلف أن يوازنوا بين انجازاته وبين قسوته وكبريائه وولعه بالسلطة . وفى رأى « لبكى » المؤرخ العقلاى أنه « وإن لم يكن أعظم الرجال الذين ولوا عرش البابوية ، فهو إلى حد كبير أعظم رجل دولة بين البابوات (٢٥) » .

ومن خلفائه فى هذه الحقبة تفرد بالذكر رجلا . أما أولها وهو كلمنت الثامن (١٥٩٢ - ١٦٠٥) فكان أقرب ما يكون إلى روح المسيحية . يقول صلى الهيجونوتى « كان بين جميع البابوات الذين تربعوا منذ أمد طويل على كرسى روما أخلاهم من الهوى الحزبى ، موفور الحظ من تلك الوداعة وذلك الحنو اللذين أوصى بهما الإنجيل (٣٦) » بيد أنه رفض الرأفة على بياتريشى تششى (١٥٩٩) ، وأذن لمحكمة التفتيش بحرق جوردانو برونو (١٦٠٠) . وأما الثانى فهو أوربان الثامن (١٦٢٣ - ٤٤) ، الذى قدم المعونة أول الأمر لأسبانيا والنمسا فى حرب الثلاثين سنة ، ولكنه خشى أن تطوقاه حين حاولتا ابتلاع مانتوا ، فاتحه بمناوراته الدبلوماسية إلى التعاون مع ريشليو فى استخدام جيوش جوستاف أدولف البروتستنتية لإضعاف قوة الهابسبورج . وقد سرت إليه العسوى من روح العصر العسكرية ، فأخضع الشتون الدينية لمقتضيات التوسع شأن الملوك ، واستولى على أوربينو وفرض عليها الضرائب الثقيلة - كما فرضها على دويلاته الأخرى - ليمول جيشاً بابوياً يعده لمحاربة دوق بارما . ولكن الجيش كان عاجزاً لا خير فيه ، وخلف موته المملكة البابوية « فى حال من الانحلال والأغياء » كما يقول سفير بندى « بحيث يستحيل أن تقوم لها قائمة بعد اليوم (٣٧) » . على أن السفير كان مخطئاً فى حكمه ، فقد ظهرت عناصر الانتعاش فى كل مكان فى الكنيسة ، وشقت طريقها صعباً إلى البابوية . فالشعب الإيطالى البسيط ،

هذا الشعب الذى كان يتعزى عن شقائه الطويل بالتمسك بأهداب الدين وبالورغ الخصب الخيال ، ظل أفراده يقدسون مزاراتهم كما كانوا يفعلون من قبل ، ويمشون خاشعين فى المواكب الدينية ، ويتجاذبون حديث المعجزات الجديدة ، ويصعدون « للتسلم المقدس » على ركبهم فى وجد صوفى أليم . لقد كشف قديسون كفيليب نرى ، وفرنسيس سيلز ، وفانسان دبول ، عن قدرة الكنيسة العريقة على أن تلهم أتباعها أعمق مشاعر التتوى والولاء ؛ وهكذا نرى يسوعياً مثل الويسوس جونزاجا يموت غير متجاوز الثالثة والعشرين وهو يخدم ضحايا الطاعون فى روما (١٥٩١) . لقد تقهقر الفساد والحرص اللذان ابتليت بهما الإدارة البابوية أمام هجمات المصلحين البروتستنت ، وحض القديسين ، والقذوة الملهمة التى أتاحها للناس أحبار كالقديس شارل بوروميو الميلافى . فنمت ، ولو فى شىء من التعثر ، حركة الإصلاح الداقى من بابا إلى آخر . ونفخ من جسد في الطوائف الدينية القديمة واستكثر من الطوائف الجديدة - الأوراتوريون (١٥٦٤) ، ومنذورو القديس أمبروز (١٥٧٨) ، وصغار الكهنة النظاميون (١٥٨٨) ، والعاذريون (١٦٢٤) ، وأخوات البر (١٦٣٣) ، وكثير غير هؤلاء . وانشئت الكليات اللاهوتية فى أرجاء العالم المسيحى لإعداد طبقة متعلمة من أكليروس غير منتسب إلى رهبنة . وانطلق المبعوثون الكاثوليك إلى كل بد غير مسيحى ، يقابلون المكاره والأخطار ، ويعنون بالمرضى ، ويعلمون الصغار ، ويبشرون بالدين . أما اليسوعيون المدهشون ، الذين لا تفل لهم عزيمة ، فقد تحركوا فى كل مكان ، يصارعون البروتستنتية فى ألمانيا ، ويدبرون المؤامرات السياسية فى فرنسا ، ويموتون فى سبيل عقيدتهم فى إنجلترا ، ويحملون الإيمان إلى « الوثنيين » فى قارات الدنيا الخمس .

٣ - اليسوعيون

١ - في أوروبا

بعد أن مات ديجو لاپنيز (١٥٦٥) ، اختارت « جمعية يسوع » فرانشسكو بورجا قائداً لها ، وكان خلقه وسسيرته علامة على جيله .
غ هذا الرجل الذي ولد غنياً ، والذي كان حفيداً للبابا امكندر السادس ،
وارتقى دوقاً لجانديا ثم حاكماً لقتلونيا ، والذي صاحب الملوك - هذا الرجل
دخل الطائفة الجديدة عام ١٥٤٦ ، ووهبها كل ثروته الشخصية ، واكتسب
مرتبة التديسين بما اتصفت به حياته من قداسة صارمة . أما خليفته ايفيرارد
مركوريان فلم يترك أى أثر فى التاريخ ، ولكن كلوديو أكوافيكا قاد
الجمعية بكثير من الحكمة واللباقة خلال أربعة وثلاثين عاماً من المتاعب
(١٥٨١ - ١٦١٥) حتى ليعده كثير من اليسوعيين الآن أرفع مكانة من
جميع قادتهم بعد لويولا . وحين تقلد الزعامة كان عدد اليسوعيين زهاء
خمسة آلاف ، وحين مات كان عددهم ثلاثة عشر ألفاً .

وقد وضعت لجنة من فقهاء اليسوعيين تحت إدارته (١٥٨٤ - ٩٩)
خطة للتعليم ظلت إلى عام ١٨٣٦ تقرر نظام الدراسات فى الكليات اليسوعية
وطريقتها . فهذا النظام الدراسى الذى يتسلم الأولاد من سن الحادية عشرة
إلى الرابعة عشرة ويمتد ست سنوات ، كان يتيح لهم ثلاث سنوات من
دراسة اليونانية واللاتينية لغة وأدباً ، أما السنوات الباقية فتخصص للفلسفة
بأوسع معانيها ، فتشمل العلوم الطبيعية والمنطق والميتافيزيقا والأخلاق .
وتجمع الشواهد على أن هذه المواد كانت تدرس على نحو يدعو
للإعجاب . صحيح أن الفلسفة كانت وسيطة (سكولاستيه) ولكن لم يكن
عنها بديل مقبول بعد . أما الأحياء والتاريخ الدينى الحديث فقد أهملوا إلى
حد كبير كما كان الشأن فى جميع مدارس العصر تقريباً ، ربما لأن بساطة
الإيمان الواقة كانت تتأذى من بشاعة مشهد الصراع على البقاء بين الحيوان،

ومن موكب الحرب الذى لا يكاد ينقطع بين بنى الإنسان . لقد كانت خطوة الدراسة فى جعلها توفيقاً ماهراً بين العصور الوسطى والنهضة . ففى قدرة بالغة على التكيف ، رحب اليسوعيون بمولد الدراما من جديد ، فترجموا وألقوا ومثلوا المسرحيات ، واكتشفوا فى المسرحيات المدرسية وسيلة حية لتعليم الكلام والبلاغة ، وتقدموا عصرهم فى إدارة المسرح ومشاهدته . واستعانوا بالمناظرات شحذاً للذكاء وقوة الحجج ، ولكنهم ثبطوا أصالة الفكر فى المعلم والطالب على السواء . ولقد كان هدفهم فيما يبدو لإعداد صفوة متعلمة ولكنها محافظة ، قادرة على القيادة الذكية العملية ولكنها ينجوة من متاعب الشكوك العقائدية ، راسخة فى الإيمان الكاثوليكي لا تحيد عنه قيد أنملة .

وكانت المدارس اليسوعية فى جميع الحالات تقريباً يقوم بإنشائها ومنح الهبات لها السلطات الزمنية أو زعماء الكنيسة أو الأفراد اليسوعيون ، ولكن اليسوعيين احتفظوا بالهيمنة الكاملة عليها . ومع أن بعض كلياتهم أنشئ خصيصاً لأبناء الأشراف ، فإن كلها تقريباً كان مفتوحاً ، دون رسوم تعليم ، لأى طالب مؤهل فقيراً كان أو غنياً (٣٨) . أما المدرسون الذين كانوا عادة من رجال الطائفة فأفضل إعداداً من نظرائهم البروتستنت ، أوفياء لمهنتهم لا يتقاضون عنها أجراً ، يتيح لهم ثوب الكهنوت وتأثيره سلطاناً محترماً مكنهم من حفظ النظام دون اللجوء إلى التخويف أو العقاب البدنى . وقد أرسل كثيرون من البروتستنت أبناءهم إلى الكليات اليسوعية (٣٩) لى ييسروا لهم ، فضلاً عن الإلمام السليم بالدراسات الكلاسيكية ، تدريباً رفيعاً على الفضيلة وآداب السلوك وقوة الخلق . بقول فرانسس بيكون « أما الجانب التربوى فأقصر قاعدة أن يقال لك استشر مدارس اليسوعيين ، لأنه لم يجرب ما هو خير منها » (٤٠) . وفى عام ١٦١٥ كان لليسوعيين ٣٧٢ كلية ، وفى عام ١٧٠٠ كان لهم ٧٦٩ ، وأربع وعشرون جامعة منبثة فى أرجاء العالم . وفى الدول الكاثوليكية كاد التعليم

الثانوى بأسره يكون فى قبضتهم ، مما أتاح لهم نفوذاً هائلاً فى تشكيل الفكر القومى .

ثم التمسوا مسمع الملوك فى طرف السلم الآخر . وقد حظر عليهم أكوافينا أن يصبحوا كهنة اعتراف للملوك ، وثنائهم عن الاشتراك فى السياسة . ومع ذلك فحتى فى عهد أكوافيفا قبل الأب كوتون دعوة هنرى الرابع له ليكون مرشده الروحى ، وبعد هذا وافق اليسوعيون على رأى ألمع تلاميذهم فولتير ، وهو أن خير السبل لتشكيل الشعب هو تشكيل ملكه . وما وفى عام ١٧٠٠ حتى كانوا آباء الاعتراف لمئات من أبرز الشخصيات . وكان النساء على الأخص شديدات الشعور بحسن آدابهم وبتقبلهم السمع للدنيا ، وبفضل تلقيهم اعترافات لنساء ذوات أهمية ، استطاع الآباء الدهاة أن يصلوا إلى رجال خوى أهمية .

وإذ جهروا بنية الاختلاط بالناس بدلا من الاعتزال فى الأديرة ، فقد كيفوا مبادئهم الخلقية وفق طرق البشر العvisية على الإصلاح . ففى رأيهم أن الأخلاق المسيحية الصارمة لم تكون ميسورة إلا للنسك والقديسين ، فواقع الطبيعة البشرية يقتضى بعض التخفيف من قاعدة الكمال . ومثل هذه التوفيقات للقانون الخلقى وضعها أرسطو رداً على نزعه أفلاطون الكمالية ، ووضعها معلمو الناموس اليهود ليلائموا بين الشرائع العبرية القديمة والظروف الجديدة للحياة الحضرية . ومع أن اليسوعيين فى مذهبهم - وفى تطبيقهم للمذهب عادة - يحتقرون الجسد ، فلنهم فهموا الجسد ، وأتاحوا له ملاذاً خلقياً لكيلا يكره الخطاة على التمرد فتخسرهم الكنيسة . ورغبة فى تخفيف التوتر بين ناموس المسيح وطبيعة البشر ، طور اللاهوتيون من اليسوعيين وغيرهم فكرة الإفتاء - أى تطبيق التعاليم الخلقية على الحالات الخاصة . ولكن لنترك الآن هذا العلم العويص حتى نصل إلى أعدى أعدائه بلين باسكال .

ويمكن القول عموماً بأن اليسوعيين مالوا فى لاهوتهم إلى رأى السمع.

والنظرة المتحررة . كان من رأى بعضهم ، كالأب ليس والأب هامل
فى لوفان (١٥٨٥) ، إنه ليس من الضروري الإيمان بأن كل كلمة أو كل
تعليم فى الكتاب المقدس موسى به من الله (١١). وقد أكد كل اليسوعيين
تقريباً المعتقد السكولاسى القائل بأن الحكومات الزمنية تستقى سلطتها من
الشعب ، وقد بشر عدد غير قليل منهم - مثل ماريانا وبوزنباوم - بحق
الشعب عن طريق مثليه الشرعيين فى أن يعزل ، بل أن يقتل ، الملك
« الفاسد » ، ولكن « الفاسد » فى هذا المجال كان معناه المهرطق ، وربما
كان مبعث هذا التشديد الديمقراطى رغبة اليسوعيين ، بحكم ولائهم المطلق
لسيادة روما ، فى الاعلاء من سلطة البابا التى تفردت بالقداسة والسيادة
وعلى النقيض من لوثر ، آمن اليسوعيون بفعالية الأعمال الصالحة فى نيل
الخلاص ، واستنكروا التأكيد على الخطية الأصلية ، وقابلوا الجبرية
القائمة التى قال بها بولس ، وأوغسطين ، ولوثر ، وكلفن ، ويانسن ،
بالتأكيد من جديد لحرية الإرادة . ولقد أثار لويز مولينا ، وهو يسوعى
أسباني ، ضجة لاهوتية حين زعم أن الإنسان يستطيع تقرير مصيره الأبدى
برادته وأعماله ، وأن اختياره الحر يمكن إما أن يتعاون مع النعمة الإلهية
أو يغلبها . وطالب اللاهوتيون والدومنيكان بإدانة مولينا بالهرطقة ، ولكن
اليسوعيين خفوا للدفاع عنه ، وحى وطيس الجسد إلى حد دعا كليمنت
الثامن إلى أمر الفريقين بالكف عنه (١٥٩٦) .

ونضافرت أخلاقيات اليسوعيين ، الرحمة بالقياس إلى أخلاقيات
غيرهم ، مع أفكارهم الراديكالية ، واتصالاتهم المحافظة ، وسلطانهم
المتسع ، لتزهد فيهم الاكليروس الكاؤليكى غير المنتسب إلى الرهبنة
وتثير كراهية البروتستنت لهم . فرماهم القديس شارل بوروميو بالتساهل
الخزى مع ذوى النفوذ من الخطاة (١٢) . وقال ساربي لو أن القديس بطرس
كان مرشده كاهن اعتراف يسوعيا لوصل به الأمر إلى إنكار المسيح
دون أن يحسب ذلك عليه خطية (١٣) . أما موتيو فيتيللسكى ، قائد

اليسوعيين الذى خلف أكوافيفا ، فقد نبه أفراد الطريقة إلى أنه حرصهم على جمع المسائل يثير اللوم عليهم من جمع الناس (٤٤) . وأما القساوسة البروتستنت فى انجلترا ، الملتزمون بعقيدة الحق الإلهى للوكنهم فى الحكم ، فقد صدمتهم آراء اليسوعيين فى سيادة الشعب وقتل الملوك أحيانا . وندد روبرت فيلمر برأى الكردينال هيلارمينى القائل بأن « السلطة الزمنية أو المدنية . . كائنة فى الشعب ، إلا إذا خلعها على ملك . » (٤٥) . أما البروتستنت الألمان فحاربو اليسوعيين زاعمين أنهم « مخلوقات من الشيطان تقبأهم جهنم » ، وطالب بعضهم بحرقهم كما تحرق الساحرات (٤٦) . وفى عام ١٦١٢ ظهر فى بولنده كتاب « التعليمات السرية » ، وهو يؤهم قارئه بأنه تعليمات سرية لليسوعيين فى فن الظفر بالأكات والوصول إلى السلطة السياسية . وأعيد طبع الكتاب اثنتين وعشرين مرة قبل عام ١٧٠٠ . وكان يصدق إلى وقتنا هذا تقريبا، ولكن أغلب الرأى فيه الآن أنه أما هجاء ذكى أو تزوير وقع (٤٧) .

ب — فى الأقطار غير المسيحية

كان الرأى عند الجماهير الكاثوليكية أن أخطاء اليسوعيين لها ما يرجعها كثيرا من فضائل فى التعليم وجرأة فى التبشير . صحيح أن طرقا دينية أخرى شاركت فى هذه المغامرة الثقية ، مغامرة نشر الدين ، ولكن أين هذا من جرأة اليسوعيين وإقدامهم واستشهادهم فى الهند والصين واليابان والأمريكتين ؟ ففى الهند مثلاً دعا السلطان المغولى المستنير أكبر بعض اليسوعيين إلى بلاطه فى فاتحبور سكرى (١٥٧٩) ، واستمع إليهم فى حب استطلاع وتعاطف ، ولكنه أبى أن يطرد حريمه . وانضم شريف إيطاليا يدعى روبرتودى نوبيل إلى جماعة اليسوعيين ، وذهب إلى الهند مبسرا (١٦٠٥) ، وهناك درس العقائد والطقوس الهندية، واتخذ لباس البراهمة واتبع نظامهم، وألف الكتب بالسنسكريتية ،

وحول البعض إلى المسيحية . ومارس يسوعيون آخرون اليوجا ، وعملوا بين الطبقات الدنيا . وعبر المرسلون اليسوعيون الهملايا إلى التبت حوالى عام ١٦٢٤ وزودوا أوربا بأول معلومات وثيقة - وآخرها حتى وقت طويل - عن ذلك العالم المحجوب .

أما اليابان فقد دخلها اليسوعيون فى تاريخ مبكر (عام ١٥٤٩) ، وفى عام ١٥٨٠ زعموا أنهم حولوا إلى المسيحية ٠٠٠ ر ١٠٠ ، وفى عام ١٥٨٧ أمروا بالرحيل عن الجزر ، وفى عام ١٥٩٧ لقي اليسوعيون والفرنسيون اضطهادا عنيفا صلب فيه القساوسة والرهبان وآلاف المسيحيين اليابانيين - وهى طريقة جديدة زعم قائلوهم أنهم أدخلوها عن الأناجيل . وحوالى عام ١٦١٦ دخلت فئة جديدة من اليسوعيين اليابان وكسبوا مسيحيين جددا لا يستهان بعددهم ، ولكن التجار الهولنديين والانجليز حرضوا الحكومة على اضطهادهم من جديد ظنا منهم بأنهم يهدون الطريق للتجارة البرتغالية أو الأسبانية (٤٨) ، فأعدم من اليسوعيين واحد وثلاثون ، ولم نحل سنة ١٦٤٥ حتى اختفت المسيحية من اليابان .

وأما الصين فكانت خطراً يتحدى اليسوعيين ، إذ توعد الأباطرة أى مسيحى يجرؤ على دخول « المملكة الوسطى » بالموت . وقد رأينا فى غير هذا الموضع من الكتاب كيف مات اليسوعى فرانسيس زافير (١٥٥٢) وهو قارب قوسين من الصين بعد أن عول على كسبها للمسيحية . وفى عام ١٥٥٧ أنشأ التجار البرتغاليون مستعمرة فى مكاو ، على ساحل الصين الجنوبي الشرقى . هناك انقطع بعض اليسوعيين لتعلم لهجات الصين وعاداتها . وأخيرا دخل اثنان منهم ، وهما ماتيو ريتشى وميكيلى رودجرى ، ولاية كوانتونج مسلحين باللغات والفلك والرياضة والساعات كبرها وصغيرها والكتب والخراط والآلات . واقتن حاكم الإقليم بهذه الطرف وكانا يتخذان أسماء صينية ولباسا صينيا ، ويعيشان عيشة البساطة ،

ويشتغلان بجِد ، ويسلكان مسلك التواضع الذى توقّعه الصينيون من أبناء حضارة حديثة العمر قليلة النضج كحضارة أوربا، لذلك سمح لهما بالبقاء . واتخذ ريتشى سمته إلى كانتون حيث أثار أعجاب المندرين (كبار الموظفين) بمعارفه العلمية والجغرافية . وهناك أقام المزاوِل ، ورسم الخرائط المريحة الوثيقة ، وأجرى الحسابات الفلكية العويصة . ثم أدخل أصدقاءه الحدود إلى حظيرة المسيحية بكتابته خلاصه مفرغة فى أسئلة وأجوبة شرحت العقائد الأساسية للمسيحية ، ودعمت بمقتبسات من النصوص الشرقية القديمة . وشجعه التسامح الذى لقيه فانتقل إلى ضاحيه من ضواحي بكين (١٦٠١) وأرسل ساعة كبيرة إلى الامبراطور كانج . هسى . فلما تعطلت الساعة ولم يستطع أحد من العلماء الصينيين أن يديرها من جديد ، أرسل « ابن السماء » فى طلب مهديها . وحضر ريتشى ، وضبط الساعة ، وقدم إلى الحاكم الطلعة مزيدا من الأدوات العلمية ، وما لبث ريتشى وآخرون من اليسوعيين أن ثبتوا فى بلاط مينج . ولم يضع الامبراطور الطيب أى عقبة فى سبيل اعتناق كثير من عليّة الصينيين للمسيحية . وبعد موت ريتشى (١٦١٠) واصل يسوعى آخر يدعى « يوهان آدم شال فون بل » عمل البعثة العلمى والتبشيري . فأصلح التقويم الصينى ، وصنع المدافع الممتازة للجيوش الصينية ، وغدا الصديق الحميم للامبراطور وموضع أكرامه ، ولبس الحرير المندرى ، وسكن قصرا ، وقامر بالسياسة ، ثم ألقى فى أحد السجون ، ومات بعد سنة من الافراج عنه .

وقد تكون بقية القصة ، التى اتصلت إلى القرن الثامن عشر ، باعث تسليّة لمؤرخ فلسفى النزعة . ذلك أن اليسوعيين فى الصين كانوا بفضل تبحرهم فى العلم ، قد نفضوا عنهم تزمّت اللاهوت . فحين درسوا آداب الصين الكلاسيكية تأثروا بما كشفوه فيها من حكمة سامية . وبدأت لهم عبادة الصينيين لأسلافهم كأنهادف رائع على الاستقرار الحلقى والاجتماعى ، وكان فى كونيغوشويس الكثير مما يور تبجيله . ولكن مرسلين

آخرين شكوا إلى محكمة تفتيش روما (١٦٤٥) من أن اليسوعيين يعضون من قدر الصليب وعقيدة الخلاص الإلهي لما قد يصدّم الصينيين منهما إذ لا عهد لهم بفكرة البشر يقتلون إلهًا، ومن أن اليسوعيين يتلون القداس بالصينية دون اللاتينية ، وأنهم أذنوا لمن نصرّوهم بأن يحتفظوا بكثير من شعائر دينهم القوي ، وأن المبعوثين اليسوعيين يقتنون المال لأنهم يعملون أطباء وجراحين وتجارا ومرابين ومشيرين للقواد والأباطرة . أما اليسوعيون فقد راعهم إصرار الدومنيكان والفرانسيسكان على أن يقولوا للصينيين إن المسيحية هي الملاذ الوحيد من الهلاك الأبدي ، وأن الأسلاف الذين يعبدونهم إنما يصلون نار جهنم . وأمر أنوسنت العاشر اليسوعيين بحظر قرابين اللحم والشراب التي تقدم لظلال الأجداد . وكان الآباء اليسوعيون خلال ذلك يرسلون إلى أوروبا أوصافا لحياة الصين ودونها وفكرها ، وهي الأوصاف التي قدر لها أن تشارك في ازعاج السنية المسيحية في القرن الثامن عشر .

وأما في أمريكا الحزبية فقد اكتسب المرسلون اليسوعيون احترام الوطنيين وثقتهم بفتحهم المدارس والمراكز الطبية ، وبذلهم الجهود الشاقة للتخفيف من وحشية السادة الأسبان . وقد صنفوا المعاجم وكتب النحو ، وارتادوا المجهل الداخلية الخطرة ، ودفعوا الجغرافية دفعة هائلة . وأرسلوا إلى أوروبا قشرة الشجرة البيروية التي أصبحت - في هيئة الكينين - العقار الثابت لعلاج الملاريا . وفي براجواي أنشأوا مجتمعا مثاليا شيوعيا .

هنالك في سهول الهاميز والغابات التي تحف بنهر أوروجواي ، وفوق الشلالات الخطرة التي أثبطت همة المستعمرين ، نظموا مستوطناتهم الهندية . وأذن لهم فيليب الثالث ملك أسبانيا في أن يحظروا الإقامة فيها على جميع البيض فيما خلا اليسوعيين وحاكم المستعمرة . وقالوا لأنهم وجدوا في الأهالي براءة ومودة - «مائتا ألف من الهنود صالحوون من جميع

الوجوه للكموت الله. » (٤٩) . فتعلموا لغة الأهلالي ولم يعلموهم الأسبانية- ولا البرتغالية ، وثبطوا كل اتصال بالمستعمرين . واستألوا الناس إلى المسيحية بالحبّة والرحمة والموسيقى . وأنشأوا المدارس لتعليم الموسيقى ، وألفوا الفرق الموسيقية التي تعزف على جميع الآلات الأوربية الهامة وتؤدي كل ألوان الألحان تقريبا ، حتى المختارات من الأوبرا الإيطالية . وسرعان ما تعلم الأهلالي أن ينشدوا- أضخم ألحان الكورال . وقيل على التحقيق إنه في فرقة من ألف صوت لم تسمع نغمة ناشرة واحدة . وكانت فرقة الموسيقى تتقدم الناس في غدوهم ورواحهم ، وتصحب جهدهم في المتاجر والحقول . واحتفل القوم بالأعياد المسيحية بالغناء والرقص والألعاب الرياضية ، وألف الآباء اليسوعيون المسرحيات الفكاهية وعلموا الرعية كيف يؤدونها .

ولقد هيمنوا على الاقتصاد كما هيمنوا على شئون الحكم . وأبدى الأهلالي استعداداً ملحوظاً لمحاكاة المنتجات الأوربية ، حتى صناعة الساعات المعقدة ، والمخزّات الهفافة ، والآلات الموسيقية . وكان العمل إجبارياً ، ولكن للشباب الحرية في اختيار حرفهم ، وبياح الفراغ اللازم للترفيه والتثقيف . أما يوم العمل فتباني ساعات في المتوسط . وحدد اليسوعيون ساعات العمل والنوم والصلاة واللعب . وكان جزء من الأرض يملكه الأفراد ، ولكن أكثرها ملك مشاع . ونتاج العمل الجماعي يسلم للحكومة ويفرز جزء منه للبذر أو لسنوات الجذب ، وجزء يؤدي فريضة رعووس الملك أسبانيا ، وأكثره يوزع على العشرين ألف أسرة كل حسب حاجته ، ومن المسلم به أن جزءاً كان يخصص ليعول ، على مستوى متواضع (٥٠) ، اليسوعيين المائة والخمسين الذين يعملون مديرين وملاحظين وأطباء ومعلمين وقساوسة . وقد حرم عليهم بمقتضى مرسوم ملكي اقترحه اليسوعيون أن يشاركوا في أرباح الاقتصاد ، وطلب إليهم أن يقدموا حساباً دورياً لرئيسهم الإقليمي . أما القانون فيطبقه قضاة وشطة من الوطنيين ، وأما العقوبات

فهى الجلد والسجن والننى وليس فيها الإعدام . ولكل مستوطنة مستشفاهها وكنيتها وكنيستها ووسائلها للتيسير على الشيوخ أو العجزة . لقد كانت شيوعية دينية ، ينال فيها الوطنيون الرزق والأمن والسلام وقسطاً من الحياة الثقافية نظير قبولهم المسيحية والنظام .

من أين يا ترى استقى اليسوعيون فكرة هذا النظام العجيب ؟ ربما بعضها من « يوتوبيا » مور (١٥١٦) ، وبعضها من الأناجيل ، وبعضها من دستور جماعتهم التى كانت هى ذاتها أشبه بجزيرة شيوعية وسط بحر يدين بالفردية . أياً كان الأمر ، فقد أثبت النظام أنه محل حب الوطنيين لأنه أقيم على الإقناع دون ضغط ، وحافظ على كيانه ١٣٠ عاماً (تقريباً ١٦٢٠ - ١٧٥٠) ، وحين هوجم من الخارج دافع عن نفسه بحماسة أذهلت المهاجمين ، وكان مثار الإعجاب حتى من شكاك حركة التنوير الفرنسية . يقول المبير « أقام اليسوعيون بالدين سلطة ملكية (؟) فى برجواى ، لا تستند إلا على ما أوتوا من قوة فى الإقناع وترفق فى الحكم . وإذا كانوا السادة المتصرفين فى البلد فإنهم أسعدوا الشعب الذى حكموه . » أما فولنير فوصف هذه التجربة بأنها « انتصار للإنسانية » (٥١) .

وقد انتهى النظام بكارثة لأنه لم يستطع عزل نفسه عن العالم الخارجى فالتجار الأسبان نكروا على اليسوعيين اشتغالهم بالتجارة ، والمستعمرون الأسبان كرهوا أن يحال بينهم وبين منطقة تغرى باستغلال الموارد والبشر (٥٢) . وراحت عصابات خطف الرقيق تهاجم المستوطنات اليسوعية المرة بعد المرة ، وأخلى الآباء ورعاياهم الأقاليم الأكثر تعرضاً لغاراتهم . فلما أوغلت الغارات حصل اليسوعيون على إذن من ملك أسبانيا بتسليح الأهالى بأسلحة أوروبية ، وبعدها أمكن مقاومة الغارات بنجاح . على أن خطراً أكبر على المستعمرة كان يكمن فى مجرى السياسة والفكر الأوربيين . ذلك أن الدسائس السياسية للمستعمرة التى تورط فيها اليسوعيون فى فرنسا وأسبانيا والبرتغال تضافرت مع نهضة الفكر الحر والعلماء اللاكثيريكية لتفضى إلى طرد جماعة اليسوعيين

من جميع الأقطار تقريبا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . ونشط
المركيز بومبال - وهو وزير حاكم في البرتغال - نشاطاً ملحوظاً في حركة العداء
لليسوعيين . ففي عام ١٧٥٠ رتب إبرام معاهدة بمقتضاها نزلت البرتغال
لأسبانيا عن مستعمرة سكرمنتو ، على مصب ريو دلابلاتا ، لقاء أراض
أسبانية أبعد منها شمالاً - شملت سبع مستوطنات يسوعية تضم ثلاثين ألف
هندي . وراجت خلال ذلك شائعة تزعم أن بهذه الأراضي ذهباً وأن
اليسوعيين يحتزنونه . وأمرت السلطات البرتغالية الآباء والأهالي بالرحيل
عن المستوطنات السبع خلال ثلاثين يوماً . أما اليسوعيون فأشاروا بالتسليم
(كما توقع الناس) ، وأما الهنود فأثروا المقاومة ، وردوا الهجمات البرتغالية
طوال سنوات خمس . ولكن في عام ١٧٥٥ جلب الجيش البرتغالي
المدفعية ، وذبح المئات من الهنود ، أما الباقون ففروا إلى الغابات أو
استسلموا ، وأصدر الرؤساء اليسوعيون في أوربالمر وسبهم الأمر بالعود ، إلى
أسبانيا . وهكذا اختتمت تجربة « المسيحية السعيدة » كما سماها
موراتوري (٥٣) .

أما قصة المبشرين اليسوعيين في أمريكا الشمالية فهي أشهر ، ويكفي
أن نلم بها المامة سريعة لنحيط بمجال النشاط اليسوعي في هذه الحقبة . فقد
دخلوا المكسيك عام ١٥٧٢ وشاركوا في تحويل الوطنيين بسرعة إلى
المسيحية ، ولكن عبء هذه المغامرة الأكبر وقع على كاهل الدومنيكان
والفرانسيسكان . وترك الفرنسيون قافلة من البعثات والهيئات اللطيفة
للرهبان « المتسولين » على طول الطريق من المكسيك إلى المدينة الفاتنة التي
تحمل اسم مؤسس طريقهم . ولقي كثير من اليسوعيين العذاب وأبشع
الميتات في محاولتهم ضم الهنود إلى حظيرة الكاثوليكية . من ذلك أن إسحاق
يوجس شوه جسده واستعبد ثم قتل . أمان جان دبريروف ، وجابريل
لالمانت ، وأنتوني دانيال ، وغيرهم من اليسوعيين ، فقد أحرقوا أو غلوا
على النار خلال عامي ١٦٤٨ - ٤٩ . لقد نختلف مع هؤلاء الرجال على

اللاهوت الذى حاولوا بثه ، ولكن يجب أن نحترم إنسانيتهم وإخلاصهم ، ولو لحرد كونهما النقيض المؤسف لقسوة المستعمرين والمسيحيين وجشعهم ، هؤلاء الصيادين الجلابين للرقيق ، الذين شكوا من أن نشاط المبشرين الإنسانى يحول دون تحضير الهنود .

٤ - أيام إيطاليا ولياليها

كتب مونتيني حين رأى أهل روما عام ١٥٨١ « إنهم يسدون أقل تديناً من أهل المدن الصالحة فى فرنسا ، ولكنهم أكثر ولعاً بالمراسم والطقوس. » (٥٤) وكانت احتفالات أسبوع الآلام تشمل مواكب من أفراد يجلدون أنفسهم حتى تسيل دماؤهم ، وإذاعة قرارات الحرم البابوى ، وعرضاً للقناع الذى مسحت به فيرونيكا العرق من جبين المسيح . « رأيت فى عشية القيامة بكنيسة القديس يوحنا لاتيран رأس القديسين بولس وبطرس ، المعروضين هناك ، والمحفوظين بلحمهما ، وجلدهما ، ولحيتهما ، كأنهما حيان (٥٥) » . وكان إخراج الأرواح النجسة يمارس بطقوس شديدة الرقع فى النفوس ، ربما كضرب من العلاج النفسى الجماعى . ولقد تجاهلت الكاثوليكية فى إيطاليا عن عمد عقول الصفوة من الناس وقدمت للجماهير الشعب ناموساً خلقياً خيراً ولكن غير مرحب به ، لف فى الشعر والدراما والرمزية والتنفيس والرجاء ؟

وشهد مونتيني بتحسن عام فى أخلاق الناس ، ولكن ما زالت العلاقات بين الحاسنين يشوبها كثير من التراخى القديم . فقد بلغ من خلاعة المسرح الإيطالى سواء فى الحركة أو الحوار أن مجلس شيوخ البندقية طرد جميع الممثلين من أراضيه (١٥٧٧) (٥٦) مع أنه كان يغضى عن البغاء . وكان الأدب الفاجر يشترى فى أى مدينة كبيرة كما هى الحال اليوم فى أى مكان تقريباً من العالم المسيحى . وحين اعتبر البابا بيوس الخامس اللواط جريمة كبرى جزع للقرار شباب روما من النبلاء . وقد دخل ثمانية لواطيين

برتغاليين في زواج رسمي ، فقبض عليهم وأحرقوا (٥٧). كذلك أمر به من يطرد البغايا من الدويلات البابوية (١٥٦٦) . وشكا رجال الأعمال من أن المرسوم سيقتصر المدينة، فأذن البابا لبعض الموسسات بالبقاء في حي معزول ، وقدم المعونة الكبيرة للنساء اللاتي حاولن الانتقال إلى مهنة أحدث عمراً . أما سيكستوس الخامس ، ذلك الذي قهر قطاع الطرق ، فلم يصب غير انتصارات باهظة الثمن على الغانيات ، كما تشهد مراسيمه المتكررة في ١٥٨٦ و ١٥٨٨ و ١٥٨٩ .

وإذ كان الحب الرومانسي لا يزال نزوة خارج الرباط الزوجي ، والزواج تزويج المال بالمال ، والطلاق محظوراً بأمر الكنيسة ، فقد انغمس الأزواج من أرباب الخيال في الزنى . وفكر بيوس الخامس في اعتبار الزنى جريمة كبرى . وقد ورد في تقرير بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٥٦٨ « إن التهديد بتقرير الإعدام عقوبة على الزنى أمر متوقع ، فلما أن يتمسك كل امرئ بالفضيلة أو يرحل عن المدينة . » على أن بيوس لان وقنع بعقوبات أخف ، فصدر حكم على سيدة من أشرف روما بالسجن المؤبد ، وجلد مصرفي بارز بالسوط علانية ، ونفى الكثيرون من المذنبين غير هؤلاء .

وفي أواخر القرن السادس عشر دخلت عادة وصفاء الزوجات إلى إيطاليا من أسبانيا بطريق نابلي وميلان : فكان للزوج من علية القوم أن يأذن لصديق بأن يكون وصيفاً (تابعاً شريفاً) لزوجته ، والظاهر أن هذه العادة نشأت في أسبانيا إبان الحروب المتكررة وطول غياب الزوج عن بيته . وكان الوصيف الفارس يخدم السيدة النبيلة منداستيقاظها حتى نومها ، ولكن العرف لم يكن قد أغضى بعد عن الزنى الذي كثيراً ما رافق هذه العادة في إيطاليا القرن الثامن عشر .

أما الجريمة فقد أفرخت برغم المعوقات اللاهوتية . فكثرت الفتاك في بيوت النبلاء ، ورجال العصابات في الطرق العامة ، والقراصنة في البحر المتوسط ، والاغتيالات السياسية والغرامية . من ذلك أن باولو جوردانوا

أورسينى خنق إيزابللا مديتشى فى فراشها كما فعل عطيل بزوجته ؛ وقتل بييرو مديتشى زوجته لشبهة الزنى ، وقد رأينا كيف نقل جون وبستر عن قصيدة فيتوريا أكورامبوني الدامية روايته « الشيطان الأبيض » ، ومثل هذا سيفعله شلى مع بياتريتشى تشنشى ، التى كان أبواها فرانسكرى تشنشى مضرب المثل فى الرذيلة والتوحش . وفى عام ١٥٩٤ حوكم بتهمة اللواط ، وليكنه أفلت بغرامة قدرها ١٠,٠٠٠ سكودى . وماتت زوجته الأولى بعد أن ولدت له اثني عشر طفلاً ، ثم تشاجر مع أبنائه ، فغادر روما مع بياتريتشى وزوجته الثانية لوكريتسيا بتروني ، وانتقل إلى قلعة منعزلة فى الطريق إلى نابلى . هناك حبسهما فى عليتين وعاملهما بمنتهى القسوة ، ولو أننا لا نملك دليلاً على وجود علاقة محرمة بينه وبين ابنته . ووجدت بياتريتشى وسيلة للدخول فى علاقة غير شرعية بينها وبين حارس القلعة . وبتهريض بياتريتشى ، وزوجة أبيها ، وشقيقها جاكومو وبرناردو ، أو لقاء أجر دفعوه له ، قتل الحارس الأب فى فراشه (١٥٩٨) ، مستعيناً بأحد القتلة المحترفين . وقبض على المتآمرين وحكموا ، فدفعوا بالاستفزاز الذى لا يحتمل ، وتقدم مواطنون كثيرون بطلب الرأفة إلى كلمنت الثامن ، ولكنه أبى . فقطع رأساً بياتريتشى ولوكريتسيا ، وعذب جاكومو حتى الموت (٥٨) .

ومع ذلك أخذت الأخلاق تنصلح ، وآداب السلوك ترق ، وكان للمجتمع الإيطالى مفاتن ولطائف لا يباريه فيها غير الفرنسيين . فاللباس عند الطبقات العليا بهاء ملون من المخمل والساتان والحرير . وحوالى هذه الفترة بدأت نساء النبلاء يوطرن وجوههن ، ويكلمن رءوسهن ، ويطرحن على أكتافهن الحرير الأسود « المانتيليا » وكان زياً فاشياً فى أسبانيا . وظل وجهاء القوم يلبسون الجوارب الطويلة . أما العوام والتجار الذين ألفوا الزى الترى فأخذوا يعتادون لبس السراويل . وهزأت المسرحيات الفكاهية الإيطالية بهذه العادة فى شخص « بانتاليونى » الهزلى المؤلف ، الذى اشتق

منه لفظاً « بانثالوز » و « بانز » (في الإنجليزية) .

أما الملاحى فكانت كثيرة كما هي الحال في معظم الأقطار اللاتينية . فكان لروما كرنفالها السنوى قبل الصوم الكبير ، وكانت الشوارع كما شهدنا لإيفلين عام ١٦٤٥ « تعج بالبايا والمهرجين والغوغاء من كل شكل » (٥٩) . وكانت هناك سباقات في الكورسو ، ترى فيها الجياد المغربية الفارحة ، لا يمتطيها فارس ولكن تدفعها مهاميز تتدلى على جوانبها ، وسباقات للحمير ، والجواميس ، والشيوخ ، والرجال العرايا ، والغلمان ، وكانت المسرحيات تمثل على مسارح متنقلة في الهواء الطلق . وكانت فنون الرقص والحديث والغزل تزين البيوت والحدايق والشوارع . وهل كان هناك إيطالى . يجهل العناء ؟ .

٥ - مولد الأورا

لقد شارك الدين ، والحب ، والرقص ، والبلاط ، بل حتى العمل ، في مولد الموسيقى . ووجد إيفلين أهل الريف الإيطالى « غاية في المرح وإدمان الموسيقى ، وحتى الزراع كانوا كلهم تقريباً يعزفون على القيثارة . . . ويمضون عادة إلى الحقل ومعهم كمانهم (٦٠) » وكان لكل بلاط دوق فرقة مرتلين وقائد للعازفين في الكنيسة ؛ وفي فيرارا أثار رباعى من النساء اشتهر باسم « فرقة موسيقى السيدات » الدموع في عيني تاسو وأطلق قلمه بالقوافى . ونسجت أغاني الحب الشعرية شكواها المتعددة الأصوات ، فجعلت التعبد للمرأة حتى زواجها موضع توقير يكاد يرقى إلى توقير الالهات الموجهة إلى والده الإله . وانطلقت القداديس وصلوات المساء والألحان والترانيل يصدح بها ألف أرغن . وحوالى عام ١٦٠٠ بدأت فرق من خصيان صغار تشنف آذان المصلين . ووصف زائر بروتستنتى موسيقى الكنيسة الكاثوليكية « التى يرتلها خصيان وأصوات أخرى نادرة ، تصحبهم الآلات الموسيقية ، كالعود والبيان والقيثارى والفيول ؛ ترتيلاكاد .

بذهب بألبانا (٦١) ، ودرب الرهبان والراهبات في فرق ترتيل تبث الإيمان القويم حتى في الصدور المتوحشة . واجتذب أندريا جبريلي ، وكلوديو ميرولو ، وجوفاني جبريلي (ابن أخى أندريا) على التوالى ألوف المستمعين إلى كنيسة القديس مرقس بالبندقية لينصتوا لعزفهم على الأرغن ولفرقتهم الموسيقية ولفرق المرتلين التى يقودونها . وحين عزف جبرولامو فرسكو بالدى على الأرغن الكبير فى كنيسة القديس بطرس احتشد مالا يقل عن ثلاثين ألفاً فى الكنيسة أو من حولها ليستمعوا لعزفه . وقد أثرت ألحانه المتنوعة ، المعقدة بتجاربها العويصة ، فى دومنيكو سكارلاتى ، ومهدت للتطورات الهارمونية التى جاء بها يوهان سباستيان باخ .

وكانت الآلات الموسيقية متنوعة تنوعها اليوم تقريباً . وحوالى منتصف القرن السادس عشر بدأ الكمان ، المتطور عن القيثارة ، يحل محل الفيول . وكانت بريشيا مقر أول صانعين من صناعات الكمان العظام ، وهما جاسبارو داسالو وتلميذه جوفاني ماجيني . ويلوح أن أندريا أماتى أخذ الفن عنهما وحمله إلى كريمونا ؛ حيث أسلمه أبناؤه إلى آل جوارنيرى وآل ستراديفارى . وقد لقيت الآلة الحديدية مقاومة من أولئك الذين آثروا أنغام الفيول الأكثر نعومة ورقة . وقامت المنافسة بين الفيول والعود والكمان قرناً من الزمان . ولكن حين وجد آل أماتى الوسائل للتخفيف من حدة صوت الكمان ارتقت الآلة الحديدية إلى مقام الصدارة غير منازع ، يعينها عليه ازدياد غلبة أصوات السوبرانو فى الموسيقى الصوتية .

كانت الألحان لا تزال توضع للصوت أكثر منها للآلة . وإلى هذه الفترة تنتمى شخصية شاعرية هى شخصية كارلو جزوالدو ، أمير فينوزا ، الذى زين النبالة بالموسيقى ؛ والقتل بالأغاني الشعرية . ولد فى نابلى (حوالى ١٥٦٠) وأصبح عازف عود ممتازاً ، وتزوج سيدة عريقة المولد ؛ ودبر قتلها هى وعشيقتها لشبهة الزنى ؛ ثم هرب إلى فيرارا ، وتزوج دونا اليونورا ديستى ؛ ونشر خمسة كتب من أغاني الغزل تنقلت أنغامها

الجريئة وانتقالات طبقاتها الحادة من قوالب النهضة إلى قوالب الأصوات المتعددة الحديثة . وفي فبراير ١٦٠٠ أخرج إيميليو دى كافاليري ، في مصلى القديس فيليب نيرى بروما ؛ قصة رمزية شبه مسرحية ، الحركة فيها للرمز فقط ؛ ولكن يصاحبها الأوركسترا والرقص والخورس والمغنون المنفردون . هذه الموشحة الدينية « الأوراتوريو الأولى » ، سبقت أوبرا بيرى المسماة « أوريديتشى » بثمانية شهور لا أكثر ، وشابهتها من وجوه كثيرة . وبعد مرور جيل آخر ألف جاكومو كاريسمي أوراتوريوات وكتناتات أثرت تراثيها الفردية في تطور الإلقاء الأوبرى الملحون .

والتت خطوط كثيرة أخرى من التطور الموسيقى لتخرج لنا الأوبرا . فبعض « التثيليات المقدسة » التي خلفتها العصور الوسطى أضافت الموسيقى والغناء إلى الحركة . ففي هذه ، وفي موسيقها المعبرة عن آلام المسيح ، كانت الكنيسة أما للأوبرا أو حاضنة لها كما كان شأنها في كثير من الفنون الأخرى . فقد كانت المقاطع الملحونة المصحوبة بالموسيقى تسمع في القصور أواخر العصور الوسطى . وذكر علماء النهضة أن قطعاً من المأسى اليونانية كانت تغنى أو تترتل بمصاحبة الموسيقى . وفي بلاط مانتوا ، عام ١٤٧٢ ؛ جمع إنجيليو بولتسيانو بين الموسيقى والدراما في مسرحيته القصيرة « فافولا دى أورفينو » (خرافة أورفينو) ، وبدأت هذه الأسطورة الحزينة تشق الآن طريقها الطويل إلى الأوبرا . كذلك شقت مسرحية الأقنعة « الماسك » التي اشتهت الإقبال عليها في قصور القرن السادس عشر طريقاً آخر إلى الأوبرا ؛ ولعل الباليه ؛ والمشاهد المسرحية المترفة ؛ والملابس الفخمة التي نراها في الأوبرا الحديثة ، منحدره من الرقص والمواكب والثياب الفاخرة التي غلبت على الحركة في مسرحيات الأقنعة أيام النهضة .

وفي أخريات القرن السادس عشر اقترح فريتي من المتحمسين للموسيقى والأدب التقوا في بيت جوفاني باردى بفلورنسة أن يحيا مسرحية اليونان الموسيقية بتحرير الأغنية من تعدد الأصوات الشديد ومن لغة القصائد

الغزلية المغرقة المكتومة، وريدها إلى ما كانوا يعتقدونه أسلوب المأساة القديمة الفردى (المونودى) . فقام أحدهم وهو فنشئو جاليلى ، أبو الفلكى ، بتأليف موسيقى مونودية لأجزاء من جحيم دانتي . ووضع عضوان آخران من الجماعة ، هما الشاعر اوتافيو رينوتشيني والمغنى ياكوبو بيرى ، النص والموسيقى لما يمكن أن نعله أول أوبرا واسمها « دافنى » ، وقد أخرجت فى بيت ياكوبو كورسى فى ١٥٩٧ (٦٢) . وقوبل الأداء بالاستحسان الكبير حتى أن رينوتشيني دعى إلى وضع الكلمات للحن أهم ، وبيرى وجوليو كاتشيني إلى تأليف موسيقى اللحن ، وذلك احتفالا بزفاف هنرى الرابع وماريا دى مديتشى بفلورنسة (٦ أكتوبر ١٦٠٠) . و « الأوريديشى » التى مثلت هناك هى أقدم الأوبرات الباقية على قيد الحياة . وقد اعتذر بيرى عن عيوب هذا العمل المستعجل ، راجيا « أن أكون قد فتحت الطريق لموهبة خيرى من المؤلفين ، ليتأثروا خطاى نحو هذا المجد الذى لم ينح لى بلوغه (٦٣) » .

هذا المجد بلغه أحد الفحول فى تاريخ الموسيقى ، وهو كلوديو مونتيفردى . حظى العزف على الكمان فى مسقط رأسه كريمونا ، حتى أنه عين عازفا للكمان فى قصر دوق مانتوا وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين (١٥٨٩) ، وفى الخامسة والثلاثين أصبح قائد فرقة المرتلين فى الكنيسة . وقد ندد النقاد تنديدا شديدا بكتبه الخمسة فى الأغاني الشعرية (١٥٨٧ - ١٦٠٥) لما أدخلوه عليها من تنافر شديد ، و « نقلات شديدة التحرر » ، ومتواليات هارمونية « غير قانونية » ، وخروج على قواعد مزج الألحان (الكونتر بنط) . كتب جوفانى أرتوزى فى « مثالب الموسيقى الحديثة » (١٦٠٠ - ٣) يقول « هؤلاء الملحنون المحدثون يخلو لهم فيما يبدو أن يخرجوا أعظم ما يستطيعون من ضوضاء بالجمع بين عناصر لا رابط بينها اطلاقا ومجموعات متعاطمة من الأنغام المتافرة (٦٤) » .

ووجه مونتيفردى محاو^٣ته المتهورة إلى الشكل الجديد الذى سمعه فى

فلورنسة ، فأخرج في مانتوا أول أوبرا من تلحينه ، وهى « أورفيو » أخرى (١٦٠٧) يشارك في عزفها أوركسترا من ستة وثلاثين عازفا . وسجلت الموسيقى والحركة في هذه الأوبرا تقدما عظيما على أوبرا « أوريديتشى » لبيرى . وفي الأوبرا الثانية التى لحنها مونتيفردى ، واسمها « أريانا » (١٦٠٨) كانت الحركة أشد مسرحية والموسيقى أكثر استهواء للسامعين . وبدأت إيطاليا كلها تردد عويل أريادنى التى هجرها حبيبها « دعونى أمت » ، وفي توسيع مونتيفردى للأوركسترا واعادة تنظيمه ، وفي تمييزه المتكرر لكل شخصية بلحن خاص ، وفي افتتاحياته (سنفونياته) التى استهل بها أوبراته ، وفي تجويده للموسيقى الصوتية والألحان ، وفي جمعه الحميم ، المعقد ، بين الموسيقى والدراما ، في هذا كله سجل من التقدم الحاسم فى الأوبرا ما كان يفعله معاصره شكسبير فى المسرح .

وانتقل مونتيفردى فى ١٦١٣ إلى البندقية قائدا للمرتلين بكنيسة القديس مرقس . ولحن مزيدا من الأغاني الشعرية ، ولكنه غير من هذا اللون الآخذ فى الانحلال مسرفا فى العنصر الالغافى اسرافا حدا بالنقاد إلى اتهامه بأنه يخضع الموسيقى للدراما (على نحو ما سبهم به برنبنى من اخضاع النحت للدراما) ، وما لاريب فيه أن أوبرا مونتيفردى — ككل أوبرا تقريبا — ضرب « من الباروك » الموسيقى . وافتتحت البندقية أول دار عامة للأوبرا « تياترو دى سان كاسيانو » ، وفيها استمر عرض أوبرا مونتيفردى « أدونى » من عام ١٦٣٩ إلى كرنفال ١٦٤٠ ، بينما كانت أوبرا أخرى له تسمى « أريانا » تشغل مسرحا آخر بين الحين والحين . فلما أخرج آخر أوبراته « تنويج البابا » (١٦٤٢) اغتبطت إيطاليا لأنها رأت أنه ما زال فى عنفوانه رغم بلوغه الخامسة والسبعين (شأن فردى الذى اخرج « عطيل » وهو فى الرابعة والسبعين) . وبعد عام مات تاركا دنيا الموسيقى بعد أن ألهمتها وجددت شبابها ثورته الخلاقة .

٦ - الآداب

يدهش المرء حين يرى إيطاليا جياشة بالعبقرية في كل ميدان ، حتى في فترة الاضمحلال المزعوم هذه . لقد كان عصرًا مثمرًا في الأدب الإيطالي كما وتوقدا ، ولا يحول بيننا وبين انصافه هنا سوى الافتقار إلى الوقت والحيز والمعرفة .

كان طبيعياً أن يضمحل العلم الإيطالي بعد ما لحق الهام الهضبة من كلال ، فما كان في الإمكان أن يمحى الناس في الكشف من جسد يد عن اليونان والرومان إلى ما شاء الله . لذلك ترك الاهتمام بالآداب إلى الأكاديميات الأدبية ، التي كانت محافظة بحكم نظامها . وكان لكل مدينة تقريباً في إيطاليا معهد أو جماعة منقطعة لبث الآداب وتبادل الشعر في سماحة . وقد سبقت أكاديمية كروسكا (أى الهشيم) التي أنشئت بفلورنسة عام ١٥٧٢ ، الأكاديمية الفرنسية إذ صنفت قاموساً للغة (١٦١٢ وما بعدها) وحاولت تنظيم الأسلوب والذوق الأدبيين .

أما المؤرخون الإيطاليون فكانوا خيرة مؤرخي العصر . وقد رأينا كتاب ساربي الناري « تاريخ مجمع ترنت » . كذلك أخرج الكردينال جويدو بنتيفوليو تاريخاً للثورة في الأراضي المنخفضة مشرباً بروح التعاطف الشديد . وكان من الجائز أن ينتج المزيد ، لولا أنه مات في مجمع الكرادلة في اللحظة التي بدا اختياره للبابوية قاب قوسين . وقد أفضى إلى موة ، كما يقول نيكبوس اريترأوس ، شخير كردينال في الحجرة المجاورة حرمه النوم إحدى عشرة ليلة متعاقبة (٦٥) . ومؤرخ آخر هو الكردينال شيزارى بارونبيوس صنف تاريخاً ضمماً للكنيسة (الحوليات الكنسية ١٥٨٨ - ١٦٠٧) يقع في اثني عشر مجلداً من القطع الكبير زاده العلماء بعد ذلك إلى ثمانية عشر . وكان حكم رانكيه عليها أنها عاطلة من التشويق (٦٦) ، ولكن جيبون وجد فيها عوناً له ، وقد بذل الكردينال جهداً مشكوراً

ليكون منصفاً ، فقال « سأشعر بالحب الصادق للرجل الذى يصحح أخطائى بكل صرامة وقسوة (٦٧) » ، وتكفل إسحاق كازوبن بهذه المهمة ، ولكنه أقفل عنها بعد أن كتب مقدمة ناقصة فى ثمانمائة صيفحة من القطع الكبير .

وأما المسرح فقد زكا ، ولكن الدراما اضمحلت . فقل من التمثيليات الباقية الذكر ما ألف ، ولكن كثر ما أخرج منها ، وأخرج بسخاء فى المناظر وبراعة فى التمثيل جعلت اينيجو جونز يعجب ويتعلم . واشتد الطلب على الممثلين الإيطاليين فى القارة طولا وعرضاً . وبينما كانت أدوار النساء يقوم بها الغلمان فى المسرح الإنجليزى ، كانت النساء يؤدنها فى إيطاليا . كان الناس يعبدون الممثلات ؛ وقد كتب تاسو سونيتة لأيزابللا أندريني ، التى لم تكن ممثلة جميلة فحسب ، بل شاعرة لا بأس بها وزوجة فاضلة كذلك .

وتطالعنا فى هذا العصر تمثيلتان ممتازتان ؛ من جهة لأنهما أرسنا لوناً جديداً على المسرح - وهو الدراما الرعوية . وقد أعطاها تاسو دفعة بتمثيلته « أمينتا » (١٥٧٣) ، أما جوفانى باتيستا جواريني فقد أخرج مثلها الكلاسيكى فى درامته « الباستور فيدو » (الراعى الوقى) (١٥٨٥) . قال تاسو « إذا لم يكن قرأ أمينتا فهو لم يقرأها » (٦٨) وقد وبخه الكردينال بللارمينى لما فى التمثلية من إباحية ، وقال إنها ألحقت بالعالم المسيحى من الضرر فوق ما ألحقته كل هرطقات لوثر وكلفن ؛ على أن البحث الدعوى لم يعثر على منظر أكثر وقاحة من منظر كورسيكا الجميلة وهى تقدم « تفاحتى » صدرها لسيلفيو الذى لا يقدرهما ، وهو صياد « يفرح بحيوان واحد يصيده . . . أكثر من فرحته بكل حوريات البحر » (٦٩) « وإذا استثنينا سيلفيو هذا وجدنا فى المسرحية - كمثل شعر هذه الفترة الإيطالى تقريباً - حرارة فى الحب تصهر الحياة كلها فى الحب . وتتجلى الحركة فى ضرب من « الأركاديا » الرعوية ، فى ذلك « العصر الذهبى الجميل ، حين كان اللبن غذاء الناس الأوحاد » ، فلا رذيلة ، ولا حزن يلوث الإنسان ، أما

الحب فخلو من كل لوم وقيد (٧٠). وتضافرت « أمينتا » ودرامة « الراعي الوفي » هذه ، وتمثيلية مونيايور « ديانا العاشقة » ، وتمثيلية مدني « أركاديا » وتمثيليه فلتشر « الراعية الوفية » لتطلق نصف جمهور القراء الأوروبيين ليسرحوا في المراعى .

وقد عدّ كرسشميينى من ناظمى السونيتة ٦٦١ فى إيطاليا لم يعيهم العثور على قواف رنانة لقصائدهم المغيرة قليلاً لسونيتات بترارك (٧١) . ومن أروع سونيتات العصر ما كتبه كامبانللا وبرونو ، وكأنه شرار نفثته نار فلسفتها . وقد هجا السانديرو تاسونى كتاب السونيتة وعشاق بترارك ومارينى وتاسونى قصيدة من عيون الشعر الإيطالى تدعى « الدلو المسروق » . وأبى الناشرون أن ينشروها لأن ضحيتها كان نبيلاً ذا سطوة ، ولكن الطلب عليها اشتد حتى لقد أثرى النساخ بلسخها ويبيعها بسعر ثمانية كراونات للمخطوطة ، وأخيراً طبعت فى فرنسا وهربت إلى إيطاليا . ولم يفتن القراء الإيطاليون بما فى تعليقاتها اللاذعة من ذكاء وحدة فحسب ، بل بفواصل من الشعر المصفى تخللت ذلك المرح الصاحب — قصة غرام أنديميون مروية جنباً إلى جنب تقريباً مع صورة لعضوفى مجلس الشيوخ يسافر إلى اللجنة على كرسي مرحاض .

ولم يزل تاسونى فيما حظى به من استحسان فى هذه الحقبة سوى شاعرين إيطاليين — هما تاسو وجوفانى باتيستا مارينى . أما جوفانى فقد ولد فى نابلى ونشئ ليكون محامياً ، ولكنه هجر المرافعات إلى القوافى ، واستمتع حيناً بحياة التشرّد . ثم منحه المريكز مانسو حجرة فى قصره مغتفراً له لإباحية شعره الغنائى ، وهناك استطاع الفتى أن يشهد ، على بعد خاشع ، تاسو المحزون المشرف على الفناء . ثم ألقي به السجن لأنه ساعد صديقاً على خطف فتاة ، ولما أفرج عنه مضى إلى روما ، حيث عينه الكردينال السمح بيترو ألدوبراندينو سكرتيراً خاصاً له . ثم اصطحبه الكرهيئال إلى تورين وهناك أخذه منه شارل إيمانويل دوق سافوا . وراح مارينى يرشف حيناً ما فى حياة البلاط من خمر وخل .

وتهم بشاعر منافس يدعى جيسارو مورتولا ، كمن له في الطريق ، وأطلق عليه النار ، ولكنه أخطأ وأصاب خادماً من خدم الدوق . وحكم على مورتولا بالإعدام ، ولكن ماريني حصل له على العفو ، وناله أشد النكران من غريمه . وبعد أن سجن ماريني عقاباً له على هجائيات موجهة ضد أصحابها توجيهاً مكشوفاً ، قبل دعوة من ماري مديتشي ليكون زينة بلاطها في باريس (١٦١٥) . ورحب به الإيطاليون في حاشيتها باعتباره الصوت المعبر عنهم في فرنسا ، وكان محل الإعجاب الشديد ، وتلقى وظائف شرفية دسمة ، وأجزل له النبلاء والنبيلات المال تمناً لنسخ من ملحمة « أدوني » قبل نشرها . ووجدت نسخة منها طريقها إلى الكردينال بنتيفوليو ، فناشد ماريني أن ينق القصيدة من فقراتها الفاجرة ، ولا ندرى إلى أى حد حاول المؤلف ذلك . ونشرت أدوني بباريس في ١٦٢٣ ، وأدرجت في قائمة الكتب التي تحرمها الكنيسة ، وأصبحت البدعة الفاشية في إيطاليا والموضوع الذي تلوكة الألسن . وحين عاد ماريني إلى نابلي (١٦٢٤) ، رمى قطاع الطرق عربة بالورد ، وخرج النبلاء لمرافقته ، وهفت الحسان إليه من شرفاتهن . ولم يمض عليه عام حتى مات غريباً متجاوز الثانية والخمسين وقد بلغ ذرى الثروة والشهرة .

أما أدوني هذه فقصيدة من عيون الشعر حتى في بلد يكاد الشعر أن يكون فيه كالغناء سجية وطبعاً . وطولها يوقفنا — ألف صفحة بها ٤٥,٠٠٠ بيت . أما أسلوبها فستغرق في كل ألعايب الكلام التي أطربت لايلى في إنجلترا ، وجوفارا وجونجورا في أسبانيا ، وبعض « متحدثات » الأوتيل درامبويه في فرنسا ؛ لقد كان التأنق اللفظي جزءاً من وباء أوربي . وكان لهذا الإيطالي الماهر غرام بالألفاظ يكاد يكون شهوانياً ، فراح يقذف بها في مفارقات رنانة ، وأخيلة غريبة ، وإطنابات بارعة ، بل في نكت وتوريات رشيقة . ولكن الجمهور الإيطالي في القرن السادس عشر ، بما طبع عليه من تدفق بالحديث الحار ، لم يسؤه هذا الولع بحيل الألفاظ والأعبيها .

حوامى بأس هذه الألاعيب اللفظية فى عصر كان أنشودة تسبيح للجنس فى شتى صوره - العادى منه والوحشى ، والشاذ ، والحرام ؟ هنا رويت أساطير هيلاس الغرامية فى رقة وظرف ، هنا يلهو مارس وفولسكان مع أفروديت ، وهنا زيوس يغوى جانيميد ، ومفاتن جسم الرجل هى حديث القوم السائر ، وحاسة اللمس يشاد بها لأنها المصدر المدهش لآلذة مباحج الإنسان . هنا تتغزل النساء والرجال والوحوش فى أدونيس البطل الذى حبه الآلهة حسن الصبايا كله ، وتتودد إليه فينوس يحيلها الناعمة ، ويحاول زعيم عصابة أن يجعل منه محظيته ، وينتهى أمر الفتى المحبوب حباً يوقفه موقف العاجز ، بأن يجرح فى أصل فخذه جرحاً مميتاً أصابه به خنزير برى مدفوعاً بأحرّ النيات الغرامية . ترى هل كان هذا التركيز المُنث على الجنس تفرجاً وملاذاً من الغلو فى الدين والإفراط فى تسلط الأسبان ؟

٧ نخب تاسو

توافر لتوركو اتو تاسو الكثير من المقرئيات بالشعر . ولد فى سورنتو (١٥٤٤) حيث البحر ملحمة ، والسماء أغنية ، وكل ربوة من الأرض أنشودة . وكان أبوه برناردو شاعراً ، وموظفاً فى البلاط ، وإنساناً مرهف الحس مشبوب العاطفة ، تأمر على الحاكم الأسبانى ، ونفى فى مملكة نابلى (١٥٥١) ، وجاب الأرض من بلاط إلى بلاط تاركاً وراءه زوجته وولده فى عوز وضنك . وتنتمى أمه بورنسيا دى روسى إلى أسرة توسكانية عريقة تجرى الثقافة فى عروقها . ودرس الصبى ثلاث سنوات فى مدرسة لليسوعيين بنابلى ، فشرب اللاتينية واليونانية فى جرعات تحطم الأعصاب ، ودرب على التقوى العميقة التى أثارت فيه الرجفة اللاهوتية تارة ؛ ووهبه السلام الذى يجل عن الوصف تارة أخرى . وفى العاشرة لحق بأبيه فى روما ، وتركه موت أمه بعد عامين شديد التأثير طويل الحسرة . ثم رافق أباه إلى أوربينو والبندقية ، وهناك نشر برناردو قصيدته « أماديجى » (١٥٦٠) التى حكى فيها بالشعر قصة غرام من العصر الوسيط .

وكان توركواتو نفسه يجيش الآن بالشعر . . أرسل إلى بادوا ليدرس القانون ، ولكن قدوة أبيه كانت أقوى من مبادئه ، فأهمل الفتى درس الشرائع وراح ينظم القوافي ، وكان منذ أمد بعيد قد وقع أسيراً لسحر فيرجل . فعزم الآن على أن يطبق الأسلوب المانتوى الرفيع الجاد على أساطير الفروسية التي عالجها أريوستو علاج المازح العاثر . وهكذا فاجأ أباه برواية في اثني عشر قصماً تسمى « رينالدو » . وكان شهجور برناردو مريجاً من الحزن والابتهاج ، فقد تكشف له ما سيلقاه من صروف الأيام شاعر لا يملك غير عبقريته ، ولكنه طرب لرؤية ولده الذي لم يجاوز الثامنة عشر ربيعاً ينافس أشعر شعراء العصر رقة وخيالاً . ونشرت الملحمة الصغيرة بأمره (١٥٦٢) . واغتنبت نفسه بما لقيت من استحسان ، فأذن لتوركواتو بأن يهجر دراسة القانون في بادوا ويستبدل بها الفلسفة والأدب . في بولونيا . وهناك أثارت موهبة الفتى المتاعب ، لأنه كتب « الأبحرمامات » اللاذعة في مدرسيه ، فهددوه برفع دعوى القذف ضده ، وعاد من فوره إلى بادوا .

واقنع برناردو الكردينال لويجي دسّي ، أخا الدوق الفونسو الثاني أمير فيرارا ، بأن يستخدم توركواتو سكرتيراً له (١٥٦٥) . والتحق الشاعر مغتبطاً بهذا البلاط الذي كان يعد يومها أروع زهرة في بستان الثقافة الإيطالية . هناك ألفى مجتمعاً يزخر بالموسيقى والرقص والأدب والفن والدسائس والحب . وافتنن تاسو بأختين للكردينال ، لوكريسيا المتغطرة بالحميلة بنت الواحدة والثلاثين ، وليونورا ، بنت التسعة والعشرين ، المعالولة التقية التي جعلتها مشاجراتها مع الفونسو معبودة البلاط . وتروى الأساطير (كما نقرأها في مسرحية جوته وفي قصيدة بايرون « عويل تاسو ») عن الشاعر وقوعه في غرام ليونورا ، وما من شك في أنه طارحها القصائد المشربة كما اقتضى العرف ، وفي أن السيدتين قبلتا في صداقة طوقت بهالة النبالة ، ولكن أحدهما كانت تكبره بأحد عشر عاماً ، والأخرى بتسعة أعوام ، ويبدو

أن واحدة منهما لم تمنحه شيئاً أذفاً من أذنها . ولم يتزوج تاسو قط ، إذ لم يكن في وسعه أن يعشق إلا أميرات ، أما الأميرات فلم يكن في وسعهن الزواج إلا من ذوى اليسار . ولعله خشي مطالب الزواج وقيوده ، ففسد جمع بين ضعف الثقة في قدراته ، والتهيه بشعره .

وفى عام ١٥٦٩ مات أبوه وهو لا يملك شروى فقير ، واضطر تاسو إلى الاستدانة ليدفنه . وبعد عام اصطحبه الكردينال دسسى إلى باريس ، فجزع حين وجد شارل التاسع يخاطب زعماء الهيجونوت في لطف وود ، وجاهر بتقد الحكومة على انسجامها مع المهرطقين . أما الكردينال الحريص على رضا الملك فقد رد سكرتيه المتعب إلى إيطاليا . ولم يغتفر له تاسو هذه الفعلة قط .

وعزى آل رنسو الشاعر بأن ألحقه بيته وأجرى عليه معاشاً سنوياً دون أن يحمله من المسؤوليات شيئاً غير أن يهدى الدوق الملحمة التى عرف أنه يكتبها عن الحرب الصنيية الأولى . تلك كانت سنوات سعيدة بالقياس إلى غيرها . ففي صيف عام ١٥٧٣ أنجز في البلاط درامته الرعوية « أميننا » ، وقد أثلج صدره ما لقيت من نجاح . فسادة فيراراً وسيداتهما الذين كانوا يعيشون على استغلال الفلاحين انتشوا حين رأوا نعيم الريفين — على المسرح . وأطربت كل وجهاء البلاط صورة العصر الذهبى الذى كانت فيه كل الأشياء السارة حللاً وخيراً :

لك الله أيها العصر الذهبى الجميل !

لست جميلاً لأن أنهارك كانت تفيض لبناً ،

ولا لأن أشجارك كانت تقطر مناً ،

بل لأن ذلك الألم الكاذب الذى خلقناه لأنفسنا ،

وصنم الخطيئة ، ذلك المحتال المعبود ،

وذلك الشرف — الذى سمته كذلك عقول العوام المرتاعة — ،

لم يكن قد استبدت بطبيعتنا بعد ،

لم يكن قد جاء ليكدر صفو الخطيرة الحلوة السعيدة ،
 خطيرة البشرية الوادعة ،
 ولا قيد نامومه القاسى نفوساً ربيت على الحرية ،
 بل كان هناك قانون جميل ،
 قانون ذهبي سعيد ،
 خطته يد الطبيعة :
 « كل للزيد حلال » (٧٣)

ولكن جرأة الروح غير المعهودة فيه فارقتة حين وجد نفسه ينهى
 ملحمة « أورشليم المحررة » (١٥٧٤) . لقد كان هذا الجهد ذروة جهود
 حياته ، فلو أنه باء بالفشل ، أو لو أن الكنيسة أدانته بالإباحية أو الهرطقة
 لودع السعادة إلى الأبد . وفي رهبة وخوف بعث بمخطوطته إلى سبعة نقاد
 مستفتياً في حبكة القصيدة وشخصها ولغتها وآدابها . وقد بلغ نقدهم لها
 من الكثرة ما جعله يلقي القصيدة جانباً لأنه لم يعرف كيف يرضيهم جميعاً .
 فظلت محبوسة عن النشر خمس سنوات . إنه وهو علم بأنه كتب رائعة
 اشتط في مطالبه من النقاد ومن الحياة . وقد اعترف بأنه « لم يطق العيش
 في مدينة لا يخلى نبلاؤها مكان الصدارة له ، أو على الأقل يسوون بينه
 وبينهم مساواة مطلقة » . ولا ريب أنه كان يستحق هذه المساواة ، ولكنه
 أضاف أنه « كان يتوقع أن يعبداه الأصدقاء ، ويخدمه الخدم ، ويعانقه
 أهل البيت ، ويكرمه السادة ، ويحتفل بذكره الشعراء ، ويشير إليه الجميع
 بأصابعهم » (٧٤) وكثرت في فترارا فئة تنقد شعره ، وخلقه ، ودعاواه .
 فبدأ يحلم بمكان ألين في قصور أطف وأرق .

كانت المنغصات البدنية والنفسية قد هزت أعصابه : حمى الملاريا ،
 ونوبات الصداق المتكررة ، والصدمات المتراكمة إثر نفى أبيه ، وموت
 أمه ، وإملاق أبيه وهو مشرف على الموت ، يضاف إلى هذا كله أن
 الشكوك اللاهوتية التي ساورتها - شكوك الجحيم والخلود ، وألوهية المسيح -
 ألقت على عقله ظلالاً ثقيلًا من الاحساس بالإثم ودفعته إلى الاكثار من

الاعتراف وتناول الأسرار (٧٥) . وقد وقر في نفسه أنه مارس قوة السحر الأسود (أى الشيطاني) ، وتراءت له الروى المرعبة عن الدينونة الأخيرة ، وشهد الله يسوق المالكين إلى النار الأبدية (٧٦) . وانتابته أوهام الاضطهاد — فخامرته الظنون في أفشاء الخدم لأسراره ، واعتقد أن أمره أبلغ لمحكمة التفتيش ، وتوقع كل يوم أن يدس له السم . لقد كان ضيفا عسير الارضاء (٧٧) .

ولكن الفونسو ترفق به ؛ ذلك أن أروع قصائد العصر — برغم كل شيء — أهديت إليه وأفردت نصف قسم منها (السابع عشر) للأشادة بنسبه . فأعفى الشاعر من الحضور إلى البلاط ، وأرسله إلى فيللا بلريجواردو اللطيفة ليعيه على التغير والسكينة . ولكن صبره نفذ حين وجد أن تاسو يتفاوض خفية مع فرانيسكو مديتشي — أقوى منافسى الفونسو وأعدى أعدائه — ليقبله متقاعدًا معاش في بلاط فلورنسة . وفي نوفمبر ١٥٧٥ غادر الشاعر فيرارا زاعما أنه ذاهب إلى روما لينال غفران اليوبيل . ومضى إليها ، ولكنه عرج على فلورنسة مرتين في الطريق . على أنه لم يقع من نفس الدوق الكبير موقعا حسنا ، وكتب فرانيسكو إلى صديق له (٤ فبراير ١٥٧٦) يقول « لست أدري هل أدعوه إنسانا مجنونا أم ذكيا مسليا » ، وبعد عام قرر أنه « ليس في حاجة إلى وجود رجل مجنون في بلاطه » (٧٨) وقفل تاسو إلى فيرارا كسير الخاطر محزونًا .

وطلب إلى الفونسو أن يعينه في وظيفة المؤرخ الرسمي للبلاط ، فنال الوظيفة . وفي يناير ١٥٧٧ مثل أمام محكمة التفتيش في بولونيا واعترف بأنه ارتاب آثما في العقيدة الكاثوليكية ، وأعادته المحكمة بكلمات من المواساة والتشجيع . وفي يونيو من ذلك العام ، بينما كان في مسكن لوكريتسيا دسى ، شهر سكينه على خادم أثار شبهته . فأمر الفونسو بحبس الشاعر في حجرة بالقلعة ، ولكنه أفرج عنه بعد قليل وأخذ به إلى بلريجواردو . كتب تاسو يقول ان الدوق عامله « وكأنه أخ له لا أمير عليه » (٧٩) . وطلب

الشاعر أن يرسل إلى دير القديس فرنسيس ، فأمر الفونسو بارساله إليه ، وأوصى بأن يعطى مسهلا . وخضع تاسو ، ولكن ثأثرته ثارت في الدير ، فاتهم الرهبان بأنهم يغشون نبيذه ، وطلب الرهبان اعفاءهم من وجوده . فرد إلى قلعة الدوق ووضع تحت الحراسة . ولكنه هرب متخفيا في ثوب فلاح ، وضرب في الأرض سيرا على قدميه وحيدا عبر الأبنين حتى بلغ بيت أخته كورنيليا في سورنتو . قاستقبلته بخنان مشرب بالحبّة .

وكان ممكنا أن يظفر بشيء من صفاء الذهن والسعادة هناك لولا قلقه على مصير القصيدة العظيمة التي ما زالت محبوسة عن النشر والتي خلفها وراءه في فيرارا ، ولعله بعد أن طال إلفه لحياة القصور افتقد أسباب الراحة التي صاحبت شدائده ، فذهب إلى روما ورجا سفير فيرارا أن يتشفع له عند الفونسو . وأرسل الدوق مالا للعناية به ووافق على عودته شريطة أن يتعهد بالتزام الهدوء والخضوع للعلاج الطبي . - وحين وصل إلى فيرارا (١٥٧٨) أعطى مسكنا خاصا خارج القصر ، وزود بخادم ، ووافوه بالطعام من مائدة الدوق . وقبل تاسو المسكنات والمسهلات طائعا ، وواصل كتابة الشعر الرائع . ولكنه كان يأمل في العودة إلى مكان الخطوة في البلاط ، فوجد بدلا من هذا أن كل إنسان تقريبا يعامله كأنه مجنون . ولم يعد الدوق ولا الأميرتان يسمحون له بمجالستهم . أما شر الاهانات فأمر الفونسو بأن تؤخذ مخطوطات الشعر منه ، ومن بينها « أورشليم » مخافة أن يتلفها .

وفي يونيو ١٥٧٨ هرب تاسو مرة أخرى من فيرارا ، وذهب إلى مانتوا وبادوا والبندقية وأوربينو وتورين . وهناك أكرم الدوق شارل ايمانويل مثواه ، وبذل له كل أسباب الراحة التي عهدا في فيرارا . ولكن ما مضت ثلاثة أشهر حتى اتبس الشاعر القلق من الفونسو أن يرده ، ربما حرصا منه على استرداد مخطوطاته . ووافق الفونسو ، وفي فبراير ١٥٧٩ أسكن تاسو مرة أخرى قصر الكردينال لويجي دسّي . ولكن الفونسو

التواق إلى وريث كان يتزوج للمرة الثالثة ، ولم يكن ليعير الشعراء أذنه ، ولم يدع تاسو إلى الحفلات . وظل أسبوعين يحتمل هذا الإغفال مغيظا محققا ، وأخيرا غادر مسكن الكردينال (١٢ مارس ١٥٧٩) ، واقتحم قصر بونتيڤولى وهو يصبح مهاجما الدوق ، والدوقة الجديدة ، وجميع الحاشية . وجرى إلى القلعة ، مصرا على لقاء الدوقة واستعادة مخطوطاته . وأمر الدوق بإيداعه مستشفى قريبا لمرضى العقول يدعى سانتانا ، وهناك ظل حبيسا أكثر من سبع سنين .

لم يكن مجنوناً جنوناً مطبقاً . فقد كانت له أويقات صفاء كتب فيها الشعر واستقبل الأصدقاء . وزعم مونتيني أنه زاره . ووقدت عليه سيدات من البلاط ليطيبن خاطره ، واصطحبته لوكريتسيا مرة لبيتها فى بلفيدري ، ولكن عنفه روعها فرد إلى المستشفى بناء على طلبها . لقد كان العقل المخطم نهبا لرعب متقطع تثيره هلوسات بأصوات أشباح يسمعها ، وبأرواح علوية تغزو حجرته وتسطو على قصائده .

وأخيرا نشرت ملحمته . ذلك أن المحتفظين بمخطوطتها أرسلوها للناشرين بعد أن علموا أن قراصنة الكتب نسخوها (١٥٨٠) . وظل النقاد يتسخطون الأخطاء فيها ، ولكن إيطاليا استقبلتها استقبالا حماسيا ، وأطرى رجال الكنيسة موضوعها وتقواها . وتتابعت طبعات القصيدة ، وبيع منها فى يوم واحد ألفا نسخة ، ورددت البيوت والقصور أنغامها ، واختلف الناس فى أمر تاسو ، أ يضعونه فى صف أريوستو أم فى صف بترارك . وفضل فولتير القصيدة على الالباذة وهو على ما نعلم من بعد عن التحيز للمسيحية (٨٠) . أما اليزابث ملكة إنجلترا فبعد أن استمعت إلى أجزاء منها مترجمة إلى اللاتينية حسدت دوق فيرارا على أنه عثر على هوميروس بخلد ذكره (٨١) .

ونستطيع إذا همزنا حاستنا التاريخية أن نبدأ فى فهم السبب فى استجابة أوروبا بهذه الحماسة لهذه القصة المثيرة — قصة الحرب الصليبية الأولى .

لقد رحبت بها باعتبارها ملحمة العالم المسيحي التي طال انتظارها ومست الحاجة إليها . ذلك أنه حين بدأ تاسو قصيدته كانت أوروبا تحشد الأسطول الذي التحم بالأتراك في ليبانتو . ودارت رحى المعركة الهائلة بينما الشاعر ينظم ملحمة ، وكسب الأوربيون المعركة ، ولكن انتعاش الأتراك السريع كان يهدد أوروبا ، لا سيما إيطاليا ؛ وتعرضت روما ، معقل المسيحية ، للخطر والقصيدة تكتمل . وساد الخوف من الاسلام أرجاء العالم المسيحي إذ ذاك ، كخوف أوروبا اليوم من شرق نفخت فيه الحياة من جديد . وفي هذا الجو قرأ الرجال والنساء في شعر يأخذ بالالباب قصة تشدد عزائمهم إذ تحكى كيف قاد جودفرى أمير بويون في ١٠٩٩ جيشاً مسيحياً ظافراً برغم ما لحقه من ضربات واستولى به على أورشليم .

وهكذا يبدأ تاسو قصيدته متفاخراً ، ذاكرة عبارة فيرجل « Arma virumque cano » ومتحدثاً إليها ، « ائى أتغنى بذكر الجيوش الصالحة والقائد الذي حرر قبر المسيح العظيم » . وهو يناشد ربة الشعر أن تلهب صدره بحماسة من السماء ، ويهذى قصيدته إلى الفونسو ، الأمير الهمام الذي أنقذه من زعازع الخطر وهياً له مرفأ طيباً . ويرسل الله رئيس ملائكته جبريل ليأمر جودفرى بأن يحزم أمره ويزحف قدماً على أورشليم . وحين يدنو المسيحيون من المدينة يأمر حاكمها التركي علاء الدين رجاله بأن ينقلوا تمثالاً للعدراء من كنيسة مسيحية إلى جامع للمسلمين ، مؤمناً بأن التمثال سيجلب النصر لمالكه . على أن التمثال يسترد فيخفيه للمسيحيون ، ويأمر علاء الدين بذبح كل من بقى بأورشليم من المسيحيين . وتقدم العدراء سوفرونيا نفسها قرباناً عن شعبها ، وتخبر علاء الدين كذباً أنها سرقت التمثال وأحرقته ، فيحكم بحرقها . على أن حبيبها الذي لا تبادله الحب ، أوليندو ، يحاول افتدائها ويزعم أنه المذنب ، فيحكم عليهما جميعاً بالموت ، ولكن البطلة المسلمة كلوريندا تنقذهما . ويدعو بلوتو رب العالم السفلى مجمعا من أتباعه للنظر في طرق هزيمة المسيحيين الذين يحاصرون المدينة ،

فيقع اختيارهم على أرميدا الحسنة أداة لتنفيذ خططهم ، وهى عذراء دمشقية ذات قوة سحرية . ويقع رينالدو وغيره من الفرسان فى فخ حديقته المسحورة ، ويرتاح رينالدو بين ذراعيها . أما تانكرد ، الفارس المسيحى المثالى ، الشهم الهمام ، فيعجب بشجاعة كلوريندا ويقع فى غرامها برغم حواجز العقيدة . وفى جزء من أجمل أجزاء القصيدة (١٢) تنحى كلوريندا وتقاتل تانكرد حتى تقتل ، ثم تتوسل إليه وهى فى الزرع أن يدخلها فى دينه . ويرسل جودفرى الحند للثور على رينالدو والفرسان المفقودين ، فيكتشفون قلعة أرميدا ، ويتجنبون « الحسان العرايا » اللآى يسبحن فى بركتها ، ويحررون الأسرى . وتغضب أرميدا لهجر رينالدو لها ، فتعرض نفسها مكافأة لمن يقتله . ويضطلع تسيفرنيس بالمهمة ، ولكن رينالدو ينفذ رحمه فيه . وتوى أرميدا الانتحار ، لكن رينالدو يثنيها عنه بحب متجدد ، فترضى اعتناق المسيحية ، وتستسلم له بعبارة مريم العذراء « هوذا أنا أمة الرب » . ويتسلق المسيحيون الأسوار ، ويذبحون جيش المسلمين ، ويقدمون الشكر لله . ولكن القصة لا تسترسل إلى ذكر حرق اليهود .

كان أريوستو يرمى قصة الفروسية بابتسامة ساخرة . أما تاسو فقد أحياها بملء الجهد ، وأضاف سحر العصر الوسيط ومعجزاته إلى الجهاز الكلاسيكى - جهاز الأرباب التى تتدخل فى الأحداث . وكانت الحركة المعارضة للإصلاح البروتستنتى قد قعحت حينئذ روح الفكاهة الإيطالى القوى . والافتقار إلى الفكاهة مهد لجنون تاسو ، فالكون يجب ألا يؤخذ مأخذ الجدل الخالص . ولكن تاسو فى ملحمة هو الإيمان غير منازع ، والعاطفة لا تخفف لها . وهو يزين القصيدة بأخيلة جعلت جاليليو يشبهها بمتحف من الغرائب (٨٣) ، ويكتب نقداً غاضباً على هامش نسخته (٨٤) . والتقليد فى الملحمة واضح : تقليد هومر فى مناظر القتال ، وفيرجيل فى زيارة الجحيم ، وأريوستو فى الغراميات ، وفيرجيل ودانتى وبتارك فى الأفكار وفى أبيات بأسرها . أما السحر فصبيانى ، وأما الأمازونيّات فغير معقولات . ولعل ملحمة «أورشليم»

ليست ضربياً في عظمتها للإلياذة، ولا آخذة بالألباب كالأوديسة ، ولا رفيعة كالأنياذة ، ولكنها تحتفظ بتشويق القارئ كأي ملحمة ، وأسلوبها مرصع بانعاشات النغم وتدفقاته الموقفة ، وشخصها حية ، وأحداثها مذابة بمهارة في موضوعها الرئيسي . وكثير من مشاهدتها وأحداثها ألهم الفنانين لوحات شهيرة . وقد أعان شعرها وروحها سبذسر على تأليف ملحمة « ملكة الحان » . أما مقاطعها فحين لحت كانت عزاء للملاحى الجندولا البنادقة عن رتبة عملهم المضنى .

لم يحن تاسو في أوقات صفائه غير السرور القليل ، والرج الأقل ، من تجاح قصيدته . فلم ينل فلساً واحداً من الناشرين . وكانت أوقية من اللوم ترجع عنده رطلا من المديح كما هو الشأن مع أكثر المؤلفين . وقد جزع حين قرأ النقد القاسى الذى وجهه إليه نقاده ، الذين زعموا أن قوافيه فى أكثرها ليست إلا صلصلات ، وأن مشاهد حبه مسرفة فى الشهوانية ، وأن مسلميه يثرون الإعجاب فوق ما ينبغى ، وأن بطالاته فى الأغلب مسترجلات . ولكن باقى الإيطاليين هللوا له كأنه فرجيل ولد من جديد ، وعلت الأصوات مطالبة بمعاملة أرفق للشاعر المنكوب . على أن زواره رأوا حاجته للملاحظة الدقيقة ، وأن الفونسو يعالج الأمر بكل الرعاية التى تتوقع من رجل أسىء إليه كثيراً وشغلته تبعات الحكم .

وصلحت حال الشاعر . وفى يوليو ١٥٨٦ حصل فنشنتزو جونزاجا ، الوريث الشرعى للدوقية مانتوا ، على الإفراج عنه بعد أن تعهد بالعناية به . وعاش تاسوفى مانتوا شهراً ثم رحل عنها إلى برجامو ، ومودينا ، وبولونيا ، ولوريتو ، وروما ، يبيع قصائده ومدائح لمن يشتريها . ولقى حسن الاستقبال فى روما ، ولكنه سرعان ما بدأ الترحال من جديد ، فضى إلى سينا ، ففلورنسة ، ثم عاد إلى مانتوا ، ثم لنابلى مرة أخرى ، حيث صادقه المركزى مانسو ، ثم عاد إلى روما حيث أنزله الكردينالان تشنزيو وألدوبراندينو مسكنهما بالفاتيكان (١٥٩٤) . وأراد العودة إلى

فيرارا لموت فيها ، غير أن الفونسو رفض الأذن له . ورتب له البابا كلمنت الثامن معاشا وأعد العدة لتويجه شاعراً . للبلاط البابوي . ولكن فى أبريل ١٥٩٥ لم يكن بد من نقل الشاعر الذى أنهارت قواه وأدركته الشيخوخة والعجز وهو بعد فى الحادية والخمسين ، إلى دير سان أونوفريو بروما ، ليجد رعاية أفضل . هناك ، وبعد غصبة أخرى من غصباته ، مات (٢٥ أبريل) وهو يتعم « فى يديك يا رب أستودع روحى » ووضع على نعشه أكليل الغار الذى لم يعش ليلبسه . وحل جثمانه فى مشهد إلى كنيسة القديس بطرس وخرج منها تشيعه حاشية البابا وأشراف روما وعلمائها ، وووروى التراب فى كنيسة الدير وفوق مثواه قبرة بسيطة ، « هنا يرقد توركوأتوس تاسوس » وأصبحت الصومعة التى نزلها مزارا للحجاج كما هى اليوم .

٨ - مجيء الباروك : ١٥٥٠ - ١٦٤٨

كان الفن الكلاسيكى - كالبارثينون وأفريزه ، ومنحوتات ميرون وبواسكايتوس ، وساحة روما ، والایناد ، وستانزارفائيل بالفاتيكان ، وصور كنيسة مديتشي لميكلائنجاو - هذا الفن كان اختزال الفوضى إلى نظام ، والتعدد إلى وحدة ، والحركة إلى ثبات ، والشعور إلى فكر ، وغير المميز إلى مميز ، والمعقد المبهم إلى البسيط الواضح ، كان المادة مصوغة فى الشكل . ولكن كل شئ حتى الكمال يزهد الناس حين يطول به العمر . فالتغيير ضرورى للحياة ، والחס ، والفكر ، والحديد المثير قد يبدو جميلا لهذه الجدة ذاتها ، حتى يعود القديم المندى على عجلة الزمن فيرحب به الناس على أنه فنى وجديد . وهكذا طردت النهضة الفن القوطى من إيطاليا باعتباره فنا همجيا ، حتى إذا ضاق الفنانون ورعاة الفن بالنسب الحميلة والتناسق المقيّد ، وضحكوا كما ضحكتم تماثيل الكاندرائيات البشعة الوجوه على الأعمدة والاعتاب ٢٩ - ٥ الحصار

والقواصر الكلاسيكية ، أعادوا الروح القوطية ممثلة في شذوذات الباروك وتفصيلاته الزاخرة بالحيوية والمرح (*).

كان الفن الكلاسيكي ينشد الافصاح عن الموضوعي ، اللاذقي ، الكامل ، أما الباروك فقد أتاح للننان الفرد ، حتى لتزوته العارضة ، أن تجد التجسيد في عمل لا يمثل موضوعا يصور تصويرا واقعيا (كما في التصوير الهولندي) بقدر ما يمثل انطبعا أو شعورا موضعاً عن طريق أشكال متخيلة جزئيا . وهكذا نرى أن صور الجريكو النحيلة الطويلة ليست صور رجال أسبان بل صور ذكرياته أو بدواته هو ؛ وصور العذراء التي رسمها موريللو وجويدو ريني لم تكن صور الأمهات المرهقات اللاتي عرفاهن بل الورع المثالي الذي طلب إليهما التعبير عنه . يضاف إلى هذا أن بلدا كإيطاليا زلزلت إحساسه حركة الإصلاح البروتستانتي وشهد عاطفته الدينية من جديد أفراد كلويولا ، وتريزا ، وزافير ، وشارل بوروميو - إيطالية ما بعد لوثر هذه ما كان في الأماكن أن تستكين إلى سلام المثل الكلاسيكي ، ذلك السلام الهادئ الفخور ، لذلك راحت تؤكد عقيدتها من جديد ، وتبدى رموزها في تحد ، وتزين هياكلها ، وتسكب في الفن دفئا جديدا من اللون والاحساس ، وتنوعا جديدا وحرية في التركيب والحركة لا يمكن التنبؤ بها ، انطلقت من عقال القواعد والضوابط والخطوط الكلاسيكية . لقد أصبح الفن تعبيرا عن الشعور بالحية ، لا ضغطا للفكر لإحداث الشكل .

أما العمارة فلم تعد رياضيات يونانية أو هندسة رومانية ، بل موسيقى ، وأحيانا أوبرا ، مثل دار الأوبرا في باريس . واتجه المصممون والبنائون من الثبات إلى السيولة والايقاع ، فرفضوا التناسق الساكن مؤثرين عليه عدم التوازن وعدم الوحدة المتعمدين ، وفصصوا

(*) الباروك مشتقة من الكلمة البرتغالية barroco ، وهي صفة غير منتظمة الشكل كثيراً ما تستعمل حلية .

الأعمدة والأعتاب أو لوهها عن قصد . وشموا السطوح الساذجة والكتل الثقيلة ، وقطعوا الكرانيش ، وشطروا القواصر شطرين ، وبعثروا النحت في كل اتجاه . أما المثالون فقد ضاقوا بأطراف الجسد الكاملة ، والملاحح الساكنة ، والوقفه الأمامية الحامدة ، فانخذوا لأشكالهم أوضاعا غير متوقعة ، داعين الناظر إلى اتخاذ نظرات متنوعة ، واستخدموا مؤثرات التصوير في صناعة التماثيل ، فنحتوا الأضواء والظلال في الحجر ، والحركة في الجسد ، والفكر والشعور في الوجه . وأما المصورون فتركوا الخطوط النقية ، والضوء الصافي ، والسكينة البريئة - تركوا هذا كله لبيروجينو ، وكوريدجو ، ورفائيل ، وغمروا الدنيا في اللون كما فعل روبنز ، أو ظللوه بالغموض كما فعل رمبرانت ، أو أيقظوها للحس مثل ريني ، أو كدروها بالعذاب والوجد مثل الحريكو . وأما نقاشو الخشب فبعثروا الزخرف على الأثاث ، وأما صانعو الأدوات المعدنية فقد حولوا مادتهم إلى أشكال غريبة أو مضحكة . وحين عهد اليسوعيون عام ١٥٦٨ إلى فينولا برسم « كنيسة يسوع » في روما ، اشترطوا أن تجمع كل الفنون في فيض من الأعمدة ، والتماثيل والصور ، والمعدن النفيس ، تصميم لا للتعبير عن الهندسة ، بل لتلهم الإيمان وتشيعه في النقوس .

ولما كانت إيطاليا لا تزال في الفن قائدة أوربا ، فإن الأسلوب الجديد في الزخرفة والعاطفة والتعبير لم ينتقل إلى أسبانيا وفلاندر وفرنسة الكاثوليكية فحسب ، بل حتى إلى ألمانيا البروتستنتية حيث بلغ بعضاً من أكثر أشكاله مرحاً وبهجة . أما الأدب فأحس تأثير الباروك في لعب ماريني وجونجوزا ولايلي المسرف بالألفاظ ، وفي لغة شكسبير الرنانة الطنانة ، وفي مسرحية مارلو « الدكتور فاوستس » ومسرحية جوته « فاوست » . وأما الأوبرا فما هي إلا موسيقى بأسلوب الباروك . على أن الأسلوب الجديد لم يحقق انتصاراً في كل مكان ، فقد آثر الهولنديون الواقعية الهادئة على انفصالات

الباروك : وفيلاسكوز في أفضل أعماله كلاسيكي أو واقعي ، أما سرفانتس فبعد أن عاش حياة رومانسية ألف « دون كخوته » في أتران وهدوء كلاسيكيين . ولكن هل كان الفنانون والأدباء الكلاسيك دائماً كلاسيكيين ؟ وهل هناك أكثر باروكية من لاوكون المناضل ، القبيح ؟ إن التاريخ يتسم سخرية من كل المحاولات التي تبذل لإكراه مياحه على أن تجرى في قوالب نظرية أو أخاديد منطقية ، وهو يعبث أشد العبث بتعميماتنا ، ويحطم كل قواعدها . إن التاريخ ضرب من الباروك .

على أن عاملاً قوياً واحداً ظل ثابتاً في الفن الإيطالي ، فما زالت الكنيسة أنشط رعاته وأقدرهم على تشكيله . كان هناك بطبيعة الحال رعاة آخرون ومؤثرات أخرى . فقد شيدت أسر الأمراء والكرادلة المثقفون القصور الخاصة ، وواصلوا في تزيينها بعض الموضوعات الوثنية ، مثال ذلك أن أودواردو فارنيزي عهد إلى المصورين كاراتشي بأن يرسموا له « انتصار باخوس » و « حكم الغرام » . ولكن مجمع ترنت وحركة الإصلاح الكاثوليكي التالية له حددا للفن اتجاهاً أكثر صرامة ، فراجعت الأجساد العارية من الفن الإيطالي ، ولم تعد الموضوعات الدينية تستخدم مطية للحس ولم يثن البابا كلمنت الثامن عن تغطية لوحة ميكيلانجلو « الدينونة الأخيرة » كلها ، وسراويل دانييلي دا فولتيرا وما حولها ، إلا توسلات فناني روما . وقد دافع المجمع عن الصور الدينية ضد هجمات الهيجونوت والبيوريتان ، ولكنه أصر على أن توحى هذه الرموز بالخشوع لا أن تلهب الدم العروق . وبينما استنكر المصلحون عبادة مريم والابتهالات إلى القديسين ، روى مصورو إيطاليا ومثالوها في فترة معارضة الإصلاح البروتستنتي ، من جديد ، عذابات الشهداء ، ورووها بواقعية قاسية أحياناً ، وحكوا مرة أخرى قصة العذراء أم الإله ، بعاطفة واعية . وتعاون حرص الكنيسة على تجريد الفن من الوثنية وبث العقيدة والتقوى

في النفوس ، مع انتكاسات إيطاليا السياسية والاقتصادية ، على جعل هذا العصر آخر صدى من أصداء النهضة .

٩ - الفنون في روما

ظلت روما قصة العالم الفنية . صحيح أن عصر التصوير الروماني العظيم قد انتهى ، ولم يعد الآن إيطالي ينافس روبنز أو رمبرانت ، ولكن العمارة الرومانية أزهرت ، وظل برنيني أشهر فناني أوربا طوال جيل من الزمان . ومع أن بولونيا سطت على زعامة روما في التصوير ، فإن نجوم هذه المدرسة كانوا يفدون على روما استكمالاً لازدهارهم ، وقد وصل فازاري عام ١٥٧٢ ليرسم الصور الحصية للصالة الملكية في الفاتيكان . واحتشد في « بوتيجي » روما الرسامون الذين مازالوا محل التبجيل من أقلية مغرمة : ناديو وفديريجو زوكارو ، وجيرولامو موتريانو ، وفرانشيسكو دي سالفاتي ، وجوفاني لانفرانكو ، وبرتولوميو مانفريدي ، ودومنيكوفيتي وأندريا ساكي . وأكثر هؤلاء يصنفون عادة تحت اسم « أصحاب الازمات » — أي الفنانون المقلدون لطريقة فنان بعينه من أساطين الفن أيام عز النهضة ، ويجوز أن نعتبر هذه « اللازمة » (١٥٥٠ - ١٦٠٠) مرحلة أولى للباروك .

أما فيديريجو زوكارو فقد نشر قلوبه فوق أمم أربع . ففي فلورنسة أكمل الصور الحصية التي بدأها فازاري في قبة الكتدرائية ، وفي روما رسم « المصلى البولسي » في الفاتيكان ، وفي فلاندر رسم سلسلة من الرسوم الهزلية ، وفي إنجلترا رسم لوحات مشهورة للملكة إليزابيث وللماري ستوارت ، وفي أسبانيا شارك في زخرفة الأسكوريال ، وحين عاد إلى روما أنشأ أكاديمية القديس لوقا ، التي أوحى نظامها لرينولدز بأكاديمية الفنون الملكية بإنجلترا . وكان الإقبال على فنه أعظم من جميع الرسامين الإيطاليين في ذلك الحيل ، ولكن الخلف فضلوا عليه بييترو بيريتيني

داكورتونا . وبروح الكفايات المتعددة التي أثرت عن فنانى النهضة صمم بييترو قصرى باربرينى وبامفيلى بروما ، ورسم فى قصر بينى بفلورنسه صوراً جصية تزخر بالأشكال الغريبة فى كل غزارة الباروك وتدققه .

أما القطب الحقيقى للتصوير الرومانى فى هذا العهد فهو ميكلائنجلومريزى دا كارافادجو . كان رجلاً فيه روح تشللىنى ، وقد ولد لبناء بالحجر فى لومبارديا ، ودرس فى ميلان ، وانتقل إلى روما واستمتع بعدة مشاجرات ، وقتل صديقاً فى مبارزة ، ثم هرب من السجن ، وفر إلى مالطة وقطانيا وسيراقيوز ، ومات بضربة شمس على أحد شواطئ صقلية وهو فى الرابعة والأربعين (١٦٠٩) ، وفى الفترات التي تخللت هذه المغامرات أحدث ما يشبه الثورة فى مزاج التصوير الإيطالى وأسلوبه . وقد أحب التناقضات العنيفة بين الضوء والظل ، واستخدم حيلة كإضاءة المنظر من مدفأة مخفاة ، وشكل صورته بالضوء ، وأخرجها من خلفية معتمة ، وبدأ فى إيطاليا عهد « الفن المعتم » الذى تزعمه جويرتشينو ؛ وريبيرا ، وسلفاتور روزا . وإذا احتقر عاطفية الرسامين البولونيين المثاليه ، فقد روع العصر بواقعيته التى أشرفت على الوحشية . كان إذا تناول موضوعاً دينياً يجعل الرسائل والقديسين يبدون وكأنهم عمال ضخام غلاظ نقلهم عن عمال أرصفة الموانى . وقد أكسبته « لوحة لاعبي الورق » (المحفوظة بمجموعة روتشيلد بباريس) شهرة دولية . أما لوحة « الموسيقين » - وهم ثلاثة من المغنين وعواد جمل - فقد تراكم عليها التراب ثلاثة قرون قبل أن يعثر عليها فى متجر للتحف القديمة بشمالى إنجلترا حوالى ١٩٣٥ ، ويبيعت لجراح بمبلغ مائة جنيه ، ثم اشتراها متحف المتروبوليتان بنيويورك (١٩٥٢) بخمسين ألف دولار . وقد درجت الكنيسة على رفض صور كارافادجو الدينية باعتبارها مشرفة فى الابتذال مفتقرة إلى السمو ، أما اليوم فهى مشتهى كل ذواقه للفن . وقد بلغ إعجاب روبنز بلوحة هذا الإيطالى المسماة « مادونا ديل روزاريو » مبلغاً حمله على جمع ١,٨٠٠ جولدن من فنانى أنتورب ليشتريها

ويهدىها إلى كنيسة القديس بولس (٨٥) : ولوحة « عشاء عمواس » (بلندن) لا تبلغ في عمقها نظيرتها التي رسمها رمبرانت ، ولكنها تصوير قوى لأشكال الفلاحين . أما « موت العذراء » (المحفظة بالوفور) — وهي أيضا صورة ريفية — فكانت إحدى الصور التي وطدت مدرسة « الطبيعيين » في إيطاليا والواقعيين في أسبانيا والأراضي المنخفضة . لقد أكثر كارافادجو من تأكيد ميلودراما العنف والحشونة ، ولكن التاريخ كانخطابة قلما يقرر نقطة دون أن يبالغ فيها . وقد اقشعر لمرأى عمال الشحن مفتولى العضل هؤلاء جيـل استنفذ موضوعات العاطفة ، ثم قبلهم على أنهم مدخل منشط دخل به إلى الفن رجال منسيون . والتقط رييبرا فرشاة كارافادجو القائمة ولحق به ، واقتفى رمبرانت أسلوب الإيطالي في توزيع الضوء والظل وجوده ، وحتى مصورو القرن التاسع عشر شعروا بهذا التأثير العاصف .

أما المعمار فقد شهد مجيء الباروك وذروته . وراح البابوات الواحد تلو الآخر يحيلون عرق المؤمنين الراضين ودراهمهم أمجادا لروما . فأكمل ييوس الرابع البلفديري وقاعات أخرى في الفاتيكان . وبني جريجورى الثالث عشر كلية روما وبدأ تشييد قصر الكويرينال — الذى أصبح مسكنا للملك عام ١٨٧٠ . أما دومنيكو فونتانا ، الأثير بين المعماريين عند سيكستوس الخامس ، فقد صمم قصر اللاتيران الحديد ، ومصلى السيستين في كنيسة سانتا ماريا مادجورى ، ومقبرة ييوس الخامس في هذا المصلى ، وهى باروك مسرف . وأضاف الكرادلة والنبلاء خلال ذلك إلى روما قصورا جديدة (جوستينيانى ، ولا نسلوتى ، وبورجيزى ، وباربرينى ، وروسبليورى) ، وفيللات جديدة (بامفيلى ، وبورجيزى ، ومدينشى) . كذلك واصل الهدم أفاعيله ، ففي هذه الفترة هدم بولس الخامس حمامات قسطنطين التى عمرت منذ عهد أول الأباطرة دون أن يمسه سوء تقريبا .

وكثر عدد المعماريين الأكفاء ، ومنهم جاكوموديللا بورتا الذى أكمل بكفاية عدة معابد خلفها أستاذه فنيولا ناقصة ، كواجهة كنيسة يسوع وقبة كنيسة القديس بطرس ، وبهذه الضخامة صمم كابيلا جريجوريانا الفخمة ،

ولمس قصر فارينزى لمساته الأخيرة ، وكان ميكلائنجلو قد بدأه ؛ وهو صاحب الفضل فى نافورتين رائعتين تضيفان على رومارواء شباب لا يشيخ . وابدعهما نافورة السلاحف التى أقامها تاديو لوندينى أمام قصر قصر ماتى واشترك مارتينو لونجى الأب مع ديللا بورقا فى تشييد قصر الكونسرفاتورى . نقلا عن رسوم ميكلائنجلو ، وبدأ هو ذاته قصر بورجيزى ، الذى أكمله فلامينو بوتريو للبابا بولس الخامس . وأسهم دومنيكو فونتانا بنافورة « الفونتانونى » ديل أكوا فيليتشى ، وفونتانا ديل أكوا باولينا ، وشيد « قاعة البركة » الجميلة على الرواق المعبد الشمالى للاثيران القديس يوحنا . وخلفه ابن أخته كارلو ماديرنا معاريا لكنيسة القديس بطرس ، فغير خططها الأساسية من صليب ميكلائنجلو اليونانى إلى الصليب اللاتينى ، وصمم واجهة هذا الضريح العظيم ، ووجد فى حمامات كاراكالا ودقليانوس إلهاما بصحنها المائل . وأعاد فرانثسكو بورومينى ، تلميذ ماديرنا ، بناء مدخل لاثيران . القديس يوحنا بناء فاخرا ، وبدأ رائعته - كنيسة سانت أجنيس - الفخمة الأنيقة التى تضارع « كنيسة يسوع » فى بيانها للباروك الرومانى .

أما كنيسة يسوع فقد صممها (١٥٦٨) جاكومودا فنيولا تحقيقا لرغبة اليسوعيين فى معمار تروع فخامته العابدين وتلهمهم وتسمو بنفوسهم . وصمم المعماري وخلفاؤه صحنًا فسيحًا دون أجنحة ، فيه الدعامات والسبندلات والتيجان والكرانيش المزخرفة ، ثم مذبح مهيب ، وقبة مضبوطة ، وحلية رائعة من الصور والتماثيل والرخام والفضة والذهب . وفى عام ١٧٠٠ أضاف أندريا ديل بوتزو ، وكان هو ذاته يسوعيا ، مقبرة القديس اغناطيوس ومذبحه الرائعين . وقد اختلفت نظرة اليسوعيين للحياة عن نظرة غيرهم من رجال الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت النقيض التام لنظرة البيورتان ، فالفن فى رأيهم يجب أن يطهر من الحس الدنيوى ، ولكن يجب أن يرحب به فى تزيين الحياة والإيمان . على أنه لم يكن هناك « أسلوب يسوعى » بعينه . كانت كنيسة يسوع باروكا فى الحجر ، وكثير من

كنائس اليسوعيين لا سيما في ألمانيا كانت باروكا ، ولكن كل كنيسة اتبعت الأشكال والأمزجة المحلية والفاشية .

وكان اكمال كنيسة القديس بطرس آخر منجزات الفن الرومانى . فقد خلف ميكلانجلو نموذجا للقبّة ، ولكن « الطبلّة » وحدها هي التي كانت ممدّدة حين ارتقى سيكستوس الخامس كرسي البابوية . وكان قطرها ١٣٨ قدما . ولم يجزؤ على تغطية مساحة هائلة كهذه دون دعائم ننخللها سوى برونوليسكى بفلورنسه . وأحجم المعمارىون والمهندسون أمام العمل الذى اقترحه يوناروتى (ميكلانجلو) ، وشكّارجال المال من أنه سيكلف مليون دوكانية وجهد عشر سنين . ولكن سيكستوس أمر بالشروع فى العمل آملا أن يجي القداس تحت القبّة الجديدة قبل أن يودع الحياة . وتكفل جاكومو ديلا بورتا بالمهمة يساعده فيها دومنيكو فونتانا . وراح ثمانمائة من الرجال يكدحون ليل نهار — فبما عدا الآحاد — من مارس ١٥٨٩ ، إلى أن أعلنت روما فى ٢١ مايو ١٥٩٠ ، قبل موت الخير الجريء بثلاثة أشهر ، بأذ « البابا المقدس سيكستوس الخامس ، قد أتم عقد قبّة كنيسة القديس بطرس ، لمحجده الدائم وخزى أسلافه » (٨٦) .

وقد انتقص من وقع منظر القبّة ، إلا على بعد ، واجهة الباروك التي أقامها ماديرنا فى ١٦٠٧ — ١٤ . أما الكنيسة نفسها فقد كرسّت نهائيا عام ١٦٢٦ ، بعد ١٧٤ سنة من البدء بتخطيطها . وفى عام ١٦٣٣ صب برينى بالبرونز البلداكينو (أى المظلة) المزوقة فوق « مقبرة القديس بطرس » والمذبح المرتفع . وقد أنقذ النحات العظيم نفسه باحاطة المدخل إلى الضريح بصف أعمدة بيضى هائل (١٦٥٥ — ٦٧) أعان على جعل كنيسة القديس بطرس أفخم بناء على وجه الأرض ، كما أن قبّتها ذروة توجت كل ما بلغه الفن الحديث من انجازات .

١٠ — برينى

جمع جوفانى لوريتزو برينى لفن روما القرن السابع عشر فى عمر

مسيطر واحد (١٥٩٨-١٦٨٠) . أخذ النحت عن أبيه المثال الفلورنسى ،
ولعله أخذ عن أمه النابولية حدة العاطفة وحرارة الإيمان . وفي عام ١٦٠٦
دعى الأب إلى روما للعمل في كنيسة سانتا ماريا مادجورى . هناك درج
« جان » في جو من النحت الكلاسيكى والتقوى اليسوعية . وقد انتشى
بتماثيل الفاتيكان « أنطونوس » و « أبوللو بلفديرى » ولكنه كان أعمق
تأثرا بكتاب القديس اغناطيوس فى « الرياضات الروحية » ، التى مارسها
حتى أحس الرعب والتقوى اللذين شعر بهما رجل جرب آلام الجحيم ومحبة
المسيح . وكان يستمع إلى القداس يوميا ، ويتناول الأسرار المقدسة مرتين
فى الأسبوع .

وجرب التصوير ، حتى بلغت صورته المائة . وقد ظفرت إحداها ، وهى
لوحة « القديسين أندراوس وتوما » فى مجموعة باربرينى بأعظم الثناء ،
ولو أننا نفضل عليها صورته الذاتية المحفوظة بقاعة الأفنيزى — فى أسمر وسم
يجنح إلى التأمل الحزين . على أنه جود أكثر من هذا فى العبارة . وقد
أكمل قصر باربرينى لما فى باربرينى ، فلما ولى راعى فنه هذا كرسى البابوية
باسم أوربان الثامن ، عين برينى كبير معمارى كنيسة القديس بطرس وهو
فى الحادية والثلاثين . وهناك بنى — بالاضافة إلى صف الأعمدة والمظلة —
فى الجزء الثانى من البناء « كاتدرا بترى » المزخرفة لحفظ المقعد الخشبى الذى
اعتقد المؤمنون أن الرسول بطرس كان يستعمله ، ومن حوله جمع أربعة تماثيل
قوية الشخصية لآباء الكنيسة ، ومن فوق البناء العجيب كله نثر تماثيل الملائكة
بحماسة رجل يملك فى ذهنه معينا لا ينضب من الروائع . وعلى مقربة منه
اختار مكانا لمقبرة ضخمة لحبره المحبوب أوربان الثامن . وصمم الشرفات ،
وكثيرا من التماثيل التى تزين الركائز التى تسند القبة . وتحت القبة وضع
تمالا ضخما للقديس لونيغينوس ، وفى الجناح الأيمن أقام أثرا تذكاريًا مترفا
لماتيلدا كونتيسة توسكانيا . وفى خارج الكنيسة أعاد تخطيط الصالة الملكية
التي ترقى إلى قصر الفاتيكان مارة بأعمدة مهيبة ، وذلك بأسلوب أكثر

نقاء ، وفي فجوة في هذا السلم الملكي أقام تماثلاً لقسطنطين راكبا جواده وهو يطالع في السماء دعوته لاعتناق المسيحية ، وأصبحت حرارة العاطفة في هذا التمثال قالبا احتذاه عصر الباروك. وفي أخريات أيامه بنى في مصلى السر المقدس بكنيسة القديس بطرس مذبحاً لم تبدله رخاماته الساطعة ، وما توجه من ظلة وهيكل وقبة وملائكة مستغرقين في العبادة — لم يبد له هذا كله تجسيدا مسرفا في البهاء لسر القربان الذي ينطوى عليه القداس . كل هذا الجهد في كنيسة القديس بطرس وما حولها يرى فيه الفنان العصري اسرافا مسرحيا ومخاطبة خداعة للحواس ، أما برنيني فقد رأى فيه الأداة الخصبية لإيمان حار يصل إلى قلوب العابدين .

كان يمزج بين العمارة والنحت في كل مكان ، ويحلم بفن يجمع بين العمارة والنحت والتصوير في كل يستنهض الروح . وفي كنيسة ساننا ماريا ديلا فتوريا جمع قطع الرخام الثمين — الأخضر والأزرق والأحمر — وأطلق لخياله الزخرفي العنان ليبنى مصلى الكورنارو ، ذا الركائز المحززة والأعمدة الكورنثية الرشيقة ، وقد أودعها أعظم تماثيله فنتسة وحرارة ، تماثل القديسة تريزا ، منهكة القوى غائبة عن الوعي في نوبة من الوجد الصوفي ، وملاك حلو يتأهب لشق قلبها بسهم ملتهب رمزا لاتحاد القديسة مع المسيح . ووجه تريزا الذي يبدو كأن الحياة فارقتة هو أحد انتصارات الباروك الإيطالي ، والملاك الذي يريش سهمه ان هو إلا أغنية في الحجر .

كان لبرنيني منافسون . وقد أعجب مونتينى أيما أعجاب بتمثال العدالة الذي تحته جاكومو ديلا بورتا على قبر بولس الثالث في كنيسة القديس بطرس . وصب تورييجانو تماثلاً نصفيا لسيكستوس الخامس ، فيه قوة وواقعية ، وهو الآن محفوظ بمتحف فكتوريا والبرت . ومزج بورومينو النحت بالعمارة مثل برنيني ، كما نرى في قبر الكردينال فيلا مارينو بكنيسة سانتى أبوستولى في نابلي . وبلغ اليساندرو ألباردى مستوى برنيني في ثلاثة تماثيل تحتها لمقبرة ليو الحادى عشر بكنيسة القديس

بطرس ، وفاقه في النقوش البارزة التي مثل بها « لقاء البابا ليو الأول وأتيلا » ، وهي أيضاً بكنيسة القديس بطرس . أما تمثال إنوسنت العاشر النصفى الذي تحته الحاردي في قصر دوريا بامفيلي ، فأكثر ارضاء للناظر من التمثال الذي تحته برنيني ، ويكاد يعدل في القوة لوحة فيلاسكويز . ولكن أحدا في هذا العصر لم يضارع برنيني في خصوبته الفنية وخياله ومجموع منجزاته .

ثم شرح صدر روما بالنافورات الغربية : فونتانا ديل تريونفي ، وفونتانا دي فيومي - حيث نقش مثالون أقل شأنًا أربعة تماثيل للدانوب والنيل والخنزج والبلايا . وقد اختار إنوسنت العاشر من بين تصميمات المتسابقين المقدمة لهذه النافورة تصميم برنيني قائلا « على المرء ألا ينظر إلى تصميماته ما لم يكن مستعدا لقبولها » (٨٧) ولا بد أن ولع برنيني بالآثار القبرية الفخمة قد أوحى إلى رعايته بتقبل للذيد لفكرة الموت . وقد عمر أوربان الثامن حتى رأى المقبرة التي أعدت لرفاته في كنيسة القديس بطرس .

ونافس الكردينال سكيوني بوجيزي البابا أوربان في منح برنيني المال وتكليفه بالمهام . فصنع له المثال تمثالا حيا سماه « اغتصاب روزرين » ، هو حلم من عضلات الذكروانعطافات جسد الأنثى ، وتمثال « داود » يضرب جالوت بمقلعه ، وتمثال « أبوللوودافني » - وهو تعبير مسرف في الكمال عن شباب الرجل والمرأة . هذه التماثيل (وكلها في قاعة بوجيزي للفنون) جرت على برنيني مهمة « اللازمة » والمغالاة المسرحية . وقد صور الكردينال نفسه في تماثيل نصفين ، هما تجسيد للطبع اللطيف والشهية الطيبة ، وأشد من هذين فتنة بطبيعة الحال التمثال النصفى لكونستانزا بوناريللي الجميلة ، المحفوظ بمتحف فلورنسة الوطني ، وكانت زوجة مساعد برنيني ، ولكن برنيني - كما قال ابنه - نحتها في الحجر ، بينما هو يعشق جسدها عشقا شديدا (٨٨) .

ويعكس برنيني عيوب الباروك أكثر من أى فنان آخر. فخطابه للعاطفة مسرف في الوضوح ، وقد حسب التكاف دراميا ، واللفظ جمالا ، والإفراط في العاطفة تعاطفا ، والضخامة جلالة . وخلع على النحت تعبير الوجوه الحاد بينما هو ميزة اختص بها التصوير عادة . وقد أضعفت واقعية التفاصيل ، المغالية في الدقة ، من التأثير السيكولوجي لفنه أحيانا . وقل أن بلغ في تماثله ذلك السكون الذى يضمن تفوقا خالدا على منحوتات أثينا في عهد بركليس . ولكن لم يجب أن يعبر التمثال دائما عن للسكون ؟ ولم لا تغزو الحركات والمشعور وحرارة الحياة الرخام والبرونز وتبعث فيهما الحياة ؟ أنها فضيلة في نحت الباروك وليست عيبا أنه جعل الحجر يحس ويتكلم . لقد اتبع برنيني المبدأ الهوراسي وأحس بما عبر عنه - بنعومة بشرة الفتاة ، وحيوية الشباب الرشيق ، وهموم القادة ومتاعبهم ، وورع القديسين ووجدتهم .

ولقد تقبله الناس قرابة خمسين عاما إماما للمعماري عصره . وفي عام ١٦٦٥ ، حين فكر كولبير ولويس الرابع عشر في إعادة تخطيط اللوفر وتوسيعه ، وجهها الدعوة إلى برنيني ليحضر إلى باريس ويضطلع بهذه المهمة . فذهب إليها وصمم ، لا بحكمة بل بغلو في البراعة - وجاوز في الفخامة اللذوق والمال الفرنسيين . وفضلت على تصميمه واجهة بيرو الأكثر صرامة ، وقفل برنيني إلى روما بجرر أذيان الخيبة . هنا (١٦٦٧) رسم لنفسه تلك الصورة الطباشيرية الرائعة ، المحفوظة الآن في قلعة ونزر - نصل بيضاء تتراجع فوق رأس قوى البأس ، ووجه خلف عليه الجهد التجاعيد والعقد ، أما العينان الوديعتان بالأمس فقد أصبحنا جامدتين خائفتين ، كأنهما تريان إلى أين تفضى مدارج المجد . ولكنه لم ينهزم بعد ، فقد ظل ثلاث عشرة سنة أخرى يبني وينحت في عنف ، « حاداً في روحه ، راسخاً في عمله ، حاميا في غضبه » (٨٩) « وحين خبت جذوته (٢٨) فبراير ١٦٨٠) كان قد عمر إلى ما بعد النهضة الإيطالية :

حين زار ملتن إيطاليا عام ١٦٣٨ ذكران العلماء الإيطاليين أنفسهم أحسوا أن مجد وطنهم قد زال بمجيء الحكم الأسباني والحركة المعارضة للإصلاح البروتستنتي . ولعل التسلط والرقابة ألحقنا الضرر بفكر إيطاليا وفنها - ولو أن سرفانتس وكالديرون وفيلاسكوز كانوا يزدهرون في ظل محكمة تفتيش أشد عتوا في أسبانيا . ولكن الذي أنهى النهضة الإيطالية لم يكن قائداً أسبانيا ، ولا قائمة كتب حرمتها الكنيسة ، بل ملاحا برتغاليا ، هو فاسكودا جاما الذي عثر على طريق يمحركه البحر إلى الهند ، طويل حقاً ولكنه أرخص من طرق التجارة البندقية والجنوبية التي أغنت إيطاليا . وأخذت التجارة البرتغالية والهولندية تحل محل التجارة الإيطالية ، والمنسوجات الفلمنكية والانجليزية تنزع الأسواق من الفلورنسيين . أما حركة الإصلاح البروتستنتي فكانت قد هبطت بالذهب المتدفق على روما من ألمانيا وإنجلترا إلى النصف .

وتألفت إيطاليا في اضمحلالها . حقاً لقد هبط الفن من علياء رفايل وميكل انجلو ، وفقد الفكر السياسي عمق مكيافللي وشجاعته ، ولكن لم يكن هناك اضمحلال بل نهوض في السياسة والإدارة من ليو العاشر إلى سيكستوس الخامس ، وفي العلم من ليوناردو إلى جاليليو ، وفي الفلسفة من بومبوناتي إلى يرونو ، وفي الدراما الموسيقية من بوليتيان إلى مونتيشردى ، اللهم إلا اضمحلال في الشعر مختلف عليه من أريوستو إلى تاسو . وكانت إيطاليا خلال خلال ذلك ، كالأم الرعوم ؛ تسكب فنها وموسيقاها ، وعلمها وفلسفتها ، وشعرها ونثرها ، فوق الألب إلى فرنسا وفلاندر ، وفوق المانش إلى إنجلترا ، وفوق البحر إلى أسبانيا .

الفصل العاشر

نخامة أسبانيا وانحطاطها

١٥٥٦ - ١٦٦٥

١ - الحياة الأسبانية

إن الذين ربوا منا على المؤرخين الإنجليز قد ينسون بسهولة أن أسبانيا كانت بعد هزيمة الأرمادا ، كما كانت قبلها ، أعظم الإمبراطوريات على وجه الأرض وأعناها وأكثرها اتساعاً ، وأنها اعتبرت نفسها - ولها العذر - أرقى من إنجلترا الإليزابيثية في الأدب ، ومن إيطاليا المعاصرة في الفن . فحين ارتقى فيليب الثاني العرش (١٥٥٦) كانت الملكية الإسبانية تحكم أسبانيا ، وروسيون ، وفرانش كونتية ، وسسته ، وأوران ، والأراضي المنخفضة ، ودوقية ميلان، ومملكة نابلي ، وصقلية ، وسرديانيا ، والفلبين ، وجزر الهند الغربية ، ومعظم أمريكا الجنوبية ، وجزءاً من أمريكا الشمالية ، وكل أمريكا الوسطى ، يضاف إلى هذا (١٥٨٠ - ١٦٤٠) البرتغال والأملاك البرتغالية في آسيا ، وأفريقيا ، والبرازيل ، كذلك محمية قى سافوى ، وبارما ، وتوسكانيا ، وحلف مع الامبراطورية الرومانية المقدسة التي حكمها فرديناند الأول عم فيليب . وكانت أسبانيا تمتلك جيشاً عدته خمسون ألف مقاتل اشتهروا بالبسالة وحسن النظام ، تحت امرة أفضل قواد العصر ، وأسطولا من ١٤٠ سفينة ، ودخلا سنوياً يبلغ عشرة أمثال دخل إنجلترا . وكان ذهب أمريكا وفضتها يتدفقان على الموانئ الأسبانية . أما البلاط الأسباني في هذا العصر فأفخم بلاط في العالم ، وأما الاستقراطية الاسبانية فأشد الارستقراطيات كبرياء وعجباً . وكان

الملايين من الناس خارج أسبانيا يتكلمون الأسبانية ، وفي كثير من الأقطار تعلمت الطبقات المثقفة اللغة الأسبانية كما تعلمت بعد ذلك اللغة الفرنسية في القرن الثامن عشر . كذلك زينت العمارة الأسبانية المدن في خمس قارات .

وبلغ عدد سكان أسبانيا الآن زهاء ثمانية ملايين . واصلت الزراعة بتحويل المزيد من الأرض إلى مراعي للأغنام لإنتاج الصوف . وقد بلغ عدد عمال النسيج في طليطلة وحدها خمسين ألفاً حوالي عام ١٥٦٠ ، وحفرت مطالب المستعمرات الأسبانية صناعات أسبانيا ، وأصبحت أشبيلية من أهم الثغور في أوروبا ، وأرسلت المستعمرات نظير ذلك الشحنات من الفضة والذهب . ورفع تدفق المعادن النفيسة الأسعار رفعاً جنونياً — فبلغت نسبة الغلاء في الأندلس ٥٠٠ في المائة في القرن السادس عشر ، وصعدت الأجور لتلحق بتكاليف المعيشة في سباق محموم أصبح في النهاية عديم الجدوى . وكان كثير من الصناعة يقوم على أكتاف المغاربة (المورسكو) — وهم المسلمون الذين اعتنقوا المسيحية ظاهرياً . أما الخدمة في البيوت فألقى أكثر عبثها على العبيد المأسورين في الغارات على أفريقيا أو في الحروب التي شنت على « الكفار » : لقد كان عامة الأسبان يحتقرون العمل ويقنعون بالقليل في تفلسف ، فالنوم في كوخ ، والاصطلاء في الشمس ، ومداعبة القيثارة ، والبكاء على شح الحسان — ذلك خير من الكدح والعرق شأن العبيد أو المسلمين . وقد ساهم طرد المغاربة عام ١٦٠٩ مع غلاء المنتجات الأسبانية في اضمحلال الصناعة في أسبانيا .

وكان طرد اليهود عام ١٤٩٢ قد ترك فراغاً في بناء أسبانيا التجاري والمالي . وأصبح الجنويون والهولنديون أهم النقلة لتجارة أسبانيا الخارجية . أما أسبانيا التي كان يحكمها نبلاء تمرسوا بالدبلوماسية والحرب أكثر مما تمرسوا بشئون الاقتصاد ، فقد تركت ثروتها تعتمد على استيراد الذهب ، وازداد ثراء الحكومة حيناً بينما ظل الشعب في فقره ، ولكن كثيراً من هذا الذهب كان ينزح لاستخدامه في الحرب ، أو يأخذه التجار الأجانب

الذين يتقلون تجارة أسبانيا، حتى كادت الحكومة تفتقر كالشعب . ورفضت أسبانيا الوفاء بديونها المرة بعد المرة (١٥٥٧ و ١٥٧٥ و ١٥٩٦ و ١٦٠٧ و ١٦٠٧ و ١٦٤٧) أو حولتها بالاكراه إلى قروض جديدة ، وهذه الأزمات المالية هي التي ألجأتها إلى إنهاء حربها مع هنرى الثانى عام ١٥٥٩ ، ومع « الأقاليم المتحدة » عام ١٦٠٩ . ففى التاريخ علينا أن نفتش لا عن « المرأة » بل عن « المصرفى » .

وفى أسبانيا علينا كذلك أن نفتش عن الكاهن . ذلك أن الدين لم يفرض هنا السلطان على الشعب ، ومن ثم على الحكومة ، فى أى بلد آخر من بلاد الله ، ولم تكتف أسبانيا برفض حركة الإصلاح البروتستانتى فحسب ، بل تجاوزتها إلى رفض النهضة أيضا — اللهم ألا لحظة لارزمية عابرة . وظلت « وسيطة » فى عالم حديث ، قانعة بنصيبها هذا . وكان فقر الشعب يتהלل لثراء الكنيسة . كان الكل متدينين ، من الملوك « الأشد كثرلكة من البابا »^(١) إلى قطاع الطرق الذين لم يروا قط إلا حاملين المداليات أو الشارات الكنفية الدينية . وفى عام ١٦١٥ سار نحو أربعين ألف أسبانى فى مظاهرة مظالمين بأن يجعل البابا من « حمل العذراء غير المدنس » (أى خلوها من لوثة الخطيئة الأصلية) عقيدة فى صلب الإيمان — أى اعتقاد الزامى على جميع الكاثوليك^(٢) . وفى كل مكان كنت أجد القساوسة والرهبان والأخوة ، لا متسامحين أو راضين عن مباحج الحياة والحب كما فى إيطاليا أو فرنسا ، بل ملقين جوا من اكتئاب الجريكو على كل شىء الا مصارعات الثيران . وأصبح فى أسبانيا الآن ٩٠٨٨ ر حيرا ، و ٣٢ ر أخ دومنيكى وفرنسسكانى^(٣) ، وعدد متزايد من اليسوعيين . وكانت الكنائس معتمدة ، تزخر بالرفات الرهيبة ، وتزدان بالمربعات الواقعية فى فنها . أما قصص القديسين ومعجزاتهم فهى الشعر الذى يعتز به الشعب . وحجب الناس فى التصوف أعافى القديس يوحنا الصليبي وكتابات القديسة تريزا . ووجدت الكنيسة لزاما عليها أن تحتج

٢٩ - ٦ الحضارة

على ما ادعاه « المهدثون » من صلة حميمة بالله ومن رؤى طوباوية ،
وفي عام ١٦٤٠ وقعت في برائن محكمة التفتيش طائفة من الألومبرادو
— « أى المستيرين » — زعموا أن اتحادهم الصوفى بالاله يطهرهم من
كل اثم حتى وهم في نشوات الجنس . علينا اذن أن نذكر هذا التدين
الواسع الانتشار ، الشديد التحمس ، إن أردنا أن نفهم لم استطاع الشعب
الأسباني أن يرقب في استحسان قوى حرق المهرطقين ، وأن يجود بماله
حتى الأفلاس والأعياء دفاعا عن العقيدة في ألمانيا والأراضى المنخفضة .
لقد كان في هذا الجنون شيء من النبيل ، وكأن الأمة أحست بأنه ما لم
يكن إيمانها صادقا فلن الحياة تصبح سخفا لا معنى له .

وهكذا مضت محكمة التفتيش في وحشيتها التي أملاها عليها ضميرها ،
فحدت بالعقوبات « المعتدلة » — كجلد المذنب مائة جلدة — من بدع
كنك التي زعمت أن الزنى ليس خطيئة ، أو أن الزواج مقدس كالتيبل
الديرى . أما المارانو « المرتدون » — وهم اليهود الذين اعتنقوا
المسيحية من قبل ثم ارتدوا إلى اليهودية سرا — فكان التكفير المقرر عن
جريمتهم هو الموت أو السجن المؤبد . وحين وصل فليب الثانى إلى أسبانيا
(١٥٥٩) استقبل في بلد الوليد بتنفيذ حكم المحكمة شهد فيه ٢٠٠ ر ٢٠٠
شخص يرأسهم الملك عشرة من المهرطقين يشنقون واثنين يحرقان أحياء^(٤) .
والتمس أحد المحكوم عليهم الرأفة من فليب فرفض ، واكتسب أعجاب
الشعب بقوله « لو أن ابنى كان شقيا مثلك لحملت بنفسى الحطب لأحرقه »^(٥)
وقد قاوم فليب أحيانا جنوح محكمة التفتيش إلى توسيع سلطانها على حساب
السلطة المدنية ، ولكنه على العموم شجع هذه المؤسسة باعتبارها أداة تعين
الحماسة والوحدة القوميتين . وقد أراحه بعض الشيء أنه استطاع
استخدام المحكوم عليهم عبيدا على السفن^(٦) ، وأنه في سنة واحدة (١٥٦٦)
تسلم ٢٠٠ ر ٢٠٠ دوكاتية من الذهب هى نصيب الثلثين المستحق للحكومة
من غرامات محكمة التفتيش ومصادراتها .

واعترزت محكمة التفتيش بصورها عقيدة العصر الوسيط نقية لا غش فيها ،
وبإنقاذها أسبانيا من الفرقة الدينية التي تتلوى فرنسا تحت قبضتها . وترك
اهتمامها بالعقيدة دون السلوك حماية الفضيلة لرجال الاكليروس — وكانوا
هم أنفسهم مشهورين بالتهاون في سلوكهم — وللموظفين المدنيين الذين
حد من سلطانهم على الشعب خضوعهم لمسا تصدره محكمة التفتيش من
أحكام بالسجن أو الغرامة . أما عفة النساء فلم يقيم حارسا عليها الدين
والقانون فحسب ، بل « البونتو » ، أى حق الدفاع عن العرض ، وهو
مبدأ يلزم كل ذكر بأن يدافع أو يثار بالسيف لعرض أية امرأة في أسرته
هدد أو انتهك . وكانت المبارزة غير قانونية ولكنها محبة إلى الشعب .
وكان كرام النساء يلزم من بيوتهن في احتجاج شبيه بما كان عند العرب ،
يأكلن بعزل عن الرجال ، وقلما يصحبهم علانية ، ويركبن المركبات
المقفلة إذا انقلن من بيوتهن . وكان طلاب يد الفتاة يتوددون بالموسيقى
تعزف من الشارع للعدراء المحتجة خلف نوافذ ذات قضبان ، وقل أن
يؤذن لهم بدخول البيت حتى يصل والدا الطرفين إلى اتفاق ، ومع
ذلك كثرت زيجات الغرام (٧) . وفي عهد فليب الثاني احتفظ بمستوى
الأخلاق عاليا على قدر ما سمحت به فتنة النساء أو خيال الرجال ، وخفف
من فساد الموظفين الطبيعي بقطة الملك ، وإلى هزيمة الأرمادا كان يصون
روح الشعب المعنوية اعتقادهم بأن أسبانيا تخوض حربا مقدسة ضد
الإسلام ، والأراضي المنخفضة ، وانجلترا ، فلما تحطم الحلم انهارت
أسبانيا جسدا وروحا .

على أن الحياة الأسبانية كان لها بهاؤها وسحرها الملائمان لطيعتها .
فلاحسان واسع الانتشار ، والسلوك المهذب يسود جميع الطبقات . ونصف
الأمة يزعم لنفسه عراقة الأصل ، ويحاول الارتفاع بحياته إلى آداب القروسية ،
ويصر على أن يرتدى لباس العشر الأعلى من السكان . وكان اللباس في
عهد فليب الثاني متوسط البساطة ، فالرجال يلبسون أطواق الرقبة والصدريات

والجوارب الطويلة القائمة الضيقة ، والأحذية ذات المشابك ، أما النيبلات (وكلهن نيبلات) فيغطين ما استدار من أجسادهن بالمشدات القاسية المستوية ، ويحجب عن الجنس الآخر كل وجوههن فيما عدا العيون (وهي في نساء الأسبان شديدة التوقد) ، ويخفين أقدامهن في خفر بحيث كانت لمحة واحدة إليها أعظم المكافآت المثيرة التي تجزى بها توسلات العاشق الولهان^(٨) . وأصبح لباس النساء أكثر بهاء إبان التراخي الخلقى الذي أعقب موث فيليب ، فالمرأوح ترف في مداعبة بلا كلام ، والصباغ الأحمر يلمع على الوجوه والأكتاف والنحور والأيدي ، والسيقان التي يلفها الغموض تخفى في تنانير بلغ من سعتها أن أصحاب المسارح كانوا يتقاضون أجر كرسين من كل امرأة تعظم حجمها على هذا النحو .

وظلت مصارعة الثيران الفرجة المفضلة . وقد أصدر البابا بيوس الخامس مرسوماً يحظرها عام ١٥٦٧ ، ولكن فيليب الثاني احتج بأن هذا الحظر سيطلق ثورة في أسبانيا ، فأهمل المرسوم . وأضافت المواكب الدينية شيئاً من الشعر الحزين إلى الأيام العادية الحالية من الاثارة . وسترت أقنعة الكرنفال كثرة من الخطايا . أما الموسيقى فغرام لا يفوقه غير الدين والعشق - وهو وثيق الصلة بهما . فالفويلا الشبيهة في شكلها بالقيثارة تعزف الحانا شجية تلازم العلاقات الغرامية . وقد حظيت الأغاني الشعرية القصيرة بشعبية مؤقتة . وناfst أسبانيا إيطاليا في الموسيقى الكنيسة . وقد نشأ توماس لويس دي فكتوريا ، وهو بمثابة فلاسكويز الموسيقى الأسبانية ، في أفيللا (آبله) ، بلد القديسة تريزا ، ولعله وقع تحت تأثيرها . وكان يملك الصوت والوظيفة ، ولعله رسم قسيساً عام ١٥٦٤ ، ومن المؤكد أن فيليب أجرى عليه إعانة ليدرس الموسيقى في إيطاليا . ونحن نراه في سنة ١٥٧١ رئيساً لفرقة المرتلين في الكلية الجرمانية بروما . وفي عام ١٥٧٢ أصدر كتاباً من الألحان يحوى موسيقى « *Ovos omnes* » (يا جميع الآلهة) الملهمه المرافقة لمراثى أرميا لأورشليم . ولما عاد إلى أسبانيا قدم لفيليب الثاني

كتاب قداديس احتوى على لحن من أرفع ألحانه ، وهو قداس « O quam gloriosum » (ما أعجذك) . وكتب قداسا جنازيا عميق التأثير لما تم ماريا أخت فيليب ، وأرملة الامبراطور مكسليان الثانى ، وضعه مؤرخ نابه للموسيقى فى صف « أروع الألحان المدونة قاطبة » (٩) . وقد سماه « أغنيته التم » ، وبعد نشره (١٦٠٣) تفرغ بكليته لواجباته الكهنوتية . وكان من ألمع النجوم فى أشهر عهد من عهود الملكية الأسبانية .

٢ - فيليب الثانى : ١٥٥٥ - ٩٨

هنا رجل من أغرب وأقوى شخصيات التاريخ ، متعصب ، ذو ضمير حى ، مكروه أشد الكره خارج أسبانيا ، محبوب أحر الحب داخلها ، يتحدى أى دارس يحاول جاهدا أن يكون موضوعيا . كان نسبه قدره المكتوب ، فأبوه شارل الخامس ، الذى خلف له ملكا والتزاما بالعهب ، وجدته لأبيه جوانا لا لوكا ابنة فرديناند الكاثوليكي المبنونة ؛ فالصوفية والحنون لذن فى عروقه ، والعقيدة والاستبداد فى ميراثه . وكان لأمه ايزابلا البرتغالية ولدان آخران مات كلاهما بالصرع فى طفولته ، وماتت هى نفسها فى السادسة والثلاثين حين كان فيليب فى الثانية عشرة . ولد فى بلد الوليد عام ١٥٢٧ يوم كانت جيوش أبيه تنهب روما وتسجن البابا ، وربى على أيدى قساوسة ونساء أغرقوه فى التدين واقنعوه بأن الكنيسة الكاثوليكية هى السند الذى لا غنى عنه للفضيلة والملكية . وعلى حين كان أبوه - الذى نشأ فى فلاندر - قد شب رجل دنيا ، أصبح فيليب - الذى عاش فى أسبانيا معظم حياته - أسبانيا وجها وعقيدة ، جسدا وعقلا ، برغم جلده الأبيض وشعره الأصفر الحريرى .

لم يكد يستمتع بشباب ، ففى الثالثة عشرة عين حاكما على ميلان ، وفى السادسة عشرة وصيا على عرش أسبانيا - وهى وصاية لم تكن مجرد اسم بلا معنى . فقد رتب شارل مشيرين له ، وشرح له طباعهم ببصيرة نافذة ، وأمره ان يؤلب المشير على المشير ، وحضه على أن يحتفظ لنفسه

بكل السلطة الحقيقية وكل القرارات النهائية — وهو ما فعله فيليب إلى آخر
تسمة من حياته . وفي تلك السنة (١٥٤٣) تزوج فيليب ابنة خاله الأميرة
ماريا البرتغالية ، ولكنها ماتت عام ١٥٤٥ ، عقب أن أنجبت له ابنا « سيئ
الطالع » هو الدون كارلوس ، فعقد فيليب زواجا من إحدى بنات الشعب
هي إيزابيللا دى أوزوريو ، التي أنجبت له عدة أطفال . وألح عليه أبوه
في فسخ هذا الزواج ، وكان لزاما على كل أمير هابسبورجى أن يعين على
تأليف نطاق من الحلفاء حول العدو القديم فرنسا . لذلك وجب على
فيليب — لكي يؤمن قوة أسبانيا في الأراضي المنخفضة من تدخل إنجلترا —
ان يتطلع حاسته الجمالية ويتزوج ماري تيودور ملكة إنجلترا الكاثوليكية .
وينجب منها بنين يحتفظون بإنجلترا في حظيرة الكاثوليكية . وهكذا نراه
في عام ١٥٥٤ يعبر المانش ، ويتزوج ماري الدميمة ، العليمة ، المؤلمة في
الخلف (وكانت تكبره بأحد عشر عاما) ، ويبدل قصاره لاختصاصها ،
ولكنه يحقق ، فيرحل (١٥٥٥) ليصبح حاكما للأراضي المنخفضة .

وتمضى السنون وأعباؤه تثقل . ففى عام ١٥٥٤ كان قد نصب
حاكما لمملكة نابلى وصقلية المزدوجة . وفي عام ١٥٥٦ تخلى له شارل عن
تاج أسبانيا . وظل فيليب أربع سنوات يحكم أملاكه المبعثرة من بروكسل .
وقد ناضل للتوفيق بين رزائه الأسبانية وبين المرح الفلمنكى والمالية
الهولندية . لم يكن يستطيع الحرب ، ولكن قواده كسبوا له في سانت
كوبنتين (١٥٥٧) معركة حملت الفرنسيين على ابرام معاهدة كاتو —
كامبريزى . ورغبة منه في إقامة بعض روابط الصداقة مع فرنسا تزوج
فيليب من إليزابيث فالوا ، ابنة هنرى الثانى وكاترين مديتشى ، وبعد
أن خال الأمور قد استقرت ودع الأراضي المنخفضة وأبحر من غنت
(أغسطس ١٥٥٩) وحبس نفسه بقية حياته في أسبانيا .

ونقل العاصمة من طليطلة إلى مدريد (١٥٦٠) ، وما لبث أن حمله
نخبه للعزلة ، وعدم ارتياحه إلى الوجود وسط الجماهير ، على تكليف

خوان باوتستا وخوان دى هيرايرا بان يشيدا له على سبعة وعشرين ميلا شمال غربى مدريد مجمعا من العائير يحوى قصرا ملكيا ، ومركزا إداريا ، وكلية ومدرسة لاهوتية ، وديرا ، وكنيسة ، وضريحا — ولا غرو فقد أصبح فليب الآن متدينا على قدر ما تسمح به مقتضيات السياسة . ففى معركة سانت كوينتين هدمت مدافعه كنيسة مكرسة للقديس لورنس ، وتكفيرا عن هذا الانتهاك للمتدسات وعرفانا بالجميل على انتصاره ، كان نذر أن يقيم للقديس ضريحا فى أسبانيا . وهكذا سمي مجمع العائير الشاسع هذا السيتيورال دى سان لورينزو « — أى المقر الملكى للقديس لورنس ، ولكن الزمن سماه الإسكوريال ، نسبة لمدينة قريبة ، اشتقت هى نفسها اسمها من لفظ « سكوريا » ومعناه خبث مناجم الحديد المحلية (١٠) . وكان الاعتقاد أن القديس لورنس قد أحرق حتى الموت على مشواة من حديد ، لذلك صمم خوان باوتستا خطة الأرض على هيئة مشواة تقطعها الصالات من جنب إلى جنب ، قاسمة الفراغ الداخلى إلى ستة عشر فناء .

ويعجب المرء وهو يركب السيارة من مدريد إلى هذا المكان كيف استطاع فيليب ، فى عصر لم يتح له ممن وسائل الانتقال ما هو أسرع من ظهور الخيل ، أن يحكم ملكه العالمى من مثل هذا الحرم الذى يتوه وسط تلال كثيفة ؛ ولكن مدريد كانت أكثر منه بعدا عن العالم . وقد هجر هذا المجمع العظيم اليوم إلا من الرهبان وخدماتهم ، ولكنه كان أيام عره ، بواجهته المبنية بطرز النهضة والبالغ طولها ٧٤٤ قدما ، وبملاعه وأبراجه ، وبقية كنيسته الضخمة ، رمزا رهيبا للسلطة الأسبانية التى تبلت بالتقوى والفن . هنا كان يحكم نصف العالم المسيحى ، ووجد الدين والحكومة فى متاهة واحدة من السياسة والحجر ، وهنا كان فى استطاعة الملك أن يعيش كما يشهى ، لا بين حاشيته ، بل بين القساوسة والرهبان والرفات المقدسة ، ويسمع مرات كل يوم الأجراس المعلقة للقداس . هنا كان البانتيون مز معا أن يتلقى رفات ملوك أسبانيا وملكاتهما ، والملكية أن تصبح من أغنى المكتبات فى أوروبا ، ومتحف الصور أن

بضم عما قليل روائع بريشة رفائيل ، وتنسيانو ، وتنتوريو ، وفيرونيزى ، والجريكو ، وفلاسكوز ، وهنا أقبل بلجرينو تيبالدى ، وبارتولوميو كاردوتشى ، وفدريجو زوكارو ، من إيطاليا للانضمام إلى خوان فرنانديز نافاريتى ، ولويز دى موراليس ، ولويز دى كاربايال ، وغيرهم من الفنانين الأسبان ليرسموا الصور الحصية على الجدران والبواكى التى لانهاية لها . أما القصر الملكى فتركه بسيطا كل البساطة ، ولكن الكنيسة برغم بنائها على الطراز الدورى الصارم ، كان مذبحها بتلاؤا بالرخام السماق واليشب والذهب ومن خلفه رافدة ذات حلية معقدة . وكانت القاعة المخصصة لاستقبال كبار القوم شاسعة حافلة بالزخرف ، أما حجرة فليب فأقفر حجرات البناء ، متواضعة كأنها صومعة عابد (١١) . كان البناء رمزا لسطوة فليب ، أما الحجرة فتعبر عن خلقه .

لقد جهد غاية الجهد ليكون قديسا ، ولكنه لم ينس أنه ملك . كان يعلم أنه أقوى حاكم على ظهر البسيطة ويشعر بالزام سياسى بالكبرياء ، ولكنه كان فى لباسه آية فى البساطة حتى أن بعض الغرباء الذين صادفوه فى الاسكوريال حسبه تابعا ، وسمحوا له أن يكون دليلهم (١٢) . وكان خليقا بهم أن يتعرفوا عليه من ذقنه الهابسبورجية الناثئة ، لأنها كانت تحديا بارزا للعالم . وفى عام ١٥٥٩ ، قبل أن يقسيه الزمن والتجارب ، وصفه سفير بندق بأنه « يبدى دائما من الرقة والانسانية مالا يبره فيه أمير (١٣) » ، وقال عنه سفير انجليزى أنه « ذو خلق لطيف ، وطبع لين ، وميل إلى الهدوء (١٤) . ولم يجد فيه أحد أى ميل للمزاح أمام الناس ، وذكر أعداؤه القساة أنه لم يبتسم فى حياته كلها غير مرة — وذلك حين سمع بمذبحة القديس برتلميو . على أنه فى حياته الخاصة كان يستطيع الدعابة والنسكته ويضحك من كل قلبه (١٥) . وكان يجمع الكتب بنوق ولذة ، ولكنه أثر الفن على الأدب ، فهو الراعى المرفه النوق لتنسيانو ، والناقد للجريكو ، يحب الموسيقى ويعرف على القيثارة

حين لا يرقبه العالم ، تحليه كل آداب السلوك الأسبانية ، ولكنه يرتبك .
حياء ويحمد في المناسبات الرسمية ، رشيق الجسم إلى أن أعجزه النقرس .
لولعه بالفطير والحلوى . كان منذ شبابه مستهدفا للمرض ، وإذا كان
قد أدرك السبعين كاملة فإنما الفضل في ذلك لتصميمه العنيد على اتمام
واجباته . وقد اتخذ الحكم واجبا مقدسا ، وراح يكذب فيه ويكذب يوما
بعد يوم طوال خمسين عاما . ويبدو أنه آمن حقا بأن الله اختاره لوقف
المد البروتستنتي ، ومن هنا ما عرف عنه من عناد شديد وقسوة على
مضض ، « ولم يكن بطبيعته يؤثر الطرق العنيفة (١٦) » ولم ينس قط
صنيعا (اللهم إلا حالة أجمونت) . ولا نسى اساءة . كان المنتقم
أحيانا ، الشهم الصفوح غالبا . وزع الصدقات بسخاء عليه الضمير (١٧) .
كان في عصر فاسد غير قابل للافساد ، وما كان لرشوة أو هدية أن تثنيه
عن الاضطهاد : ات التي دفعه إليها تدينه .

أما في أخلاقيات السياسة فكان شبيها كل الشبه بمعاصريه - بكره
الحرب ، ولم يبدأ حربا قط ، واحتمل من إهانات تجلته جيلا كاملا
تقريبا قبل أن يجرد عليها الارمادا . كان قادرا ، بل أقدر من معظم
الحكام ، على الخداع المتخفى وراء التقوى ، والظاهر أنه شارك في
مؤامرة لقتل البرابث حين أعيته الحيل لانقاذ ماري ستيوارت (١٨) . وكان
حكمه لأسبانيا أوتوقراطيا ولكنه عادل ، « يهتم الاهتمام الشديد برعاياه ،
ويصلح أى مظالم اجتماعية يجد الوقت لاكتشافها (١٩) » .

أما خلقه الشخصي فيفضل خلق أكثر ملوك القرن السادس عشر .
كان في شبابه ببروكسل ، إذا صدقنا أعداءه ، « شديد الاباحية »
و « لهو المفضل أن يخرج ليلا متخفيا ليمارس شتى الشهوات المتبذلة في
المواطن المألوفة للزيلة (٢٠) » ؛ وبعد سنوات آثم وليم أورنج ، وهو
يقود ثورة الأراضي المنخفضة ، ناسك الاسكوريال هذا بأنه قتل ابنه
ودس السم لزوجته الثالثة (٢١) ، ولكن رجلا ساخطا مثل وليم لا يعتمد

عليه في كتابة التاريخ . على أن مؤرخا لا يتطرق البشك إلى عظمته وجرأته ، وهو ماريانا اليسوعى الأسباني ، يصدر عليه حكما عدائيا كهذا ، فيبينها هويشيد بـ «سماحة فليب وعزيمته ويقظته وزهده في الطعام والشراب» يتهمه بـ «الشهوانية ، والقسوة ، والكبر والغدر ، وعدة رذائل أخرى» (٢٢) ولكننا نجد مؤرخا هولنديا محدثا يخلص إلى أن « فليب الثاني لا يمكن اتهامه بالفجور و . . . والخلاعة والفساد ، فهو على قدر علمنا عاش بعد عودته إلى أسبانيا حياة فاضلة إلى حد الصرامة (٢٣) » زوجا وفيا وأبا شديد الاهتمام بأبنائه . وحين مرضت زوجته الثالثة اليراثت قالوا بالجدري (وكان يومها فتاكا أغلب الأحيان) ظل ملازما لها لا يبرحها إلا نادرا مع أن وزراه ألحوا عليه في ألا يعرض نفسه لخطر العدوى . وبعد موت اليراثت عقد فليب زواجا دبلوماسيا آخر (١٥٧٠) بأميرة نمساوية من أميراتها العديديات المسميات « آن » ، ومات آن هذه عام ١٥٨٠ وبعدها كرس عواطفه العائلية الحميمة لبناته . ورسائله لهن رسائل إنسانية فيها دعاية ومحبة (٢٤) . وأصبحت اليراثت كلارا رفيقه الحميم وعزاه الكبير وسط هموم الشيخوخة وهزائمها . وقد وصفها في وصيته بأنها نور عينيه . أما أبنائه فلم يجد فيهم أى عزاء .

وتضافرت الأسطورة والأدب (*) والشفقة الانسانية لتجعل من ابن فليب الأكبر رجلا أشهر من أبيه . كان كارلوس ضعيف النية ، مستهدفا للحمى المتقطعة ، والاكتئاب ، ونوبات الغضب والكبرياء . كان سخيا في إسراف ، شجاعا في شراسة ، كان يضحك جده ، الذي كان بالأمس شارل الخامس العظيم . بلومه إياه على أنه فر من موريس أمير سكسونيا في إنزبروك (١٥٥٢) - « لو كنت مكانك لما

(*) اتخذ هؤلاء الكتاب الدون كاروس موضوعا لمرحياتهم : شيلر ، والفيري ، وأوتواي ، ومارى جوزف دشنييه ، وخوان بيريز دموثاغين . . الخ .

قررت قط ! » (٢٥) وفي الحادثات التمهيدية لمعاهدة كاتو - كاميريزى كان هناك وعد بزواج كارلوس - وهو يومها فى الرابعة عشرة - من اليزابث فالوا ، ولكن فى المعاهدة نفسها اتخذ فليب هذه الأميرة زوجة له بعد أن ترمل بموت مارى تيودور ، وذلك ليحول الصداقة الفرنسية من إنجلترا إلى أسبانيا ، وبعد عام وصلت العروس إلى مدريد (١٥٦٠). ولعل كارلوس حين رأى جمالها المتوارى خلف قناع من الحشمة ساءة هذا التحوير لحق « السيد الاقطاعى » ، ولكن ليس هناك دليل على وجود أية علاقة غرام بينه وبين الملكة ذات الأربعة عشر ربيعاً (٢٦) .

وكان من المسلم به رسمياً أن كارلوس وريث للتاج برغم علته . وفى عام ١٥٦١ أرسل إلى جامعة ألكالا « القلعة » . وهناك سقط من درجات سلم خلال مطاردته فتاة يغازلها ، فكسرت جمجمته ، وراح يهذى فى غيبوبته . ونشر الجراح الكبير فيزالْيوس عظم رأسه فأنقذ حياة الصبي ، ولكن تحسن حالته عزاه الناس إلى رفات أخ فرنسيسكانى تقى - مات قبل قرن - أخذت من تابوتها ووضعت على الفراش إلى جوار الأمير . وخلال نقاهة الفتى الطويلا مكث هابيب « القلعة » وأنفق الوقت الكثير إلى جانبه . وأعيد كارلوس إلى مدريد ، وهناك استرد من العافية ما سمح له بالانضمام إلى شباب النبلاء فى حوادث العنف يرتكبونها فى الشوارع ضد الرجال والنساء . وقوت اعتداءاته القاسية الصاخبة ، الشبهة فى أن سقطته قد ألحقت بمخه أذى لاشفاء له منه . ولم يكن مما يعينه على كسب عطف فليب أنه أعرب عن تعاطفه مع الثوار فى الأراضى المنخفضة . ولما عين ألفا قائدا للجيش هناك احتج كارلوس بأن هذه المهمة كان يجب أن تعهد إليه ، فنهى ألفا عن الذهاب ، وهاجم الدوق بخنجر شهره عليه حين أصر على الذهاب (٢٧) . ويبدو أن الأمير خطر له حيناً أن يهرب إلى الأراضى المنخفضة ويضع نفسه على رأس الثورة (٢٨) . وكلف فليب بعض

وزرائه ، الزاهدين فى المهمة ، بأن يراقبوه . ووضع كارلوس الخطط للهروب ، وبعث بعماله لجمع المال ، وجمع ١٥٠٠ ر ١٥٠ دوكاتية ، وأمر بأن يؤتى له بثمانية جياذ لهروبه (يناير ١٥٦٨) . غير أنه أسر بخطته لدون جوان النمساوى ، الذى أفضى بها إلى الملك . وخاف فليب أن تستعمل اليزابث ملكة إنجلترا ، أو وليم أورنج ، ابنه — إذا سمح له بمغادرة أسبانيا — منافسا لأبيه تمهيدا لعزله ، فأمر بتشديد الرقابة على الأمير ، وهدد كارلوس بالانتحار ، فجرده فليب من كل سلاح وحبسه فى القصر الملكى بمدريد .

إلى هنا كان مسلك فليب يسمح بالدفاع عنه ، ولكن التعصب بدأ يعمق المأساة . ذلك أن الملك حين اشتبه فى هرطقة ابنه أمر ألا يسمح له بأى كتاب الاكتاب صلوات يومية وبعض كتب العبادة . ورفض كارلوس الكتب وأهمل كل الطقوس الدينية . وأنذره قسيس بأن مسلكه قد يحمل محكمة الفتيش على التحقيق فى صحة مسيحيته ، وحاول كارلوس أن يقتل نفسه ، ولكن حيل بينه وبين ذلك ، على أنه حقق هدفه بأن رفض كل طعام قدم إليه طوال أيام ثلاثة ، ثم أتخم نفسه باللحم والماء المثلج ، فأصيب بالدوسنتاريا ، ورحب الأمير بالموت ، وتناول القربان لآخر مرة ، وسامح أباه ، ثم مات غير متجاوز الثالثة والعشرين (٢٤ يوليو ١٥٦٨) . واتهم انطونيو بيريز — عدو فليب المنفى — الملك بأنه دس السم لكارلوس ، وصدقت معظم أوروبا التهمة ، ولكن البحث دحضها (*) . على أن صرامة سجن الفتى من النقط السوداء الكثيرة التى تلوث سجل الملك .

(*) « فى الحوادث الأليم ، حادث سجن الفتى كارلوس وموته ، سلك فليب مسلكا شريفا » — الموسوعة البريطانية ، ١٧ ، ٧٢٢ . « فى مارتين هيوم فى كتابه « أسبانيا ، عظمتها وانحلالها » ، ١٥٠ ، ور . « تريغور ديفز » القرن الذهبى . لأسبانيا « ١٤٩ .

وقد ألقى مسلكه من أخيه لأبيه ، دون جوان النمساوى ، ظلاً آخر على الصورة . فيبدو أن هذا الابن غير الشرعى لشارل الخامس وبربارا بلومبرج أثار في نفس فليب أعجاباً تشوبه الغيرة . ومع ذلك رفع جوان إلى مرتبة الأمراء ، وعهد إليه بتنظيم حملة على قراصنة الجزائر . وأبلى جوان فيها بلاء حسناً . وقلده فليب قيادة القوات البرية ضد مغاربة غرناطة ، وأنفذ جوان مهمته دون أن يضيع وقتاً أو يسرف في رافة . فعينه فليب - وهو بعد في الرابعة والعشرين - أميراً لكبر للأساطيل الموحدة في الحرب الصليبية الأخيرة » ، وهزم جوان الترك في ليبانتو ، وغدا بطل العالم المسيحى . هنا شعر بأنه جدير بعرش مملكة ، ولكن شق عليه أن يكتفى بفليب بتنصيبه حاكماً عاماً على الأراضى المنخفضة .

ثم لام الناس الملك الصموت ، الذى كان على الدوام يأبى لكبريائه أن يفسر مسلكه أو يدافع عن نفسه على منبر الرأى العام ، لأموه أشد اللوم على مأساة أخرى . ذلك أنه رقى إلى منصب المستشارية لديه رجلاً من عامة الشعب ذكياً أنيقاً يدعى أنطونيو بيريز ، وكان الاعتقاد أنه الابن غير الشرعى لأخص أصدقاء فليب وأحوزهم لثقته ، وهو روى جومير أمير إيبولى . فلما مات جومير (١٥٧٣) ، أصبح بيريز الصديق الحميم - وربما العشيق (٢٩) - لآنا دى مندوزا ، أميرة إيبولى - الأرملة المغرقة في الدس . وقيل أن فليب نفسه كان له علاقة بهذه الحسناء العوراء قبل أحد عشر عاماً ، ولكن لعل « التاريخ » هنا لفق هذه القصة (٣٠) . وثرماً بيريز معها بغية الافادة من اطلاعها على أسرار الدولة . فلما هددهما خوان دى اسكويبدو بأن يفضح نشاطهما المريب ، أقنع بيريز فليب بأن اسكويبدو يتآمر على خيانتته ، وأعطى فليب الأمر باغتيال خوان . واحتفظ بيريز بالأمريسة أشهر ، ثم نفذ (١٥٧٨) مما أدهش فليب وأربكه . وبعد عام أقنعت أوراق دون خوان النمساوى السرية فليب ببراءة اسكويبدو ، فقبض على بيريز ، وحبس الأميرة

في قصرها . واعترف بيريرُ بجريمته تحت ضغط التعذيب ، ووافق على أن يرد للخرانة ١٢٠٠٠.٠٠٠ رافيدى . ولكنه فر إلى اراجون بمساعدة زوجته ، وهناك طارده محكمة التفتيش بتحريض فليب باعتباره مهرطقا . ففر إلى فرنسا ، وعزا اضطهاده إلى غرام فليب بلا ايولى غراما لم يسله ، وأفشى مواطن ضعف أسبانيا الحربى والمسال للحكومتى فرنسا وانجلترا ، وحرّض ايسيكس على الاغارة على السفن والشواطئ الأسبانية . وأخيرا مات بباريس عام ١٦١١ بعد أن حاول عبثا الحصول على عفو فليب الثالث وحمايته (٣١) .

لقد وجد فليب مبررا كافيا لاتباع نصيحة أبيه له بالأىثن بمساعدته . ذلك أن أشرف الأسبان - كالنبلاء الفرنسيين - كانوا غيورين من سلطة الملكية لا يتورعون عن الكبد للملك . ولقد أبقي على خلافاتهم فيما بينهم ، وضرب بعضهم ببعض ، وتلقى تقارير ملخصة عن آرائهم المتعارضة ، ثم اتخذ قراراته . ولما فقد الثقة في مرءوسيه ، أكتب بشخصه على دقائق الحكم والإدارة في كل ميدان - فى السياسة البابوية ، والأشغال العامة ، والرذائل المحلية ، والطرق والكبارى ، وتطهير الأنهار للملاحة ، وانشاء المكتبات ، واصلاح القانون الأسبانى وجمعه وتنسيقه ، والأشراف على مسح جغرافى وتاريخى واحصائى واسع لأسبانيا ما زالت مجلداته الخمسة عشر ذات القطع الكبير دون نشر (٣٢) . على أن اضطلاعه بأعباء ينوء بها كل كاهل حتى كاهله أفضى به إلى سياسة التسويف والتأجيل ، فقد لاحظ أن كثيرا من المشكلات تفقد إلحاحها أو معناها إذا أجلت عمدا ، واكن مجرى الأحداث فى عدة حالات - كحالة الأراضى المنخفضة - فصل فيها على عكس ما يشهى بينما هو يزن ما للحلول وما عليها أو يضعها على الرف . وفى مهجه الملكى كان يملأ أو يكتب بيده التعليمات لموظفيه الذين عينهم فى خمس قارات . وقد افترض أن الساطة الملكية يجب أن تكون مطلقة ، وأغفل أو طغى على « الكورتيز » أو المجالس الإقليمية .

إلا في الأراجون، وأصدر المراسيم — حتى مراسيم الاعداد — دون محاكمة علنية، وهذا أو تفرطته باليقين بأن هذا سبيله الأوحى إلى حماية الفقراء من الأغنياء (٣٣). وأنشأ تدريجا وبجهد ، داخل حكمه المستبد ، فى قارة استشرى الفساد فى كل أرجائها تقريبا ، بىروقراطية وقضاء امتازا بالقياس إلى غيرهما بالكفاية والعدل (٣٤) .

كان يحرم الكنيسة باعتبارها المشكل التقليدى للفضيلة والحارس القديم للملوك ، ولكنه أخضع الدين للدولة فى أسبانيا كما فعل هنرى الثامن أو اليزابث الأولى فى إنجلترا . وعلق أهمية كبرى على الوحدة الدينية باعتبارها أداة للحكم ، حتى أنه رأى « أنه حير للملك ألا يملك إطلاقا من أن يملك على مهترطين » . (٣٥) فلما اقتنع بأن المغاربة فى أسبانيا ما زالوا يمارسون شعائر الاسلام برغم تظاهرهم بالكثلكة ، أصدر (١٥٦٧) أمرا عاليا يحرم كل العادات الاسلامية ويحظر استخدام اللغة العربية واقتناء الكتب العربية . وتمرد المغاربة (١٥٦٨) ، واستولوا على إقليم كبير جنوبى غرناطة ، وذبحوا المسيحيين ، وعذبوا الكهنة ، وباعوا النساء والأطفال رقيقا للبرير نظير الدارود والبنادق . ولكن التمرد أخمد بعد سنتين من الفظائع التى تنافس الفريقان فى ارتكابها . وطرد جميع المغاربة من إقليم غرناطة وشتتوا بين الجماعات المسيحية فى قشتالة ، وأودع أبناءهم البيوت المسيحية ، وجعل الحضور إلى المدارس اجباريا على جميع الأطفال — وهو أول الزام من نوعه فى أوربا (٣٦) . واشتبه فليب فى أن المغاربة الباقين فى بلنسية وقتلونيا يتآمرون مع العدو ، وكان فى حرب مع الترك ، ولكن كثرة أعبائه أكرهته على أن يترك آخر مراحل المشكلة خلفه .

وكان أبوه قد خلف له مهمة الدفاع عن العالم المسيحى ضد الإسلام باعتبارها جابا هاما من سياسة الهابسبورج . ففى عام ١٥٧٠ انضم إلى البندقية والبابوية فى حرب صليبية تنهى سيادة الترك على البحر المتوسط .

وسقطت قبرص في يد الترك بينما كان فليب يضع الخطط والحلفاء الثلاثة يحشدون أسطولهم . وما وافى عام ١٥٧١ حتى كانوا قد جمعوا في مسينا ٢٠٨ سفينة شراعية كبيرة و ٥٠٠ ربحار ، و ٢٩٠٠٠ جندي ، ورفع فوق مقدم كل سفينة صليب ، ومنحت البركة للرايات ، وارتفعت الصلوات جملة إلى عنان السماء ، وأصدر الاميرال الشاب الملهم الصيحة الصليبية ، «المسيح قائدكم ، أنكم تخوضون معركة الصليب» . وفي ١٦ سبتمبر ١٥٧١ أفلح الأسطول وحقق انتصارا قضى على تفوق الترك في البحر المتوسط . وإذا كانت أسبانيا قد أسهمت بأكثر من نصيبها من السفن والرجال ، فإن بهاء ليبانتو سطع على دون جوان والملك ، وقارب فليب عندها ذروة مجده قبل انحداره . وواتته هذه الذروة حين ورث عرش البرتغال (١٥٨٠) فضم هذا البلد الاستراتيجي إلى ملكه المتعظيم .

أما هم المقيم فكان ثورة الأراضي المنخفضة . فقد علم ساخطا أن أن كولينى ، الزعيم البروتستنتى ، كاد يقنع شارل التاسع بأن فرنسا يجدر بها أن تتحالف مع الثوار . فلما بلغ فليب نبأ مذبحة القديس برتولوميو التي أطلق شارل وحوشها على الهيجونوت طرب له وشدد النكير على الأراضي المنخفضة . فحرض على اغتيال وليم أورنج ودفع أجر الجريمة ، وحاول شراء صداقة هنرى نافار ؛ ولكن هنرى لم يكن ممن تشتري صداقتهم بالمال . ومن ثم اشترى فليب آل جيز والحلف الكاثوليكي ؛ وحلم بجعل ابنته ملكة على فرنسا ، وعندها تتحالف قوى أسبانيا وفرنسا فتخضعان الأراضي المنخفضة ، وتنصبان ماري ستيوارت ملكة على انجلترا ، وتقطعان دابر البروتستنتية من كل مكان . فلما أرسلت اليزابث المعونة لحوالدة (١٥٨٥) ؛ وشيعت ماري إلى آخرتها (١٥٨٧) ، وبعد سنين صبر فيها فليب وصابر على الغارات التي شنها قراصنة اليزابث على سفن أسبانيا وشواطئها وكنوزها . جنح آخر الأمر إلى الحرب ، فخرّب مالية حكومته ليمول الأرمادا . وساندت أسبانيا كلها هذا الجهد وصلت من أجل النصر ، شاعرة بأن مصير الأسطول سيفصل في تاريخ أوروبا .

وتجلد فليب في ظاهر الأمر لذل الكارثة وعارها ، وقال انه أرسل سفنه لتقاتل البشر لا الأنواء . ولكن الهزيمة حطمت روحه وكادت تحطم أسبانيا ، هذا برغم أنه عاش بعدها وقاتل عشر سنوات أخرى ، وأن أسبانيا استغرقت قرنا حتى سلمت بخرابها . إنه لم يستطع أن يصدق أن الله تخلى عنه بعد ثلاثين عاما من الكفاح في سبيل الإيمان ، ولكن لا بد أن هذه الحقيقة الكثيرة طالعت في النهاية ، وهي أنه بعد أن أفقر شعبه بالضرائب ، أخفق في كل شيء إلا في اكتسابه البرتغال بمحض الصدفة ، ورده الترك مؤقتا - وكانوا قد استولوا من جديد على تونس وأخذوا يستردون سطوتهم . لقد كان هنري الرابع يسير إلى النصر في فرنسا ؛ والأراضي المنخفضة في ثورة لا سبيل إلى التصالح فيها ؛ وأبي البابا أن يتحمل فلسا من نفقات الأرمادا ؛ وقبضت البروتستنتية على ناصية الشمال الغنى ، وأخذت لإنجلترا تهيمن على البحار ومن ثم على أمريكا والشرق بعد قليل ، أما تلك السليطة الزابث ، فهي متربعة على عرشها المنيع وسط المياه ظافرة بعد أن تفوقت على كل ملوك عصرها فطنة ودهاء .

واصطاح على الملك الثكل ، والعزلة ، والمرض - اصطلحت عليه كلها لتذله بعد عز وتوهن من اعتداده بنفسه . كانت زوجته الرابعة قد ماتت عام ١٥٨٠ ، ولم يبق على قيد الحياة من الأطفال الثلاثة الذين أنجبهم غير غلام قليل الكفاية لا بد أن يورث أول امبراطورية لا تغرب الشمس فوق رقعتها . ان الشعب ما زال يحمل لفليب الاجلال برغم أخطائه وهزائمه ، فهو مقتنع بأنه ناضل من أجل قضية مقدسة ، وأنه لعب لعبة القوة دون أن يفوق أعداءه تحللا من مبادئ الشرف ، وهو صابر في غير لوم على الشقاء الذي أوقعته فيه سياساته الاقتصادية ونظام ضرائبه وهزائمه . وقد أصاب أطرافه بالآلام المبرحة في شيخوخته ، وأعجزه بالشلل ، ذلك النقرس الذي كان آخر تركة ورثها عن أبيه ، وخيمت على إحدى عينيه سحابة من السد ، وشوهت جلده القرح المنفرة .

وفي يونيو ١٥٩٨ حمل على محفة إلى الاسكوريال ، إلى غرفته الأثيرة .
التي يستطيع خلال نافذتها أن يتطلع إلى مذبح الكنيسة المرتفع . وظل
ثلاثة وخمسين يوما يبلى جسده في فراشه ، محتملا كل شيء وهو واثق أنه
امتحان الأله لإيمانه ، محتفظا بذلك الإيمان إلى النهاية الرهيبة ، متشبهاً
بصليب لا يفتأ يلثمه مرددا الصلوات المرة بعد المرة . وأمر بالافراج عن
السجناء ليكون ذلك آخر عمل من أعمال الرأفة . وأرسل في طلب ابنه ،
وأوصاه بالرأفة والانصاف ما دام حيا ، وأمره بأن يعتبر بالخاتمة المهينة
التي تنهى إليها القوة الدنيوية . ثم انتهى عذابه في ١٣ سبتمبر ١٥٩٨ .

لقد بذل قصاره بعقل غلت التربية في تقييده ، عقل أضيق من .
أن يسع امبراطوريته ، وأصلب من أن يطوع نفسه لتبعاته المتنوعة . وليس
في مقدورنا أن نعرف هل كان إيمانه زائفاً ، وكل ما نشعر به أنه إيمان
متعصب قاس ككل إيمان في عصره تقريبا ، وأنه أظلم عقله وشعبه بينما
واسى فقر هذا الشعب وسند كبرياء الملك . ولكن فليب لم يكن الغول
الذى صورته أقلام خصومه المشبوبة . فقد كان — على قدر ما أوتى من
بصيرة — لا يقل في عدله وسماحته عن أى حاكم في قرنه إلا هنرى الرابع .
وكان مهذبا في حياته الزوجية ، محبا لأسرته محبوبا منها ، صابرا على
الاستفزاز ، شجاعا في الشدة ، مخلصا في الجهد . لقد دفع إلى التمام
ثمن تركته الغنية المهلكة .

٣ — فليب الثالث : ١٥٩٨ — ١٦٢١

أما وريثه فكان فليبا آخر يختلف كل الاختلاف عن أبيه . لقد
حزن أبوه حين رأى تراخي الفتى وقصر نظره قائلا « ان الله الذى رزقنى .
هذا الملك العريض لم يرزقنى ولدا يصلح لحكمه (٢٧) » كان فليب الثالث ،
الذى بلغ العشرين الآن ، أتقى حتى من أبيه ، فزردت الشائعات في
رميه بأى خطيئة ولو عارضة . ولما كان خجولا وديعا ، شديد العجز
عن القيادة ، فقد أسلم كل سلطات الحكم ومتطلباته إلى فرانشيسكو جومز دى
ساندوفال أى روجاس ، دوق ليرما .

أما الدوق فكان فيه شيء من البر بالناس ، لأنه رقى كل أقاربه تقريبا إلى المناصب الدسمة ، ولم يغفل ذاته في بره ، ففي العشرين سنة التي رأس فيها الوزارة جمع ثروة طائلة قدرها الشعب المغيظ بمبلغ ٤٤,٠٠٠,٠٠٠ دوكاتية (٢٨) ، وهو رقم يستحيل تصديقه . وقد وفر للخزانة من المال ما يكفي لتجهيز أسطولين صخمين ضد إنجلترا (١٥٩٩ و ١٦٠١) ، ولكن كليهما حطمته الأنواء العاتية . وكان ليرما من الحصافة ما جعله يرحب بعروض السلام التي قدمها جيمس الأول ، وهكذا أبرمت أسبانيا وإنجلترا صلح لندن (١٦٠٤) بعد تسعة عشر عاما من الحرب . أما الحرب في الأراضي المنخفضة فاستمرت ، واستنزفت الذهب من أسبانيا بأسرع من وصوله إليها من أمريكا ، ووجد ليرما أنه ليس في طاقته أن يشبع من موارد بلد مرهق حاجات قواده المعوقين ، وجيبه الخالص . وإذا أدرك أنه لم يعد هناك جدوى من بذل مزيد من الجهود لرفض منح « الأقاليم المتحدة » استقلالها ، فقد وقع معها هدنة تمتد اثني عشر عاما (١٦٠٩) .

ولكن مشروعه التالي كان لا يقل تكلفة عن الحرب . كان مسقط رأسه بلنسية ، حيث يعيش ثلاثون ألفا من أسر المغاربة ، وكان فيه من التقوى ما يكفي لتبغيضه في هؤلاء المزارعين والصناع للذين كان لخدمهم واقتصادهم الفضل في احتفاظهم باليسر وسط فقر المسيحيين المستكبر العاجز . وكان يعلم أن هؤلاء المسلمين المتنصرين قد احتفظوا - بدافع من سخطهم لاضطهاد فليب الثاني لهم - باتصالات خائنة مع مسلمي أفريقيا وتركيا ، ومع هنرى الرابع ملك فرنسا ، الذي أمل أن يفجر الثورات في أسبانيا في الوقت المناسب (٣٩) . ورأى أنه ليس من الوطنية في شيء أن يعاف المغاربة الأحمر ويزهدوا في أكل اللحم ، فنتيجة هذا أن يقع عبء الضرائب المفروضة على هذه السلع ، كله تقريبا ، على كواهل المسيحيين من الأسبان . وأعرب سرفانتس عن الخوف من أن هؤلاء المغاربة الذين ارتفعت نسبة المواليد فيهم عنها في « المسيحيين القدامى » لندرة العزوبة عندهم ، سيسودون

أسبانيا عما قليل (٤١) : وقدم خوان دى ريبيرا رئيس أساقفة بلنسية المذكرات إلى فليب الثالث (١٦٠٢) يحضه فيها على طرد جميع المغاربة الذين تزيد أعمارهم على السابعة ، وقال فى تفسيره للكوارت التى نزلت بأسبانيا ، بما فيها تدمير الأرمادا ، إنها عقوبات أنزلها الإله لإيوائها الكفار ، فهؤلاء المسيحيون المزيفون يجب ترحيلهم ، أو إرسالهم لسفن العبيد ، أو شحنهم بالمراكب إلى أمريكا ليستغلوا عبيدا فى المناجم (*) (٤١) . وبرغم تحذيرات البابا ، وبرغم احتجاجات ملاك الأراضى الذين كانوا ينتفعون من مستأجرهم المغاربة ، أصدر ليرما (١٦٠٩) مرسوما أمر به جميع مسلمى إقليم بلنسية - مع بعض الاستثناءات - بأن يستقلوا خلال ثلاثة أيام مراكب أعدت لهم لينقلوا إلى أفريقيا ، غير حاملين معهم من المتاع أكثر مما تطيقه ظهورهم . وتكررت الآن المناظر التى رافقت طرد اليهود قبل ١١٧ عاما . وأكرهت الأسر البائسة على بيع أملاكها بخسائر فادحة ، وساروا إلى الموانئ يتعثرون فى شقائهم ، وسرق الكثيرون منهم ، وقتل البعض ، فى طريقهم إلى السفن أو وهم على ظهورها . فلما وصلوا إلى أفريقيا تهلّلوا لبلوغهم أرضا مسلمة ، ولكن ثلثيهم هلكوا جوعا أو قتلوا باعتبارهم مسيحيين (٤٢) . وفى شتاء ١٦٠٩ - ١٠ أجلت حركات طرد أخرى من بقى من المغاربة فى غير بلنسية ، وهكذا نزعت أملاك ١٠٠ ر ٤٠٠ من أكثر أهل أسبانيا انتاجا وأقصوا عن البلاد . وكان هذا فى أعين الشعب أمجد منجزات الحكم ، وتطلع الأسبان السذج إلى عهد أكثر رخاء ، بعد أن استرضوا الإله بتخليص أسبانيا من الكفار . واغتبطت الحاشية بالحصيلة التى تجمعت من مصادرة أملاك المغاربة ، فكان نصيب ليرما منها ١٠٠ ر ٢٥٠ دوكاتية ، ونصيب ابنه ١٠٠ ر ١٠٠ ، ونصيب ابنته وصهره ١٥٠ ر ١٥٠ (٤٣) .

(٥) أدخل خوان دى ريبيرا فى زمرة القديسين عام ١٩٦٠ .

وما حلت سنة ١٦١٨ حتى كان جشع ليرما وأهماله ، وأسراف الملك وحاشيته ، وفساد الموظفين ، وتمزق الاقتصاد بخروج المغاربة ، قد هبط بأسبانيا إلى درك نهب حتى هذا الملك الخامل إلى ضرورة التغيير . وفي فورة من فورات العزيمة طرد ليرما (١٦١٨) ، ولكن ليقبل ابنه - الدوق أو سيدا - رئيسا لوزرائه . واعتزل ليرما في لباقة ، وتقبل قبعة الكردينالية وعاش سبع سنين آخر رافلا في حلل التقوى والثراء . وفي عام ١٦٢١ أنذر مجلس قشتاله الملك بأن ملكه « في طريقه إلى الافلاس والدمار لفداحة الأعباء والضرائب والرسوم » (٤٤) ، وتوسل إليه أن يعتدل في نفقائه . فتقبل النصيحة ولكنه مضى يسلك مسلكا ملكيا مترف الجهاز والصيانة . في هذه السنة بعينها مات مخلفا لولده ملكا عريضا لاحول له ولا قوة ، وحكومة فاسدة لا كفاية فيها ، وشعبا هوى إلى درك الفاقة والتسول والسرقة ، وطبقة استنكفت من أن تؤدي ضرائبها ، وكنيسة خنقت فكر الشعب وحطمت ارادته وأحالت خرافاته أكداسا من الذهب .

٤ - فليب الرابع : ١٦٢١ - ٦٥

خالف الولد أباه في كل شيء إلا الإسراف . ونحن نعرفه ظاهرا من الصور الكثيرة التي رسمها له فيلاسكويز ، ففي متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك يطالعا وهو بعد في التاسعة عشرة (١٦٢٤) ، فتي وسبا أشقر الشعر متفتحا للحياة ، وفي متحف الصور الأهل بلندن نراه مرحا واثقا بنفسه في السابعة والعشرين ، ثم بدينا وقورا في الخمسين ، وفي البرادو نراه في خمس مراحل بين البهاء والانحلال ، كذلك نرى صورته في فلورنسة ، وتورين ، وفينا ، وسنسناني - لا بد أن هذا الرجل أنفق نصف حياته في مرمم فيلاسكويز . ولكن هذه اللوحات لا تكشف إلا عن ملاحظه الرسمية ، فهو لم يكن في حقيقته بهذه الرزانة والكبرياء ، وقد تكون أكثر انصافا في تصوره إذا تأملنا أطفاله في لوحات فيلاسكويز ، وأغلب الظن أن، أحبهم حبا يفوق العقل كما نحب أطفالنا . كان في صميمه رجلا

لطيفا ، كريما مع الفنانين والمؤلفين والنساء ؛ لا نصف قديس كأبيه ؛ بل مستمتعا بالطعام ، والجنس ؛ والتمثيلات ، والصور ؛ وحياة البلاط ، والصيد ، عازما على أن ينهل من الحياة ما استطاع حتى في بلد محتضر كأسبانيا .

ولعل استطابته الخالصة للحياة هي صاحبة الفضل في ازدهار الشعر والدراما ، والتصوير والنحت ، في عهده ازدهارا لم تشهد أسبانيا له نظيرا من قبل ولا من بعد . كان إذا بدت لذاته مشتطة في فوضاها استكثر من الصلوات ؛ واعتمد على نياته الطيبة في أن تعبد له الطريق إلى السماء . أنجب من الأطفال غير الشرعيين اثنين وثلاثين ، اعترف منهم بثانية (٤٥) . وإذا لم يكن في وقته متسع لشئون الحكم ، فقد فوض بسلطاته وواجباته رجلا من أبرز الشخصيات في دبلوماسية القرن السابع عشر .

هذا الرجل — الدوق جاسبار دى جوزمان ، كونت أوليفاريس — جرت حياته موازية ومعارضة لحياة ريشليو . فقد لعب هذا السكونت العظيم مع الكردينال الداهية ، طوال واحد وعشرين عاما (١٦٢١-٤٢) ، لعبة دامية من الذكاء والحرب للتبديد على أوروبا . وقد أطلعنا فيلاسكويز على شخصية أوليفاريس — رجل خلا من الخوف والملامة ، فيه كل عدوان القوة ، تلتف شواربه الكبيرة المشدبة كأنها سيف معقوف رهيب ، وعباءات منصبه وأحزمته وسلاسله ومفاتيحه تنطق بالسلطة (٤٦) . أما العيوب التي شابت خلقه ، وهي الغطرسة والتزق والعناد الشديد ، فقد أقصت عنه كل الناس إلا من خبروا أيضا غيرته المتفانية ؛ وعكوفه الشديد على خدمة أسبانيا . وأمانته الصريحة في بيئة فاسدة ، واحتقاره للذات الدنيا إلا أن تكون سبيلا لإرياك الملك ، وقصده في الطعنام وبسطة حياته الخاصة ؛ ومساندته الحارة للآداب والفنون . وقد فاضل مخلصا للتخفيف من الرذائل ، ولوقف الرشوة ، ولرد الأموال المحتلثة إلى الخزانة ، وللتقليل من نفقات بلاط الملك ، ولغرض الاقتصاد والاعتدال

فى اللباس والأثاث ، وحتى للحد من قسوة محكمة التفتيش. اضطلع بكل أعباء الحكم ، والسياسة ، والدبلوماسية ، والحرب ، فكان يبدأ مهام يومه قبل طلوع الفجر ويواصلها حتى بعد أن ينخر إعياء . وكانت اللعنة التى ابتلى بها ما عمد إليه ريشليو - يمثل هذا التفانى - من استنزاف لقوة الهابسبورج فى النمسا وأسبانيا فى بطاء ، ودهاء، وعناد . وقد اقتضى لقاء هذا التحدى الرهيب وجود الجيوش فى قتلونيا والبرتغال وفرنسا وقابلى ومانتوا والممرات الفالتينية والأراضى المنخفضة، وفى بالوعة حرب الثلاثين سنة الشاسعة الدامية . ولكن الجيوش تحتاج إلى المال ، والمال يتطلب فرض الضرائب . لذلك رفع « القبالة » أى صرية البيوع إلى ١٤ ٪ ، فاخترقت التجارة ؛ وكان الجباة يختلسون ثلثى الضرائب قبل أن يصل باقىها إلى الخزانة . وهكذا أوهن أوليفاريس، بعزيمة وطنية، اقتصاد أسبانيا لينقذ سطوتها السياسية .

وليس حتماً أن نتبع كلى تحركات لعبة الشطرنج الدامية هذه ، فهى لا تضيف شيئاً إلى معرفتنا أو تقديرنا للبشرية . لقد كانت صراعا بين القوة لا بين المبادئ ، صراعا يغفل فيه كل طرف مذهبه فى سبيل الانتصار العسكرى ، فترى ريشليو يمول الجيش البروتستنتية فى ألمانيا ضد النمسا الكاثوليكية ؛ وأوليفاريس يبعث ٠٠٠ ر ٣٠٠ دوكاتية كل سنة لدوق روهان ليطلب أمد ثورة الهيجونوت فى فرنسا (٤٧) . وتحطمت أسبانيا فى النهاية ، فقضى الهولندون على قوتها فى البحر فى معركة داونز (١٦٣٩). وقضى الفرنسيون على قوتها فى البر فى روسيون (١٦٤٢) وروكروا (١٦٤٣) وانهزت البرتغال وقاتلونيا فرصة ضعف أسبانيا فانترعتا حريتهما (١٦٤٠)، وخاضت جمهورية قتلونيا الحرب ضد قشتالة مدى تسعة عشر عاماً بمعونة فرنسا . وأخيراً طرد الملك اللطيف وزيره على كرهه بعد أن كان محل ثقته خلال عشرات الكوارث (١٦٤٣) . وقرأ أوليفاريس من مدريد المناوئة إلى منفاه الاختيارى فى توررو البعيدة ، وهناك مات مخجولاً بعد سنتين .

واضطلع فليب بالمهمة شخصيا إلى حين . فخفض نفقاته وكرس نفسه مخلصا للحكم . غير أن أسباب اضمحلال أسبانيا كانت فوق ادراكه أو سيطرته . واستمرت الحرب ، ولم تخفف الضرائب ، وتناقص الإنتاج ، وتقلص السكان . وفي صلح وستفاليا (١٦٤٨) كانت أسبانيا عاجزة ، فاضطرت إلى النزول عن الاستقلال للأقاليم المتحدة ، بعد حرب عقيمة امتدت قرابة قرن من الزمان . وختم صلح البرانس (١٦٥٩) بخاتمته مصدقا على السيادة الفرنسية في أوروبا . وسط هذه النكبات ماتت إزابيلا البوربونيه زوجة فليب الوفية الصابرة (١٦٤٤) ، ولحق بها بعد عامين ولدها الوحيد الباقي على قيد الحياة ، دون بالتازار كارلوس ، الذي صورته فيلاسكويز بأسلوب خللاب . ولم يبق للملك غير طفلة شرعية واحدة هي ماريّا تريزا ، التي زوجها للويس الرابع عشر . وإذا كان فليب تواقا لوريث للملكه فقد تزوج (١٦٤٩) وهو في الرابعة والأربعين ابنة أخ لا تتجاوز الرابعة عشر ربيعا ، هي ماريانا النمساوية التي كانت مخطوبة لبالتازار ، فنحته ولدين : فليب ابروسبر الذي مات في الرابعة ، وولدا آخر أصبح فيما بعد كارلوس سيجوندو (شارل الثاني) . أما الملك المرهق ، الذي هدقواه حصى الماراة ، وأوهنه نرف البواسير ، ولم يكف عن مطاردته الرهبان المتجرون بالسحر ، فقد استسلم للموت (١٦٦٥) تعزیه فكرة وجود وريث له ، ولكنه أعفى من العلم بأن ولده نصف الأبله هذا سيوصى بملك أسبانيا كله لفرنسا .

٥ - البرتغال : ١٥٥٧ - ١٦٦٨

تميزت هذه السنوات بثلاثة أحداث في البرتغال . فقدت استقلالها ، ثم استردته ، وكتب كامونش « اللوسیاد » .

لقد شاركت أسبانيا نشوة التوسع وشراسة العقيدة ، ثم سبقتها إلى الاضمحلال . وكان من أثر سرعة تطورها الاستعماري أنها استنزفت وراء البحار أكثر أبنائها مغامرة ، وأهملت الزراعة أو ترك أمرها للعبید

الخائري المهمة ، وفاحت في لشبونة رائحة المرتشين ، والتجار الجشعين ،
والعمال المفلسين ، وكلهم يعيش في النهاية على الاستغلال الامبريالي أو
التجارة الخارجية . واقترح الملك الشاب سياستيان ، الذي ألهمه اليسوعيون
الحماسة الدينية ، على ابن عمته فليب الثاني الاشتراك في فتح المغرب
وتنصيرها . ولكن فليب تردد لكثرة شواغله ، فاقترح سياستيان أن
يضطلع بالمغامرة منفردا ، وحذره فليب من قصور موارد البرتغال عن
انفاذ هذه الحملة ، فلما أصر سياستيان قال فليب لمجلسه ، « لو كسب
الحرب أصبح لنا صهرا مفلحا ، ولو خسرنا آتينا ملك حسن (١٨) »
وغزا سياستيان المغرب فليب على أمره وقتل (١٥٧٨) في معركة القصر
الكبير . ولم يعقب سياستيان وريثا لأنه كان أعزب وفيما لعزوبته ، فولى
العرش عمه الأكبر الكردينال هنرى ، ولكن هنرى نفسه مات دون
عقب عام ١٢٨٠ ، فانتهت بذلك أسرة أفيز التي حكمت البرتغال منذ
عام ١٣٨٥ .

هنا واثت فليب الفرصة التي ترقبها . وكان هو وفيليبرت ايمانويل
أمير سافوا الوريثين المباشرين للعرش الخالي باعتبارهما حفيدى مانويل ملك
البرتغال . واعترف مجلس لشبونة بفليب وريثا ، وقاوم بعض المطالبين
بالعرش من منافسيه دخوله ، ولكن ألفا الجبار انتصر عليهم ، وفي عام
١٥٨١ دخل دليب الثاني لشبونة باسم فليب الأول ملك البرتغال . وحاول
بالمجاملات والرشا أن يكسب صداقة الأمة . فنهى جيشه عن نهب الريف ،
وشق الدوق ألفا من جنوده جزاء جرائم كهذه عددا كبيرا خشى معه
نقصا في الحبال ، ووعد فليب بابقاء الأملاك البرتغالية في يد حكام من
البرتغال ، وبعدم تعيين أى أسباني في منصب بالبرتغال ، وبصون امتيازات
الشعب وحرياته . وأوفت أسبانيا بهذه العهود ما دام فليب حيا . وهكذا
ورث فليب بسهولة مذهلة البحرية البرتغالية ومستعمرات البرتغال في
أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية . وزال خط الحدود القديم الذى رسمه

البابا ليفصل الممتلكات الأسانية عن البرتغالية ، واستعد أقوى ملوك أوروبا ، الذى ازداد الآن قوة على قوة ، لتدمير نفسه بغزو إنجلترا .

وبينما كانت إمبراطورية البرتغال تؤول إلى أسيانيا والهولنديين ، كان اعظم شعرائها يتغنى بأعجاد فنوحها . هنا أيضا تقوم حواجز القومية واللغة سدا منيعا أمام رغبتنا فى الفهم . فأنى لقوم لم يربوا على التاريخ البرتغالى ، ولا أحسوا بمعنى الكلام البرتغالى وموسيقاه ، أن ينصفوا لوزير فاز دى كامونز المعروف لنا باسم كامونش ويوفوه حقه من التقدير .

نقد عاش أغنيته قبل أن يكتبها ، كان أحد أجداده جنديا شاعرا مثله ، وجدته قرية لفاسكودا جاما بطل اللوسيا ، أما أبوه ، القبطان الفقير ، فقد تحطمت سفينته قرب جنوه ومات هناك عقب مولد لوزير فى لشبونه أو كويمبرا . والراجح أن الفقى درس فى الجامعة ، لأن قصيدته تصدح بأصداء كاتلوس وفيرجل وهوراس وأوفيد . وبدأت تجربته العاطفية فى إحدى الكنائس ، فى لحظة تعبد ، إذ تراءت له حسناء « لها وجه ناصع البياض كالثلج ، وشعر فى صفرة الذهب » ، فتحرك فيه هاتف الشعر . ولا بد أن بعض شعره ساء القصر ، إذ أنه نفى إلى قرية على أعلى نهر تاجه ، وهناك حلم بملحمة « تيزيد البرتغال فخرا ، وتثير حسد أزمير مسقط رأس هومر^(١٩) » . ولكن الحكومة التى لم تقدر شعره أرسلته إلى المنفى ، أو إلى الخدمة العسكرية فى سبته ، وهناك فقد إحدى عينيه فى معركة أو عراك ، ولما عاد إلى لشبونه دافع عن بعض أصحابه فى مشاجرة ، وطعن رجلا من الحاشية ، فزجوه فى السجن ثمانية أشهر ، ثم أفرج عنه فى أغلب الظن بعد تعهده بالانخراط فى سلك الجندي خارج البرتغال . وفى ٢٦ مارس ١٥٥٣ أبحر إلى الهند جنديا عاديا على سفينة أمير الأسطول فرناو ألفاريس كابرال ، وكان يومها فى التاسعة والعشرين من عمره .

واحتمل ضجر الليالى الرطبة فى الرحلة التى استغرقت نصف عام بنظم

القسمين الأولين من اللوسباد . وفي سبتمبر رست السفينة على جوا ، وهي « سدوم » البرتغالية في الهند . واشترك في حملات كثيرة . على ساحل ملبار وتجاه شواطئ جزيرة العرب ، وفي ممبسة ، وفي جزر الهند الشرقية ، في مكاو ، « سدوم » البرتغالية في الصين ؛ وهو يصف نفسه ملوحاً بالسيف في يد ، وبالقلم في الأخرى ، ولقبه رفاقه بـ « ترنكافورتيس » - أى المتفاجر الطائش - وأعلمهم احتراموا سيفه أكثر من قلمه . وفي مكاو إلى اليوم غار يرى للزائرين على أنه المكان الذى كتب فيه كامونش بعض قصيدته . وتروى قصة غير مؤكدة أنه أعيد من مكاو في الأغلال بعد أن قبض عليه لأسباب لا نعرفها . وتذكر قصة أخرى (جردته من أغلاله) كيف تحطمت سفينته تجاه ساحل كمبوديا فسبح لوزير إلى الشاطئ وملحمته بين أستانه (٥٠) . على أنه فقد في غرق السفينة خليلته الصينية المحبوبة . وبعد أشهر من الشقاء وجد طريقه إلى جوا ، ولكنه طرح في السجن هناك . وأفرج عنه ، ثم ردت إلى السجن بسبب الدين هذه المرة . وأطلق حاكم صديق سراحه ، واستطاع الشاعر أن يستمتع برهة وجيزة بالحياة وبشئى الخليلات من كل لون . وفي عام ١٥٦٧ اقترض بعض المال واستقل مركباً إلى البرتغال ، ونفدت نقوده في موزمبيق ، فتسكع في الفاقة عامين . ودفع بعض الأصدقاء العابرين ديونه وأجرة سفره وعادوا به لشبونة آخر المطاف (١٦٧٠) ، وهو لا يملك من حطام الدنيا غير قصيدته . وأجرى عليه الملك سباستيان معاشاً متواضعاً . وأخيراً وصلت القصيدة إلى المطبعة (١٥٧٢) ، وأتيح لكامونش أن يعيش في الفقر مع السلامة ثمانى سنوات . ومات في لشبونة عام ١٥٨٠ ، ودفن مع غيره من ضحايا الطاعون في مقبرة مشتركة . وتحتفل البرتغال بذكره في ١٠ يونيو ، وهو يوم عطلة تذكارية ، وتعزى بقصيدته « أوس لوسبادس » ملحمة قومية ، وعنوانها معناه « البرتغاليون » وقد أخذ كامونش لفظ لوسيا من الاسم الرومانى القديم للجزء الغربى من أسبانيا وهو لوزيتانيا .

أما القصة الكثيرة التلايف فتدور حول رحلة فاسكو داجاما التاريخية (١٤٩٧ - ٩٩) من البرتغال إلى الهند دورانا حول رأس الرجاء الصالح. وقد استلها الشاعر بدعاء للملك سباستيان و « حوريات نهر تاجه » . ثم تمضى القصة مع أسطول داجاما صعودا على الشاطئ الشرق لأفريقيا . ويرى الشاعر لزماً عليه أن يقلد هومر وفيرجل ، فترأى يصور اجتماعاً الأرباب يتناقشون فيه حول البعثة ، وهل يسمحون لها بالوصول إلى الهند ؟ أما باخوس فيقول لا ، ويؤلب مسلمى موزمبيق ليهاجوا البرتغال ، الذين يرسون على البر بحثاً عن الماء . وأما فينوس فتتشفع للملاحين عند جوبيتر . ويرد المغاربة على أعقابهم ، ويأمر جوبيتر داجاما بالمضى قدماً . ويرسو الأسطول على شاطئ كينيا فيستقبله الأهالى بالترحاب . ويسلك الملك الوطنى وفق خطة الشاعر ، فيطلب إلى فاسكو أن يقص عليه تاريخ البرتغال . وبعد لأمى يستجيب أمير البحر للطلب ، فيروى مأساة اينيس دى كاسترو ، ويصف معركة ألبهروثة الحاسمة (١٣٨٥) ، حيث انتزع البرتغال أولاً حريتهم من أسبانيا ، ويحتم بإقلاع بعثته هو من لشبونة . وبينما يعبر هؤلاء المغامرون الجدد المحيط الهندى يبتليهم باخوس ونبتون بعاصفة هوجاء ، وهنا يرى الشاعر الذى جاز بمثل هذه العاصفة ، متجلياً فى وصف مثير . ولكن فينوس تهديء نائرة الأمواج ، ويصل الأسطول ظافراً إلى كاليكوت .

وفى رحلة العودة تعدّ فينوس وابنها كيوييد وليمة للبحارة الذين نال منهم التعب ، فتخرج بأمرها « ناريدات » حسان من البحر ، يكدسن موائد القصر بأطياب الطعام والزهر ، ويندهسن تعب البحارة بالطعام والشراب والحب :

« أى قبل جائعة تلك التى تبودلت فى الغاية ! وأى صوت رقيق علا بالشكوى الحنون ! أى عناق لذيد ، وكم من طبع حبي غصوب تحول تحولا لطيفاً بفضل هذا اللهو المرخ ! لقد ظلوا من مطلع الفجر حتى

الظهيره ينهلون من همنه المتع التي أججبت فينوس لطيها ، والتي يؤثر
الرجال ارتشافها على ذمها ، بل يؤثرون ذم الذين لا يستطيعون
تذوقها (٥١) .

ومخافة أن يشكو بعض البرتغاليين من أن هذه الآيات إهانة لمبدأ
الزواج بامرأة واحدة أكد اننا كامونش أن هذا الغرام ليس إلا رمزاً ، وأن
الحوريات « لسن إلا جوائز . . . ترفع بها الحياة وتهذب » (٥٢) أي كان
الأمر ، فإن البحارة يعتبرون رمزيًا عاندين إلى سفنهم ، ويجد الأسطول
طريقه عوداً إلى لشبونة . وتختتم القصيدة بتوسل إلى الملك أن يحسن جزاء
الكفائيات أينما كانت ، وليس أقلها جدارة بالمكافأة هذه الأغنية
الوطنية .

ويستطيع القارئ الأجنبي ، ولو خلال ضباب الترجمة ، أن يشعر
بما في هذه القصيدة الرائعة من موسيقى رقراقة ونشوات غنائية ، ويحس
بالدم الدافئ الذي يجري في عروق جندي شاعر ينقل لنا صلابة البرتغاليين
وتاريخهم الحافل بالمغامرات في أيام التوسع تلك : ويروى أن تاسو قال إن
كامونش هو الشاعر المعاصر الوحيد الذي لا يقيس نفسه به قياس المظمئن
«الواثق» ؛ وقد فضل لوپي دي فيجا القصيدة على الإلياذة والأنباده ، يوم لم
يكن بين الأسبانية والبرتغالية ما بينهما الآن من بون ساشع (٥٣) . واليوم
تعد القصيدة رباطاً واحدة ، وراية فخر ورجاء ، أينما نطق الناطقون بلغة
كامونش — في لشبونة الجميلة ، وفي جوا ومكاو المنحطتين ، وفي البرازيل
النشيطة ، المتفتحة ، الرخية .

وروى أن كامونش قال حين نفي إليه استيلاء فليب على البرتغال ،
وكانت هذه آخر كلماته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة « لقد أحبت وطني
حباً يجعلني أموت معه . (٥٤) » لقد سارت أمور هذا الوطن الأسير
سيراً لا بأس به في حياة فليب ، ولكن خلفاءه حثثوا بعهوده . واقترح

أوليفاريس توحيد الأمتين واللغتين ، واستولت أسبانيا على معظم المكاسب .
التي غلبها مستعمرات البرتغال وتجارتها ، أما الإنجليز والهولنديون ،
الذين كانوا في حرب مع أسبانياً ، فقد أسروا البرتغاليين ، كما أسروا
الأسبان ، أو نهبوا ممتلكاتهم وأسواقهم وأساطيلهم . وملأ الأسبان
المناصب البرتغالية ، وملأ الكنسيون الأسبان الكراسي الدينية البرتغالية ،
وألقت محكمة التفتيش حجاباً كثيفاً على الأدب والفكر البرتغاليين .

وكان سخط الشعب يزداد كلما هبط الدخل القومي ، حتى انتهى الأمر
بأن قاد الأشراف والأكليروس الأمة المحنقة إلى الثورة . وأعلن الوطنيون
بتشجيع من إنجلترا وريشليو ، يوحنا دوق براجانزا ملكاً على البرتغال
(١٦٤٠) . وأرسلت فرنسا والهولنديون أساطيل إلى نهر تاجه لتحتمي
البرتغال ، وتعهدت فرنسا ألا تعقد صلحاً مع أسبانيا ما لم تعترف باستقلال
البرتغال . وكانت الحرب الخارجية قد أرهقت أسبانيا إلى حد أعجزها
عن تدبير المال أو الرجال لقمع انتفاضة جارتها ، ولكن حين خفت
الضغوط الأخرى عليها ، جردت على الحكومة الجديدة جيشين عدتهما
٣٥,٠٠٠ مقاتل (١٦٦١) . ولم يكن في طاقة البرتغال أن تحشد أكثر
من ١٣,٠٠٠ جندي ، ولكن تشارلز الثاني ملا - إنجلترا أرسل إلى البرتغال
قوة يقودها القائد الألمعي فريدريك شومبيرج ، وذلك لقاء عروس هي
كاترين أميرة براجانزا ، ولقاء مهر أجمل من العروس ، ومعاودة رابحة
تبيح التجارة الحرة مع الموانئ البرتغالية في جميع القارات . وهزم الغزاة
الأسبان في أيفورا (١٦٦٣) ومونتس كارلوس (١٦٦٥) ، وفي عام
١٦٦٨ اعترفت أسبانيا المنهكة القوى باستقلال البرتغال .

الفصل الحادى عشر العصر الذهبى للأدب الأسباني

٥٥٦ - ١٦٦٥

١ - السيجلوى أورو (القرن الذهبى)

كتب سرفانتس عام ١٥٨٤ يقول « ما أكثر العباقرة الملهمين الذين يعيشون اليوم فى وطننا أسبانيا » . (١) وأغلب الظن أنه هو ، دون سواه ، الذى عرف أنه أعظمهم ، ولم يكن بعد قد ألف « دون كخوته » (١٦٠٤) فحين وافى هذا التاريخ فيما بعد كان « القرن الذهبى » (١٥٦٠ - ١٦٦٠) قد بلغ شأوه وتألق بكل سنائه ومجده .

ترى ما الذى أطلق هذا التفجر الثقافى ، هذا الحشد الرائع من نجوم الأدب والفن ؟ لعله انتصارات أسبانيا فى ميادين السياسة والاقتصاد والدين — فتح الأمريكتين واستغلالهما ، وقوة أسبانيا ومكاسبها فى إيطاليا ، والأراضى المنخفضة ، والبرتغال ، والهند ، والنصر على المسلمين فى أسبانيا والترك فى ليبانتو . ونحن لا نستطيع اليوم ، لما بيننا وبين أزمت الروح الأسبانية من بعد الشقة ، أن نفهم كيف أججت مخاطر هذه السنوات المثيرة وانتصاراتها حماسه الإيمان الكاثوليكي وجعلت أكثر الأسبان يفخرون بدينهم فخرهم بأنسابهم ؛ أما رقابة المطبوعات ومحكمة التفتيش اللتان قد نحسبهما خانقتين للحريات ، فقد تقبلتهما الأمة على أنهما من الاجراءات الحرية الضرورية للوحدة القومية فى الحرب الصليبية ضد الإسلام . وهكذا راح العقل الأسباني ، الذى حظر عليه أن يشت بعيدا عن العقيدة المقدسة ، يخلق داخل حدوده المقيدة ، وسط عالم رفيع من القصص والشعر والدراما والعمارة والنحت والتصوير .

ولكنه كان إلى ذلك عصر العلماء الأمناء والمؤرخين الأجرياء ،
عصر المؤلفات البارزة في اللاهوت والحكم واللاهوت والاقتصاد والجغرافيا
والدراسات الكلاسيكية والشرقية . وفي رأى العلامة هالام أن « العلم
كان في عهد قلب الثاني أكثر تقدما منه في عهد إليزابث (٢) » .
ولاريب في أن التعليم كان أوفر وأعم . فقد وجد الفقراء والأغنياء
على السواء طريقهم إلى الجامعات الكثيرة ، وأضيف في هذه الفترة
عشرون جامعة جديدة إلى الجامعات المشهورة ، وكانت جامعة سالامانكا
وحدها تضم ٥٨٥٦ طالبا عام ١٥٥١ (٣) . « لا يستطيع انسان أن
يزعم » أنه كالألبرو (جنتلمان) ما لم يكن كذلك أدبيا . (٤) ونتج
الملوك والوزراء والنبلاء والأخبار خزائهم للعلماء والشعراء والفنانين
والموسيقيين . على أنه كان هناك بعض اللشاز في هذا التصعيد ؛ ذلك أن
الكنيسة شرت سوطا فوق رهوس المعلمين . ، وحرم فليب الثاني على
الشباب ، حرصا منه على الاحتفاظ للجامعات الأسبانية بملثا من الطلاب
وجعل العقول الأسبانية نقية من الناحية اللاهوتية ، حرم عليهم أن يدرسوا
في أى جامعات أجنبية الا كوامبرا وبولونيا وروما . ولعل هذا
التزواج الفكري المحصور لعب دورا في عقم أسبانيا الثقافي بعدد
العصر الذهبي .

وهناك رجلان بارزان من اليسوعيين يدخلان الصورة هنا .
أما أولهما ، بالتازار جراثيان ، مدير كلية لليسوعيين في تاراجونا ، فقد
وجد الوقت ليكتب (١٦٥٠ - ٥٣) رواية من ثلاثة مجلدات تدعى
« الكريتيكون » يصف فيها تحطيم سفينة لسيد أسباني على جزيرة القديسة
هيلانة ، وتعليمه للرجل المتوحش الوحيد الذى وجدته هناك (أهذا مصدر
لروبنسن كروزو ؟) ، ثم أسفارهما معا في أرجاء العالم ، ونقدهما النفاذ
للحضارة الأوروبية . وقد أطرب تشاؤمهما وكرههما للنساء شوبنهاور ،
فوصف الكتاب بأنه « من خيرة الكتب في العالم (٥) » ونفخ أحد الأصدقاء

جراثيان بعض العملة الدولية إذ اختار من كتبه ثلاثمائة فقرة نشرها تحت
هذا العنوان « الوحى الميسر ، وفن الحكمة الدنيوية ». وقد قام شوبنهاور
بترجمة من ترجماتها الكثيرة . وإلى القارئ عينات من هذه :

« حذار من أن يكسف ضوءك ضوء السيد . . . لقد
كان التفوق دائماً مكروها ، وكلما عظم اشتد الكره له .
وشئ من الحذر كفيل بتغطية فضائلك العادية كما تخفى
حسنك باللباس المهمل (٦) .

ان التوسط فى الكفاية يحرز بالاجتهاد تقدماً أكثر مما يحرز
التفوق بدونه (٧) .

للحظ قواعد ، فالعقلاء لا يرون الأشياء كلها وليدة
الصدفة (٨) .

ليس الكمال فى الكم بل فى کیف . . . بعض الناس
يحكمون على قيمة الكتب بركبهم ، وكأنها كتبت لترين
الأذرع (٩) .

فكر كالقطة ، وتكلم كالكترة . . . ان الحقيقة للقطة
. . . لبعثهم الحكيم بالصمت ، فإذا سمح لنفسه أحياناً
بالكلام فليكن فى حى القليلين والفاهمين (١٠) .

تعلم كيف تقول لا . . . لا يكن الرفض قاطعاً ، فالحقيقة
تتجلى تدريجياً . . . عليك بالجملة لتلأبها فراغ الرفض (١١) .
قد نبتين نضج امرئ من البطء الذى يصدق به ما يسمع (١٢) .
هناك دائماً متسع من الوقت تضيف فيه كلمة ، ولا وقت
ل سحب كلمة (١٣) » .

كان المؤرخون الأسبان فى هذه الفترة خير المؤرخين فى أوروبا . وجمع
فليب فى دار المحفوظات بسيانكاس مجموعة هائلة من الأوراق الرسمية
وغيرها من الوثائق ، لأن « الإخباريين والمؤرخين قاصرو العلم بشئون

الدولة ، ورغبة في تفادي هذا العيب كان من المرغوب فيه جمع ما أمكن من مواد قد تكون ذات فائدة » (١٤) على حد قوله . وأصبحت هذه المحفوظات ذخرا للمؤرخين منذ ذلك الحين . وقد رجع جيرونيمو دى زوريتا إلى آلاف الوثائق الأصلية في إعداد كتابه « حوليات مملكة أراجون » (١٥٦٢ - ٨٠) ، واشتهر في أوروبا بأسرها بـ « أعظم الكتاب تدقيقا » .

أما أعظم المؤرخين الأسبان قاطبة ، وهو خوان دى ماريانا ، فقد بدأ حياته ابنا غير شرعى لكاهن في طلبيرة . وإذ ترك في صباه ليدير شؤنه بنفسه ، فقد شحذ ذكاه على حجر الضرورة القاسية والفقر الطاحن . وزوده اليسوعيون بتعليم صارم بفضل ما عهد فيهم دائما من سرعة في تبين الموهبة . فلما بلغ الرابعة والعشرين أرسلوه للتدريس في كليتهم بروما ، ثم إلى صقلية ، ثم إلى باريس . حيث اجتذبت محاضراته عن توما الأكويني جماهير المستمعين المتحمسين . على أن صحته انهارت ، فسمح له وهو في السابعة والثلاثين (١٥٧٤) بالاعتكاف في بيت الطائفة اليسوعية في طلبيلة ، فلزمه لا يرحه إلا نادرا طوال سنيه التسعة والأربعين الباقية من عمره . وهناك كتب رسائل هامة أنارت إحداها ضجة دولية (كما سرى) ، ورسالة أخرى « في عملة المملكة » كانت هجوما جريئا على غش ليرما للعملة ، وثالثة تركها دون نشر شرحت « الأخطاء في حكومة جمعية يسوع » . وقد أفرغ أكثر جهسه في الأربعين سنة الأخيرة من حياته في تأليف « كتاب في تاريخ أسبانيا » (١٥٩٢) - الذى كتبه باللاتينية ليتيح لكل الأوربيين المثقفين أن يعرفوا كيف ارتقت أسبانيا إلى مقام الزعامة والقوة . وقد ترجم أكثر الكتاب إلى أنقى اللهجات القشتالية بحض من الكردينال بمبو تحت عنوان « تاريخ أسبانيا » (١٦٠١) ، وهو أجل المنجزات في تأليف التساريخ الرسمى الأسبانى ، نابض بالحياة في سرده ، بديع في أسلوبه ، متمكن في رسمه

للأشخاص ، جرىء في أمانته - « أروع ما شهده العالم من جمع بين العرض
الزمنى المثير ، والتاريخ الرصين (١٥) » .

وكما أن كتب الأخبار المعروضة حسب تسلسلها الزمنى ، تدرجت
(كما نرى في مؤلفات كاتى ذكرنا) إلى كتب التاريخ بوصفه ضربا من
الأدب والفلسفة ، كذلك نرى القصص الأسباني في هذا العصر ينتقل من
رواية الفروسية والقصة الرعوية ليلغ في قفزة واحدة أرفع القمم في تاريخ
القصة ، لقد ظلت روايات الفروسية كثيرة يقبل عليها في نهم كل أسباني
من القديسة تريزا إلى سرفانتس ، وربما كانت عند بعض القراء تفريجا
من حدة الدين الأسباني المتسامية ، لأن عقيدة هذه الروايات كانت الغرام ،
وولاء الفرسان لم يكن للعدراء مريم بل لمن اختاروا أو هووا من النساء ،
وفي سبيل الدفاع عنهن أو تملكهن تراهم على استعداد لتكسير النصال
الكثيرة وتحطيم عدد غير قليل من نواميس الله والبشر . ولكن التفات
على مثل هذه القصص كان يتناقص حين كتب سرفانتس ، وكان مونتيي
وخوان لويز فيفز قد سخرا منها ، وكان مجلس قشتاله شكيا منذ سنين
طويلة (١٤٣٨) من أن « كثيرا من الأذى يلحق بالرجال والفتيان
والفتيات وغيرهم » بسبب هذه الروايات ، وان الكثيرين « قد أضلهم
هذه القصص عن التعليم المسيحي الصحيح (١٦) » .

وبلغت الأمور الذروة بفضل تطور آخر . ففي عام ١٥٥٣ كان
كاتب مجهول الهوية قد كتب في « لاثاريللو دى تورمس » أول قصة
بأسلوب البيكارسك (أى التشرد) الذى جعل من أحد الوضعاء الظرفاء
بطلا يكفر عن فقره بالتمرد على القانون ، وعن تمرده على القانون بالفكاهة
الذكية ، وفي عام ١٥٦٩ نشر ماتيو أليمان قصة مريحة سماها « حياة
المشرد جوثمان دى الفاراتشى » . وبعد خمس سنوات تناول سرفانتس
هذين المزاجين - حلم الفارس الشهم الآخذ فى الزوال ، وحكمة
رجل الشارع المزوجة بالفكاهة ، وجمع بينهما جنبا إلى جنب فى أشهر
القصص قاطبة وأروعها اطلاقا .

٢ - سرفانتس : ١٥٤٧ - ١٦٦٦

فى ٩ أكتوبر ١٥٤٧ ، وجريا على العادة الأسبانية بتسمية كل طفل باسم القديس الذى يحتفل بذكره فى يوم ميلاده ، عمد خالق دون كخوتة وسانشو بانزا باسم « ميجل دى سرفانتس » فى « القلعة » . وقد أضاف - وربما أضاف أبوه أيضا - اسم سافيدرا ، من الأسرة القشتالية التى تزوج فيها أسلافه الغاليسيون فى القرن الخامس عشر . وكان الأب طبيبا غير مرخص ، ثقیل السمع قليل المال ، ينتقل من بلد إلى بلد ليجبر العظام ويطبب الاصابات الخفيفة ، ويبدو أن الصغير ميجل صحبه إلى بلد الوليد ، ومدرید ، واشبيلية . أما تعلم الصبى فلا نعرف عنه شيئا ، فيلوح انه لم يحظ بتعليم عال برغم مولده فى مدينة جامعية ، ومن ثم لم تظهره الدراسات السكلاسيكية ولا زحمته ، واضطر إلى التقاط معرفته بالحياة من العيش فيها .

وأول ما نملك من الحقائق عنه بعد سجل عماده أن معلما من مدرید نشر عام ١٥٦٩ مجلدا احتوى ست قصائد بقلم « تلميذنا العزيز المحبوب » سرفانتس . وفى سبتمبر من تلك السنة قبض على المدعو ميجل دى سربانتس بتهمة الاشتراك فى مبارزة ، ونفى من أسبانيا عشر سنوات يعاقب دونها بقطع يده اليمنى . وفى ديسمبر نجذ فتانا ميجل يخدم فى بيت كبير من رجال الكنيسة فى روما . وفى ١٦ سبتمبر ١٥٧١ نرى ميجل هذا ، ربما مدفوعا (مثل كاموثش) بتفضيل الخدمة العسكرية فرارا من السجن ، مبحرا من مسينا على السفينة «ماركيزا» فى أسطول دون جوان النمساوى . وحين التحم الأسطول بالترك فى ليانتو كان سرفانتس مريضا بالحمى فى عنبر سفينته ، ولكنه وضع على رأس اثني عشر رجلا فى زورق إلى جوار السفينة لأنه أصر على لعب دوره ، وأصيب بثلاثة جروح من طلقات نارية ، جرحين فى صدره والثالث أعجز يسراه عجزا مستديما - « لنصرة الحق » على حد قوله . وأعيد إلى مستشفى بمسينا ودفعت له الحكومة

الأسبانية اثنتين وثمانين دوكاتية . ثم شارك في معارك حربية أخرى - في نافارينو ، وتونس ، وجوليتا (لاجوليت) . وأخيرا سمح له بالعودة إلى أسبانيا ، ولكن قرصان البربر أسروه هو وأخاه رودريجو في رحلة العودة إلى الوطن (٢٦ سبتمبر ١٥٧٥) وباعوهما في سوق الرقيق بالجزائر . وأقنعت الرسائل التي حملها من دون جوان وغيره آسريه بأنه رجل ذو حيثة ، فطلبوا عنه فدية كبيرة . وظل ميغل أسيرا خمس سنوات مع أن أخاه أطلق سراحه في عام ١٥٧٧ . وحاول الهروب غير مرة . ولكنه لم يحن من محاولاته غير تشديد النكير عليه . وصرح الداي ، وهو الحاكم المحلي ، بأنه « إذا استطاع أن يؤمن حراسة ذلك الأسباني المعطوب الذراع فقد أمن عاصمته وعبيده وسفنه » (١٧) وكافحت أمه لتجمع الخمسمائة كراون التي طوّل بها للإفراج عنه ، وضحت أخواته بمهورهن في هذا السبيل ، وأخيرا (في ١٩ سبتمبر ١٥٨٠) أفرج عنه ، وبعد رحلة مضيئة لحق بأسرة أمه في مدريد .

كان مملقا عاجزا ، لذلك لم يكن أمامه من سبل الرزق غير العودة إلى الانخراط في الجيش . وهناك من الدلائل ما يشير إلى أنه مارس الخدمة العسكرية في البرتغال والأزوره . ووقع في غرام سيدة نبيلة تصغره بثمانية عشر عاما ولا تملك غير أسمائها الكثيرة : كاتالينا دى بالاكيو سالازار إلى فوزميديانو الإسكيفية . وتحت إلحاح الحب والفاقة كتب سرفانتس رواية رعوية تسمى « غلاطية » باعها بمبلغ ١٥٣٣٦ ريالاً (٦٦٨ دولاراً ؟) . وتزوجته السيدة الآن (١٥٨٤) ، فقدم إليها ابنة غير شرعية وأقنعها بأن تربيتها كأنها ابنتها ، وكانت قد ولدتها له حسناء عابرة قبل سنة (١٨) . أما كاتالينا نفسها فلم تنجب . وكانت تعنفه بانتظام على فقره ، ولكنها ظلت وفية له فيما يبدو ، وعمرت بعده ، وحين ماتت طلبت أن تدفن إلى جواره .

(٠٠) ان قصة الأسير في « دون كخوته » (الجزء الأول ، الكتاب الرابع ، الفصول ١٢ - ١٤) ترجمة ذاتية إلى حد كبير .

ولم تأت غلاطيه بمزيد من الريالات ؛ كان رعاتها مسرفين في بلاغتهم ، إلا حين ينطقون بالشعر ، ومع أن سرفانتس كان ينوى كتابة بقية لها ، ومع أنه ظل إلى النهاية يعتبرها أروع ما كتب ، فانه لم يجد قط الوقت أو الحافز لاتمامها . تم جرب كتابة التمثليات طوال خمسة وعشرين عاما ، قألف نحو ثلاثين منها ، وكان رأيها أنها ممتازة ، وهو يؤكد لنا أنها « مثلت كلها دون أن يعرض عليه أى جزء (١٩) » ولكن واحدة منها لم تستهو الجماهير أو تلمس عرقا من ذهب . لذلك ارتضى وظيفة متواضعة في إدارة تموين الحبش والبحرية (١٥٨٧) ، وسافر بصفته هذه إلى عشرات المدن تاركا زوجته في البيت . وقد ساعد في تموين الأرمادا الجبار . وفي عام ١٥٩٤ عين جابيا لغرناطة . وسجن في اشبيلية لمخالفات في حساباته ، وأفرج عنه بعد شهور ثلاثة ، ولكنه طرد من خدمة الحكومة . ومكث عدة سنين في فقر مدقع بأشبيلية وهو يحاول الارتزاق من قلمه . ثم قبض عليه مرة أخرى في أرجا ماريللا وهو يجوب أسبانيا . وتقول الرواية انه في سجنه وفي بؤسه واصل تأليف كتاب من أكثر الكتب مراحا في العالم . فلما عاد إلى مدريد باع لفرانسيسكو دى روبلز مخطوطة « حياة ومغامرات دون كخوته دى لامانشا الأشهر » فنشرت عام ١٦٠٥ . وهكذا ، وبعد ثمانية وخمسين عاما من الكفاح ، بلغ سرفانتيس شاطئ التوفيق .

ورحب كل الناس — عدا النقاد — بالكتاب مهرجانا من الفكاهة والفلسفة . وتقول رواية قديمة ان فليب الثالث « لاحظ وهو واقف يوما بشرفة قصره في مدريد طالبا بيده كتاب على ضفة مانزاناريس المقابلة . وكان الطالب يقرأ ، ولكنه بين الحين والحين كان يقطع قراءته ويلطم جيئه لطمات عنيفة تصحبها حركات لاحصر لها من النشوة والطرب . وقال الملك « إن الطالب إما أن يكون مجنوناً وإما إنه يقرأ . . . دون كخوته (٢٠) » .

إن في هذه الصفحات الثمائمة مأخذ كما في كل رائعة — فمحبة

الرواية ليست غاية في البراعة - سلسلة من الأحداث المترابطة. تكشفها حكايات مقحمة غير متصلة بالموضوع ، خلو من الخطة خلو الفارس الذي « يواصل سفره على ظهر جواده مرخيا له العنان ليمضي حيث شاء » . وبعض خيوط الحبكة متروكة عند أطراف مفكوكة أو شديدة التعقيد ، مثل ضياع حمار سانشو وظهوره ثانية دون تعليل . ويصبح السرد بين الحين والحين جملا ، والنحو غير دقيق ، واللغة مفتقرة إلى الصقل . ويقول الجغرافيون إن جغرافية الرواية مستحيلة . ولكن ما أهمية هذا كله ؟ فكلما مضينا في القراءة مشدودين بجذب لطيف خلال المعقول وغير المعقول ، ازداد عجبنا من أن سرفانتيس استطاع وسط كل شذائده أن يجمع معا مثل هذا المشهد العريض من المثالية والظرف وأن يقرب قطبي الخلق الإنساني المتباعدين في مثل هذا التراكب المنير . أما الأسلوب فهو ما ينبغي أن يكون عليه أسلوب قصة طويلة - لاسيل مرهق من البلاغة ، ولكن جدول صاف جار ، يتألق هنا وهناك بعبارة حلوة ، كقوله « كان له وجه كالبركة » (٢١) وأما القدرة على اختراع الأحداث فتمضي إلى النهاية ، وأما معين أمثال سانشو فلا ينضب ، وآخر قطعة من الفكاهة أو التفجع لا تقل جمالا عن أولها . هنا ، في هذا « التاريخ الجاد أعظم الجد ، المجلل ، الدقيق ، الناعم ، الفكاهة » على حد قول سرفانتيس ، نلتقي بحياة أسبانيا وشعبها ، موصوفين بحب يبقى بعد أن ينقضي عديم التحيز ، وبمئات التفاصيل الصغيرة التي تخلق هذا الكل الملهم ، وتفعمه بالحياة .

ويلجأ سرفانتيس إلى حيلة قديمة فيزعم لنا أن « تاريخه » مأخوذ عن مخطوطة مؤلف عربي سماه السيد حامد بن النجلى . وتفصح المقدمة عن هدفه ، وهو أن يصف في « هجو للفروسية الجوابة ... سقوط ودمار ذلك الكوم البشع من روايات الفروسية ... التي افتتن بهما أكثر الناس على نحو عجيب » . وقد فعل تشوسر مثل هذا في حكايات كنتربرى (« شعر السر توباس ») ، ورايلى في « جرجانتوا » ، وبولتشي في « المورجانتى

مادجورى » ، وهزأ تيوفيلو فولنجر وغيره من شعراء التخطيط بين اللاتينية واللغة القومية بالفرسان ، وسخر أريوستو فى أورلندو فوريزو « من أبطاله الرجال والنساء . على أن سرفانتس لا يرفض روايات الفروسية-جملة ، فهو ينقذ من النار بعضها ، مثل « أماديس داجاولا » ، ومثل روايته « غلاطية » ، وهو يدخل فى قصته بعض مغامرات الفروسية . ونرى فى نهاية القصة أن هذا الدون الفارنى ، يعد عشرات الهزائم والضربات المخزية ، هو بطل القصة الخفى .

ويصوره سرفانتس سيدا ريفيا خصب الخيال ، أذهلته القصص التى جمعها فى مكتبته ، فدجج نفسه بالسلاح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وارتدى سترة الفارس وخرج على فرسه روزنانتى ليزود عن حياض المظلومين ويصلح الفساد ويحمى العذارى والأطفال . أنه يمقت الظلم ويحلم بماض ذهبي يوم لم يكن هناك ذهب ، « يوم كانت هاتان الكلمتان القتالتان » مالك » و « مالى » فوارق مجهولة ، كل الأشياء كانت مشتركة فى ذلك العصر المقدس ... كله كان تآلفا واتحادا ، كله كان حبسا وصدقة فى الدنيا » (٢٢) . وجريا على قواعد الفروسية نراء بكرس سلاحه ، لا بل حياته ، لسيده نبيلة تدعى دولتسينيا ديل توبوزو . ومع أن عينه لم تقع عليها قط ، فقد كان فى وسعه أن يتصورها تجسيدا كاملا للطهارة المحتشمة والجمال الرقيق . « نحرها مرمر ، وثديها رخام ، ويدها عاج . والثلج ينكسف بياضه إذا دنا من صدرها » (٢٣) أما وقد ملأه هذا الرخام صلابة ، وبعث فيه هذا الثلج دفئا ، فهو ينطلق ليهاجم علما حفل بالشروع . وهو فى هذه المعركة غير المتكافئة لا يشعر بأن أعداءه أعز منه نفرا « فأنا وحدى أعدل مائة منهم . » وبينما يلزم سرفانتس ذلك « الفارس ذا الوجه البائس » منتقلا بين الفنادق الصغيرة وطواحين الهواء ، بين المصارف القدرة والخنازير المدعورة ، تنتهى به الصبحبة إلى حبه قديسأ كما يحبه مجنوناً ، وفى كل هذه المعامرات الفاشلة والكبوات الأليمة يظل الدون المثال الحى للأدب

والعطف والسباحة . وأخيرا يتغير المجذوب المhzون على يد خالقه ، فيصبح فيلسوفا يتحدث حتى وهو يتردى في الوحل - حديثا عاقلا سوبا ، ويغفر الإساءات للدنيا التي عجز عن فهمها ، ثم يغيظنا من سرفانتس أنه يواصل خبطه وتحطيمه التزاما بخبطه المرسومة . ثم نعطف على القارس الذي ينقشع الوهم عن عينيه حين يؤكد له سانشوإن الدولتسنيا ديل توبوزو الوحيدة التي تعرفها بلدتها ليست سوى « خادمة متمنطقة ، هي صبية بدينة ، مقتولة العضل ، مسترجلة » ، من أصل متواضع . ويجب القارس بحكمة ذهبية ، فيقول لسانشو ، « إن الأصل يشرف بالفضيلة ، إنما أصل الفتى ما قد حصل » (٢٥) .

والشيء الذي يفتقر إليه الدون هو روح الفكاهة ، وهو خير جوانب الفلسفة . ومن ثم يعطيه سرفانتس تابعا مرافقا أصله عامل من عمال المدينة الأقوياء ، وابن من أبناء الريف ، هو سانشوبانزا . ويؤمن القارس خدماته بأن يعده بالطعام والشراب ، وبحكم ولاية في الممالك التي يزعمان فتحها . فأما سانشو فرجل ذو إدراك بسيط وشبهة طيبة ، يظل محتفظا بسميته إلى آخر صفحة في القصة برغم إشرافه دائما على الموت جوعا ، إنسان كريم النفس يحب بغلته كأنها « نفسه الثانية » ويقدر « عشرتها الحلوة » ، أنه ليس الفلاح الأسباني النموذجي ، فهو سخي في النكتة زاهد في الوقار ، إنما هو - كأي أسباني تحرر من سعار اللاهوت - طيب القلب محب للخير ، حكيم دون ثقافة أو تعليم ، وفي لسيدته في دنيا العذاب هذه وسرعان ما ينتهي إلى أن الدون رجل مجنون ، ولكنه هو أيضا ينتهي إلى أن يحبه . يقول في ختام القصة « لقد لازمت مولاي الطيب وصاحبه هذه الشهور الطوال ، والآن أصبحنا نحن الاثنين واحدا » (٢٦) ، وهذا حق ، لأنهما ليسا سوى جانين لأنسانية واحدة . أما القارس فينتهي هو أيضا إلى احترام حكمة تابعه لأنها أعمق جذورا إن لم تكن نبيلة كحكمته . ويعبر سانشو عن فلسفته بأمثال يقفو بعضها بعضا حتى لتكاد تخنق تفكيره : « إن الدجاجة -

« والمرأة تضيغان إذا سرحتا » ، « بن قول المرأة نعم وقولها لا ، لا أوافق على أن أضع سن دبوس ، فالوحد منهما قريب جدا من الآخر » ، « إن الطبيب يبذل نصيحته بحسه نبض جييك » ، « كل إنسان كما صنعه الله ، وكثيرا ما يكون أسوأ » . (٢٧) ولعل سرفانتس استعمل مجموعة مختارة من هذه الأمثال التي عرفها بأنها « عبارات قصيرة صيغت من خبرة طويلة » . (٢٨) ويعتذر سانشو عن هذا « الاسهال » في الحكم بأن هذه المأثورات تسد حلقه . ولا بد أن تطلق ، بترتيب وورودها على خاطره . ويستسلم الدون لهذا الفيض الدافق فيقول « حقا ، يبدو أنك لست أعقل منى ... أشهد أنك إنسان مختلط العقل ، إننى أصفح عنك ، وقد فعلت » (٢٩) .

كان للتوفيق الذى أصابته " دون كخوته " الفضل في ظفر سرفانتس براعين لأدبه ، الكونت ليموس وكردينال طليطلة ، أجريا عليه معاشا صغيرا يسر له أن يعول زوجته ، وابنته غير الشرعية ، وأخته الأرملة ، وابنة أخته . ويعد شهور من نشر كتابه قبض عليه هو وكل أفراد أسرته لشبهة اشتراكهم في مقتل جاسباردى ازبيلتا على باب بيت سرفانتس . وأرجفت الشائعات بأن جاسبار كان يعشق ابنته ، ولكن التحقيق لم يسفر عن شيء ، فأفرج عنهم جميعا .

ومضى سرفانتس يكتب الجزء الثانى من « دون كخوته » في غير عجلة . وفي عام ١٦١٣ قطع هذا الجهد المحب بنشر اثنتى عشرة قصة « مثالية جديدة » جاء في مقدمتها « لقد وصفت هذه القصص بأنها مثالية ، ولو تأملها القارئ لما وجد فيها قصة لا تعطيه مثالا ناقعا » (٣٠) . وأولها قصة عصابة من اللصوص تعمل في انسجام مثالى مع رئيس شرطة اشبيلية ، وقصة أخرى اسمها « ندوة الكلاب » تصف سلوك تلك المدينة وأخلاقها . وفي التمهيد للمجموعة صور سرفانتس نفسه بهذه العبارات :

إن الرجل الذى ترويه هنا بحياه النسرى ، وشعره الكستائى ، ووجيئه الهادىء الطلق ، وعينه اللامعتين ، وأنفه المعقوف المتناوب ، ولحيته

الفضية التي كانت ذهبية منذ أقل من عشرين عاما ، وشاربه الكبير ...
وأسنانه التي لا تستحق الاحصاء ، وقامته الريعة ؛ وكتفيه طفيفي الانحناء ،
وبنيته الثقيلة بعض الشيء ... أحيز لنفسى أن أقول لكم إنه مؤلف «غلاطية»
و « دون كخوته دلا مانشا » (٣١) .

ولكن، فوجيء عام ١٦١٤ بظهور الجزء الثاني من « دون كخوته » ،
لا بقلمه ، بل بقلم سارق مجهول انتحل اسم « أفيلاانيدا » . وقد هزأت
المقدمة من سراح سرفانتس ، وطربت للحيلة المتقنة التي ستقضى على جزء
سرفانتس الثاني . وعجل الكاتب المتزعج بانجاز كتابه ونشره عام ١٦١٥ ،
وابتهج القراء الأسبان حين وجدوا هذه التتمة ترقى إلى مستوى الجزء الأول
خيالا وقوة ومرحا ، ففي كل هذه الصفحات الخمسمائة الجديدة احتفظ
الكاتب بتشويقه للقارئ حتى النهاية ، وهي نهاية حزينة إن لم تكن أليمة ،
وبدا للبعض أن حظ الدون وتابعه العاثر في بلاط الدوق ، وملك شانسو
على ولايته ، والقصة المؤلمة التي روى فيها كيف ضرب عجره - كل
هذا من شأنه أن يجعل الجزء الثاني هو النصف الأفضل . فحين
يولى سانشو حاكما على باراتاريا يتوقع الكل منه أن يتجاوز كل ما أثر
عن الحكام من حماقات . ولكننا نجد على النقيض من ذلك أن طبيته
وفطنته، وأن نظمه واصلاحاته البسيطة العادلة ؛ وأن قراره الحكيم في دعوى
هتك العرض (٣٢) - كل هذا ينجل واقع الحكم المعاصر له . ولكن
قوى الشر الذي لا يعرف رحمة ولا هواة تطغى عليه ؛ وأخيرا ترهقه
ارهاقا يكرهه على التخلي عن منصبه والعودة مرتاحا إلى حياته تابعا للدون .

ولا يبقى بعد ذلك إلا أن يهرب الفارس مثل هذا الهرب من دنيا الأحلام
إلى دنيا الواقع . إنه يخرج في طلب المغامرات الجديدة ، ولكنه يهزم
هزيمة عارمة ؛ ينتزع المنتصر فيها تمهدا منه بأن يمضى إلى داره ويعيش
سنة في هدوء لا شأن له بالفروسية . ويوافق المحارب المتعب ، ولكن تبدد
أوهامه يحفف ينابيع حياته . فيرسل في طلب أصدقائه إلى جواره، ويوزع

الهدايا عليهم؛ ويكتب وصيته ، وينبذ الفروسية الطوافة الباحثة عن المغامرات ، ويدع روحه تنحسر انحسارا شديدا . ويعود سانشو إلى أسرته ؛ ويفلح حديقته قانعا قناعة ر ل خير من الدنيا ما يكفى لجعله عارفا بقدر بيته . وفي النهاية يلوح أن هذه الواقعية الطيبة تنتصر على مثالية مولاه المغرقة في الأوهام برغم سماحتها . ولكن الأمر في حقيقة غير هذا . فروح الفارس هي صاحبة الكلمة الأخيرة في القبرية التي أوصى بأن تكتب له . « إذا كنت لم أحقق جلائل الأعمال فلأننى مت في سبيلها » . وهكذا يتبين أن الواقعي يعيش إلى أن يدركه الموت ؛ ولكن المثالي يبدأ عندها الحياة .

ونشر سرفانتس في السنة التي بقيت له في أجله ثمانى تمثيلات ، ولم يؤيد الزمن تقديره لها ، ولكنه قدر تقديرا عظيما « لانومانسيا » ، وهى قصيدة تمثيلية فيها قوة وفيها جمال ، تحيى ذكرى مقاومة تلك المدينة الأسبانية للحصار الرومانى (١٣٣ ق . م) . وكان له كفارسه وهمه الذى يسنده ؛ فظن أن الأجيال القادمة ستكرمه أولا لتمثيلياته ، وتكلم في غيرة لا تليق به وإن غفرناها له عن لوبى دى فيجا الذى وفق توفيقا هائلا ، ثم كتب وهو مختصر تقريبا ، قصة أخرى من قصصه بعد أن هزا بأكثر الروايات الغرامية « برسيليس وسجمنوندا » . وقبل أن يموت بأربعة أيام أهداها إلى كونت ليمور قائلا :

« مسحت بالأمس المسحة المقدسة الأخيرة ، واليوم أخط هذا الإهداء . ليس في الوقت متسع ، وعذائى يزيد ، والآمال تتضاءل . . . فوداعا للمزاح إذن ، وداعا فكاهاتى البهيجة ، وداعا أصدقائى المرحين ، لأننى أشعر بأننى أموت ، ولا أمنية لى إلا أن أراكم سعداء في الحياة . الأخرى (٢٣) » .

ومات في ٢٣ أبريل ١٦١٦ (*) .

(*) في الظاهر في نفس اليوم الذى مات فيه شكبير . وكانت انجلترا لا تزال تستعمل التقويم اليولياني ، أما حسب التقويم الجريجورى الذى أخذت به أسبانيا قبل ذلك فموت شكبير وقع في ٣ مايو ١٦١٦ .

كان قد تنبأ على طريقته « الكيخوتية » الميزة أن كتابه « دون كخوته » سيباع منه ثلاثون مليون نسخة . وابتسم العالم لسهاجته ، ثم اشترى ثلاثين مليوناً . لقد ترجمت القصة العظيمة إلى لغات أكثر من أى كتاب باستثناء الكتاب المقدس . وفى أسبانيا يعرف أبسط القرويين من هو دون كخوته ، وهو عموماً ، خارج الكتاب المقدس أيضاً ، « أكثر شخوص الأدب كله حياة وفتنة وشهرة » (٣٤) ، وأكثر واقعية من ألف علم من أعلام التاريخ المستكبرين . وقد استطاع سرفانتس ، بجعل قصته هذه صورة لأداب السلوك ، أن يرسى أساس الرواية الحديثة ، ويفتح الطريق لقصاصين مثل لوساج ، وفيلدينج ، وسموليت ، وستيرن ، ورفع هذا اللون الجديد إلى مقام الفلسفة إذ جعله يكشف عن طبائع البشر ويلىء الضوء على ما خفى من أخلاقهم .

٣ - الشعراء

إن رنين اللغة القشتالية الفحل ، مثله مثل جمال الإيطالية التस्कانية الرخيم ، أسلم نفسه مختاراً للموسيقى والقافية ، واستجابت روح الشعب للشعر بطبعها أكثر من استجابتها للنثر . وكثر الشعراء كثرة القساوسة . وفى قصيدته غار أبوللو (١٦٣٠) وصف لوبى دى فيجا مهرجاناً للشعر وتنافساً عليه اقتتل فيه ، فى خياله . شعراء أسبانيا المعاصرة الثلاثمائة على اكليل الغار . وكاد إقبال الشعب على هذه المباريات الشعرية يعدل لإقباله على حرق المهرطقين . كانت هناك قصائد تعليمية منومة ، وعظات دينية بالشعر ، وروايات غرامية منظومة ، وشعر رعوى ، وشعر ساخر من البطولة ، وقصائد قصصية ، وشعر غنائى ، وملاحم . ولم يؤت كل المؤلفين شجاعة فرانسسكو دى فيجويروا ، الذى حكم على أشعاره بالحرق لما فيها من هرطقات .

أما أروع الملاحم فلحمة « لا أروكانا » (١٥٦٩ - ١٨٩) ، التى تصف

ثورة قبيلة هندية في أمريكا الجنوبية ، كتبها الونسو دى ارسيللا إلى زونيجا الذى أبلى بلاء حسناء في تلك الحرب وهو جندى أسباني . وربما كان أبداع الشعراء الغنائين راهبا أو غسطينيا اسمه لونس بونسى دى ليون ، لم يمنعه بعض الدم اليهودى الذى اختلط بدم أسلافه من تصوير أرق جوانب التقوى المسيحية ، وأعجب من ذلك جمعه بين الشاعر واللاهوتى ، ففي سنته الرابعة والثلاثين عين أستاذا للإلهيات في جامعة سلامانكا ، وما برح طوال حياته متعلقا بهذه الجامعة ، ومع ذلك لم تمنعه جهوده الدراسية وحياة النسك من التحليق في أجواء الشعر الغنائى . ودعته محبة التفتيش لتحاكمه (١٥٧٢) على ترجمة نشيد الانشاد إلى شكل من أشكال الحوار الرعوى . واحتمل عذاب السجن خمس سنين ، فلما أفرج عنه استأنف محاضراته في الجامعة بهذه الكلمات الساخرة « لاحظنا في آخر لقاء لنا . . . (١٣٥) » وقد وافق رؤسائه على أن قرض الشعر لا يليق برجل اللاهوت ، فترك قصائده دون نشر ، ولم تصل إلى المطبعة إلا بعد موته بأربعين سنة . وهى بالاجماع أقرب لإنتاج اللغة القشتالية إلى الكمال .

وكان لويس دى جونجورا وفرانسيسكو جومز دى كوفيديو اى فيليبيجاس لا يزالان يفوقانه شهرة لأنهما أثارا الضجيج بالجدل كما أثاراه بالشعر ، وخلفا بعدهما مدرستين متقاتلتين هما الجونجورية والكونسبتية ، باعتبارهما فلسفتين من فلسفات الأسلوب . وقال سرفانتس - الذى لم يبخل بكلمة ثناء على كل منافسيه فيما عدا لوبي وأفيلانيدا - فى وصف جونجورا إنه « عبقري نادر ، مثير ، لا ثانى له (٢٦) » وفى هذا المقطع من قصيدة الشاعر القصصية « إلى الأرمادا » نلتقط صدى بعيدا لصيحة الكراهية والحقد : -

« إيه أيتها الجزيرة ا كنت يوما وفية للكلثكة ، قوية البأس ،
حصنا للإيمان اذ تلعب هيكلًا بغضا للهزيمة ،
كنت معسكرا للحرب المدربة ، ومدرسة للحكمة المقدسة ،

أتى عليك زمن كان فيه هذا الجلال جلالك
وتغنى الشعراء أول ما تننوا بريق تاجك ،
أما الآن فالأعشاب الكثيبة التى تنبت عند بركة الجحيم
تصلح اكليلا لك . يا وطن الحكاة .
من كل أرثر ، وإدورد ، وهنرى ! أين هم اليوم منك ؟
أين أمهم التى سعدت يوماً بياسهم .
وثبتت فى قوة الإيمان ؟ إيه يا جريرة المرأة
التي تحكمك الآن ، لقد قضى عليك بالعار الأبدى
أيتها الملكة الغيضة يا قاسية القلب عابسة الجبين ،
أيتها الفاجرة الصارمة الشرسة الداعرة ،
يا امرأة تربعت على العرش ، يا لعنة الفضيلة الصادقة-
يا شبيهة الذئبة فى كل طباعها ،
لتمطر السماء على صفائك الكاذبة ليهبها العادل (٣٧)

هنا قلم جدير بالتودد له . لا عجب إذن أن جعل فليب الرابع هذا
الشاعر النارى (الذى أصبح الآن قسيسا) كاهنه الملكى الخاص ، فربط
مواهبه بالعرش . وجهد جونجورا ليكتسب نعومة الأسلوب ودقة العبارة ،
وأعلن الحرب على الكتابات المتعجلة كـ: كتابة لوبى دى فيجا ، وأصر
على وجوب تهذيب كل بيت من الشعر وتصفيته وصقله ليكون حجرا
كريما . ولكنه فى تمحسه غالى فجعل من الفن صنعة وتكلفا ، وأثقل
أبيانه بالكثير المسرف من الاستعارات ، والنعوت ، والتقديمات والتأخيرات ،
والطباقات ، حتى بز لا يلى فى تأنقه وفاق مارينى فى تكلفه . انظر إليه
يقول فى مفاتن صبية يخلب ألباب :

عينها التوأمان اللامعتان كالشمس
تحيلان صقيع الرويج صيفا ،
وتلك العجيبة البيضاء ، يدها الناصعة كالثلج ،

تجعل الحبشى يبيض دهشة وذهولا .

وانقسم شعراء الأسبان الآن معسكرات ثلاثة ، ففريق اتبع الجونجورية (أو الكولتية) ، وفريق اعتنق مذهب كوفيدو (الكونسبتية) ، وفريق ثالث قاوم الوبائين كما فعل لوبى ذى فيجا .

أما كوفيدو فقد نال فى «القلعة» مراتب الشرف فى القانون، واللاهوت ، واللاتينية ، واليونانية ، والفرنسية ، والعربية ، والعبرية ، والمبارزة . وكان برغم قصر بصره وتشوه قدميه رهيبا بسيفه وقلمه على السواء ، وكانت هجائياته بتارة كحسامه . وقد فر إلى صقلية ونابلى بعد أن قتل عددا من غرمائه . وحين بلغ الخامسة والثلاثين تقلد هناك وزارة المالية . وشارك فى مؤامرة أوزونا على البندقية (١٦١٨) ، فلما فشلت أودع السجن ثلاث سنين . وعاد بعدها إلى مدريد ، فلم تسكتة وظيفة شرفية هى وظيفة السكرتير لفليب الرابع ، وراح يسلق بشعره الحاد الملك والبابا وأوليفريس والنساء والرهبان . وفى كتبه المقذع «الكلب والحمى» (١٦١٥) نبه كل شئ ، وأطلق على الكل عاصفة من الأمثال أكثف من أمثال سانشو بانزا وأشد لذة ، وكانت نصيحته التى لم يعمل بها قط أن يقف المرء بعيدا عن المعركة و«يدع القاذورات تمر» (٢٨) . ولما أعوزه الخصوم والأهداف ، هاجم «كولتية» الجونجورين ، وعارضها بـ «الكونسبتية» ، وقال إن على الشاعر ، بدلا من تصيد العبارات والألفاظ الخيالية ، أن يبحث عن الأفكار — لا الأفكار العمة الظاهرة التى أبلاها الزمن أو لوثها الابتذال ، بل المفاهيم الدقيقة ، الحليمة ، النبيلة ، العميقة .

وقد اتهم ظلما بكتابة خطابات تنبه الملك إلى ضرورة الكف عن التبذير ، وطرده وزرائه العاجزين . فأودع زنزانة رطبة خمس سنين ، ولما أفرج عنه كان رجلا محطما ، فلم يعيش بعدها غير ثلاث سنين (١٦٤٥) . لأنه لم يعيش

حياة أدبية هادئة مطمئنة ، بل حياة كان فيها المداد دما ، والشعر جربا ، وإذ
شارف نهايته أنذر ببلاده بأنها هي أيضا في طريقها إلى الموت :

رأيت أسوار وطى
تتداعى بعد منعها ،
لقد أوهم من قواها أسلوب هذا الجبل الحديد
الذى أبلى كل جليل وأفسده ،
مضيت إلى الحقول حيث رأيت
الشمس تلهم مياه الموج الدائبة ،
وفوق التلال تنبش الماشية النائمة الأرض ،
لقد سلبنى شقاؤها أضياء النهار ،
ومضيت إلى بيتى فرأيت كيف أفسدت
الأشياء القدرة البالية هذا البيت القديم ،
لقد تقوس عكازى الداوى الذى أتوكأ عليه
واحسست أن الشيخوخة انتصرت ، رأيت سيفى صدئا
ولا شيء تقع عليه العين
إلا ذكرنى بالنهاية . (٣٩)

٤ - لوبى دى فيجا : ١٥٦٢ - ١٦٣٥

كثير كتاب المسرحية فى ذلك العصر النشيط كثرة الشعراء . كان المسرح
هنا ، شأنه فى انجلترا المعاصرة ، بعة مرتجلة إلى ذلك الحين ، فالممثلون
الجوابون يسرحون بفهم على المدن مفلسين ، ومحكمة التفتيش تصدر حظرا
على جميع التمثيليات (١٥٢٥) فى كفاحها للهيمنة على جلالة تمثيلياتهم الفكاهية
فلما أصبحت مدريد مقر الملك (١٥٦١) ، استأذنت فرعان تمثيلتان الملك
فى الاستقرار فيها ، فأذن ، ورفع الحظر الكنسى (١٥٧٢) ، وبني مسرحان ،
تياترو دلاكروز (مسرح الصليب) وتياترو دلبونسبى (مسرح الملك) -

يعبر الاسمان عن أهم ولاءات أسبانيا وأقوامها . وما وافى عام ١٦٠٢ حتى قامت المسارح أيضا في بلنسية ، واشبيلية ، وبرشلونة ، وغرناطة ، وطليلة ، وبلد الوليد ، وفي عام ١٦٣٢ كان في مدريد ألف ممثل ، وفي قشتالة ستة وسبعون من الكتاب المسرحيين ، وكان الخياطون والباعة والرعاة يكتبون التمثيليات . ولم تحل سنة ١٨٠٠ حتى كانت أسبانيا قد استمعت إلى ثلاثين ألفا من مختلف التمثيليات . ولا يذكر التاريخ بلدا آخر ، حتى انجلترا الاليزبثية ، انتشى بمثل هذه النشوة المسرحية .

وتطور شكل المسرح من الأفنية - المحاطة بالبيوت والمواقف المؤقتة - التي كنت تمثل فيها المسرحيات الأولى ؛ وصممت المسارح الدائمة صفوفها من المقاعد وألواج تحيط بمكان مسيج ، وكانت الملابس أسبانية أيا كان مكان التمثيلية أو زمانها ، والنظارة خليطا من جميع الطبقات ، والنساء يختلفن إلى المسرح ولكنهن يجلسن في قسم خاص بهن ويلبسن الأثمنة الثقيلة . وكان الممثلون يعيشون عيشة قلقة هبطت بمعنوياتهم ، بين المجاعات والولائم ، يتعزون عن الفاقة والتشرد بالفوضى وحلو الأمانى . ونال بعض « النجوم » المذكور من الثراء والشهرة ما أدار رءوسهم ، فراحوا يختالون في أهم شوارع مدريد وهم يصلحون سيوفهم ويفتلون شواربهم ، ونامت بعض كبريات المغنيات مع الملوك في مضاجعهم .

أما ملك المسرح الأسباني فهو لوبي فيلكس دى فيجا كاريو . ففي عام ١٦٤٧ اضطرت محكمة التفتيش إلى حظر « قانون إيمان » منشور مطلع « أو من بلوبي دى فيجا ضابط الكل ، شرع السماوات والأرض » (٢٠) ولعل كاتبها آخر في التاريخ لم يحظ بمثل هذه الشهرة في جيله . ولم يقتصر معظم هذه الشهرة على أسبانيا دون غيرها من الأقطار إلا لصعوبة ترجمة الشعر المقفى ، ولكن حتى مع هذا القيد كانت مسرحياته تمثل بالأسبانية في نابلي وروما وميلان، وانتحل اسمه في فرنسا وإيطاليا لمسرحيات لم يكتبها ، وذلك اغراء للجماهير بحضورها .

ولد في مدريد قبل مولد شيكسبير بعامين لأسرة فقيرة ولكنها - كما
يوكلدون - عريقة . فلما ناهز الرابعة عشرة هرب من البيت والمدرسة
وتطوع في الجيش وشهد بعض المعارك الدامية في الأزورة . ثم أحب ،
ولكنه أنقذ نفسه دون أن يصاب إلا بجراح طفيفة ، وكتب « الجرامات »
سافلة في حق السيدة النبيلة ، فقبض عليه بتهمة القذف ، ونفى من مدريد .
ولكنه تسلل إلى المدينة ، وفر مع ايزابل دى أورينا ، وتزوجها ،
فطورد ، والتحق بالأرمادا تهربا من القانون . وقد شارك في هزيمة
الأسطول ، ومات أخوه القتيل في المعركة بين ذراعيه . وتركه موت
زوجته حرا ولكن تورط في مشاكل أخرى . فقد أنجب طفلين من الممثلة
ميكالادى لوخان^(١) ، وتزوج ثانية ، وأصبح موظفا في محكمة التفتيش .
(١٦٠٩) ، ثم فقد زوجته الثانية ، ورسم قسيسا (١٦١٤ ؟) ووقع في
أكثر من غرام^(٢) .

أما أسبانيا فقد اغتفرت له خليلاته لقاء مسرحياته . فقد كتب منها زهاء
ألف وثمانمائة ، بالإضافة إلى أربعائة « فصول مقدسة » قصيرة تمثل في
الاحتفالات الدينية . وذاع عنه أنه ألف عشر تمثيلات في أسبوع واحد ،
وتمثيلية قبل الفطور ، وتفقه سرفانتس يائسا أمام هذا السيل الجارف ، وسمى
منافسه « وحش الطبيعة » . كان لوبي « كوميديا فنية » في ذاته ، فهو يؤلف
المسرحية وهو يرتجلها . وإذا كان ينبغي بمثل هذه الخصوبة المستهتر ،
فإنه لم يزعم لنفسه تفوقا في الفن أو الفلسفة . وقد اعترف بلطف في كتابه
« الفن الحديد في كتابة المسرحيات » انه إنما يكتب ليرتزق ، ومن ثم فهو
يزود الجمهور بما يروقه^(٣) . وما كان ليطلع تمثيلياته لولا قراصنة الناشرين
الذين درجوا على إفاد رجال ذوى ذاكرة معجزة إلى حفلاته ، وكان
في استطاعة هؤلاء الرجال بعد الاستماع إلى المسرحية ثلاث مرات أن يتلوها
عن ظهر قلب ويقدموا نصا محررا للناشرين الذين لا يدفعون للمؤلف فلسا
واحدا . وذات مرة أبت فرقة لوبي أن تمضي في تمثيل المسرحية ما لم بطرد

عجيبة من عجائب الذاكرة هؤلاء خارج القاعة(٤٤) = فذشرها قلبه يهبط
بعدد روادها . على أن لوبي نشر في عناية وحب رواياته الشعرية - اركاديا ،
وسان ايسيدرو ، وأورشليم المفتوحة ، ولا هور موسورا دى أنجليكا ، ولا
دوروتيا ، وكلها مشجبة متوسطة الجودة .

والحبكة في مسرحياته هي كل شيء ، أما الشخصيات فقلما تحظى من
مؤلفها بدراسة وثيقة ، ويخيل للمرء أنه يصدق على هذه المسرحيات ماقاله
ثورو في الصحف - وهو أنك لو غيرت أسماءها وتواريخها لا أكثر ،
لوجدت المحتوى دائما هو هو . فالقصة تدور في كل الحالات تقريبا حول
عاملين : الدفاع عن العرض ، ثم من يضاجع السيدة . أما جمهور النظارة
فلم يكن يمل قط من معالحة الموضوع الثاني في صور متنوعة ، لأنه حرم ممارسة أى
من صوره هو . وكان خلال ذلك يستمتع بالفكاهة العارضة ، والحوار
الذكى ، والشعر العاطفى الذى يتدفق سريعا رشيقا من أفواه النساء الحسان
والرجال البواسل . وهكذا اتخذت روح الرومانسيات ، التى لم تنقرض قط ،
حياة جديدة على المسرح الأسباني .

وأشهر مسرحيات لوبي هي « نجمة إشبيلية » . ففي هذه المسرحية
يفد سانشو الشجاع ملك قشتالة على إشبيليته ، فيطرى بهاء شوارعها ،
ولسكنه يطلب إلى مستشاره أرياس أن يزيده حديثا عن نساءها بنوع
خاص .

« الملك : ثم نساؤها ذوات الحسن السماوى ، لم لا تحدثنى عنهن ؟ ...
قل لى ، ألا تلهب عواطفك بهاء مفاتهن ؟

أرياس : أن الدونا ليونوردى ريبيرا بدت لى كأنها السماء المنيرة
ذاتها ، ففى وجهها أشرق ضياء شمس الربيع .

الملك : إن فى وجهها شحوبا كثيرا . . . أريد شمسا تحرق ولا تجمد .

أرياس : إن المرأة التى ألفت إليك الورود هي الدونا ميثا كورونيل .

الملك : سيدة جميلة ، ولكنى رأيت أجمل منها . . . واحدة منهم

تفيض حسنا ولم تذكرها . . . فمن تلك التي لفتت نظري من شرفها ، فخلعت لها قبعتي ؟ من هي التي أرسلت عينها البرق كصواعق جوبيتر وراشت سهامها الفتاكة في قلبي ؟ . . .

أرياس : اسمها الدونا ستيللا تايرا ، وتسميها اشيبيلية نجمتها إطرأ لها . الملك : وقد يخلق بها أن تسميها شمسها . . . لقد قادني نجمي الهادي إلى اشيبيلية . . . فكيف السبيل إلى رؤيتها والتحدث إليها أيها الدون أرياس ؟ ياله من حلم تضطرم له أعماق نفسي !» (٤٥)

على أن ستيللا تعشق الدون سانتشو أورتيث ، وهي ترفض في غضب ما عرضه عليها أرياس من السماح للملك بالتمتع بـ « حق السيد » . ولكن أرياس يرشو الخادمة لتدخل الملك إلى مخدع مولاتها ، ويدخل بوستوس شقيق ستيللا الوفي في اللحظة التي يجب فيها الدفاع عن العرض ، فيكف الملك ، ويكاد يقتله ، ولكنه إجلالا لمنصبه يخلّي سبيله ، مزدري ولكن دون أن يمسّه سوء . وبعد ساعة يشهد الملك جسد الخادمة التي قبلت الرشوة مشنوقا فوق سور قصره . ويرسل في طلب أورتيث ، ويسأله هل ولاؤه للملك لا يعرف الحدود ، فيتلقي جوابا فخورا مرضيا ، ومن ثم يأمره بقتل بوستوس . ويلتقي أورتيث ببوستوس وينسلم منه رسالة من ستيللا تقول إنها تبادله الحب وتقبل تودده ، فيشكره ، ثم يقتله ، ويكاد يختلط عقله ، ويخشي الملك ثورة الشعب ، فيخفي عنه أن اغتيال بوستوس كان بأمر منه . ويقبض على أورتيث ويكاد يعدم لولا أن ستيللا تجد الوسيلة لإطلاقه . ولكن القصة لا تنتهي نهاية سعيدة ، فقد اتفق العاشقان على أن القتل قد سم غرامهما إلى الأبد .

لقد أصبح لوبي معبود مدريد بعد أن أخرج ألف مسرحية من هذا النوع . وأغدق عليه الخاصة والعامة الإعجاب ، وبعث إليه البابا بصليب مألطة ودرجة الدكتوراه في اللاهوت . وكان إذا خرج إلى الشوارع تراحت حوله الجمالير التواقة للقائه ، وقبلت النساء والأطفال يديه طالعين نفسه

« البركة . وأطلق اسمه على كل شيء تميز في بابه : فهناك خيل لوبي ، وشمام لوبي ، وسيجار لوبي (١٦) . أما الناقد الذي يجد فيه عيبا فيعيش كل يوم في خوف الموت على يد أنصار الشاعر الأوفياء .

على أنه لم يكن سعيدا برغم هذا كله . كان ينقد أجرا لا بأس به عن مسرحياته ، ولكنه ينفق أو يهب ماله بمجرد كسبه ، وبعد أن أصاب هذا التوفيق الكثير أدركه الفقر واضطر إلى التماس المعونة من فليب الرابع - الذي أرسل له مهرا سخيا برغم أفلاسه . ولكن أحزانه كانت أفتك به من فقره . فقد دخلت ابنته مارثيلا الدير ، والتحق ابنه لوبي بالبحرية وغرق ، وهربت ابنته انطونيا مع كريستوبال تونوريو آخذة معها عددا كبيرا من تحف أبيها القيمة . وتبرأ منها لوبي ، وهجرها كريستوبال . ووقر في نفس لوبي أن هذه الحن ليست سوى عقاب من السماء على آثامه ، فحبس نفسه في حجرة وأضعف جسده بفرط الصيام حتى تلوثت الجدران بدمه . وفي ٢٣ أغسطس ١٦٣٥ نظم آخر قصائده « السجلو دي أورو » (القرن الذهبي) ومات بعد أربعة أيام وقد بلغ الثالثة والسبعين . ومشت تصف مدريد في مشهده الذي عرج على الدير ليتمكن ابنته من أن تقرئه تحية الوداع من نافذة صومعتها . وهكذا مُثل تمجيد الناس له على هذا المسرح الشعبي الكبير .

إننا لا نستطيع أن نعتبره ضريبا لشيكسبير كما فعل فولتير . ولسكنا نقول فيه إنه بعبقريته العارمة ، وشعره الجياش ، وشخصيته المحيية المشرقة خلال ألف مسرحية ، ارتفع إلى ذروة العصر الذهبي الأدبية التي لم يطاوله فيها سوى سرفانتس وكالديرون .

٥ - كالديرون : ١٦٠٠ - ٨١

كان هناك كتاب آخرون تحدوا تفوق لوبي فترة وجيزة . ومن هؤلاء جويلين دي كاسترو (١٥٩٦) الذي ألف مسرحية « شباب السيد » ،

وقد فضلها بعضهم على مسرحية كورنبي « السيد » الأكثر شهرة . ثم
لويس فيليزدي جوفارارا الذي انقطع عن ممارسة القانون فترة أتاحت له
تأليف أربعمئة تمثيلية ، ومنها « الديابلو كوخويلو » وهي المصدر الذي
استقى منه لساج مسرحيته « الشيطان الأعرج » . كذلك عرض تيرسودي
مولينا في برشلونه (١٦٣٠) مسرحية « ساحر اشبيلية والضيف الحجري ،
التي ثبتت شخصية دون خوان مجدفا شهوانيا ، وزدوت مولير بحبكة
مسرحيته « الوليمة الحجرية » وموتسرت بحبكة أوبراه « دون جوفاني »
وأوحت إلى بيرون ملحمته « دون جوان » ففي هذه السطور القليلة لمحات
عن التأثير الهائل الذي كان للمسرحية الأسبانية في الخارج . وفي عام ١٨٠٣
فاجأ أوجست فلهلم فون شليجل ألمانيا بإعلانه أنه ليس بين كتاب
المسرحية الحديثة من يعلو على بيدور كالديرون دي لباركا سوى
شيكسبير .

اختتم كالديرون العصر الذهبي وعمر بعده كما فعل موريللو . كان أبوه
وزيرا للمالية على عهد فليب الثاني والثالث ، وتلقى في سلامنكا كل
ما استطاع اليسوعيون أن يعطوا ويسمحوا به من تعليم ، وقد كان
للاهتاف الشديد بالدين في تربيته أثر قوى في تلوين عمله وحياته . درس
القانون في سلامنكا ، ولكنه هجره حين اكتشف أن في قدرته الكتابة
للمسرح بنجاح . وقد احتوت إحدى تمثيلياته على إشارة شديدة الوضوح
إلى الحشو الجونجوري الذي شاب عظات واعظ ذي نفوذ ، لذلك أودع
كالديرون السجن حيناً ، ولكن اسمه ذاع بين الناس . ونشر مجلد بمسرحياته
ومنها « لافيدا ايس سوينو » (الحياة حلم) عام ١٦٣٦ فكفل له من فوزه
. كان الصدارة في المسرح الأساني . وعينه فليب في ذلك العام ليخلف
لوبي دي فيجا مسرحيا للبلاط . وفي عام ١٦٤٠ انضم إلى فرقة من
الفرسان المدرعين واكتسب شهرة بفضل بساته وشهامته في ترجونا .
وكتيرا ما استطاع الأديب في أسبانيا - كما استطاع في البلاد الاسلامية

— أن يحقق حلما يضمه ، وهو أن يكون رجل أعمال لا أقوال فسحب ..
على أن صحة كالدبيرون تداعت بعد اشتغاله بالحرب سنتين ، فتقاعد بمعاش
حربي . ووجهه الحزن على فقد الأقرباء وجهة الدين ، فأصبح عضوا علمانيا
في طائفة الفرنسيكان ، ثم رسم قسيسا (١٦٥١) ؛ وظل عشر سنوات
يخدم أبرشية في طليطلة وهو يواصل الكتابة للمسرح بين الحين والحين . وبعد
أن نال كل ما تمنحه هذه الدنيا من مظاهر التشريف ، مات في الحادية
والثمانين وهو وطيء الأمل في أن ينال المثوبة على تأليفه مئات « الفصول
المقدسة » واكتفائه بخليعة واحدة دون سواها .

ومسرحياته الدينية أجمل ما كتب في بابها ، ففيها وجدت قدرته العاطفية
سندا من تقواه الصادقة . وقد حظيت مسرحياته الدنيوية زمنا طويلا بشهرة
دولية أوسع من مسرحيات لوبي ، لأنها تضارعها شعرا وتفوقها فكرا .
وكان يعوزه بعض ما وهب لوبي من حيوية وتنويع هائلين ، ولكنه
هو أيضا كتب هذا اللون من مسرحيات « العباءة والسيوف » بحوية ومهارة .
ولا يستطيع إيقاءه حقه الكامل من التقدير سوى خبير باللسان القشتالي ،
ولكننا نسجل هنا أن شاعرين من شعراء الإنجليز شعرا بعقريته وناضلا
لابتعاثها من بوتقتها اللغوية . وأولهما شلي الذي ترجم بتصرف أجزاء من
« الساحر الرهيب » ، وكان متفقا مع شليجل في رأيه في كالدبيرون ،
والثاني ادوارد فترجيرالد الذي حاول في كتابه « ست مسرحيات لكالدبيرون »
(١٨٥٣) أن يفعل للمسرحي الأسباني — دون أن يوفق — ما فعله بعد
ست سنوات لعمر الخيام بتوفيق كبير .

و « الساحر الرهيب » صورة محورة لاسطورة فاوست . هنا نرى فقيها
شهيرا من فقهاء انطاكية يدعى كبريان يقطع مبارزة بين اثنين من تلاميذه
يشتهى كلاهما خوستينا ، ويحملهما على أن يغمدا سيفيهما بعد أن يوافق
على الذهاب إليهما للتحقق من أيهما تختار . ويمضى إليهما ، ولكنه يقع في
غرامها لأول نظرة . أما هي فتطرده في ازدراء ، ثم نحن إليه ، وأما

الطالبان اللذان صدتهما أيضا فتعزبان باختها ليفيا ، ولكن كبريان لا يقوى .
على تخليص ذا كرتة من فتنة خوستينا .

رائعة الجمل هي —

وأناهب بين حبي وغيرتي؛

يعتصرني الأمل والخوف ،

مهما بدا هذا شائنا —

ما أمر الحياة التي أحيا ،

فأنصتي الآن يا جهنم !

إنني لأبذل لزوجك البغيضة

نفسى ترثينها إلى الأبد ،

وأحتمل العذاب والسقم ،

نظير أن أملك هذه المرأة (١٧)

ويقول الشيطان « قبلت » ، ولكن خوستينا تستعصى عليه . وأخيراً
يأتي بها إلى كبريان ، ولكن حين يحاول العالم ضمها إلى صدره ينكشف قناعها
فلا يبدى غير جمجمة . ويعترف لوسيفر (إبليس) أن قوة المسيح
وحدها هي التي استطاعت أن تجيز عليه هذه الحيلة . وأخيراً ، وبينما
يساق كبريان وخوستينا إلى لاستشهاد المسيحي ، تعترف بحبها له .

ومن التمثيليات التي ترجمها فترجيرالد ظفرت « عمدة سلامبا »
بالاطراء الشديد لتفوقها التقني . ولكن لمسرحية « الحياة حلم » مسحات
باطنة أكثر عمقا . فهي تنحى موضوعات الشرف والحب القديمة جانبا ،
وتعرض على المسرح في جرأة مشكلة تكاد تكون شرقية : فإلى أى حد
تكون صروف الدهر وانتصارات الحياة دائمة وحقيقية ؟ ألعلمها ليست
سوى أوهام ، وخدع ؟ وجزء من القناع الذي يحجب ما خلفه من حقيقة
جوهرية خالدة ؟ هنا نرى باسليوس ملك بولنדה يسجن ابنه الحديث الولادة ،
الذي تنبأ الطوالع بترده على أبيه . ويربى سجسمولد في الأغلال وسط حيوات

الغاية ، ويشب أشد توحشا من أى وحش طليق . على أن الملك يلين
في شيخوخته ، فيدعو ولده للحضور ومشاركته العرش ، ولكن مجسمونند
الذى لم يدرب على الحكم يقاتل بضراوة وفي عنف أخرق يكره أباه على
تخديره حتى يخضع . فإذا أفاق وجد نفسه قد عاد إلى كهفه وأغلاله في
الغابة . وية ال له إن سلطانه الأخير لم يكن غير أضغاث أحلام ، فيصدق ،
وويتكلم كما تكلم رتشرذ الثاني المهزوم في مسرحية شيكسبير :

لا ريب في أن الحياة في وميض
هذه الدنيا ليست سوى حلم !
يحلم النائم بما هو عليه ولا يفيق إلا
حين يفاجئه الموت بصبحه الحافل بالأسرار .
فالملك يحلم بأنه ملك ،
وعلى هذا النحو الخداع
يعيش ويحلم بسطوة الملوك ،
ولكن كل الهتافات التي تجلجل من حواه
تتخذ لها أجنحة وتطير في الهواء
لأنها وليدة المسوء .
ثم يذيب الموت كبرياءه وأبهته .
فيحيلها — وا أسفاه — رمادا في رماد .
فنذا الذى يشهى التاج
وهو يرى أنه لا محالة مفق
من حلمه وراء باب الموت ؟
قصارى القول ان النائم في كل الأرض
يحلمون أيا كان مولدهم . . .
فما الحياة ؟ خيال يترامى ،
سراب يترقرق كاذبا ،

فرحة زائفة ، راحة خداعة ،
فالحياة على أحسن الفروض حلم ،
وحى الأحلام ذاتها ليست غير أحلام^(٤٨)

ثم يلقي سجسموند عنه وحشيته ، بانقلاب آخر علله المؤلف تعليلا شديدا القصور ، ويغدو إنسانا عاقلا ، فإذا أجلسه الثورة على العرش أصبح ملكا صالحا ، واعيا في تواضع بأن هذا الارتقاء هو أيضا حلم ، فقاعة نافهة في زبد الحياة .

والخطب في المسرحية طويلة طولاً مؤلماً ، وتزويق العبارات « الجونجورى » يفسد نحر الشعر ، ولكنها مسرحية قوية برغم هذا العيب ، تمزج الحركة بالفكر وتحفظ بالتشويق الدرامى إلى النهاية . وأغلب الظن أننا لو كان لنا وطن وتعليم غير وطننا وتعليمنا ، ولو أتيح لنا الفهم الجيد للغة القشتالية ، لاعتبرنا هذه التمثيلية من أعظم التمثيليات في العالم .

ويستحيل علينا الآن أن نستعين بالخيال لنقتلع أنفسنا من سجن زماننا ومكاننا ، وندرك قوة الدور الذى لعبته الدراما في أسبانية القرن السابع عشر ، ومدى النفوذ الذى حظيت به . ففي إيطاليا كادت تطرد المأساة الإيطالية من خشبة المسرح . وفي فرنسا زودت بالحبيكات كتابا كآردى وكورنى وموليير وكثيرين غيرهم ، وقد صاغت شكل المأساة الفرنسية قبل راسين ، إذ شددت على الشرف وأسقطت البلاغة ، فإذا ذكرنا إلى ذلك كله تأثير سرفانتس وغيره من الروائيين الأسبان على لوساج وديفو وفيلدينج وسموليت ، ومن خلال هؤلاء على دكنز وذاكرى ، وإذا قارنا فن إنجلترا الالبرايشية ، أو حتى فن فرنسا المعاصرة ، بعمارة أسبانيا ونحتها وتصويرها في أوجها ذلك — إذا فعلنا هذا كله بدأنا هذا نذكر لم تغلو شعوب العالم الناطقة بالأسبانية في الفخر بميراثها والاعتزاز بنفسها .

الفصل الثاني عشر

العصر الذهبي للفن الأسباني (*)

١٥٥٦ - ١٦٨٢

١ - الفن واحد ، وألوانه ألف

ترى كيف نفسر هذه الظاهرة ، وهي أن أسبانيا استطاعت في هذه الحقبة - بعد أن انتزعت منها إنجلترا السيادة على البحر وفرنسا السيادة على البر ، وبعد أن بدا أن كل مشروعاتها المادية قد أصابها الفشل والافلاس - أن تبنى كاتدرائية سيجوفيا (سقوية) ، وتوجه تحت هرنانديث ومونتانيس ، وتلهم تصوير الحريكو ، وثورباران ، وفيلاسكويز ، وموريللو ؟ لأن الكنيسة الأسبانية ما زالت غنية ، والبلاط الأسباني ما زال مسرفا ، والذهب الأمريكي ما زال يدخل اشبيلية ، والفنانين الأسبان الذين يغذيهم الإيمان والمال ما زالوا يحسون وهج مجد لم ينطفئ كله بعد ؟

كان أقل البهاء في العمارة ، ففيها أشبعت انتصارات الماضي كل حاجات الاتقياء . وفي اشبيلية أعلنت الكنيسة نصرها على المغاربة بتتويجها مثذنة جامع للمسلمين ببرج مسيحي أكمل جمال الجيرالدا (١٥٦٧) ، وبعد سنة توج بارتولومى موريل البناء كله بتمثال « الإيمان » الذي يزن طنا ، ومع ذلك ففي توازنه من الخفة ما يتيح له الحركة مع كل هبة ريح ليشرق على ملكه المبجل . وفي بلد الوليد بدأ خوان دي هيريرا ، معمارى الاسكوريال ،

(*) كل الصور الأسبانية الواردة في هذا الفصل معروضة في « البرادو » ما لم ينس على غير هذا .

وقد أذاع اسم خوان مذبح أقامه في كنيسة « سيدتنا عذراء أنتيجوا » في بلد الوليد ، وتمثال في كنيسة أخرى هناك سماه « الأم المتألمة » اعتر به الناس اعتراضا حادا بهم في عمق إيمانهم الحزين . إلى القماس السماح لهم بلباس التمثال ثيابا غالية . وهناك مثال آخر تضعه أسبانيا في صف يعلو حتى عن مقام خوان ، وهو جريجوريو هرنانديث ، هذا أيضا نحت تمثالا آخر للأم المتألمة ، وفي واقعية اختص بها رسم على ثوبها بقع دم . ووضع دموعا من زجاج في وجهها ، ولعل تمثال هذه الأم الحزينة ، والمسيح الميت مسجى على حجرها ، هو اسمى ما بلغه فن النحت الأسباني . في هذا العهد .

وأعظم هؤلاء المثاليين خوان مارتينيث مونتانييس . ولم يكن يجاوز الثامنة عشرة يوم وفد هو وزوجته (١٥٨٢) على دير « دولثي نومبري دي خيسوس » في إشبيلية ، وأهداه تمثالا للعذراء ، وعرفاتا بصنيعه كوفئ بسكن مجاني مدى الحياة . وقد سر اليسوعيين بتماثيل نحتها لأغناطيوس وزافير ، وأبهج الرهبان الهيرونيميين بتمثال للقديس جيروم . وما زالت كاتدرائية إشبيلية تعرض تمثاله للمسيح المصلوب ، الذي قال فيه أحد المؤرخين إنه ربما كان أسمى تشخيص للضحية الإلهية (٢) « وحين فرض البابا بولس على جميع الكاثوليك الإيمان بعقيدة « الحمل غير المدنس » ، سعدت أسبانيا جدا بهذا القرار لأنها - كفرنسا - كانت تركز تقواها على العذراء . وارتفع مونتانييس إلى متطلبات الموقف ، فنحت رائعته (المحفوظة بكاتدرائية إشبيلية) - وهي تمثل « أم الإله » الفتية تتأمل سر خلوها من الخطيئة الأصلية ، هذا التمثال أيضا عد من آيات النحت العالمي (٣) ، ولكن العذراء الأندلسية تبدو شديدة الهدوء والرضى ، وأن أنقلتها كثرة الملابس .

ولتوخيها الانصاف برغم الإيجاز ، لقلنا أن صورة الفن الأسباني لا بد أن تعدد مفاخره الصغيرة وتحتفل بها : هذه المشبكات والأستار

والبوابات من الحديد أو البرونز ، والمحفورات الخشبية على كثير من حواجز المذبح في الكنائس ، ومقاعد المرتلين كذلك التى نقشها بيدرو دى مينا لكاتدرائية ملقا ، والمصابيح ، والصلبان والكثوس ، والعب ، والمظال المشغولة بالفضة أو الذهب ، كصناديق خوان دى أرفى العالمية الشهيرة ؛ ثم التماثيل الصغيرة من الخشب أو العاج أو المرمر أو البرونز ، والمطرزات والموشيات التى ازدانت بها مذابح الكنائس وتجملت بها النساء ، وزجاج برشلونة المغشى بالميلا ، وآنية تلافيرا (طليبرة) من الصفيح المزجج .

كادت الكنيسة قبل مجيء فيلاسكويرز أن تكون الراعى والحكم الأوحى فى التصوير . وكان من آثار الأحاسيس القائمة التى اصطبغ بها اللاهوت والورع الأسبانيان ، والتى ربما كانت انعكاسا لصخور الإقليم الكثيفة وقيظه المحرق ، أنها لم تسمح إلا بالقليل من الفكاهة أو الخفة أو التألق فى علاج الموضوعات ، وأنها حرمت تصوير العرايا ، واعرضت عن تصوير الأشخاص ومناظر الطبيعة ، وشجعت ضربا من الواقعية الجافية التى اتكأت على جوانب الإيمان الخفية . أكثر من جوانبه المعزية ، فعلى الصور أن تقر العقيدة وتؤججها فى النفس بالخيال المتهب والصرامة الديرية . وانتهى الأمر بأن المصورين أنفسهم رأوا الرؤى وادعوا الوحى الإلهى . وقد نافس فليب الثانى الكنيسة فى رعاية المصورين ، ولكن موضوعات التصوير ظلت دينية ، وحين كلفهم النبلاء برسم صور كانوا عادة يتبعون القاعدة نفسها ، ولم يبدأ توجيه التصوير وجهة دنيوية إلا بفيلاسكويرز وفليب الرابع . ودخلت بعض المؤثرات الأجنبية لتعدل من هذا التأثير الكنسى . مثال ذلك أن كاردوتشى وتسوكارو ونحوثمانية عشر فنانا إيطاليا آخرين طعموا الفن الأسبانى بطابع أرق ؛ وقدم انطونيس مور من فلاندر عام ١٥٧٢ ، وتأثر الرسامون الأسبان الذين زاروا الأراضى المنخفضة بروح فانديك ، كذلك ناشد روينر ، الممثلة حيوية ومرحا ، الفنانين الأسبان حين اكتسح مدريد عام ١٦٠٣ ، أن ينظروا إلى الحياة لا إلى الموت .

وفضلا عن أئمة الفن الأربعة الذين هيمنوا على التصوير الأسباني في هذا العصر كان هناك كثير غيرهم أقل نبوغا ، كالونسوسانتشيث كوثيللو الذى رسم بالأسلوب الفلمنكى لوحات لابن فليب الثانى الصغير دون كارلوس وابنته ايزابل ، وتلميذ كوثيللو خوان بانتوخا دلاكروث ، الذى ترك لنا صورة قائمة لفليب الثانى (٤) ، وأخرى قوية للقديس أوغسطين ، وفرانسسكودى ريبالتا الذى يظهر أسلوبه « القاتم » ، أسلوب الضوء تحيط به الظلمة ، فى لوحة « القديس فرنسيس يعزىه ملاك » ، وفرانسسكو باتشيكو الذى علم فيلاسكوير ، وزوجه ابنته ، وشرح مبادئ التصوير الأسباني فى كتابه « فن التصوير » (١٥٤٩) ، كتب يقول « إن أكبر هدف للفن أن يعزى الناس بالتقوى ويعطف قلوبهم نحو الله (٥) » . وفى عام ١٥١١ زار الجريكو فى طليطلة ، وأذن صور اليونانى لأنها « تخطيطات تحضيرية (٦) » فلتنظر الآن فى هذا الحكم .

٢ - الجريكو : ١٥٤٨ ؟ - ١٦١٤

كان فى كريت مسقط رأسه يسمى نفسه كريا كرس ثيوتوكوبولس - أى الابن الإلهى للرب ، وفى إيطاليا سمي دومنيكو تيوكوبولو ؛ وفى أسبانيا دومنجو ثيوتوكوبولى ، وكان يوقع بالحروف اليونانية دومنيكوم ثيوتوكوبولس ، واختزل - الزمن اسمه إلى الجريكو ؛ وهو الكنية التى اشتهر بها فى أسبانيا . ولا نعرف شيئا عن حياته فى كريت . ولعل أجداده هاجروا إليها من القسطنطينية بعد أن فتح المسلمون هذه المدينة اليونانية (١٤٥٣) ؛ على أية حال كان يستطيع فى كريت ، كما استطاع فى البندقية بعد ذلك ، أن يشعر بتأثير الفسيفساء البيزنطية الصارم . وكانت كريت فى حياته مملوكة للبندقية ؛ لا عجب إذن أن يستقل الفنان الصغير السفينة إلى مدينة البحيرات ، تجيش فى صدره الآمال بعد ما سمع عن بلوغ التصوير أوجه فيها ، وأغلب الظن أنه انضم إلى الجالية اليونانية الكبيرة فى تلك العاصمة العالمية .

ودرس على يد تتسيانو عامين أو أكثر ، وأعجب بفن تنويريتو في جمعه الوجوه في صور مزحومة ، وربما سرى إليه ولع فيرونيزي بالثياب الفاخرة البهية . وقد نسخ الصور الشهيرة بتواضع صابر في البندقية وريدجواميليا ، وبارما ، وفلورنسة ، ووصل إلى روما عقب وفاة ميكل انجلو (١٥٦٤) .

وأول ذكر محدد لدينا عنه ورد في خطاب كتبه جوليو كلوفيو إلى الكردينال أليساندرو فارنيزي في ١٦ نوفمبر ١٥٧٠ يقول فيه

« وفد على روما شاب من كانديا ، تلميذ لتتسيانو ، ومصور ذو موهبة نادرة في ظني ... وقد رسم لنفسه صورة أطرافها كل المصورين في روما . وبودي لو شملتموه سيادتكم بالرعاية ، دون أي اسهام في رزقه سوى اعطائه حجرة في قصر فارنيزي » (٧) .

وقبل الكردينال ، وكافاً الجريكو كلوفيو بلوحة رائعة (٨) . وحين كثر اللغط حول العرايا في لوحة ميكل انجلو « الدينونة الأخيرة » عرض دومنيكوان يرسم بدلا منها - إذا رفعت - لوحة أخرى لا تقل عنها اتقانا وتمتاز بتغطية الأجسام على نحو أفضل (٩) ، فسقط في أعين فنانى روما . وأخبره بعض الأحبار الأسبان في روما أن فليب الثاني يبحث عن مصورين لتزيين الاسكوريال . فرحل إلى أسبانيا عام ١٥٧٢ بعد أن نفّض عن قدميه غبار روما ، ولكنه استبقى على فرشاته بعض انحرافات «اللازمة» الإيطالية .

وليس لدينا بعد ذلك عنه ذكر حتى عام ١٥٧٥ ، حين نجده يصمم ويزين كنيسة « سانتو دومنغو الانتيغيو » في طليطلة ، العاصمة الدينية لأسبانيا . فرسم لمذبحها لوحة « صعود العذراء » الفخمة التي تحتل اليوم مكانا بارزا في معهد الفن بشيكاغو - وهي تحذو في نواح منها حذو لوحة تتسيانو «الصعود» بالفراي في البندقية ، وتلتزم الأجساد الفتية المفعمة شبابا والرءوس الهرمة لحيلى التي درج عليها الأسلوب الإيطالى في

التصوير . وفي عام ١٥٧٧ رسم لكاتدرائية طليطلة لوحة مشهورة سماها « تقسيم أثواب المسيح » وأخذت لجنة شكلت للحكم على الصورة عليها أن تستر يسوع فاقعة الحمرة ، وأن النساء اللاتي يرين في أسفل البسار - المريمات الثلاث - لا يحمل هن هناك ، لأن الأناجيل ذكرت أنهن كن ينظرن من بعيد ، ومع ذلك أعلن القضاة حكمهم المتنبي بأن الصورة « لا تقدر بثمن ، وأنها عظيمة القيمة (١٠) » . وكانت إحدى المريمات منقولة عن خلية المصور ، واسمها الدونا خيرونيا دلاس كيفاس ، التي يظهر وجهها الحزين اللطيف في معظم عذارى الحريكو . وهو لم يتزوجها قط برغم وفائه لها وولائه للكنيسة ، ولم تكن هذه عادة أسبانية قديمة بل عادة تقديست طويلا في مراسم الفنانين .

ووصف كاتب من الجيل التالي ، يدعى خوزيه مارتينيث ، دومنيكو بأنه أصبح الآن على ثقة من الخلود ، قال :

« لقد استقر . . . في طليطلة ، وأدخل أسلوبا شديدا لاسراف بحيث لم ير إلى اليوم له نظير ، ومحاولة البحث فيه تشوش أسلم العقول . . . وقد صرح بأن فنه لا يعلو عليه فن . . . وكان في طبيعته من الغلو مثل ما في فنه . . . كان يقول إنه ما من ثمن يمكن أن يوفى رسومه حقها ، لذلك كان يرتنها عند أصحابها ، الذين يقرضونه عنها ما شاء عن طيب خاطر . وكان معاريا ذائع الصيت ، عظيم البلاغة في أحاديثه . أما تلاميذه فقلائل ، لأن أحدا لم يشأ أن يأخذ بأسلوبه المسرف المتقلب الذي لا يصلح إلا له » (١١) .

وحوالى عام ١٥٨٠ أرسل فليب الثاني في طلب الجريكو ووكل إليه رسم لوحة « القديس مورييس والفيلق الطيبي » وبعد جهد سنوات أربع قدم الفنان ثمرة تعبهِ للملك . غير أن فليب وجد تجميع الأشخاص شديد الاختلاط ، فدفع ثمن اللوحة ولكنه لم يقبلها ، وعاد الجريكو محزوناً إلى طليطلة ، ولم يبرحها بعد ذلك قط فيما نعلم . وكان ذلك خيرا له ، لأنه أصبح حرا في أن يعود إلى طبيعته الصوفية .

ثم رسم لكنيسة القديس توما (١٥٨٦) أشهر صوره اطلاقا ، وكأنه كان بذلك يثار لنفسه ، وهى إحدى ذرى فن التصوير . وقد اشترط العقد أن يبدى فيها الكهنة يحون تقليدا يزعم أن القديسين هبطوا من السماء ليدفنوا الدوق جونزالو رويرز ، كونت أورجاز ، وأن يمثل القديسان اسطفانوس وأوغسطين (فى أثواب الأساقفة) وهما ينزلان الجثمان إلى قبره وسط جمع جليل من وجوه القوم ، وفوق هذه الوجوه تبدى السماء المفتوحة ابن الله فى مجده وبهائه . كل هذا فعله بخدافيه وأكثر منه ، فكل رأس تقريبا لوحة كاملة الصقل . والأرواب معجزة من الذهب والخضرة والبياض ، والدرع الدمشقى الحلية الذى يلبسه الكونت يتلأأ ضياء ، زد على ذلك أن الجريكو نفسه يرى من خلف القديس اسطفانوس . أما آية هذه الآية فرأس القديس أوغسطين بقلنسوته ولحيته ، أم لعانا نوثر عليه الجثمان الجميل ؟ أم وجه القديس اسطفانوس الحلو ؟ أم السكاهن الأصابع يتلو صلاة الدفن ؟ أم خورجى مانويل ، بن الجربكو ذا الثمانية الأعموم ممسكا فى فخر مشعلا ومبرزا من جيبه منديلا ليظهر توقيع الجريكو؟ وفى كتاب فرانسسكو دى بيرزا « تاريخ طليطلة » (١٦١٢) نقرأ ما كان ينبغى أن نحزره : « إن لوحة (دفن الكونت أورجرز) هذه من أبدع الصور فى أسبانيا بأسرها . والناس يؤمنونها من كل بلد غريب ليعجبوا بها إعجابا خاصا ، وأهل طليطلة لا يملونها ، بل يجدون فيها على الدوام جديدا يتطلعون إليه . وفيها يرى الكثير من مشاهير الرجال فى عصرنا مصورين تصويرا واقعيًا (١٢) . » ومع ذلك كله راح مجلس الأبرشية يساوم على أتعابها ، فرفع اليونانى الحامى الطبع الأمر إلى القضاء ، وكسب دعواه ، وتسلم ألفى كراون .

إنه الآن لا يشكو قلة الطلب على رسومه ، فلقد وجد نفسه ، ولم يعد يفكر فى تسيانو ولا فى تنتوريتو ، وقد استطاع أن يجرى تجاربه فى إطالة الأشكال ، لا لأنه يعانى من أى قصور فى البصر ، بل لأنه

فى أغلب الظن شعر بأنه بهذه الطريقة قد يرمز إلى التسامى الروحى لأشكاله — أجسام تمددها نفوس تشرّب إلى السماء . وفى لوحى القديس أندراوس والقديس فرانسيس المحفوظتين بالبرادو يبدو هذا النحول غير مفهوم ما لم نأخذ هذه الرمزية فى الاعتبار ، ونذكر التماثيل القوطية التى ترقق مراعاة للقيود المعمارية . على أن هذا كله يغتفر للفنان حين نصل إلى لوحته «القديس الديفونسو» التى رسمها لمستشفى الكاريداد بلاليسكاس ، فهنا ، فى الروح الوقور الذى خلعه على رئيس الأساقفة الوسيط ، وفى عقله المستغرق ، ووجهه المتكشف ، وشعره الأبيض الناحل ، ويديه الرقيقتين — هنا تصور من أعمق تصورات الحريكو . « هذه الصورة وحدها تكفى جزاء وعوضا عن الرحلة إلى أسبانيا » (١٣) .

ولا يدلنا القليل الذى نعلمه عن حياة الحريكو على أنه كان متدينا على الطريقة الأسبانية ، ويبدو أنه كان يميل إلى اللذة لا إلى الورع . فحين رسم لوحة « العائلة المقدسة » لمستشفى تافيرا خلع على العذراء جمال الجسد لا وفاء الأم . أما لوحة « الصلب » ففيها علم واسع بالتشريح ، ولكنها باردة فى العاطفة ، وقد أحس جرونيغالد بمأساة الصلب تلك احساسا أعمق بكثير . ففى صورته الدينية لا يتجلى الحريكو إلا فى اللوحات العارضة — كما نرى فى صورته هو بلحيته البيضاء ورأسه الأصلع فى «يوم الخمسين» . ولم يجد مشقة ، فى بلديعج برجال الدين ، فى العثور على شخصيات قوية يصورها ، كصديقه بارافيتينو الشالوثى (بوسطن) بوجهه نصف العالم ونصف عضو محكمة التفتيش ، أو رئيس المحكمة نفسه، الكردينال نينودى جيفارا (نيويورك) — وصورته لا ترقى إلى صورة فيلاسكوز التى رسمها لانوسنت العاشر . وقد تجاوزها الحريكو ذاته فى لوحة «كردينال تافيرا» الذى نرى فى وجهه المضى — وكله أعظام وعيون حزينة — تعبيرا آخر عن تصور الفنان لتكريس الكاهن نفسه لخدمة الدين . ولكن خير اللوحات كلها لوحات الأخوين كوفاروبيا : فواحد — هوانطونيو — علمانى ،

أشيب ، متحرر من الوهم ، مرهق ، صفوح ، والآخـر - ديجو -
فى ثوب الكاهن ، ولكنه يبدو أشد اقبالا على الدنيا ، وأكثر مرحا ،
وحسن التكيف مع محيطه . ولا يفوق هذه الدراسات العميقة سوى بعض
لوحات رمبرانت وتسيانو ، ولوحة رفائيل « يوليوس الثانى » .

وهى بعض الذخائر التى يضمها متحف كازا ديلحريكو فى طليطلة .
وفيه أيضا « تصميم مدينة طليطلة » ، وهو يشرف هنا على المدينة
كلها وعلى التلال التى تكتنفها وكأنه يطل عليها من سحابة .
وقد صورها مرة أخرى فى أخريات عمره فى لوحة « منظر
طليطلة » ومن فوقها سماء عاصفة (نيويورك) - صورة تأثرية
تزدري الدقة الواقعية كل الازدراء . وحين أقبل عام ١٦٠٠ ، كان «اليونانى»
قد أصبح من أشهر مواطنى المدينة ، يعرفه الجميع بروحه المتقلبة المتكبرة ،
صوفيا باستطيب المال ، يشغل أربعاً وعشرين حجرة فى قصر عتيق ،
يستأجر الموسيقيين ليعزفوا له خلال تناوله الطعام ، ويجمع من حوله مثقفى
طليطلة ، ويكرمه الناس برصفه « فيلسوفا كبيرا » .^(١٢) وحوالى عام ١٦٠٥
رسم صورة يفترض أنها صورته الذاتية (نيويورك) - أصلع ، أشيب ؛
يكاد يكون أعرج . وفى عام ١٦١١ وجده باتشيكو فى حال من الهزال
أعجزته عن المشى . ولم يستطيع دفع ديونه وإن احتفظ بغرفة الأربع
والعشرين ، وقرر له مجلس المدينة مبالغ كبيرة غير مرة . ومات عام ١٦١٤ ،
وهو فى الثالثة والسبعين .

أما مقامه فى دنيا الفن فغامرة تالية لموته . كتب عنه جونجورا سونبته مديح ،
وأقر فيلاسكويـز بعقريته ، ولكن فنه الغريب لم يوح بأى محاكاة له ولم
يؤسس أى مدرسة . ولم تأت سنة ١٦٥٠ حتى تاه أمام بهاء شهرة فيلاسكويـز ،
وطواه النسيان تقريبامدى قرنين ، ثم اكتشفه دلا كروا من جديد ، واحتذى ديجا
ومانيه وسيزان طريقتـه فى التعبير عن الحالات النفسية ، ورأى فان جوخ وجوجان .
فيه سلفا لهما : وفى عام ١٩٠٧ رفعت «الرحلة الأسبانية» التى كتبها « يوليوس .

مايبر جريقي « الجريكو فوق فيلاسكويز إلى أعلى ذرى التصوير الأسباني . على أن هذه الذبذبات في الشهرة قلقة لاثبات لها لأنها عرضة لـ « تقلبات الذوق الحامحة » (١٥) . ولكن الجريكو سيظل قرونا طوالا المثال الحافظ للفنان الذي جاوز الأشياء إلى الأفكار والمشاعر ؛ وجاوز الأجساد إلى الأرواح .

٢ - ثورباران : ١٥٩٨ - ١٦٦٤

وبعد الجريكو ظل فن التصوير الأسباني جيلا لا يتحرك ولا يظهر فيه غير رجال أقل كفاية بذلوا ما وسعهم من جهد ثم اختفوا . وإذا فنانان يظهران في آن واحد تقريبا ، هما فرانسيسكو دي ثورباران وديجو فيلاسكويز ، ويفيضان فهما العظيم على أسبانيا . وقد ظلّا ثلاثين عاما يكمل الواحد منهما صاحبه . فثورباران يرسم كأنه راهب يدفعه الخوف إلى العبادة ، ويقترب بصلاته من الله ، وفيلاسكويز يلقي النجاح في الدنيا ويلصق بملكه .

أما ثورباران فقد عمد في فوينتي دي كانتوس ، بجنوبي أسبانيا الغربية ، في ٧ نوفمبر ١٥٩٨ ، ابنا لصاحب حانوت أتيح له من النجاح ما مكنه من إرسال ولده اينمي موهبته في اشييلية . وبعد عامين من الدرس وقع أول صورته المؤرخة (١٦١٦) ، وهي صورة للحمل غير المدنس . كان خليقا بها أن تقضى على مستقبله . وبعد سنة انتقل إلى ليرما ، على خمسة عشر ميلا من مسقط رأسه . وكانت المنطقة آهلة بالأديرة والكنائس والصوامع ، ومنها تلقى فرانسيسكو مهامه المتواضعة وإلهاماته . وهناك تزوج ماريا بيريز ، وكانت تكبره بتسع سنين ، لكي يضيف الشرعية على ولده منها ، وقد مات بعد أن أنجبت له طفلين آخرين . وفي عام ١٦٢٥ تزوج أرملة تكبره بعشر سنين ، ولكن لها صداقا مغريا ، فولدت له ستة ، مات خمسة منهم في طفولتهم . وبعد موتها تزوج بأرملة غنية ، فأنجبت له ستة ، مات منهم خمسة في طفولتهم . وهكذا جاهد الحب لكي يتقدم الموت بخطوة .

أما في الفن فقد بدأت فترته الخلاقة بعقد كلف فيه بأن يرسم في ستة أشهر إحدى وعشرين صورة لدير دومنيكي بأشبيلية يدعى سان بابلو الريال (١٦٢٦) . وبعد أن أنجز ثورباران هذه المهمة زار مدريد فيما يبدو ، وأحس بتأثير فيلاسكوير . وكانت صورته حتى ذلك الحين تعكس أسلوب كارافادجو القاتم الضخم ، وربما أسلوب ريرا أيضا ، فأضاف الآن إلى طبيعته الخشنة نعومة جديدة في الظلال ورهافة في الصقل ، وبعد قليل نلقاه في إشبيلية يرسم اثنتين وعشرين لوحة قماشية هائلة للرهبان « المرسيداريين » — (أى رهبان سيدتنا الرحيمة) خصصت لافتداء المسيحيين الأسرى . والصور الأربعة الباقية من هذه المجموعة ليست من الروائع ، ولكن في واحدة منها وجها صبيانيا تعيه الذاكرة لعله وجه خوان ابن الفنان : ولا بد أن إشبيلية أحبت هذه الصور ، لأنها طلبت إلى فرانسيسكو رسميا عام ١٦٢٩ أن يجعل فيها مقامه — « إن إشبيلية تشرف ... لأن التصوير من أهم ما تزدان به الدولة (١٦) » . وقبل ثورباران العرض :

يوغى عام ١٩٣٠ رسم لكنيسة سان بونافتورا الفرنسيكانية طائفة من أروع صوره . ومنها صورة « القديس بونافتورا يشير للقديس توما الأكوييني على الصليب » ، ترى فيها اللاهوتي العظيم — ممثلا على هيئة راهب دومنيكي لسوء الحظ — ينبه القديس في رفق إلى أن الدين ليس توامه النظرية الفلسفية بل تأمل المسيح . وهذه الصورة — وهى الموضوع الذى يتردد في ثورباران — سرقها المارشال صولت من أسبانيا (١٨١٠) ووجدت طريقها إلى متحف القيصر فردريك في برلين ، ثم أتت عليها الحرب العالمية الثانية . وصورة أخرى فى هذه المجموعة ، « القديس بونافتورا على نعشه » ، أخذها صولت أيضا ، بيعت للوفر عام ١٨٥٨ وما زالت هناك ؛ والوجوه الأربعة التى إلى يسارها رائعة . وأروع من هذه « تمجيد القديس توما الأكوييني » التى رسمها ثورباران لكلية دومنيكية بأشبيلية ؛ والفكر ينتقل فى دهشة من وجه عميق إلى وجه آخر —

أمبروز ، وجريجورى ، وجيروم ، وأوغسطين ، وشارل الخامس .
ولكن خيرونيمو فيلاسكويز كان ينقد على الإطار وحده ستة أمثال
ما ينقده ثورباران على الصورة .

وحين انتقل المصور المشغول إلى كنيسة القديس البرتوالكرملية ، رسم القديس
فرانسيس مستغرقا فى صلاته بخشوع ، والقديس بطرس توما ، راهبا
كثير التجاعيد أضناه طول انتظار الفردوس . ولما عاد إلى دير المرسيدارين
(١٦٣١) صور بعضا من أجل رهبانه ، ومن هذه الصور صورة « فراى
بيدروما تشادو » وتكاثر عليه الطلب خلال سنة ١٦٣٣ : اثنا عشر رسولا
لكنيسة فى لشبونه ، وثلاث صور للكارثوسيين بأشبيلية ، وعشر لمصلى
القديس بطرس فى الكاتدرائية الكبرى ، واحداها - القديس بطرس
نادماً - الموجودة إلى اليوم فى مكانها الأسمى ، تجربة مدهشة فى الواقعية ؛
ربما رسمها وهو يذكر ريبيرا .

وتعاضد الطلب على ثورباران الآن حتى وكل معاونيه بالكثير من
أعماله . رسم لدير جوادالوبي فى استريمادورا صورة « إغراء القديس
جيروم » ، ورأس القديس ويده فى هذه الصورة من أعاجيب التقنية ،
أما السيدات الرقيقات عازفات الموسيقى فليس من الانصاف أن يقاوم
إغراؤهن . وطلبت صور الفنان حتى من بيرو وجواتيمالا ، وذهبت سلسلة
من صور الرسل إلى ليا ، وأخرى إلى أنتيجوا ، وأرسلت إلى المكسيك
لوحة « المسيح فى عمواس » ، التى تصور المسيح المقام فلاحا سليم الجسم
سعيد النفس يتناول طعامه . وبعض هذه اللوحات القماشية أدى فى عجلة
أو قام به معاونوه ، وقد اضطر ثورباران لمقاضاة ليا حتى يحصل
على أتعابه .

ومنذ عام ١٦٤٥ بدأ الفنان الشاب موريللو يتحدى مكانته الرفيعة فى
أشبيلية ، فزود الكنائس والأديار بصور تمثل قصة المسيحية بلغ من مرقها
أنها هوت بالطلب على واقعية ثورباران المقلقة : وحاول المصور المكمل

أن يلفظ من مرعباته ، وكافح حيناً ليبارى موريللو في عاطفته العائلية الورعة ، كما نرى في لوحته « العذراء والطفل مع القديس يوحنا » (المحفوظة بسان دييجو في كاليفورنيا) ، ولكن هذا الأسلوب الجديد كان غريباً على فنه ومزاجه . وعلى ذلك شد رحاله إلى مدريد عسى أن يستقيم له الأمر ، ولكن فليب الرابع ، المفلس ، لم يجد ما يكلفه به خيراً من زخرفة كوخ صيده . وكان فيلاسكويز كريماً معه ، ولكنه مات فجأة . وعمر ثورباران بعد موت صديقه وزوال شهرته .

ولم يكد صيته يجاوز جبال البرانس ، حتى استلطف قواد نابليون صور رهبانه الضخام وقديسيه العاشرين فخطفوا بعضها وأتوا بها إلى فرنسا . ولما أتت الأديرة الأسبانية للدولة عام ١٦٣٥ جلب المزيد من صورهِ إلى باريس ، وفي عام ١٨٣٨ افتتح الملك لوي فيليب في متحف اللوفر قاعة أسبانية تضم أربعائة لوحة نسبت لثمانون منهُ لثورباران . والنوق الفني في أيامنا هذه يجد رقعة شديدة الضيق مغرقة في الديرية ، ويجد روحه منالية في الكتابة والتفكير . ونحن نفتقد فيه صعاليك موريللو وفلاسفة فيلاسكويز وأميراته الحميلات . ومع ذلك ففي فنه اخلاص مكين ، وتفان عميق ، وقوة في اللون والشكل ترفعه فوق دنيا الميول العابرة وتكفل له مكانه في ذاكرة البشر .

٤ - فيلاسكويز : ١٥٩٩ - ١٦٦٠

كان جده لأبيه نبيلاً برتغاليا رحل عن أوبورتو إلى اشبيلية بعد أن فقد كل ثروته . وولد الفنان لخوان دى سيلفا والدونا خيرونيا فيلاسكويز ، في السنة التي ولد فيها فان ديك ، وبعد مولد ثورباران وبرنيني بعام ، وقبل مولد موريللو بثمانية عشر عاماً . وسمى ديجورودريجز دى سيلفا إلى فيلاسكويز ، وقد ألف أن يسمى نفسه باسم أمه ، وهي عادة شائعة في جنوبي أسبانيا . وحظى بتعليم جيد ، وتعلم شيئاً من اللاتينية والفلسفة ، وجرب دراسة العلوم حيناً . ثم اتجه إلى التصوير ، فدرس فترة وجيزة .

على خوان دى هيريرا وفترة أطول على باتشيكو . يقول باتشيكو « زوجته لابنتى بعد أن أغرائى شبابه ونزاهته وخصاله الحميدة وما يرجى لنبوغه الطبيعى العظيم من مستقبل مرموق (١٧) » .

وأقام فيلاسكويز مرسمه الخاص ، وسرعان مالفت النظر بإيثاره للمواضيع الدنيوية . وقد اختلط بالدهماء ، وكان يغتبط بنقل أفكارهم وترجمة حياتهم إلى وجوههم . ورسم وهو بعد فتى فى العشرين لوحة رائعة سماها « سقاء إشبيلية (١٨) » . هنا ، فى ثوب رث وفى صبر جميل ، صورة للفقر مع الأمانة . وفى عامه الثالث والعشرين صور الشاعر جونجورا (بوسطن) ببصيرة اكتمل نضجها - فالعينان والأنف نافذة إلى صميم الحياة .

وأكبر الظن أن هذا العمل قام به فيلاسكويز خلال زورته الأولى لمدريد (١٦٣٢) . لقد كانت اشبيلية وكهانها أضيق من أن يتسعا لبوغه ، وساقته فورة من الطموح إلى العاصمة فانطلق إليها يتأبط « سقاء » . هناك حاول التقرب من البلاط ولكنه لم يفلح . ذلك أن فليب الرابع وأوليفاريس كانا مشغولين بالسياسة والزيجات والحروب ، وكان هناك أكثر من عشرة فنانيين يتسلقون نفس السلم . وقفل ديبجو إلى إشبيلية . وانقضى عام ، ثم وفد الأمير تشارلز ستيوارت على مدريد ، وتودد إلى إحدى بنات الملك ، وأبدى تذوقا للفن ، فأرسل أوليفاريس فى طلب فيلاسكويز . وركب الفتى الأسود العينين والشعر إلى العاصمة مرة أخرى ، فعين مصورا للبلاط ، واستهوى الملك إذ صوره خيالا بأسلايمتطى فرسا يطفرف ، ولم يقنع فليب بالجلوس أمام فيلاسكويز ليصوره مرارا وتكرارا ، ولكنه شجع الأسرة المالكة (الاخوة والزوجات والأطفال) ورجال البلاط (الوزراء والقواد والشعراء والمضحكين والأقزام) أن يجلس كل بدوره أمام هذه الريشة المخددة . وأعطى ديبجو مرسما فى القصر الملكى ، وفيه ، أو على مقربة منه ، أنفق أكثر السنين السبعة والثلاثين الباقية من عمره . لقد كانت فرصة رائعة ، وكانت سجننا مضيقا للأفق .

على أن مؤثرين كبيرين وسعا من أفقه . ذلك روبنز ، أشهر الفنانين في العالم يومئذ ، زار مدريد مرة أخرى عام ١٦٢٨ - وكان لإمام الضوء والظل ، والمصور المستهتر للأرباب الوثنية والأجساد العارية الشهوانية . وتأثر فيلاسكوبز بفن روبنز ، ونصح به هذا بأن يذهب إلى إيطاليا ، وإلى البندقية خاصة ، ويدرس أعمال نوابغ التلوين . والتمس ديبجو الاذن من فليب ، فمنحه أجازة وأربعمئة دوكاتية ثمينة لنفقات الرحلة . وقد نخط بمثال من سرعة الانتقال بالبحر في ذلك العصر إذا عرفنا أن فيلاسكوبز غادر برشلونة في ١٠ أغسطس ١٦٢٩ ، ووصل جنوة في ٢٠ أغسطس . ثم عبر إيطاليا إلى البندقية وجلس أياما يتأمل اللوحات القماشية العظيمة التي رسمها تينتوريتو وفيرونيزي ، وصور الأشخاص والأساطير التي رسمها تيسيانو . ثم انتقل إلى فيرارا وروما ، ونسخ صور التماثيل الرخامية القديمة في ساحة روما العامة ، وحسد ميكلانجلو على رسمه الصور الحصية على سقف كنيسة السيستين الصغيرة . وقد أعانت هذه الصور الفخمة فيلاسكوبز على الانتقال من ظلال كارفادجو القائمة إلى تصوير أكثر حدة للأشكال في الضوء الواضح . ثم رحل إلى نابلي ليزور ريبيرا ، ومنها قفل را بها إلى أسبانيا (يناير ١٦٣١) .

ترى أهو الغرور - ذلك الظل المساند لكل نفس - الذي دفع فليب ليجلس المرة بعد المرة إلى فنان أوقى مثل هذه النظرة الثاقبة والصدق المدقق ، أم كان الدافع له أن يهدى صورته لمن يطلبونها من أصحابه ؟ ولكنه تحول مؤسف ذلك الذي نلحظه على هيئته ، فصورة الشاب الفارع الطول الرشيق القوام الذي يبدو في اللوحات الأولى تستحيل في النهاية إلى صور رجل غاض اللون من وجهه وصنغ به شعره ، وأوتقراطية قائمة تنشب بالبقاء - على الرغم من الزمن والهزائم - في العيون الزرقاء الباردة والذقن الهابسبورجي الملتف . وإذا كانت السطحية عيب هذه الصور الملكية ، فلعل السبب أنه لم يكن هناك شيء تحت السطح الظاهر . فإذا

كان هناك شيء ما ، كما في صور جونجورا وأوليفاريس ، فإنه ينبعث على القماش .

وتخللت صور الملك صور للملكة ايزابيلا ، ثم للملكة ماريانا ، ثم للملكة ماريالجرية أخت فليب ، وكلهن جلسن إلى المصور دون أن تحققن صورهن نتائج باهرة . واتخذ أخو فليب الأصغر ، الكردينال الأمير فرديناند ، زى الصيد يرافقه كلب كاه عضلات وأعصاب ووفاء يقظ أما أوليفاريس فقد امتطى فرسا أدهم ليصور صورته المحفوظة بالبر دو ، وجوادا أبيض بنفس الوصع بصورته المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفن في نيويورك . غير تارك مجالا للشك في هوية من يملك الزمام في أسبانيا . وألطف صور الحاشية هذه صور الدون باتازار كارلوس الصغير ، الذى كان مناط آمال الأسرة المالكة . وقد رسم فيلاسكويين هذا الطفل الحميل المرة بعد المرة في اغتباط واضح ، مرة في ١٦٣١ ومعه قرزم تابع (١٩) ، ومرة في ١٦٣٢ بعد أن أصبح فتنة البلاط (٢٠) ، ومرة في ١٦٣٤ وهو باوح بعصا المرشالية ، ممتطيا في كيرباء جوادا ضخما (وهو بعد في الخامسة) ، ثم صيادا يمسك بندقيته بعناية ، ولكن واضح أنه أرق من أن يقتل أو يحكم ؛ وفي هذا الوجه البرىء خبر رد على أولئك الذين رأوا أن فيلاسكويين لم يرسم غير السطوح . وهكذا جاءت صور السلسلة تترى ، من سنة كارلوس الثانية إلى سنته السادسة عشرة ، حين أصابت الحمى الأمير المحبوب وقضت عليه .

أما القرزم الذى يرى في إحدى هذه الصور فكان من عدة أقزام أعطوا الفاشلين في بلاط فليب شعورا معزيا بالتفوق والعظمة . كانت عادة منحدره من روما الإمبراطورية ومن الشرق الأقدم منها . وحتى البلاط البابوى كان فيه أقزام ؛ وقد جمع الكردينال فيتيللى منهم أربعة وأربعين ليخدموا ضيوفه . وأهدى دوق بكنجهام الملكة هنريتا ماريال فطيرة احتوت قرما طوله ثمانى عشرة بوصة (٢١) . وكان أقزام فليب الرابع يلبسون الثياب

الفاخرة التي تتألق بالجوهر والذهب ارضاء لهم وتسلية للناس . أما فيلاسكويز فقد صورهم بروح العطف والمرح ؛ فواحد منهم ، اسمه انطونيو الانجليزى ، يبدى فى كيرياء طولہ عن كلبه وإن كان دونه جمالا ؛ وآخر اسمه سباستيان دى مورا يعبس فى لحيته الضخمة ويزم قبضتيه سخطا على قدره . كذلك كان فى البلاط مهرجون ، رسم فيلاسكويز منهم خمسة ، واحدا منهم ، صورته تسمى « الجغرافى (٢٢) » لأنه يشير إلى الكرة الأرضية ، يبدو أكثر تفكيرا من أوليفاريس ، وثانيا يسمى بارياروسا يستل سيفارهييا ؛ وثالثا ارتدى زى دون جوان النموسى ، ورابعا يحاول حمل كتاب ضخيم ، وخامسا تسمى صورته « الأبله » يبدو عايه جنون لا يؤذى ، بل يكاد يكون لطيفا .

وجد فيلاسكويز تفريحا من البروتوكول - برغم كونه دائما رجل بلاط وجتلمانا لا تخطئه العين - فى دراسة حياة العامة الأجلاء الذين لا يزالون زينة المشهد الأسباني . ففي بواكير اشتغاله بالتصوير (١٦٢٩) اقنع شابين جميلين وستة من الفلاحين بأن يجلسوا إلى صورة « السكارى » ، وفيها ياخوس عار تقريبا ، جالس فوق برميل ، يتوج بالكروم شخصا راكعا ، بينما تجمع حولهما عشاق للكرمة أجلاف ، أضنى بعضهم الكد ، وأشباب بعضهم الزمن ؛ ولعل هذه هى الحمزية الحالدة الوحيدة فى الفن الأسباني خلال القرن الذهبى . وأعجب حتى من هؤلاء السكارى لوحتان سمي فيلاسكويز الأولى « ايروب » ، وهى صورة مؤلف حزين عجوز ، مملق نصف أعمى ، يحمل قصصه الخرافية عبر السنين ، والثانية « منيوس » وهى صورة فيلسوف كلبي من فلاسفة القرن الثالث ق . م . ، هذان وجهان يعلقان بالذاكرة . ولا يقل عن هذا كله ما تركه لنا فيلاسكويز من صور الحيوان ؛ جياد تبدو لنا اليوم ثقيلة الحركة لضخامتها ، ولسكن يعوض عن عيبها رعوس تحتال وعيون تلمع ، ورأس غزال عليه سياء الفلسفة ، وقد استسلم لوحشية البشر ، وكلاب متحفزة للجرى والوئب ، أو يقظانة نائمة .

تلك كانت الأعمال الخائبة التي تسلت بها ريشة فيلاسكوير ، ربحاً تخففاً من مخاطر تصويره لكبار الحاشية دون أن ينال منهم المدح والثناء . وقديريد تقديرنا لأسبان القرن السابع عشر حين نرى هؤلاء النبلاء يرتدون الأثواب المتواضعة ، ومع ذلك يواجهون بأيمان فخور عالماً بدا فيه وطنهم الحبيب عاجزاً مشلول الحركة لما أصابه من انحلال . فالدون ديبجو دبل كورال أى أريلالانو ، والكردينال جاسبار دى يورخا أى فيلاسكو (٢٣) ، والنحات القوى البدن مونتانيس ، وفارس سنة اجو الشامخ (٢٤) ، وفرانسيسكو دسنى الثنائى ، الحلو الحلي ، والدون خوان فرنسيسكو ييمنتال الفخم المهيّب - تلك صور تنفذ إلى صميم النفس . وإذا كانت « صورة رجل » المحفوظة في قاعة كابيتولنى بروما هي حقيقة صورة فيلاسكوير نفسه ، كان مستحيلاً على الناظر إلا أن يحبه - بشعره المجدع في إهمال ، وثوبه المتواضع ، وعينه الرقيقتين المفكرتين .

ويعجب المرء كيف زحم رجال الحاشية في صور فيلاسكوير الكنيسة والموضوعات الدينية المقدسة ليحلوا محلها . لم يكن في استطاعته أن ينافس الجريكو أو ثورباران في رسم شيوخ الرسل والقديسين بتجاعيدهم الكثيرة ، ولم تنبعث قدراته كلها إلا في صورة « تتويج العذراء » دون سائر صوره الدينية . فلقد كان اغتباطه أعظم بالمناظر الدنيوية . وفي صورته « لاس لاثاس » ، والمشهورة باسم « استسلام بريدا » بسط نفسه على اللوحة بسخاء ، فجعلها من أوسع اللوحات في تاريخ الفن (١٢٠ بوصة × ١٤٤) ، ولكنها أيضاً من أغناها تفاصيل . وبيان ذلك أن أمبروزيو دى سبينولا كان قد استرد لأسبانيا خلال الحرب الطويلة التي خاضتها ضد ثوار الأراضى المنخفضة مدينة بريدالاستراتيجية في برابانت الشمالية . والتقى فيلاسكوير بسبينولا عام ١٦٢٩ أثناء رحلته عائداً من إيطاليا ، ووقع من نفسه موقعا جميلاً ذلك النبيل الفروسي الذي اتسم به القائد الكبير ، فسجل هذا كله في رائعة بدا فيها الرماحون الأسبان المنتصرون يرفعون حراهم عالياً ، والمدينة

تحترق ، والقائد المهزوم المستسلم جوستين الناسوى يقدم مفاتيح [المدينة
إلا سبينولا ، والفاتح الشهم يهنيء الرجل المغلوب على بسالة دفاعه : ولقد
حقق فيلاسكوير في مفارقات اللون العجيبة وفي تمييز كل فرد من الأتباع ،
نصراً أسعد فليب الرابع أن يعرضه في قصر بوين ريتيرو .

وفي عام ١٦٤٩ دفع فليب نفقات زيارة فيلاسكوير الثانية لإيطاليا
مكافأة له على جهد ستة وعشرين عاماً ، وكلف الفنان بالحصول على
مصبوبات من التماثيل الكلاسيكية وبشراء لوحات بريشة أئمة الفن الإيطاليين .
ووجد فيلاسكوير أن الأسعار قد شطت ، وكاد يستحيل شراء أى أثر كبير
للفنانين البنادقة العظام بأى ثمن ، واضطر أن يدفع ٠٠٠ ر ١٢ كراون
(٠٠٠ ر ١٥٠ دولار ؟) ثمناً لخمس صور . فهل كان أصحاب
الملايين وغيرهم قد أخذوا يستغلون الفن وقاء من التضخم المالى ؟

أما خير صورة رسمت فى إيطاليا فى ذلك العام (١٦٥٠) فصورة
فيلاسكوير لانسنت العاشر . وحين ارتضى البابا أن يجلس إلى الفنان ليصوره ،
وشعر هذا بقصور فى التمرين ، نشط يده وعينه برسم صورة لعبده الخلاسى ،
خوان دى باريخا (*) . (٢٦) ولقيت الصورة الاستحسان العام من فنانى
روما ، الذين بادروا بانتخاب فيلاسكوير عضواً فى أكاديمية القديس
لوقا . ولم يتح له البابا غير بضع جلسات ، وقام فيلاسكوير بدراسات
مبدئية للرأس ، وتكاد واحدة منها — محفوظة بالقاءة الأهلية بواشنطن —
لا تفرق العين بينهما وبين اللوحة النهائية التى توارثتها أسرة دوريا التى انتمى

(*) بعد أن أنفق باريخا سنوات فى تحضير فرش فيلاسكوير وألوانه ولوحاته ،
وملاحظة عقله وعمله ، راح يستعمل هذه المواد بنفسه سراً ، وأخيراً أجاد التصوير
إجادة سمات فليب الرابع على عتقه بمسدأت حسب إحدى لوحات باريخا من عمل
فيلاسكوير . ومع ذلك بقى خوات تلميذاً وخادماً فى أسرة المصدر حتى مات (٢٧) .

إليها البابا ؛ وقد احتفظ بها في قصر دوريا بامفيلي ، حيث حكم رينولدز حين رآها بأنها « أبدع صورة في روما » (٢٨) ؛ وحين يتطلع المرء إليها اليوم يشعر بأن فيها قوة ، سواء في الشخصية أو في الفن ، تضعها مع لوحة « يوليوس الثالث » لتيسيانو ، في مضاف أروع الصور في جميع العصور ؛ وكان انوسنت العاشر في السادسة والسبعين حين جلس إلى صورته تلك ، وقد مات بعدها بخمس سنين . وقد يخطئه الناظر فيحسبه أحد كبار قطاع الطرق الذين كدروا صنو كثير من البابوات ، لولا ثوب البابوية وخاتمها ، ولكننا حين ندرس تلك الملامح القاسية الحازمة ندرك أن انوسنت كان ما يجب أن يكون - حاكما يحكم دولة من الإيطاليين المتمردين ، وجبر يقود كنيسة من المسيحيين غير المتخلفين بخلق المسيحية ، المنتشرين من روما إلى القبلين ، ومن روما إلى براجواي ، ولقد كان عليه أن يضع حديدا في دمه ؛ وفولاذ في عينيه ، وجبروتا في طلعته ، وقد رآها كلها فيلاسكوز ثم سجلها على لوحته . وحين رأى البابا الصورة علق عليها تعليقا ساخرا واحدا : « إنها صادقة جدا ! » (٢٩) واعترف فناوروما بتكوينها المتناسك ، والانسجام العجيب بين ألوانها الحمراء والبيضاء والذهبية ، والنظرة الشكاكة الفاحصة الجانبية تنبعث من عينين رماديتين زرقاوين ، وحتى اليدين المنبثتين بقوة الشخصية ؛ وحين رحل فيلاسكوز عن إيطاليا (يونيو ١٦٥١) ، لم يعد طالبا يلمس أئمة الفن القداسي ، بل إمام فن العصر غير منازع ؛ ذلك أن روينز كان قد طواه الموت ، وما كان لأحد أن يحلم بأن هولنديا مغمورا ، أثقلت كاهله الديون وأزعم على الاعتكاف بعد قليل في مغارة بامستردام ، سيبعث من قبره يعد قرون لينازعه تلك السيادة .

فلما عاد فيلاسكوز إلى مدريد اقترف ألدح خطأ في حياته ، ذلك أنه التمس ونال وظيفة « مدير للقصر الملكي » ، ولعله سئم التصوير ، أو لعله أحس أنه بلغ غاية إمكاناته في ذلك الميدان ؛ ولم تكن الوظيفة تشريفا ، فقد تطلبت منه الاشراف الشخصي على القصر ، على أثاثه

وزينته ، وعلى تدفنته وصيانتة الصحية ، يضاف إلى هذا ترتيب ما يقام في القصر من مسرحيات ومراقص ومباريات ، وتوفير الإقامة للحاشية خلال أسفار الملك . وكان عليه أن يرافق الملك في جميع رحلاته الكبيرة ، سواء للهو أو السياسة أو الحرب . وهناك شيء أسخف من هذا لرجل صور انوسنت العاشر ؟ أن زهو المنصب عند فيلاسكويز طغى على شعوره بالعقرية .

ولم يهب التصوير في السنوات التسع الباقية له من الأجل غير الوقت الذي اقتطعه من مهامه الرسمية الثقيلة . فاستأنف تصوير الأسرة المالكة ، وكبار رجال البلاط ، والملك نفسه . ورسم ثلاث صور جميلة للأميرة مارجاريتا ، وصورها مرة أخرى مركزاً لاحدى روائعه المسماة «وصيفات الشرف» ، فالخادومات والقزم والكلب من حول الأميرة ، ومن خلفهم فيلاسكويز ذاته برسمهم على لوحته . ثم صورها مرة أخرى في تورتها الزرقاء الواسعة التي جعلت ساقها بعد ذلك سرا مقدسا يكتنفه الغموض^(٣) ، وقبل موته رسمها معجزة من البراءة في ثوب مخرم ، وفي عام ١٦٥٧ زاع من البلاط ليرسم «نسايجي القماش المرسوم» - وجوها رائعة اقتنصها بين ضجيج العمل ووقاره . وفي السنة ذاتها تحدى محكمة التفتيش ، وصدم احتشام أسبانيا ، وأبهجها برسمه ظهر «فينوس روكبي» وأردافها الجميلة ، وقد أطلق اسم روكبي على الصورة لطول ما مكثت في بيت أسرة إنجليزية اشتراها بمبلغ ٥٠٠ جنيه ثم باعها لقاعة الفن الأهلية بلندن بمبلغ ٤٥,٠٠٠ جنيه . وقد شقت احدى المطالبات بمنح المرأة حق الاقتراع ذلك الظهر الوردى بالسلاح في ستة مواضع حين أحفظها هذا الفضح لأسرار المهنة ، ولكنه أصلح ثانية اصلاحا بديعا .

في لوحة «وصيفات الشرف» نرى فيلاسكويز كما رأى نفسه في سذبه الأخيرة - شعرا غزيرا ، وشاربا فخورا وعينين فيهما أثر من الاكثاب . أما الفم فيبدو شهوانيا ، ومع ذلك لا نسمع في سجله شيئا من تلك

الانحرافات الجنسية والصراعات الشخصية التي تفنى الكثير في كثير من الفنانين - كان يحظى بمقام رفيع في القصر بفضل آدابه العالية ، وروحه المرحية ، وحياته الأسرية المهدبة . وقد خلف لنا صورا لزوجه خوانا وابنته فرانسسكا^(٢١) ، ولعل النموذج الذي نقل عنه لوجه « السيدة ذات المروحة »^(٢٢) هو أيضا فرانسسكا . وقد رسم زوجها خوان باوتستا ديل ماثو لوحة سماها « أسرة الفنان »^(٢٣) يبدو فيها فيلاسكويز وفي خلفيته رسم ، ومعه خمسة أطفال أعانوا على وحدة الأسرة .

وكان موته نيجة لوظيفته . ففي ربيع عام ١٦٦٠ رتب المراسم والاحتفالات المعقدة التي تقرر أن تصاحب توقيع معاهدة البرانس على جزيرة في نهر بداسوا الواقع على الحدود ، وخطبة الأميرة ماريا تريزا للويس الرابع عشر . وكان على فيلاسكويز أن يدبر نقل الحاشية إلى منتصف الطريق عبر أسبانيا إلى سان سباستيان ، ويجهز أربعة آلاف من بغال النقل لحمل الأثاث والصور وقطع النسيج المرسوم وغير ذلك من زينات . وعاد المصور ، الذي تاه الآن في الموظف ، إلى العاصمة « وقد أضناه سفر الليل وكد النهار » كما ذكر لصديق . وفي ٣١ يوليو لزم الفراش مصابا بحمى ثلثية ، وفي ٦ أغسطس ، أو بعبارة أول مترجم لحياته « في عيد تجلي المسيح أسلم روحه لله ، الذي خلقها لتكون أعجوبة من أعاجيب الدنيا »^(٢٤) . ومما مضت ثمانية أيام حتى ووريت زوجته الثرى إلى جواره .

والذين لا علم لهم منا بتقنية التصوير لا يستطيعون إلا الاستمتاع بآثار فيلاسكويز - لا حاكين على جودتها ، بل تاركينها لثرينا عصرنا ، وبلاطنا ، وملكنا خاملا ، وزوجا جمعت بين الكبرياء والرقعة . وحتى ونحن في هذا الوضع قد نندوق ما في هذه الصور من صفاء وبسادة ووقار وصدق كلاسيكي ، ونستطيع أن نحزر ما وراء انتصاراتها من جهد ومهارة ، وما اقتصرته من محاولات اجتهدية ، وتوزيع تجريبي للأشكال ، وتراكب وعمق وشفافية في الألوان ، وحركة مشكلة للأضواء والظلال . أما النقاد

الذين تعبوا من المديح المتكرر فقد أشاروا إلى عيوب الفنان الأسباني الكبيرة :
أخطاء صغيرة كالأغطية البلهاء التي ألبسها رءوس أميراته الصغار ، وبطون
جياده الغليظة ، والوجه عديم التناسب ، المعكوس في المرأة ، في صورة
« فينوس روكي » ؛ ثم عيوب كبيرة ، كافتقاره إلى العاطفة ، والخيال ،
والمثالية ورقة الاحساس ، وفنائه في الشخصيات لا في الأفكار فناء يكاد
يكون نسائيا ، وعماه الواضح عن كل شيء لا تراه عيناه (٣٥) . وحتى في
أيام فيلاسكويز ، اتهمه أحد منافسيه المدعو فنتسنزو كاردوتشي بطبيعة
قصيرة النظر تحسب أن الانشخيص المدقق للواقع الخارجي هو اسمى
وظائف التصوير .

فن يجيب عن فيلاسكويز (الذي ما كان ليجيب قط) بأنه غير مسئول
عن أغطية الرءوس ولا عن بطون الخيل تلك ، وبأن العاطفة المضبوطة
أوقع في النفس من العاطفة المعلنة ، وبأن صور بالتازار كارلوس والأميرات ،
وصور وصيفات الشرف ، وصورة استسلام بريدا — كلها تبدى احساسا
رقيقا مرهفا ، وان « أيسوبس » و « منيوس » دراستان في الفلسفة ،
وان صور جونجورا ، وأوليفاريس ، وانوسنت العاشر ، ليست محاكاة
للفظ بل ابتعاثا للروح ؟ وليس في فن فيلاسكويز سعى سافر وراء الجلال ،
بل بحث عن النوع الكاشف منه ؛ اناث قليلات يرقق الحسن منهن ، ولكن
رجال كثيرون خطتهم الحياة وميزتهم .

ومع أن فيلاسكويز كان على الدوام موضع الاجلال في أسبانيا بوصفه
مصورها الأعظم ، فان شهرته لم تكد تعبر البرانس — ربما لأن الكثير
جداً من فنه كان في البرادو — حتى قدمه رفائيل منجز لألمانيا عام ١٧٦١ ،
وكشفت عنه حروب نابليون الأسبانية لإنجلترا وفرنسا ، ونادى به مانيه
والتأثريون رائدا لهم في دراسة الضوء والحو والتعبير عنهما ، ووضع
فيلاسكويز طوال نصف قرن في مصاف أعظم المصورين ، وسماه وسار
« مصور المصورين » لأنه أستاذهم جميعا ، وصرح رسكن بقوة الرجل

الحجة بأن « كل ما يفعله فيلاسكويز يمكن اعتباره صحيحاً على الإطلاق » . ثم ذهب مايير - جريني إلى أسبانيا ملتصقاً فيلاسكويز في البرادو ، ولكنه عثر على الجريكو في طليطلة ، فأعلن أن فيلاسكويز « وقف حيث بدأ الجريكو » ، و « أنه ظل دائماً في حجرة انتظار الفن » (٣٦) . وفجأة اعتقد نصف العالم أن فيلاسكويز من مسوري المرتبة الثانية .

والشهرة زى من الأزياء المتقلبة ، فنحن نمل تحميل أقلامنا عبارات الإعجاب القديمة ، ونجد البهجة والانتعاش في أن ننبد الأصنام البالية من خيالنا ، وأن نزل الجبابرة الذين ماتوا عن عروشهم ، ونرفع آيات الحمد والثناء لآلهة جديدة نفخت فيها أवालتنا أو بعثا من رقادها صيت جديد . ولا ندرى أى مكان من العظمة سيحظى به فيلاسكويز حين يدور الزمن دورته ويغير الذوق اتجاهه من جديد .

٥ - موريللو : ١٦١٧ - ٨٢

أتى على الناس حين ، أيام شبابنا المؤمن ، كانت فيه صورة موريللو « حمل العذراء غير المدنس » تتمتع بصيت ذائع كصورة رفائيل « سيستيني مادونا » ؛ أما اليوم فما من إنسان مهما قل شأنه يؤدى لها حقها من الاحترام . ذلك أن اضمحلال الإيمان المسيحى فى أوروبا وأمريكا قد اقتطع نصف الجمال من صور حسبنا الجمال ملازما لها . وموريللو ضحية من ضحايا هذه التعرية .

ولكن لنبدأ بتحية لألونسوكانو . رجل عجيب - قسيس ، ومبارز ، ومصور ، ونحات ، ومعمارى . ولد فى غرناطة ، وهاجر إلى إشبيلية ، ودرس التصوير (جنباً إلى جنب مع فيلاسكويز) على باتشيكو ، والنحت على مونتانييس . صمم وحفر ورسم روافد للمذبح لكلية سان البرتو وكنيسة سانتا باولا ، حيث نافس ثورباران بنجاح . وحفر لكنيسة لبرينخا تماثيل دينية جذبت الطلاب من خارج البلاد ليعجبوا بها ويحاكوها . وقد اشتبك فى مبارزة ، وجرح غريمه جرحاً خطيراً ، فهرب إلى مدريد ، ونال حماية أوليفريس حين تشفع له عنده فيلاسكويز ، ويفضل رسومه فى العاصمة

وقربها حصل على وظيفة بالبلاط . وفى عام ١٦٤٤ وجدت زوجته قتيلة فى فراشها ، فاتهم خادمه ، ولكن تهمة القتل وجهت إليه هو . ففر مرة أخرى من النجاح ، واختبأ فى دير قصى ، ولكن مخبأه عرف ، فقبض عليه وعذب ، واحتمل كل الآلام دون أن يعترف بأنه المذنب ، فأفرج عنه ، وبدأ من جديد . وفى عام ١٦٥١ ، حين بلغ الخمسين ، عاد إلى غرناطة ، حيث أصبح قسيسا وكاهنا من كهان الكاتدرائية ، وصنع لها تماثيل وصورا ومقارئ وأبوابا بلغت كلها من الروعة ما يغتفر له معها غروره . ولما كلفه مراجع الحسابات الملكية فى غرناطة بصنع تمثال للقديس أنطونى البادوى ، انجزه على نحو أَرْضَى هذا الموظف ، ولكنه مع ذلك ساومه على ثمنه . وطلب كانوا مائة دوبلون (٣,٢٠٠ دولار ؟) . فسأله الموظف « كم يوما استغرق منك صنعه » أجاب : « خمسة وعشرين » قال المحاسب ، « فأنت تقدر جهدك إذن بأربعة دبلونات لليوم ؟ » أجاب « أنك لا تحسن الحساب ، فقد أنفقت خمسين سنة لأصنع تماثلا كهذا فى خمسة وعشرين يوما » . قال « وأنا أنفقت شبابى وميراثى فى دراستى الجامعية ، والآن وقد أصبحت محاسب غرناطة ، وهى مهنة أشرف بكثير من مهنتك ، لا أكسب فى اليوم غير دوبلون واحد . » وصاح به المثل « تقول مهنتك أشرف من مهنتى ! فاعلم إذن أن فى قدرة الملك أن يصنع محاسبين من تراب الأرض ، ولكن الله يحتفظ لنفسه بخلق فنان كألونسو كانوا . » ثم هشم التمثال لفوره فى سورة غضبه (٣٧) . وظن الناس حيناً أن محكمة التفتيش ستسجنه ، ولكن فليب الرابع بسط عليه حمايته ، ومضى كانوا فى رسم صور وحفر تماثيل - جلها دينى - حملت عشاق عبقريته المتعددة الجوانب على أن يلقبوه ميكل انجلو أسبانيا . وكان ينفق مكاسبه بالسرعة التى يحصل بها عليها ، على وجوه البر عادة ، وتقدمت به الأيام وهو فى فقر اضطر هيئة الكاتدرائية لاعتماد معونة مالية له . وقد رفض وهو على فراش موته صليبا يمثل المسيح مصلوبا قدم إليه ، لأنه سيئ الحفر .

أما برتولومى استيبان موريللو فرجل مختلف تماما - متواضع ، دمث الخلق ، تقى ، معبود تلاميذه ، ومحبوب منافسيه ، ومعين للبر بالناس ه شهدت إشبيلية مولده عام ١٦١٧ وهى يومها قصبة الفن الأسباني ، وكان آخر أربعة عشر طفلا . ودرس التصوير على خوان دى كاستيللو ، ولكن موت أبويه فقيرين وهو بعد فى الرابعة عشرة اضطر الصبى اليتيم إلى كسب قوته برسم صور فجة سريعة لسوق أسبوعية . وإذ سمع أن فليب الرابع عطوف على الفنانين اتخذ سمته إلى مدريد (٢) حيث صادقه فيلاسكويز - فى رواية غير مؤكدة (٢٨) وأسكنه منزله ، وحصل له على إذن بدخول قاعات الفن الملكية ، وشجعه على دراسة أعمال ريبيرا ، وفان ديك ، وفيلاسكويز .

على أننا نلقاه فى إشبيلية ثانية عام ١٦٤٥ . ذلك أن ديرا فرانسسكانيا بها عرض أجرا . غير مغر نظير رسم سبع صور كبيرة ، واحتقر الفنانون الراسخون هذا الأجر ، ولكن موريللو رضى به ، وأنتج أول روائعه « مطبخ الملائكة » (٣٩) ، وفيها يبدو الملائكة قادمين من السماء يحملون الطعام ويطهونه ويمدون الموائد ويطعمون الصالحين فى مجاعة ، ومع أن موريللو حاول أن يتأثر الأسلوب الفحل الذى جرى عليه ريبيرا وثورباران ، إلا أنه روى القصة متأثرا بميله للعاطفة الرقيقة . هذه الصورة ، هى وصورة « موت القديسة كلارا » (٤٠) « صنعتا شهرة الفنان ، وأقبل نصف مثقفى إشبيلية ليعجبوا ، ثم تكاثرت عليه الطلب . وكان أكثر ما طلب إليه صورا كنسية ، فتدفقت من ريشته صور العذراء ، والعائلة المقدسة ، والقديسين فى وفرة موققة ، واغنت الأساطير المسيحية بالجميل من النساء ، والوسيم من الرجال ، والظريف من الأطفال ، وبالألوان الوردية والجو الصوفى حتى انعطفت نحوه أوربا لأنه أحب العارضين لأحب العقائد إلى نفوس الناس .

وإذ وجد موريللو رزقه على هذا النحو ، فإنه غامر بالزواج وهو فى

الثلاثين ، وملأ بيته بضجيج تسعة أطفال وشجارهم وبهجتهم ، وشقى من أجلهم راضياً حتى موته . ونقده هبة الكاتدرائية عشرة آلاف ريال عن لوحته « القديس أنطوني البادوي » التي ما زالت معلقة هناك . وتؤكد لنا قصة يشتهب أنها صدى لأسطورة رويت عن زيوكس (٤١) ، ولكنها طبعت قبل موت موريللو بأحد عشر عاماً ، تقول إن الطيور التي طارت داخل الكاتدرائية حاولت أن تحط على الزنايق المرسومة في الصورة ، وراحت تنقر الفاكهة (٤٢) .

ومع أن مواضيعه كانت جلها دينية ، فإنه جعلها إنسانية أكثر منها كنسية . وإذا كانت أوروبا الكاثوليكية الرومانية كلها قد أحبت النسخ الكثيرة التي أذاعها نقلا عن لوحته « حمل العذراء غير المدنس » (٤٣) فما كان ذلك لجرد أنها احتفلت بموضوع محب جداً لأسبانيا ولذلك الجليل ، بل لأنها توجت الأنوثة في سحابة من المثالية والقداسة . وقد استوحى الفنان نساء الأندلس الفاتنات ذوات الحس الجنسي المتواضع ليرسم صوراً عذراء «الصاوات» (٤٤) « والعذراء العجورية ، وصورة « العائلة المقدسة والطائر » ذات الجمال الأسمر » (٤٥) .

ومن رسم الأطفال خيراً منه ؟ ان صورة « البشارة » المحفوظة بالبرادو تطالعنا فيها صبية دخلت سن المراهقة ، فيها خفر ورقة ، آية الحياة ذاتها . وقد وجد موريللو نماذج للأشكال الكثيرة التي صور بها المسيح طفلاً في الأطفال الحسان الوجوه الذين أحاطوا به في بيته وشارعه ، ولعله استمتع بهم هم أكثر من استمتاعه بالموضوع المقرر ، ورسمهم في صورة لا تقل فتنة عن أي صور للأطفال رسمت أيام النهضة الإيطالية . وكان إذا عجز عن حشر الأطفال في لوحاته الدينية يرسمهم فرادى . وفي « بيت الفن » بميونخ حائط حافل بهم : صبيان يرمون النرد ، وغللمان يأكلون الشمام لأنه طريقة محتملة لغسل وجوههم ، وصبي يعض الخبز بينما تغلى أمه شعره . وصورة « الصبي المطل من نافذة » (٤٦) « تبين بوضوح

أن المال والسعادة تشاجرا واقتربا ، فليكن إذن « الصبي ذا الكلب » (٤٨) ،
والعالم سبيله إلى الرزق. وفي صورة « الغلام المتسول » المحفوظة باللوفر يستأذن
الفنان المثالي القوى العليا ، وينظر إلى الحياة على الأرض ، ويجدها جميلة حتى.
ولو لبست أسملا بالية . ان موريللو في واقعيته يحتفظ بمثاليته .

وعاش - كما رسم - دون مأساة ، إلا في ختام عمره . ذلك أنه تسلى
سقالة لينجز صورة في كنيسة بقادس ، فزلت قدمه وسقط فانكسر كسرا
خطيرا أصاب دمه بالتسمم ، وما لبث ابن الأندلس جميعها ، الأثير لديها ، أن
مات (١٦٨٢) ، وكان موته مفاجئا حتى أنه لم يستطع إتمام وصيته ، وخط
فوق قبره ما أوصى به ، وهو اسمه ، وهيكل عظمي ، وكلمتان « فيفى -
موريتوروس » - أى عش كأنك تموت وشيكا .

وظلت مكانته طوال قرنين عالية عند أولئك الذين تههمهم ما تقوله .
الصورة أكثر مما تههمهم الكيفية التي تقولها به . وقد أذاع قواد نابليون
صيته بسرقتهم صورهم وبيعها غنيمة حلالا . وأكثر النساخ غير الأكفاء من
نقل لوحاته فشككوا النقد في فنه . كان على علم يتقنية صناعته ، ولكن
ضيق من رقعة كثيرا ذلك التوفيق الذي أصابه مع الكنيسة ؛ وقد غالى
في الاستسلام لحانب الحياة الأنثوى العاطفى ، فما بدأ جحلا أصبح بالتكرار
الثابت مجرد شيء لطيف على نحو لا يؤثر في نفس الناظر . وكان قديسوه
يتطلعون إلى السماء في إصرار كثير أنسى أوروبا هذا الفنان حين انصرفت عن
السماء . ولهذا السبب نفسه أغفلت النظر إلى التصوير الأسباني عامة بعد
سنة ١٦٨٠ . وبينما كانت أوروبا تتجادل حول الميحية ، ظلت أسبانيا
مأشبهة بترائها الوسيط ، فلم يلفت فيها أنظار العالم ثانية إلا عند مجيء جوياء .

ولبان حياة موريللو قضت على القرن الذهبي للفن عشرات العوامل .
الفناكة . وكان الذهب ذاته ، والبحث عنه في الأقطار الأجنبية ، بعض
هذه العوامل : ذلك أن شباب أسبانيا وعنفوانها تحرروا من سجن شبه
الجزيرة ليكتشفوا الأمريكتين ويستغلاهما ، والذهب الذي أرسله إليها أفسد

الحياة الأسبانية ، وشجع التكاسل ، ورفع الأسعار ، أو وقع غنيمة للسفن الهولندية أو الجنوية التي تحمل التجارة الأسبانية . واختزنت الحكومة المعادن النفيسة ، وغشت العملة ، وطردت المغاربة المنتجين ، واستكثرت من الوظائف وباعتها ، وفرضت الضرائب على كل شيء إلى حد اللامبالاة الاقتصادية ، وبعثت الثروة في الحملات الحربية ومظاهر البذخ في البلاط بينما الصناعة تذبل ، والبطالة تنتشر ، والتجارة تذوى ، والسكان يتقلصون ، والمدن تخرب . وفقدت الحكومة ذات الطابع الاستقراطي الضيق كل كرامة ، فوضعت صناديق التبرعات في الشوارع ، واتمست المال من بيت إلى بيت ليقول عجزها في الداخل وهزائمها في الخارج^{٢٩} . أما الجيوش الأسبانية المرابطة في صقلية ونابلي وميلان ، الشاقة طريقها في عابات العالم الحديد وبراريه ، المضنية نفسها في حرب الثلاثين ، الخائضة حربا خاسرة لقهر عناد توار الأراضي المنخفضة وإصرارهم الذي لا يصدق - هذه الجيوش استنزفت الموارد البشرية والمادية لدولة صغيرة جبلية نصف صحراوية ، تحبسها حدودها في بحر يسيطر عليه منافسوها التجاريون وأعداؤها البحريون . ولم يبق غير الأديرة والكنائس ، متشبهة بأملأكها الشاسعة ، اللاصقة بها ، المعفاة من الضرائب ، مستكثرة من الرهبان في حياة عاطلة غالية الثمن . وبينما كان الدين يسترضى الفقر بصكوك على الجنية ، ويخفق الفكر ، ويدعو أسبانيا للعيش على ماضيها ، أجزلت فرنسا وإنجلترا مكافأة الصناعة ، واستولتا على التجارة ، ودخلتا رحاب المستقبل . ان التلاؤم مع البيئة المتغيرة هو لب الحياة ، وهو أيضا ثمتها .

الفصل الثالث عشر

الصراع على فرنسا

١٥٥٩ - ٧٤

١ - القوى المتنافسة

الإنسان حيوان منافس ما دام يخشى الخطر أو يذكر افتقاره إلى الأمن . كذلك حال الجماعات والطبقات والأمم والأجناس التي تفتقد شعور الأمن . فهى تتنافس بذات الحرص الذى يتنافس به الأفراد المؤلفة منهم ، ويعنف أشد ، لأنها أقل تقيدا بالقانون ، وتمتع بالحماية ؛ ان الطبيعة تدعو جميع الكائنات، الحية إلى العراك . وفي حى الصراع الأوروبى بين حركة الإصلاح البروتستنتى (١٥١٧) وصالح وستفاليا (١٦٤٨) استخدم هذا التنافس الجماعى الدين ستارا وسلاحا لتحقيق الأهداف الاقتصادية أو المآرب السياسية . فلما ألقى المحاربون سلاحهم بعد قرن من النضال ، احتفظت احتفظت المسيحية ببقائها وسط الخرائب بشق الأنفس .

كانت فرنسا أول من عانى وأول من أفاق . فقد كانت «حروبها خاضتها من ١٥٦٢ إلى ١٥٩٤ بالنسبة لها ماستكونه حرب الثلاثين (١٦١٨ - ٤٨) بالنسبة لألمانيا ، والحروب الأهلية (١٦٤٢ - ٤٨) بالنسبة لانجلترا . ذلك أنه عند موت هنرى الثانى فى صراع مؤسف (١٥٥٩) وارتقاء ابنه البالغ من العمر خمسة عشر ربيعا العرش باسم فرنسيس الثانى ، كانت الأمة على شفا الافلاس من جراء النزاع الطويل بين آل هابسبورج وملوك فالوا . كان مجموع ايراد الدولة السنوى آنئذ ١٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وبلغ الدين الأهلى ٤٣,٠٠٠,٠٠٠ . وتخلفت رواتب كثير من الحكام الحليين أربع سنوات ، واستحال اقناع الشعب الفرنسى بدفع الضرائب^(١) . وتردت ليون فى القوضى الاقتصادية عام ١٥٥٩ لآثر انهيار مالى مقاحى . وكان من أثر تدفق فضة أمريكا وذهبها إلى فرنسا بطريق أسبانيا والبرتغال

أن هبطت قيمة العملة ، وتضخمت الأسعار ، وانطلق سباق شرس بين الأجور والأسعار لم يفد منه غير الرأسماليين العلميين ببواطن الأمور والمستغلين بالمضاربات . وحاولت الحكومة عام ١٥٦٧ وعام ١٥٧٧ أن تسن القوانين لتحديد أقصى الأسعار والأجور ، ولكن النزاحم الاقتصادي طغى على القوانين^(٢) ، واستشرى التضخم ، ربما باعتباره طريقة غير دينية لدفع نفقات الحروب الدينية . أما المنظمة الغنية الوحيدة في الدولة فكانت الكنيسة الكاثوليكية التي انضوى تحت لوائها ٩٤٠٠٠ من رجال الدين (في عام ١٦٠٠) . و ٨٠.٠٠٠ راهبة ، و ٧٠.٠٠٠ راهب أو أخ ، و ٢٥٠٠ يسوعى ، وملكت الكاتدرائيات المهيبة ، والأسقفيات الفخمة ، والأراضي الشاسعة المثمرة . لقد كان ثلث ثروة فرنسا — وقيل ثلثاها — ملكا للكنيسة^(٣) . وتوارث خلف الحروب الدينية تلك الرغبة في الاحتفاظ بهذه الثروة الكنسية أو الحصول عليها .

وواقعى الحظ الكنيسة بارتقاء شارل دجيز منصب كبير وزراء فرنسيس الثانى ، وكان قد نصب كبردينالاً للورين وهو لا يتجاوز الخامسة والثلاثين . وقد أخذ الأدواق من آل جيز لقبهم هذا من قلعتهم القرية من لاون ، ولكن مقرهم الرئيسى كان فى اللورين ، التى لم تندمج فى فرنسا إلا مؤخرا . أما الكبردينال فكان رجلا وسيم الطلعة ، حاضر الذكاء ، مهذب المسلك ، إداريا قديراً ، يملك ناصية البلاغة فى اللاتينية والفرنسية والإيطالية ، ولكن شغفه بالمال والسلطان ، ونفاقه المصقول ، وتحفزه لاضطهاد الخوارج والانتقام من المعارضين ، وخفضه الجريء لنفقات الحكومة — كل هذا خلق له أعداء فى كل طبقة تقريبا . وكان أخوه الأكبر ، فرنسيس دوق جيز ، قد اكتسب سمعة فى الاستراتيجية وميادين القتال ، وأصبح الآن وزيرا للحربية ، ولكن افلاس البلاد كان يتطلب السلام ، لذلك كان على فرنسيس أن يشبع أطماعه فى تبطل مثير ، فعشق مظاهر العظمة ، والثياب الفاخرة ، والعرض الفروسى ، ولكن آدابه الملوكية وكياسته ومسلكه

الشخصى - كلها جعلت منه معبود فرنسا الكاثوليكية . ولم يكن يطبق
الهرطقة ، فرأى استئصال شأفتها بالقوة^(٤) - وكان هو وأخوه على يقين
من أن الكنيسة ستشرف لا محالة على الفناء إذا اعتنقت فرنسا البروتستنتية
كما اعتنقتها ألمانيا وإنجلترا، وأن فرنسا ستفقد تلك الحماسة الدينية التى دعمت
من قبل نظامها الاجتماعى ووحدتها القومية . وفى سبيل الدفاع عن إيمانها
وسلطانها تحدى الأخوان جيز الكثير من المخاطر ، ولقيا حتفهما قبل
الأوان ، وشاركا تبعة إيذاء فرنسا وتعذيبها .

لم يعد الهيجونوت أقلية ضئيلة عاجزة من الفرنسيين البروتستنت يقودهم
ويلهمهم كالفن من جنيف ، بل ثورة عقائدية واجتماعية واسعة الانتشار على
الكنيسة . وقد قدرهم كالفن بعشر الشعب الفرنسى عام ١٥٥٩^(٥) . وقدر
ميشليه إن عددهم تضاعف عام ١٥٧٢^(٦) . كان لهم مراكز فى كل إقليم
من دوفين إلى بريتنى ، ولا سيما فى الجنوب الغربى من فرنسا ، حيث
استوصلت فى الظاهر هرطقة الألييجنس قبل ثلاثة قرون . فعدوا اجتماعهم
للصلاة برغم قوانين الحظر التى أصدرها فرنسيس الأول وهنرى الثانى ،
وعاشوا على العظات الجادة التى تبشر بالحرية ، وأصدروا الكتيبات النارية
حول مفسدات الكنيسة وعسف الأخوين جيز ، وعقدوا مجمعا عاما فى
باريس (٢٦ مايو ١٥٥٩) تحت سمع الملك وبصره . لقد أعلنوا ولاءهم
للملكية الفرنسية ، ولكنهم نظموا الأقاليم التى سادوها وفق الأساليب
الجمهورية . وصاغوا لهم ما تصوغه أية أقلية مضطهدة من أيديولوجية
موقته للحرية ، ولكنهم وافقوا الكاثوليك على أن من واجب الدولة أن
تفرض « الدين الحق » على فرنسا كلها . وكانت نظريتهم الخلقية أكثر
صرامة من فاموس خصومهم الذى تراخى مع الزمن ، فاجتنبوا الرقص ،
والثياب البهية ، والمسرح ، ونددوا ساخطين بأخلاق القصر ، حيث
« الرجال لا يغرون النساء ، بل النساء يغرين الرجال^(٧) » كما قالت جان
دالير لابنها .

أما الملكة الأم ، كاترين دي مديتشي ، فرأت أن الدين عند الفريقين « إن هو إلا ستار لانفع له إلا إخفاء الأحقاد والضغائن ، ومع ذلك فقلوبهم لا تنطوى على شيء أصال من الدين »^(٨) . ولعلها قست في حكمها هذا ، ولكن ما من شك في أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية كانت تكمن خلف الصراع الديني ؛ وثبت الفلاحون على الكنائس ، ولم يكن لهم مصلحة في هذا النزاع ، ولم يجدوا في عقيدة جبرية صارمة كالبروتستنتية بديلا يعوضهم عن الأساطير المعزية وملطفات الأعياد التي أتاحها لهم عقيدتهم القديمة . أما البرولتاريا ، الصغيرة عددا الكبيرة بروح الثورة ، فقد نددت بروسائها واستمعت في تعاطف إلى صوت « الإصلاح » لأنه يعد ببعض التغيير ، وكما حدث في إنجلترا اللولارد والبيورتان ، وألمانية حرب الفلاحين . كذلك أصبح الإنجيل هنا كتاب الثورة^(٩) . كذلك استمعت الطبقات الوسطى إلى الوعاظ الأجرياء الذين دربتهم جنيف وبعثتهم إلى فرنسا . وأما رجال الأعمال الذين التقوا في الأسواق الكبيرة بالأثرياء من الألمان والانجليز والسويسريين فتد لاحظوا الحلف الناجح بين هؤلاء التجار وبين الحكام البروتستنت والأفكار البروتستنتية . لقد طالما كادوا الأهانات تحت سلطان الأساقفة والبارونات الذين احتقروا التجارة وارتبطوا بعبادات الاقطاع . وسرهم وأثار حسدهم ما علموه من عطف كالفن على دنيا المال والأعمال ، ومن اشراكه العلمانيين في رقابة الأخلاق والاشراف على الكنيسة . وقد كرهوا ثراء الكنيسة وعشورها ، وغازتهم المكوس الاقطاعية المفروضة على التجارة . ولم يستطيعوا أن يغتفروا للملكية اخضاعها الكومونات البلدية للحكومة المركزية بعد أن ظلت قرونا حكرها سياسيا لهم^(١٠) . وحتى أصحاب المصارف رضوا عن الهيجونوت الذين لم يحتقروا تقاضى الفائدة على المال ، وهو الأمر الذي استنكرته الكنيسة منذ زمن سحيق ، وان أغضت عنه مؤخرا بعين لاهوتية وقور .

وكان كثيرون من النبلاء يعتنقون قضية الثوار ، لأنهم هم أيضا لم يرتضوا

مركزة السلطة في دولة موحدة . ولا بد أنهم سمعوا بأمراء الأقاليم الألمان. الذين استطاعوا بتحالفهم مع البروتستنتية أن يتحدوا الأباطره والبابوات ، والذين أثروا من غنائم الكنيسة ، إذن فما الذي يحول دون استخدام هؤلاء الهيجونوت البواسل أداة جاء أوانها لتهديب الملك واخضاعه ؟ لقد كان النبلاء يهيمنون على حقول فرنسا ومحاصيلها وفلاحها ، وينظمون فرقها العسكرية ويقودونها ، ويسيطرون على حصونها ، ويحكمون أقاليمها ، فلم أن حركة الاصلاح كسبت طبقة النبلاء لدعمت ظهرها بقوة منتشرة في الأمة كلها . وقد نبه كردينال اللورين هنرى الثانى عام ١٥٥٣ إلى أن النبلاء ينحازون إلى صف الهيجونوت . فلم يحل عام ١٥٥٩ حتى كان النبلاء في نورمانديا ، وبريتنى ، وبواتو ، وأنجو ، ومين ، وسانتونج ، يتزعمون ثورة الهيجونوت علانية .

لم تغتفر أسر البوريون المعتزة بنفسها لأسرة فالوا الحاكمة أنها دفعت شارل دوق بوربون إلى الخيانة والموت قبل الأوان (١٥٢٧) ، ولا استطابوا إقصاءهم عن الحكم على يد آل جيز المتعصبين لقومهم ، والذين اعتبروهم أغرابا أصلهم من اللورين الذى كان ألمانيا أكثر منه فرنسا . لقد كان لويس الأول البوربونى ، أمير كونديه ، سليلا للملك لويس التاسع ، يجرى في عروقه الدم الملكى ، وتسمو مرتبته فوق مرتبة الأخوين جيز ، وقد انضم إلى الهيجونوت ، ومات في محاولته الوصول إلى السلطة على جناح عقيدتهم . أما أخوه انطوان البوربونى ، ملك نافار لقبا — والذى لا يحكم فعلا غير إقليم بيارن في جنوب فرنسا الغربى — فقد انحاز حيناً إلى صف الهيجونوت ، متأثراً إلى حد كبير برأى زوجته جان دالبير . وكانت جان الابنة المناضلة لأم رقيقة هي مارجريت النافارية ، التى احتفظت في الظاهر بكتلتها احتراماً لأخيها فرنسيس الأول ، ولكنها بسطت حمايتها على كثيرين من المهترطين والهيجونوت . . وكما أن الأم مثلت النهضة في حبا للحياة والشعر ، فكذلك مثلت جان دور النساء في الاصلاح البروتستنتى الفرنسى .

وخلقهن - غيورات في دينهن إلى حد التعصب ، يربين أطفالهن ويكرسنهم ليواصلوا الحرب المقدسة حتى الموت أو النصر . وقد نشأت ولدها الشهير الذى عرف فيما بعد بهنرى الرابع ، على كل فضيلة إسبرطية وبيوريتانية ، ولم يفسح لها في الأجل حتى تراه يرتد إلى مرح النهضة المنحل . ولا بد أنها أعجبت أشد الاعجاب بجاسبار دكولينى ، فقد جمع في شخصه كل مثلها الأعلى : إنسان شريف لقبا وخلقا ، وزعيم حصيف وفى لقضية الهيجونوت ، وجندى ورجل دولة صارم أخزت مناقبه خيانات البلاط المتوارية خلف طلاء زائف .

كان كالفن قد حذر أتباعه الهيجونوت من المقاومة العنيفة للحكومة (١١) . ولكن صبرهم عيل تحت وطأة الاضطهاد . ذلك أن هنرى الثانى كان قد أمر جميع القضاة بأن يحكموا بالاعدام على كل البروتستنت المتشبهين بعقيدتهم (يونيو ١٥٥٩) . ثم جدد فرنسيس الثانى هذا الأمر بتحريض من الأخوين جيز ، وأضاف إليه أمرا بهدم جميع المباني التى تعقد فيها اجتماعات دعاة الاصلاح البروتستنتى ، وأمرا باعدام الأشخاص ، وحتى الأقرباء : الذين يؤوون مهرطقا محكوما عليه ، أو يقصرون في ابلاغ الحكام عنه . وفى الشهور الخمسة الأخيرة من عام ١٥٥٩ أحرق ثمانية عشر شخصا أحياء لتماديهم في الهرطقة ، أو لرفضهم حضور القداس أو تناول القربان الكاثوليكي . وفر مئات من الهيجونوت الفرنسيين إلى جنيف حيث آواهم كالفس . أما الذين بقوا في فرنسا فقد بدأوا ينظمون أنفسهم لخوض الحرب الأهلية .

وفى ٢٣ ديسمبر ١٥٥٩ أحرقت آن دبور لأنها اجترأت في « برلمان » باريس على إدانة الاضطهاد بسبب الهرطقة . وبعد هذا بقليل خنق جاسبار دهو في قصر فانسين الريفى بأمر الأخوين جيز . وتآمر زوج أخته ، جودفروا دبارى ، سيد إقليم رنودى ، مع الأشراف وغيرهم على اعتقال الأخوين جيز وعزلهما بهجوم مباغت يقومون به في أمبواز . واكتشف

كردينال اللورين المؤامرة ، فجرد جنده وقهر المتآمرين وقبض عليهم ، ثم شق بعضا ، وقطع رؤوس بعض ، ووضع بعضا في زكائب وقذف بهم في اللوار . جاء في سجل أخبار معاصر « لا شيء غير شق الناس أو إغراقهم طوال شهر بأكمله ، حتى غطت الجثث نهر اللوار » (مارس ١٥٦٠) (١٢) . ودعى كوندية للمثول أمام المحكمة الملكية ليجيب عن تهم الاشتراك في المؤامرة ، فذهب ، وأنكر التهم ، وتحدى كل من يتهمه بالاحتكام إلى السيف . ولم يقدم أى دليل ضده ، فأخلى سبيله .

وازعجت كاترين « فتنة أمبواز » هذه ، وعلو مكانة المتآمرين ، ووحشية قمع الحركة ، وحمى الثأر التي أوججت سخط الهيجونوت والنبلاء ، فاقنعت الملك الضعيف والأخوين جيز ، الكارهين لرأيها هذا ، باتاحة الفرصة لتجربة التسامح . ودعت ميشيل دلوبيتال ليتقلد منصب المستشار (مايو ١٥٦٠) وطلبت إليه أن يهدئ من هياج فرنسا . وكان ميشليه قد تعلم خلال طلبه العلم في إيطاليا أن يكون إنسانيا لادجماطيا ، وقد عامل الكاثوليك والبروتستنت خلال توليه القضاء الإقليمي في فرنسا معاملة المساواة في الشفقة والاعتبار . لذلك اقترح الآن على البرلمان نفس الآراء التي أفضت إلى حرق دى بور : « كل إنسان صنع دينا لنفسه ، ولكن بعض الناس ... يودون أن يقبل دينهم هم ويطارد دين غيرهم ... فعلينا أن نفرق بعضنا ببعض ، وأن نخترع طريقة للعيش معا » (١٣) وعملا بنصحيته دعت كاترين مجلسا للأعيان يتألف من الكاثوليك والبروتستنت ، انعقد في فونتنبلو في ٢١ أغسطس ١٥٦٠ . وقدم كوليني في المجلس التماسا للملك مرفوعا من الهيجونوت أكدوا فيه ولاءهم له ، ولكنهم طلبوا حرية العبادة كاملة ودعا بعض الأساقفة إلى الاعتدال من الطرفين ، وحضوا الاكليروس على أن يصلحوا من أخلاقهم . وقرر المجلس أن المشاكل التي ينطوى عليها بحثه تقتضى دعوة مندوبين من كل الطوائف والطبقات في فرنسا : فأمر الملك بعقد مجالس الطبقات هذا في ١٠ ديسمبر ، وحظر أثناء ذلك أى

محاكمات على تهمة الهرطقة حتى يفصل المجلس الجديد في أسباب الخلاف الأساسية التي تحدث الانقسام والفرقة في البلاد .

أما البوريون الهيجونوت فقد رفضوا حضور مجلس الأعيان مخافة أن يقبض عليهم ، وإذ تشكك أمير كونديه وانطوان دبوربون في إمكان التوفيق ، فأنهما تأمرا لجمع جيش وإقامة دولة مستقلة تتخذ ليون عاصمة لها . ولكن الحكومة اعترضت طريق أحد سعاة كونديه ، وفضضت أوراقه المؤامرة ، فقبض على كونديه ، وحوكم ، وحكم عليه بالاعدام في ١٠ ديسمبر . واستعاد الأخوان جيز سلطتهما الدكتاتورية .

وإذا الموقف يتغير فجأة يموت فرنسيس الثاني (٥ ديسمبر) وهو بعد في السادسة عشرة . فخلفه أخوه شارل التاسع في تقلد سلطته رسميا ، ولكن لما كان لا يتجاوز العاشرة ، فقد قبل وصاية أمه ، التي انضمت الآن إلى البرايث ملكة إنجلترا ، وفليب الثاني ملك أسبانيا ، في توجيهه الفوضى الأوروبية نحو تحقيق مآربهم المتضاربة .

كاترين دى مديتشى

ما زالت هذه المرأة لغزا برغم انقضاء أربعة قرون من التفسيرات المتعارضة . كانت سليلة لورنزو الفاجر ، وحفيدة البابا ليو العاشر ، فهي إذن المديتشية النموذجية ، في ميراثها الحكم ، وفي دمها الدهاء . ولدت في فلورنسة (١٥١٩) لأبوين ماتا بالزهرى قبل أن تم الشهر ، فظلت قطعة شطرنج عاجزة تحركها دبلوماسية أقربائها المتحفزين للعراك ، حتى زوجها عمها البابا كليمنت السابع وهي بعد في الرابعة عشرة لهنرى الثاني ملك فرنسا المقبل . وظلت عشر سنوات عاقرا بينما كرس زوجها المكتئب نفسه لتحليلته ديان دبواتيه . ثم انبعث الأطفال من بطنها كل سنة تقريبا حتى بلغوا العشرة عدا . وكانت تؤمل وتخطط لتتال لهم العروش . ومات ثلاثة منهم أطفالا ، وارتقى ثلاثة عرش فرنسا ، وأصبحت اثنتان منهم ملكات . وذاقوا كلهم تقييا مرارة المأساة ، ولكنها كانت أكثرهم

فجيعة ، لأنها عمرت بعد موت زوجها وثلاثة من أبنائها الملوك واحدا بعد الآخر . وسواء كانت ملكة أو ملكة أما ؛ فقد احتملت صروف عهود ملكية أربعة ؛ وسلختها بفضل ما أوتيت من حصافة وضبط للنفس ونفاق لا يتقيد بمادئ الشرف .

وصفها معاصر بأنها « امرأة جميلة حين يتوارى وجهها خلف القناع » (١٤) . أى أن لها قواما جميلا ، ويؤكد لنا برانتوم أن صدرها « أبيض ممتلئ » وأن « فخذها غاية في الجمال » وأن يديها وأناملها بديعة (١٥) . ولكن قسماتها كانت خشنة ، وعينها أكبر وشفتيها أغلظ وفها أوسع مما ينبغي . فلذا كانت قد آغوت الرجال فلنما عن طريق غيرها من النساء . وقد أرجفت الشائعات بأنها احتفظت من حولها بـ « سرب طائر » من الحسان اللاتي يغرين الرجال بتحقيق مآربها (١٦) ، ولكن يبدو أن هذه التهمة باطلة (١٧) . فقد جرح كرامتها تسلط ديان في السياسة والحب جميعا ، ومن ثم وجدت بعد موت هنرى ثأرها بأن جعلت نفسها القوة الكامنة وراء العرش مدى ثلاثين عاما . وكان لزاما أن يعوض دهاؤها عن عجز أبنائها ؛ لقد كرهوا تدخلها ، ولكن اخفاقهم في الملك فرض هذا التدخل . وإذا أُلقيت في دوامة الثورة الدينية ، وأحاط بها الأشراف المغامرون واكتنفها الدحاطيات المتعصبة ، فقد حاربت بالأسلحة الوحيدة التي تملكها — وهى المال المديتشي — والفطنة الإيطالية ، والدبلوماسية المكيافلية . لقد أهدى مكيافلى كتابه « الأمير » لأبيها من قبل ، ولم تكن كاترين في حاجة لتعليمه ، لأنها رأت مبادئه مطبقة في كل مكان من إيطاليا وفرنسا . وقد بزت جميع رجال الدولة الملتفين حولها كما فعلت اليزابث ملكة إنجلترا ، وفاقهم في الكذب ، و « كان لديها من الخدع أكثر مما لدى جميع مستشاري الملك » (١٨) . وقد صرفت شئون الدولة بهمة وكفاية . قال مراقب إيطالى « لم يكن ليتم شئ دون علمها ، وقل أن وجدت متسعا لتناول طعامها » (١٩) — مع أنها بطريفة ما أصبحت بدينة . أما أخلاقياتها الشخصية فقد نمت فوق جيلها ، إذ

يبدو أنها كانت مخلصه لزوجها غير المخلص ، وفيه للذكراه ، لبست الحداد عليه حتى نهاية حياتها . وقد ترفق في الحكم عليها أعظم خلفائها هنري الرابع فقال : —

« أسألكم ماذا كان في استطاعة امرأة أن تفعل بعد أن تركها موت زوجها بخمسة أطفال صغار على ذراعها ، وأسرتين في فرنسا تفكران في انتزاع التاج — أسرتنا (البوربون) وأسرة جيز ؟ ألم تكن مكروهة على أن تلعب أدوارا غريبة ، لتخدع الواحد أولا ثم تثنى بالآخر ، حتى تحمي أبناءها كما حتمهم ، وتيسر لهم أن يملكوا الواحد بعد الآخر بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعتها هذه الأم الداهية ؟ انه ليدهشني أنها لم تتصرف قط على نحو أسوأ مما فعلت (٢٠) » .

ولعلنا نرضى هذا الحكم تقديرا منصفًا لمسلك كاترين قبل عام ١٥٧٠ . فقد ضربت هذه الأسر والقوى المنافسة التي أحاطت بها بعضها ببعض . وكتبت تقول : « انني بمشيئة الله لن أسمح لنفسى بأن يتحكم فيها هذا الفريق أو ذاك ، لأنني أيقنت للأسف أنهم جميعا يحبون الله ، والملك ، وإياي ، أقل مما يحبون مكاسبهم . . . وإشباع أطماعهم (٢١) » . كان فيها من خلق إيطالي النهضة ما زهدها في صرامة الهيجونوت الجبرية ؛ ثم إنها كانت تطلب قرضا من الكنيسة لتحول دون افلاس الدولة (٢٢) ، ومع ذلك ففي سبيل فرنسا كانت على استعداد لتزوج ابنتها مارجريت هنري نافار الهيجونوتي ، وابنها هنري لاليراث المحرومة من الكنيسة . ونظرت إلى الموقف في صورته الأسرية والسياسية لا الدينية أو الاقتصادية . وكان عليها أن تحمي وطنها المقسم من تحالف أسبانيا والعمسا الهابسبورجي . وكانت معاهدة كاتو — كامبريزي قد تركت القوة الأسبانية متفوقة في فلاندر ، ومتعدية تعديا خطيرا على شمال فرنسا الشرقي . وقد تشتعل الحرب القديمة بين أسرتي فالوا وهابسبورج من جديد في أية لحظة ، وعندها تحتاج فرنسا

إلى دماء وسلاح الهيجونوت والكاثوليك على السواء — فالخطر من الخارج يتطلب السلام في الداخل .

هذا المزاج استعدت هي ومستشارها لوبيتال للاجتماع بمجلس طبقات الأمة في أورليان . ولم تكن « أقاليم » بل كانت « طبقات » : النبلاء ، والاكليروس ، وبقية فرنسا ممثلة في الطبقة الثالثة — وهي أساسا البورجوازية أو الطبقات الوسطى ساكنة المدن الكبيرة والصغيرة ، ولكنها تضم أيضا في تمثيل متواضع الفلاحين والبرولتاريا الناشئة . ولم يكن للمندوبين نظريا أى سلطة تشريعية لأنهم انتخبوا بالقوى المحلية والطبقية لا بأى اقتراع واسع ، وكل ما كان لهم من حقوق هو حق إسداء النصيحة للملك ، على أن حاجته للمال عززت هذه النصيحة بعض التعزيز .

وافتح لوبيتال الدورة (١٣ ديسمبر ١٥٦٠) بدعوة مثالية للتسامح من الفريقين . وقال مناشدا المجلس إن وظيفة الحكومة هي حفظ السلام والنظام والعدالة بين جميع المواطنين دون تحيز ودون نظر لآرائهم الدينية ، ومن المرغوب فيه أن يكون الفرنسيون جميعا على دين واحد ، لأن هذا من شأنه أن يعين على الوحدة والقوة القوميتين ، ولكن إذا لم يكن في الاستطاعة بلوغ هذا الاتفاق العام بالوسائل السلمية ، فالتسامح إذن خير وأبقى . فهذا الذى يعرف ما المرطقه وما الحق ؟ « أنت تقول إن دينك أفضل الدينين ، وأنا أقول كذلك عن ديني ، فهل اعتناق رأيك معقول أكثر من اعتناق رأيي ؟ ... فلننه إذن هذه الأسماء الشيطانية ، وهذه البطاقات الحزبية والشيع والتحريضات على الفتنة — اللوثرين ، والهيجونوت ، والكاثوليك ؛ دعونا نغير أسماءنا إلى مسيحيين (٢٣) ! »

ولكن الاستجابة لم تكن حارة . وطالب فقيه من لاهوتي السوربون — وهى يومئذ كلية اللاهوت فى جامعته بباريس — بالموت جزاء لكل المهرطقين ، ونصح مندوب البابا كاترين بأن تبدأ بحرق جميع المندوبين الهيجونوت ، ثم تنفى بجميع الهيجونوت فى أورليان (٢٤) . أما المندوبون الهيجونوت

فاقترحوا على الملكة الأم شتى الاصلاحات : أن يختار الشعب جميع رعاياه الدينيين ؛ وأن يختار الرعاة وأشراف الأسقفيات أساقفتهم ؛ وأن يخصص ثلث الايرادات الكنسية لاعانة الفقراء ، وثلث آخر لبناء الكنائس والمستشفيات والمدارس ؛ وأن تقتصر تعاليم الكنيسة على الأسفار المقدسة (٢٥) وكان في هذا من التقدمية أكثر قليلا مما تطبيقه كاترين ، مع حاجتها الماسة لأموال الكنيسة . فهدأت من نائرة الهيجونوت بالافراج عن كونديه السجين وحض البابا بيوس الرابع على السماح بإزالة الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ومناولة الأسرار المقدسة بالخمركا تناول بالخبر (٢٦) . وفي ٢٨ يناير ١٥٦١ أفرجت عن جميع الأشخاص الذين اعتقلوا لـ « جرائم » دينية ، وأمرت بانهاء كل الاضطهادات بسبب الدين حتى إخطار آخر . وفي الحادى والثلاثين من يناير أجلت اجتماع مجلس الطبقات إلى مايو حين ينعقد ويسد حاجاتها للمال .

واغتبط الهيجونوت وتمددوا في دفع هذه القرارات . ففي ٢ مارس عقدوا في بواتييه مجمعهم القومى الثانى . وراح القساوسة البروتستنت يعظون دون تخرج في مساكن كونديه وكولينى ببلاط فونتبلو . وفي كاستر بجنوبى فرنسا خصصت الانتخابات البلدية (١ يناير ١٥٦١) البروتستنت بجميع الوظائف ، وما لبث أن صدر الأمر لجميع المواطنين بحضور الخدمات الدينية البروتستنتية (٢٧) ، وحظرت الخدمات الكاثوليكية ، وحكم على الصور والتماثيل الدينية رسميا بالانلاف والتعطيم (٢٨) . وفي آجن ومونتوين استولى الهيجونوت على الكنائس الكاثوليكية غير المستعملة . فشكل حاكم القلعة الهرم آن ديمونورنسى هو ودوق جيز ومارشال دسانت أندريه « حكومة ثلاثية » لحماية المصالح الكاثوليكية (٦ أبريل ١٥٦١) . وتفجر الشغب في باريس ، وروان ، وبوفيه ، وغيرها . وأصدرت الملكة « مرسوم يوليو » (١٥٦١) الذى حظر العنف وخدمات الهيجونوت الدينية العلنية وتجاهل الهيجونوت المرسوم ، وهاجوا المواكب الكاثوليكية في

مختلف المدن ، ودخلوا الكنائس الكاثوليكية وأحرقوا الآثار والرفات المقدسة وحطموا التماثيل (٢٩) . وفي مونبلييه ، في خريف عام ١٥٦١ ، نهبت الكنائس والديورة الستون كلها ، وقتل كثير من القساوسة ، وفي مونتوين أحرق دير « كلير الفقيرة » وشتت الراهبات ونصحن بأن يجدن لأنفسهن أزواجا (٣٠) . وفي نيم طرد الهيجونوت جميع القساوسة ، واستولوا على كل الكنائس الكاثوليكية أو دمروها ، وأحرقوا الكاتدرائية ، وداسوا القربان المكرس بأقدامهم (فبراير ١٥٦٢) (٣٢) . أما في لانجدوك وجين فكان الهيجونوت عادة إذا ملكوا زمام الأمر يستولون على الكنائس والإملاك الكاثوليكية ويطردون الكهنة الكاثوليك . ولم يكن القساوسة الهيجونوت أقل تعصبا من نظرائهم الكاثوليك وإن امتازوا عنهم في فضائلهم الشخصية (٣٤) ، فقد حرموا الهيجونوت الذين عقدوا زواجهم على يد القساوسة الكاثوليك أو سمحوا لأبنائهم بالزواج من الكاثوليك (٣٥) . وهكذا لم ير أحد الطرفين أى معنى للتسامح .

واستأنف مجلس الطبقات جلساته في أول أغسطس ١٥٦١ متخففاً بونواز مقرا له هذه المرة . وقدم المال للحكومة مشروطا بضرورة موافقته بعد ذلك على أى فرض للضرائب الجديدة أو إعلان للحرب . أما الطبقة الثالثة ، التى أصبحت الآن المورد الأكبر للمال ، فقد أضافت طلبا جريئا - هو تأميم جميع أملاك الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، وأن تدفع الدولة رواتب الكليروس ، وأن تخصص ٤٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيه من الفائض الحاصل بهذه الطريقة وقدره ٧٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيه لاستهلاك الدين الأهلى . وسارع رجال الدين الكاثوليك المروعين إلى مصالحة كاترين بأن عرضوا عليها ١٦٠٠٠٠٠٠٠ جنيه تدفع لها فى حذر على عشرة أقساط سنويا . فقبلت ، وحل مجلس الطبقات .

ففى هذه الأثناء كان لوييتال - بموافقة كاترين وبرغم احتجاج البابا - قد دعا رجال الدين الكاثوليك والبروتستانت للاجتماع وإيجاد صيغة لتهدئة

الخواطر . واجتمع في بواصي ، على أحد عشر ميلا غربي باريس ، ستة كرادلة ، وأربعون أسقفا ، واثنان عشر لاهوتيا من السوربون ، واثنان عشر من كهنة الكاتدرائيات ، وعشرة قساوسة بروتستنت من فرنسا ، وواحد من إنجلترا ، وتيودور دبيز من جنيف ، وعشرون علمانيا بروتستنتيا ، في « ندوة بواصي » المشهورة (٩ سبتمبر ١٥٦١) . حضر الندوة الملك ، والملكة الأم ، وامراء البيت المالئ ، ومجلس الدولة ، بكل مظاهر الجلال والكرامة . واستقبل بيز ، ممثل كالفن الشيخ ، بحفاوة تقرب من حفاوة الملوك ، وقام بخدمة دينية بروتستنتية ووعظ في قصر كاترين . بدأ عظته معتذرا ، وسحر السامعين جميعا بفرنسيته الرائعة ، ولكنه حين قال إن « جسد المسيح في القربان بعيد عن الخبز المكرس بعد السماء عن الأرض » ، صاح المندوبون الكاثوليك احتجاجا ، وتلا ذلك هياج كبير ، وألح الأساقفة في نفى كل الوعاظ الذين يتشككون في « الوجود الحقيقي » (٣٦) ، ورفضت الندوة والصراع على العقائد أشد مرارة . وأبعد ما يكون عن الهدوء .

كان الهيجونوت يطربون حين يعقدون اجتماعاتهم في ميدان عام مواجه لكنيسة كاثوليكية ويشوشون على القديس بتريل صاحب لزاميرهم ، أما الكاثوليك فكانوا يدقون جرس الكنيسة ليغرقوا صوت الترتيل . وفي باريس استحال استمرار اجتماع بروتستنتي تجاه كنيسة سان ميشار بسبب قرع عذيف صادر من برج الأجراس ، وقتل بروتستنتي داخل الكنيسة للاحتجاج ، فنارت نائرة البروتستنت ونهبوا المبنى وحطموا التماثيل والصليب . وجرح ثمانون من المصلين في المعركة التي تلت ذلك (٢٧ ديسمبر ١٥٦١) .

ورأت كاترين أن تهدي خواطر الكاثوليك بإصدار « مرسوم يناير » (١٥٦٢) ، الذي ألزم الهيجونوت بتسليم جميع المباني الكنسية لأصحابها السابقين ويعقد اجتماعاتهم خارج أسوار المدن فقط ، ووافق زعماء الكاثوليك

بين على أن هذا مرسوم تسامح في حقيقته ، اعترف بالبروتستنتية ديناً شرعياً في فرنسا ؛ وقال زعماء البرلمان لكاترين صراحة لانهم يؤثرون الموت على تسجيل هذا المرسوم . فلما أذان مونمورنسي وسانت أندريه سياستها ، طردتهما من البلاط ؛ ولما انفجر غضب الكردينال دتورنون ؛ عليها ألزمته عقر أسقفية . ورماها الوعاظ الكاثوليك بالفسق (مثل ايزابل امرأة آخاب) — وهو نفس النعت الذي كان يستعمله نوكس البرتستنتي تنديداً بملكة اسكتلنده الكاثوليكية .

وفي يوم الأحد أول مارس ١٥٦٢ ، بينما كان فرنسيس دوق جيز مارا بقرية فاسي التي تقع نحو أربعين ميلاً شمال غربي ديجون ، ومعه فرقة من مائتي تابع مسلحين ، وقف بكنيسة هناك ليستمع إلى القداس . ولكن الصلاة شوش عليها ترتيل الهيجونوت لزاميرهم في اجتماع لهم بجرن قريب . فأرسل إليهم رسولا يطلب إليهم ارجاء تراتيلهم خمس عشرة دقيقة حتى ينتهي القداس . ولكنهم وجدوا في هذا الطلب مضايقة شديدة . وبينما كان جيز يواصل صلاته تراشق بعض أتباعه بعبارات التحية المتعصبة مع الهيجونوت ، وجرّد الأتباع سيوفهم ، وقذفهم الهيجونوت بالحجارة ؛ وأصاب حجر منها جيز وهو خارج من الكنيسة فأسال دمه النبل ، وما هي إلا أن اندفع أتباعه هاجمين على اجتماع الهيجونوت الذي ضم خمسمائة بين رجل وامرأة وطفل — فقتلوا منهم ثلاثة وعشرين ، وجرحوا مائة (٢٧) . وأثارت « مذبحه فاسي » هذه حمى القتال في البروتستنت الفرنسيين ؛ أما الكاثوليك ، لا سيما في باريس ، فرحبوا بها أداة تهذيب جاءت في أوانها لتؤدب هذه الأقلية المكدرّة لصفو البلاد . وأمرت كاترين جيز بأن يحضر إليها في فونتنبلو ، فرفض ومضى إلى باريس ، وانضم إليه مورنمورنسي وسانت أندريه في الطريق ومعهم ألفا رجل . وأمر كوندية قواته البروتستنت بأن تتجمع بسلاحها في مو . وزحف الثلاثي الكاثوليكي بالحد على فونتنبلو ، فاعتقلوا الملكة الأم والأسرة المالكة ، وأكرهوهم على البقاء في ميلون على سبعة

وعشرين ميلا من باريس ، ثم شكلوا « مجلسا خاصا » جديدا ألف أكثر أعضائه من رجال جيز ، وأقصى عنه لوييتال . أما كونديه فقاد محاربيه البالغين ١٦٠٠ إلى أورليان وناشد كل الجماعات البروتستنتية أن تمدّه بالجنود . وهكذا بدأت أولى « الحروب الدينية » (أبريل ١٥٦٢) .

٣ - حكم الدم : ١٥٦٢ - ٧٠

طلب الفريقان المعونة من الخارج وحصلوا عليها ، الكاثوليك من أسبانيا ، والبروتستنت من إنجلترا وألمانيا ، فأرسلت اليزابث ٦٠٠٠ رجل لإذغراها وعد البروتستنت بإعطائها كالية ، واستولى ٢٠٠٠ منهم على روان ، ولكن جيز انتزع المدينة ونهبها (٢٦ أكتوبر ١٥٦٢) ، ونهب جنده المتعطشون للغنيمة السكان الكاثوليك والبروتستنت وذبحوهم دون تحيز لأى فريق . وفى هذه الاشتباكات جرح أنطوان دبوربون جرحا مميتا ، وكان قد اعتنق المذهب الكاثوليكي وانضم إلى القوات الكاثوليكية . وسيطر الهيجونوت على معظم المدن جنوبى فرنسا ، ناهبين الكنائس محطمين التماثيل بحماسة دينية . وزحفت أهم قواتهم وعدتها ١٧٠٠٠ رجل يقودهم كونديه وكولينى على نورمانديا لينضموا إلى التعزيزات الإنجليزية . فقطع عليهم الزحف عند درو جيش كاثوليكي قوامه ١٧٠٠٠ يقوده الحلف الثلاثى ، وفى ١٩ ديسمبر خاض الفريقان معركة حامية خلفت ٦٠٠٠ صرعى فى الميدان ؛ وقتل سانت أندريه ، وجرح مونمورنسى وأسر الهيجونوت ، وجرح كونديه وأسر الكاثوليك . وتغلبت روح المجاملة الفرنسية حينها ، فعومل مونمورنسى معاملة الأبطال ، وهو الذى دأب على القتال جنبا إلى جنب مع جنوده وجرح فى سبع معارك مع أنه القائد الأعلى لجيوش الملك ، أما الدوق دجيز فقد احتفى بكونديه ضيفا مكرما ، وتناول معه الطعام ، وشاركه الفراش الوحيد الموجود فى المعسكر (٢٨) . وعقد النصر غير الحاسم للكاثوليك ، ولكن بازيس والأسرة المالكة اعتقدا حينها أن الهيجونوت هم الغالبون . واستقبلت كاترين النبا فى هدوء قائلة : « حسنا إذن ، سنصلى لله بالفرنسية » (٣٩) .

أما جيز فقد لقي منيته عقب الانتصار . فبينما كان ينشر قواته لحصار أورليان رماه فتى هيجونوتي في التاسعة عشرة بدعى جان بولترو دميره (١٨ فبراير ١٥٦٣) بطلق نارى من كمين . ومات الدوق بعد ستة أيام من الألم ، وأكد بولترو حين أحضر أمام كاترين أن كوليني استأجره على قتل جيز بمبلغ كبير من المال ، وأن يبرز وعدة بالحنة ان وفق . وكتبت كاترين لكوليني تطلب جوابه عن التهمة ، فأنكر أى مشاركة فى خطة الاغتيال . وقال إنه طالما حذر الدوق من القتلة ، واعترف بأنه سمع بولترو يجهر بنيته ، وأنه لم يفعل شيئا لمنع ، وأنه نفحه بمائة كراون ، ولكن لأغراض أخرى ، وهو على أى حال غير آسف لنجاح المؤامرة ، « لأنه ليس فى استطاعة » القدر أن يضرب ضربة خيرا من هذه لصالح المملكة وكنيسة الله ، لا سيما وأنها لصالحى وصالح بيتي (٤٠) : « ومزقت الخيل أوصال بولترو فى ١٨ مارس ، وقد أعاد اتهامه لكوليني وهو يعانى سكرات الموت (٤١) . وأقسم هنرى أن يثار لموت أبيه ، بعد أن أصبح الآن ثالث أدواق جيز .

وواصلت كاترين سعيها للسلام ، وقد وضح لها أنه لو أتيح النصر الحاسم لأحد الفريقين لنحايها وربما عزل ولدها . فأعادت لوبيتال لمنصبه مستشارا لها ، ورتبت لقاء بين مونمورنسى وكونديه ، وأقنعتهم بتوقيع مرسوم أمبواز الذى أنهى الحرب الدينية الأولى (١٩ مارس ١٥٦٣) . أما الشروط فكانت نصرا للنبلاء الهيجونوت وحدهم : فقد منحت حرية الضمير وممارسة الدين « المسمى مصلحا » « لجميع البارونات والسنادة الاقطاعيين رؤساء القضاة فى بيوتهم ، هم وعائلاتهم وأتباعهم » و « للأشراف المالكين لاقطاعات بدون أتباع والعائشين على أراضى الملك ، ولكن لهم ولأسرهم شخصا » . أما عبادة الهيجونوت فيسمح بها حيث مارسوها قبل ٨ مارس ١٥٦٣ ، وإلا تقصر على أطراف مدينة واحدة فى أى وكالة اقطاعية أو منطقة نفوذ الشريف . أما فى باريس، فهى محظورة

اطلاقا . واتهم كوليني كونديه بأنه ضحى بجمهير الهيجونوت ليعمى طبقته .

وفي ١٥ سبتمبر أعلن بلوغ شارل التاسع رشده وهو لم يبلغ الرابعة عشرة ، ونزلت كاترين عن وصايتها ، ولكنها لم تنزل عن قيادتها . ففي مارس ١٥٦٤ قادت الملك وحاشيته في رحلة تخرق فرنسا ، من جهة لى الأمة مليكها الحديد ، ومن جهة أخرى لتدعم السلام الهش . وأصدرت في روستون مرسوما بالتسامح الجزئى ، داعية كلا من للفريقين إلى احترام حرية الآخر . وبعد أربعة عشر شهرا من الرحلة الملكية وصلت الجماعة إلى بايون (٣ يونيو ١٥٦٥) ، حيث رحبت كاترين في ابتهاج بابنتها اليراث التي أصبحت ملكة على أسبانيا ، واجتمعت مع الدوق ألفا في مفاوضات سرية أزجعت الهيجونوت . فقد خامرهم الظنون — بحق — فى أن ألفا أشار باتخاذ الإجراءات العنيفة ضدهم ، ولكن خطاباته المتخلفة لفليب تين أن كاترين رفضت اقتراحاته ، وأبت أن تطرد لوبيتال ، وتشبثت بسياستها السلمية (٤٢) . وعقب عودتها إلى باريس (ديسمبر ١٥٦٥) استخدمت كل نفوذها لتصالح بين كوليني ، ومورنورنى ، وكونديه ، ودوق جيز .

وفي عام ١٥٦٤ دخل اليسوعيون فرنسا ، وأثارت عظاتهم حماسة الكاثوليك ، وحولوا في باريس خاصة نفرا من الهيجونوت لمذهبهم . أما فى الأقاليم فقد ألغى رد الفعل الكاثوليكي كثيرا من المكاسب البروتستنتية . وانتهكت مراسيم التسامح المرة بعد المرة ، وأفرخت الحمجية فى قلوب المذهبيين . ولم يكن من غير المؤلف أن يشق حكام الأقاليم المواطنين لاجرمية سوى أنهم هيجونوت (٤٣) . وفى نيم ذبح البروتستنت ثمانين كاثوليكيا (١٥٦٧) (٤٤) . وبين عامي ١٥٦١ و ١٥٧٢ اقترفت ثمان عشرة مذبحا للبروتستنت ، وخمس للكاثوليك ، وأكثر من ثلاثين اغتالا (٤٥) . واستقدمت كاترين الجنود المرتزقة من سويسرة ولم تعط كولديه جوابا

شافيا حين سألها عن قصدتها من استقدامهم ، واعتقد كونديه وكولينى أن حياتهما فى خطر ، فحاولا مع أتباعهما المسلحين أن يقتلوا الملك والملكة الأم فى مو (سبتمبر ١٥٦٧) ، ولكن مونمورنسى أحبط المحاولة . وأصبحت كاترين تخشى كولينى خشيتها جيز من قبل .

وأحسن كولينى وكونديه أن الحاجة ماسة لحرب ثانية ترد للهييجونوت ولو حقوقهم المحدودة . فاستقدا هما أيضا المرتزقة لا سيما من ألمانيا تعزيزاً لقواتهما المستنزفة ، واستوليا على أورليان ولاروشل وزحفا على باريس وطلبت كاترين التعزيزات من ألفا ، فوافها بها فوراً ، وفى سان دنيس ، خارج العاصمة مباشرة ، قاد مونمورنسى ستة عشر ألف رجل ضد جيش كونديه فى معركة من أبشع معارك هذه الحروب وأقلها حسماً . ومات مونمورنسى من جراحه . وراحت فرنسا مرة أخرى تتساءل أى دين هذا الذى يدفع الناس إلى مذابح كهذه ، واغتنم لوييتال الفرصة ليرتب صلح لوانجومو (٣٣ مارس ١٥٦٨) ، الذى رد التسامح المتواضع الذى منحها مرسوم أمبواز .

وندد الكاثوليك بالمعاهدة ورفضوا تنفيذ شروطها . واحتج كولينى لدى كاترين ، فدافعت عن نفسها بضعفها . وفى مايو ١٥٦٨ أبلىخ خوان دى ثونيجال ، سفير أسبانيا فى روما ، أنه سمع من البابا بيوس الخامس أن الحكومة الفرنسية تنظر فى اغتيال كولينى وكونديه (٤٦) . ولعل مثل هذا النبأ قد نعى إلى الزعيمين البروتستانتين ، فهربا إلى لاروشيل ، حيث انضمت إليهما جان دالبير وابنها ، الذى بلغ الآن خمسة عشر عاماً وكان يتحرق للعمل . وتكون جيش هييجونوتى جديد ، وحشد أسطول ، وعززت الأسوار ، وصدت كل محاولات بذلتها قوات الحكومة لدخول المدينة . وقبلت المراكب الخاصة الإنجليزية تفويض كونديه ، ورفعت رايته ، وانقضت على كل ثروة كاثوليكية تقع فى يدها (٤٧) . وأصبح كونديه السيد المتصرف جنوبى الوار .

أما كاترين فقد اعتبرت هذه الحرب الدينية الثالثة ثورة ، ومحاولة لقسم فرنسا إلى أمتين واحدة كاثوليكية والأخرى بروتستنتية . ولامت لوييتال على فشل سياسات التوفيق التي أخذ بها ، فاستقال ، وأحلت مكانه في منصب المستشار مشايخا متعصبا لآل جيز . وفي ٢٨ سبتمبر ١٥٦٨ ألغت الحكومة مراسيم التسامح وحظرت البروتستنتية في فرنسا .

وأخذت القوات المتنافسة تتجهز لحرب فاصلة طوال ذلك الشتاء . وفي ٣ مارس ١٥٦٩ ، التحمت في جارانك قرب أنجوليم . فهزم الهيجونوت ، واستسلم كوندية بعد أن أعيته إصاباته ، ولكنه ضرب بالنار من المؤخرة ومات . قتل كولينى القيادة وأعاد تنظيم الجيش لتقهقر منظم . وفي موكونتور هزم الهيجونوت ثانية ، ولكن كولينى استعاد براعة التخطيط ما خسره في المعركة ، وزحف الهيجونوت الذين لا ثقل لهم عزيمة ، برغم افتقارهم إلى الانتصارات ، وبلاطعام تقريبا ، حتى لم يبق بينهم وبين باريس غير مسيرة ساعات (١٥٧٠) . وعلى الرغم من الاعانات المالية التي أرسلتها روما وأسبانيا ، وجدت الحكومة مشقة في تمويل جيوشها وحمل النبلاء الكاثوليك على البقاء في ساحة القتال أكثر من شهر أو شهرين كل مرة . واجتاحت جحافل المرتزقة خلال ذلك البلاد تهب الكاثوليك والبروتستنت على السواء وتقتل كل من يجروء على المقاومة .

وعرضت كاترين على كولينى تحديد معاهدة لونجومو ، فرفضها لأنها لا تقى بالغرض ، وواصل زحفه . هنا أكد الملك الفتى شارل التاسع سلطته فجأة وأبرم في سان جرمان (٨ أغسطس ١٥٧٠) صلحا أعطى الهيجونوت الذين هربوا مرارا من قبل أكثر مما كسبوا في أى وقت مضى ، أعطاهم حرية العبادة إلا في باريس أو على مقربة من البلاط ، وحققهم الكامل في تقلد المناصب العامة ، وحق الاحتفاظ بأربع مدن تحت حكمهم لمستقل مدى عامين ضمنا لاحترام تنفيذ هذه الشروط . واستشاط الكاثوليك غضبا وتساءلوا ، فيم الاستسلام بعد كل هذه الانتصارات ؟ واحتج

فليب والبابا • وصرفتهما كاترين بتأكيدهما هما أنها إنما تترقب القرصة المواتية *).

ومع ذلك راحت تدعم الصلح الحديد بعرضها تزويج ابنتها مارجريت فالوا من هنرى ملك نافار ، الذى أصبح بعد موت كوندية الزعيم الرسمى للهييجونوت . وكانت هذه آخر ضرباتها وأجراها . لا يهم كونها هى وجان دالبير خصمين للدودين ، ولا أن هنرى قتل فى الحرب من قتل من الكاثوليك . إنما المهم أنه صغير السن مطواع ، فلربما استطاع سحر أميرة جميلة مرحة أن يحتذبه بعيدا عن هرطقاته . إذن ستشهد باريس زفافا باهرا ، وسيدعى إليه الرجال والنساء من المذهبيين ؛ وستبعث من جديد روح النهضة المرححة وسط مرارة الاصلاح البروتستنتى ؛ وسيكون هناك تعطيل لنشاط اللاهوت ، والحرب ، والقتل .

٤ - المذبحة

ولكن ، أترضى بذلك أم هنرى ؟ لقد كانت جان دالبير هييجونوتية دما ولحما . وحين جاءت إلى البلاط عام ١٥٦١ أعلنت أنها « لن تحضر القداس ولو قتلوها قتلا ، وأنها تؤثر أن تلقى بابنها وملكه فى البحر عن أن تستسلم » (٤٨) ، بل أنها دعت قسيسها الهييجونوتى ليعظها والأبواب مفتوحة على مضاريعها ، وتجاهلت فى تحد الاتهامات التى رمتها بها الجماهير الباريسية . وحين اعتنق زوجها الكاثوليكية تركته هو والبلاط (١٥٦٢) وعادت إلى بيارن وجمعت المال والجديد لكونديه . وبعد موت زوجها فرضت البروتستنتية على إقلم بيارن (وكان يضم مدن بو ، ونيراك ، وتارب ، وأورتيه ، ولورد) ؛ وطردت الكهنة الكاثوليك وأحلت محلهم القساوسة الهييجونوت (٤٩) . ولم يسمع بعدها قداس فى بيارن طوال

(*) دافع اللورد أكتون ، المؤرخ الكاثوليكى ، بكفاية فى كتابه « تاريخ الحرية » (لندن ١٩٠٧) من ١٠١ - ٤٩ ، عن رأى القائل بأنها ظلت عامين قبل ذلك تظفر فى إمكان التخلص من زعماء الهييجونوت باغتيالهم .

حمسين غاما(١٠) . وحرّمها البابا بيوس الرابع وأراد أن يعزّلها ، ولكن كاترين ثنته(١١) ، ولعل جان ذكرت هذا حين قبلت عرضها بربط أسرقى فالوا وبوريون برباط الزواج ، وذكرت كفاح كاترين الطويل في سبيل السلام . ثم ان أبناء كاترين معلولون . أفليس من المحتمل أن يموتوا كلهم ويتركوا عرش فرنسا لهنرى نافار ؟ أو لم يتنبأ العراف نوسترا داموسى بأن أسرة فالوا ستقرض عما قليل ؟

أما أكثر أبناء كاترين سقاما ، وهو شارل التاسع ، فرمّا كان فتى محبباً لولا نوبات طارئة من القسوة والغضب تشتعل أحيانا فتستحيل سورة تشرف على الجنون . وفيما بين هذه الغضبات كان قصبة تحركها الريح ، وإمعة لا رأى له . ولعله أضعف نفسه بالانهماك في اللذات . كان زوجا لاليزابيث ابنة الامبراطور مكسمليان الثانى ، ولكن حبه الحرام الثابت كان لتحليلته الهيجونوتية مارى توشيه . وكان حساسا للفن والشعر والموسيقى ، يحب أن يتلو غنائيات رونزار ، وقد كتب في تكريم رونزار أبياتا جميلة جمال شعر رونزار :

كلانا يلبس تاجا ،
أما أنا فتلقيته ملكا ، وأما أنت فتهبه شاعرا ،
ان قيثارك التى تسحر بأنغامها الحلوة ،
تخضع لك الأرواح ، التى لا أملك غير أجسادها ،
انها ترقق القلوب ، وتسترقّ الحمال ،
في قدرتي أن أعطي الموت ؛ أما أنت فتعطى الخلود .

فلما انضم كولينى إلى البلاط فى بلوا (سبتمبر ١٥٧١) رحب به شارل كما يرحب الضعف بالقوة . هنا رجل مختلف كل الاختلاف عن الكثيرين الذين يراقصون حول العرش : جنتلمان ، وارسقراطى ، ولكنه هادئ رزين ، يحمل نصف فرنسا في قوة كلمته . وكان الملك الشاب يخاطب القائد المكنه بـ « أبى » ، وعينه قائدا للأسطول ، ومنحه من جيب

الملك الخاص ١٠٠.٠٠٠ جنيه تعويضا عن خسائره في الحروب . وانضم كوليني إلى مجلس الملك ورأسه في غيابه (٥٢) . وكان شارل دهم الغيرة والخوف من فليب الثاني ، كارهاً تبعية فرنسا الكاثوليكية لأسبانيا . وقترح عليه كوليني الرأي في حرب مع أسبانيا تعطى فرنسا قضية توحيد صفوف الفرنسيين ، وتصحيح ذلك الحد الشمالي الشرقي الذي تتعدى عليه أسبانيا ، ولقد آن أوانها لأن وليم أورنج يقود ثورة قامت بها الأراضي المنخفضة على سيدها الأسباني ، فما هي إلا دفعة قوية حتى تصبح فلاندر فرنسية . واستمع إليه شارل في تعاطف . وفي ٢٧ أبريل كتب إلى الكونت لوى ناسو الذى تزعم التمرد البروتستنتي في إينو يقول « إنه مصمم . . . على استخدام القوى التي أودعها الله في يده لتخليص الأراضي المنخفضة من الظلم الذى ترزح تحته (٥٣) » . وعرض لوى وأخوه وليم أورنج تسليم فلاندر وأرتوا لفرنسا لقاء تقديمها المعونة الحاسمة ضد أسبانيا (٥٤) . وفي خريف تلك السنة تفاوض شارل مع أوغسطس ناخب سكسونيا لتأليف حلف دفاعي بين فرنسا وألمانيا البروتستنتية (٥٥) .

أما كاترين فقد حكمت على اقترحات كوليني بأنها غير عملية إلى حد الحماقة . فمن الخرق أن تعود بهذه السرعة إلى اطلاق شياطين الحرب بعد أن ظفرت بالسلام الذى تفتقر إليه فرنسا أشد افتقار . صحيح أن أسبانيا فلسفة افلاس فرنسا ، ولكنها ما زالت أقوى دولة في العالم المسيحي ، ولقد كللت نفسها مؤخرًا بالغفار حين هزمت الترك في ليبانتو ، وإذن فستكسب تأييد كل أوربا الكاثوليكية ، ومعظم فرنسا الكاثوليكية - لو دخلت فرنسا حلفا بروتستنتيا . وفي حرب كهذه سيكون كوليني القائد الأعلى ، ويفضل نفوذه على شارل الطبع سيكون هو الملك الفعلي ، وستنحى كاترين إلى شينونسو إن لم يكن إلى إيطاليا . وعلم هنرى جيز رهنرى أنجو - أخو الملك - في فزع أن شارل سيجر لوكوليني بتجريد جيش للانضمام إلى لوى ناسو ؛ وقهر ألفا هذا الجيش بعد أن نهه إليه أصدقاؤه في البلاط الفرنسى (١٠ يوليو ١٥٧٢) . واستمع اجتماع كامل

لمجلس الملك إلى كوليني يدفع عن مقترحاته للخرب مع أسبانيا (٦-٩ أغسطس ١٥٧٢) ، ورفضت كلها بالاجماع ؛ ولكن كوليني أصر عليها قائلا : « لقد وعدت على مسئوليتي بمساعدة أمير أورنج ، فأرجو ألا يسوء الملك أن أوى بوعدى عن طريق أصدقائى ، وربما بشخصى . » ثم قال للملكة « سيدتى ، إن الملك يتجنب اليوم حربا تعده بمنافع عظيمة ، وقانا الله نشوب حرب أخرى لا يقوى على تجنبها (٥٦) » . وانفض المجلس فى غيظ شديد لما بدا كأنه تهديد بحرب أهلية ثانية . وقال المارشال دتافان « لتحذر الملكة من مشورات ابنها الملك وخططه وأحاديثه السرية ؛ ان الهيجونوت ظافرون به إن لم تأخذ حذرهما (٥٧) » . وأخذت كاترين شارل جانبا ولائته على أنه أسلم عقله لكوليني ، فان أصر على شن الحرب على أسبانيا فستستأذنه فى الانسحاب مع ابنها الآخر إلى فلورنسة . وطلب إليها الصفح ووعداها بطاعة الابن لأمه ، ولكنه ظل الصديق الوفى لكوليني .

فى هذا الجو قدمت جان دالبير إلى بلوا لعقد الزواج الذى كان مزمارا أن يوحد فرنسا الكاثوليكية والبروتستنتية . وأصرت على أن يقوم الكردينال ديوربون بالمراسم لا بصفة الكاهن بل الأمير ، لا داخل كنيسة بل خارجها ، وألا يصحب هنرى زوجته إلى الكنيسة ليستمع إلى القداس . ووافقت كاترين ، وإن أفضى هذا إلى مزيد من النزاع مع البابا ، الذى رفض الجل للارجريت بالزواج من الابن البروتستنتى لبروتستنى محروم . ثم ذهبت جان إلى باريس تتسوق ، فرضت بذات الحب ، وماتت (٩ يونيو ١٥٧٢) . وخامرت الهيجونوت الظنون بأنها ماتت مسمومة ، ولكن هذا الفرض لم يعد له محل (١٥) ، وحضر هنرى نافار إلى باريس من بلوا فى أغسطس على الرغم من شكوكه وحزنه ، مصحوبا بكوليني وثمانائة من الهيجونوت ، ولحق بهم أربعة آلاف هيجونوت فى العاصمة (٥٩) ، من جهة ليشهدوا الاحتفالات ، ومن جهة أخرى ليحموا ملكهم الشاب . وأثار هذا السيل المتدفق وما رافقه من عشرات العظايا

النارية حفيظة باريس الكاثوليكية (٦٠) ، فنددت بالزواج لأنه استسلام من الحكومة للقوة البروتستنتية . ومع ذلك تم الاحتفال (١٨ أغسطس) دون حل من البابا ، واتخذت كاترين تدابيرها لتمنع البريد من الاتيان بحظر بابري . وقاد هنرى زوجته حتى باب نوتردام ، ولكنه لم يدخل معها . ان باريس لم تكن فى نظره تستأهل بعد أن يحضر قداسا من أجلها . ونزل مع مارجریت قصر اللوفر مؤقتا .

لم تجش باريس- بمثل هذا الانفعال من قبل إلا فيما ندر . واعتقد الناس أن كولبنى يتأهب للذهاب إلى جبهة القتال لأنه ما زال مصرا على المعونة العلنية تبذلها فرنسا للأراضى المنخفضة الثائرة . وأندر بعض الكاثوليك كاترين بأن الهيجونوت يخططون مرة أخرى لمحاولة خطفها هى والملك (٦١) . وكشف طرق السندانات فى أرجاء المدينة عن صنع السلاح على عجل . فى هذه الفترة الحاسمة وافقت كاترين ، فيما زعم ابنها هنرى ، على قتل الأميرال (٦٢) .

ففى ٢٢ أغسطس ، بينما كان كولبنى يسير من اللوفر إلى بيته ، قطع عياران أطلقا من نافذة سبابة يسراه ومزق ذراعه حتى الكوع . واندفع رفاقه إلى المبنى ، ولكنهم لم يجدوا سوى قريينة مدخنة ، فقد هرب المعتدى من الخلف . وحمل كولبنى إلى مسكنه . وحين نعى الخبر إلى الملك صاح غاضبا « ألا يتاح لى الهدوء أبدا ؟ » وأرسل طبيبه الخاص ، أمبرواز بارى ، الهيجونوتى ، ليعالج جراح كولبنى ، وعين حراسا ملكيين على بيته ، وأمر الكاثوليك بأن يخلوا المساكن المجاورة وسمح للهيجونوت بشغلها (٦٣) . وحضرت الملكة والملك وأخوه هنرى لمواساة الجريح ، وأقسم شارل بـ « أغلظ الأيمان » لينتقم لـ كولبنى من هذا العدوان . وعاد كولبنى حث شارل على دخول الحرب للحصول على فلاندر (٦٤) . وانتحى به جانبا وأسر إليه شيئا . وبينما الأسرة المالكة فى طريقها إلى اللوفر ، أصرت كاترين على أن ييوح الملك بالسر . فأجاب « حسنا إذن ، قسما بموت

الإله ، ما دمت تصرين على أن تعرفي ، فهناك ما قاله لى الأميرال : أن السلطة كلها تحطمت في يديك ، وأن النهاية ستكون وبالا على . وفي سورة غضبه حبس الملك نفسه في غرفته الخاصة . وراحت كاترين تجتر همومها في غيظ وخوف (٦٥) .

وذهب هنرى نافار إلى كوليني وناقش معه إجراءات الدفاع : وأراد بعض حاشية الأميرال أن يمحضوا لتوهم ويغتالوا الزعماء من آل جيز ، ولكنه نهاهم . وقال الهيجونوت « إذا لم تجر العدالة مجراها كاملا فهم لا بد مجروها بأنفسهم (٦٦) » . وراح الهيجونوت يحومون حول اللوفر طوال ذلك اليوم ، وقال أحدهم للملكة إنهم سيقنصون من الخاني بأيديهم إن لم يأخذ العدل مجراها سريعا (٦٧) . ومرت عصابات من الهيجونوت المسلحين المرة بعد المرة بأوتيل اللورين الذى يقيم فيه آل جيز وصاحت تهديد بالموت (٦٨) . ولجأ آل جيز إلى الماك طالبين الحماية وتحصنوا في بيتهم . أما شارل فقد اشتبه في أنهم استأجروا القاتل وقبض على نفر من خدمهم وهدد دوق جيز . واستأذن هنرى جيز وأخوه دوق أومال في أن يغادروا باريس ، فأذن لهما ، ومضيا حتى بوابة سانت انطوان ، ثم انقلبا عائدين واتخذتا طريقهما خفية إلى أوتيل اللورين .

وفي ٢٣ أغسطس اجتمع مجلس الملك للتحقيق في الجريمة . وتبين للمجلس أن البيت الذى أطلق منه العياران تملكه (وإن لم تشغله) دوق جيز الأرملة ، التى أقسمت من قبل على أن تثار لمقتل زوجها فرنسيس ؛ وأن القاتل هرب ممتطيا جوادا من مرابط أسرة جيز ، وأن السلاح كان ملكا لأحد حرس الدوق أنجو . ولم يقبض على القاتل قط . وفي رواية لأنجو بعد ذلك أنه هرب وهنرى جيز قررا الآن أنه لا بد من قتل كوليني وبعض الهيجونوت الآخرين . وبينما كانت كاترين وبعض أعضاء المجلس مجتمعين في التويلرى ، اندفع إلى الاجتماع عميل لأنجو يسمى بوشافان معلنا أن الهيجونوت في بيت كوليني يخططون لفتنة عنيفة يقومون بها على الأرجح

فى المساء التالى (٦٦). وأضيف الآن عامل جديد إلى كراهية كاترين للأميرال ، وغضبها مما لاح لها أنه أغواء منه للملك ليحرمه من إرشادها ، واقتناعها بأن سياسة الحرب مع أسبانيا ستكون وبالا على فرنسا وعلى أسرتها - ذلك هو الخوف على حياتها من خطر داهم ، وخشيتها أن تنتقل كل السلطة سريعا إلى أبدى كولبنى وأصحابه . فوافقت على قتل زعماء الهيجونوت (٧٠)،

ولكن موافقة الملك كانت أمرا مرغوبا فيه ، ان لم يكن ضروريا ؛ وكان لا يزال يطالب بمحاكمة جميع من لهم علاقة بالهجوم على كولبنى . وحوالى الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم (٢٣ أغسطس) أرسلت الملكة الأم الكونت رتزر ليحذر شارل من الفتنة المزعومة ، وسرعان ما أحاطت كاترين ومستشاروها بالحاكم الشاب الذى شارف الآن على الجنون لفرط انفعاله . وأكدت له كاترين أن ثلاثين ألفا من الهيجونوت يخططون لاعتقاله فى الغد وخطفه إلى قلعة بروتستنتية حيث يظل أسيرا لا حول له ولا قوة ؛ أو لم يحاولوا من قبل أن يضربوا هذه الضربة مرتين ؟ فإذا تم لهم النصر قتلوها للشبهة فى إصدارها الأمر بالاعتداء على الأميرال أو السماح بهذا الاعتداء . وقيل للفتى ذى الثلاثة والعشرين ربيعا أن يختار بين حياة أمه أو حياة ستة من الهيجونوت . فلو أنه رفض الموافقة وتغلبت باريس الكاثوليكية على الثورة ، لنحى جانبنا لأنه جبان أحق . ولكنه قاوم هذه الحجج ؛ وسأل ، لم لا يكفى أن يقبض على زعماء الهيجونوت ويحاكموا قانونيا ، وأجاب المستشارون ان الوقت فات لتفادى الثورة بمثل هذا الإجراء . وهددته كاترين بأنها ستسحب إلى إيطاليا وتركه لمصيره . وأخيرا ، بعد أن قارب الليل أن ينتصف ، وفى نوبة من الانهيار العصبى والغضب ، صاح شارل ، « قسما بموت الإله ، ما دمتم تريدون قتل الأميرال ، فأنا موافق ، ولكن يجب أن تقتلوا جميع الهيجونوت فى فرنسا ، حتى لا يبقى منهم أحد ليلومنى . . . اقتلوهم جميعا ! اقتلوهم جميعا ! » وبعد أن لمن وجدف ، هرب من مستشاريه وحبس نفسه فى حجرته .

وإذا كان المتآمرون قد دبروا قتل نفر من الهيجونوت ، فأنهم اغتصموا الآن فرصة هذا الأمر الخنون الذى نطق به الملك ليستأصلوا شأفة الهيجونوت ما أمكنهم ذلك . وأصرت كاترين على حماية هنرى نافر ، واستثنى أمير كوندية الشاب - هنرى الأول - وآل مونمورنسى لأنهم أنبل أصلا من أن يسمح بقتلهم ، وأنقذ الملك الجراح أمبرواز باريه ، ولكن الأمر أبلغ لقواد أحياء باريس بأن يسلحوا رجالهم ويستعدوا للعمل بمجرد سماعهم أجراس الكنائس تدق فى الثالثة من صباح ٢٤ أغسطس ، وهو عيد القديس بارتولوميو . وأعطى دوقا جيز تفويضا مطلقا بانفاذ ثأرها من الأميرال بعد أن طال لإرجاؤه . وأرسل هنرى جيز كلمة إلى ضباط الميليشيا بأن على رجالهم حالما يسمعون ناقوس الخطر يقرع أن يذبحوا كل هيجونوتى يعثرون عليه ؛ أما أبواب المدينة فتقفل لتنع الهاربين من الهروب .

وبينما كان الظلام لا يزال مخميا قاد جيز نفسه ثلاثمائة جندى إلى المبنى الذى ينام فيه كولبنى . وكان على مقربة منه باريه طيبه ، وميرلان سكرتيره ، ونيقولا خادمه . وأيقظهم وقع أقدام جند مقبلين ، ثم سمعوا طلقات وصيحات - كان حرس كولبنى يقتلون . واندفع صديق إلى الحجرة وهو يصيح « لقد قضى علينا ! » وأجاب الأميرال ، « لئنى أعددت نفسى للموت منذ زمن طويل . فأنقلدوا أنفسكم . لا أريد أن يلومنى أحباؤكم على موتكم . أستودع روحى لرحمة الله » . وهربوا . واقتحم جند جيز الباب فوجدوا كولبنى راكعا يصلى . وطعنه جندى بسيفه وشق وجهه ؛ وطعنه آخرون ؛ ثم قذف من النافذة وهو حى بعد فسقط على للرصيف أسفلها عند قدمى جيز . وبعد أن تأكد الدوق من موت كولبنى أمر رجاله بأن ينتشروا فى باريس ويذبحوا هذه العبارة « اقتلوا ! اقتلوا ! » هذا أمر الملك . « وفصل رأس الأميرال عن جسده وأرسل إلى اللوفر - وقيل إلى روما (٢١) ، أما الحسد فسلم للجماهير التى مثلت به تمثيلا وحشيا »

ققطعت الأيدي والأعضاء التناسلية لثعرضها للبيع ، وعلقت بقبته من عرقوبه (٧٢) .

وأرسلت الملكة خلال ذلك الأوامر لدوق جيز بوقف المذبحة لشعورها بشيء من الندم أو الخوف . وكان الجواب أن الأوان فات ؛ أما وقد مات كوليني ، فلا بد من قتل الهيجوت وإلا فهم لا محالة ثائرون . وخضعت كاترين وأمرت بقرع ناقوس الخطر . وتلت ذلك مذبحة ندر أن عرقها المدن حتى في جنون الحرب ؛ واغتبطت الجماهير باطلاق دوافعها المكبوتة لتضرب وتوجع وتقتل . فاقتنصت وذبحت من الهيجونوت وغيرهم عددا يتفاوت بين الألفين وخمسة الآلاف ؛ واستطاع من يتوانى نية القتل من قبل أن يقتلوا الآن خصومهم وهم آمنون من العقاب ؛ واغتتم الأزواج المعذبون أو الطامعون والزوجات الفرصة ليتخلصوا من زوجاتهم وأزواجهن غير المرعوب فيهم ، وذبح التجار منافسيهم ، ودل الورثة المنتظرون على أقربائهم الذين طال ترقبهم لموتهم وأتهمهم بأنهم هيجونوت (٧٣) . وقتل راموس الفيلسوف بتحريض أستاذ حسود . واقتحم كل بيت اشتبه في إيوائه الهيجونوت وقتل . وجرح الهيجونوت وأبنائهم إلى الشوارع وذبحوا الأنعام وانتزعت الأجنة من بطون أمهاتهم القتيلات وهشموا (٧٤) . وما لبثت الجثث أن تناثرت على أرصفة الشوارع ، وأخذ الصبية يلعبون ألعابهم فوقها . ودخل حرس الملك السويسريون المعمرة وراحوا يذبحون في غير تمييز للذة الذبح الخالصة . وقتل رجال مقنعون الدوق دلا روشفوكو الذي لعب التنس مع الملك بالأمس ، وقد حسبهم جاءوا يدعونه إلى حفلة ملكية . ودعى النبلاء والضباط الهيجونوت الذين انزلوا قصر اللوفر باعتبارهم حاشية ملك نافار . إلى الفناء وضربوا بالنار واحدا بعد الآخر عند وصولهم . أما هنري فكان قد خرج لليلع التنس بعد أن استيقظ في الفجر . وأرسل شارل في طلبه هو وكونديه وخيرهما بين « القديس أو الموت » واختار كونديه الموت ، ولكن الملكة أنقذته . أما نافار فوعد بالامثال فأبقى عليه . وأما عروسه

مارجريت النائمة نوما مضطربا فقد أيقظها هيجوتوتى جريج اندفع إلى حجرتها وفراشها ، فأقنعت مطارديه بألا يقتلوه . ذكر السفير الأسباني في تقريره « إنهم يقتلونهم جميعا وأنا أكتب هذا ، إنهم يعرفونهم .. ولا يعرفون أحداً حتى الأطفال . ثبارك الله ! » (٧٥) أما وقد أصبح القانون ذاته خارجا على القانون ، فقد انطلق السلب والنهب في غير قيد ، وأبلغ الملك أن بعض حاشيته شاركوا في نهب العاصمة . واتمس منه بعض المواطنين المروعين عند ما اقتربت المظاهرة أن يأمر بوقف المذبحة ، وعرضت جماعة من شرطة المدينة أن تعاون على استتباب الأمن . فأصدر الأوامر بوقف المذبحة ، وأمر الشرطة بأن يحبسوا البروتستنت حماية لهم ؛ ثم أنقذ بعض هؤلاء ، وأغرق غيرهم بأمره في السين . وهدأت المذبحة هنيئة . ولكن حدث في يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر ، أن شجيرات الشوك البري أزهرت في غير أوانها في مقبرة الأطفال ؛ وهلل الكهنة للأمر حاسبينه معجزة ، وقرعت أجراس الكنائس في باريس احتفالاً به ، وظنت الجماهير أن هذا القرع دعوة إلى تجديد المذبحة ، فاستؤنف القتل من جديد .

وفي اليوم السادس والعشرين ذهب الملك في موكب رسمي هو وحاشيته إلى قصر العدالة مخترقا الشوارع التي ما زالت البثث مبعثرة فيها ، وشهد لبرلمان باريس في فخر بأنه أمر بالمذبحة . وأجاب رئيس البرلمان بخطاب تهنئة طويل . وقرر البرلمان بأن ورثة كوليني يجب حرمانهم من حماية القانون ، وأن بيته في شاتيون يجب أن يهدم ، وأن ما بقي من أملاكه يجب أن يصادره الدوق أنجو . وفي اليوم الثامن والعشرين زار الملك والمملكة الأم والحاشية عدة كنائس في احتفال ديني للشكر على تخليص فرنسا من الهرطقة ونجاة الأسرة المالكة من الموت .

وحدثت الأقاليم حذور باريس بأسلوب الهواة ، فارتكبت المدايح الجنونية بوحى الأنباء الواردة من العاصمة في ليون ، وديجون ، وأورليان ، وبلوا ، وتور ، وتروا ، ومو ، وبورج ، وأنجييه ، وروان ، ونولوز

(٢٤ - ٢٦ أغسطس) . وحسب حاك دتو ٨٠٠ ضحية في ليون ، و١٠٠٠ ضحية في أورليان . أما الملك فقد شجع هذه الإبادة ، ثم نهى عنها ، ففى السادس والعشرين من الشهر أرسل تعليمات شفوية لحكام الأقاليم بأن يقتلوا كل زعماء الهيجونوت (٧٦) ، وفى السابع والعشرين أرسل إليهم أوامر مكتوبة بأن يحموا البروتستنت المسلمين الممثلين للقانون . وفى الوقت ذاته كتب لممثله فى بروكسل أن يلتمس تعاون الدوق الفا :

« إن فى يد الدوق كثيرا من رعاياى المتمردين ، وفى قدرته أن يستولى على مونز ويعاقب (المحاصرين) فيها . فإن أجابك بأن المفهوم من هذا ضمنا قتل هؤلاء السجناء وتقطيع المحاصرين فى مونز ، فقل أن هذا ما يجب أن يفعله (٧٧) » .

ورفض ألفا الدعوة . ولما استولى على مونز سمح للحامية الفرنسية أن تغادرها دون أن يصيبها أذى . وكان بينه وبين نفسه يحتقر مذبة القديس بارتلوميو لأنها وسيلة خسيسة للحرب ، ولكنه أمام الناس أمر بالاحتفال بالمذبة انتصارا للدين المسيحى الحق دون غيره (٧٨) .

واستطاع بعض حكام الأقاليم أن يفرضوا على جماهيرهم ضبطا جديرا بالمتحضرين . فلم يكن هناك مذابح فى شيمانيا ؛ ولا فى بيكاردى ، ولا فى بريتنى ، وكان قليل منها فى أوفرن ، ولانجدوك ، وبرجنديا ، ودوفينى . وفى ليون ندد كثير من الكاثوليك بالمذبة ، وأبى الجنود أن يشاركوا فيها ، وفى فيين بسط الأسقف حمايته على البروتستنت ، وخبأت الأسر الكاثوليكية الهيجونوت المهددين بالخطر (٧٩) . أما فى تروا وأورليان فقد أرخى الأساقفة اللعان للمذبة (٨٠) ، وفى بوردو أعلن يسوعى أن الملاك ميخائيل قد أمر بالمذبة ، وندد ببطء الحكام فى إصدار أوامر القتل . وأغلب الظن أن الأقاليم ساهمت بخمسة آلاف ضحية ، وباريس بنحو ألفين ، ولكن بعضهم يقدر جملة الضحايا بعدد يتفاوت من خمسة آلاف (٨١) إلى ثلاثين ألفا (٨٢) .

وأغضى الكاثوليك عموما عن المذبحة باعتبارها انفجارا للغضب والثأر بعد سنين من اضطهاد الهيجونوت للكاثوليك (٨٣) . أما غليب الثاني فقد ضحك على غير عبوسه وجهامته المألوفة حين سمع النبأ، وحسب أنه لن يكون هناك خطر من تدخل فرنسا في الأراضي المنخفضة . أما الممثل البابوي في باريس فكتب إلى روما يقول : « أهني قداسة البابا من أعماق قلبي على أن الله جل جلاله شاء في مستهل بابويته أن يوجه شئون هذه المملكة توجيه غاية في التوفيق والنبل ، وأن يبسط حمايته على الملك والمملكة الأم حتى يستأصلا شأفة هذا الوباء بكثير من الحكمة ، وفي اللحظة المناسبة حين كان كل المتمرين محبوسين في القفص (٨٤) » . وحين وصل النبأ إلى روما نفع كردينال اللورين حامله بألف كراون وهو يهتز طربا . وسرعان ما أضيئت روما كلها ، وأطلقت المدفعية من قلعة سانت انجلو ، وقرعت الأجراس في ابتهاج ، وحضر جريجوري الثالث عشر وكرادته قداسا مهيبا لشكر الله على « هذا الرضى الرائع الذي أبداه للشعب المسيحي » ، والذي أنقذ فرنسا والكرسي البابوي المقدس من خطر عظيم . وأمر البابا بضرب مدالية خاصة تذكارا لهزيمة الهيجونوت أو ذبحهم (٨٥) - وعهد إلى فازاري بأن يرسم في الصالة الملكية بالفاثيكان صورة للمذبحة تحمل هذه العبارة - « البابا يوافق على قتل كوليني » (٨٦) .

أما أوروبا البروتستنتية فقد دمغت المذبحة بأنها همجية كلها جبن ونذالة . وأخبر ولیم أورنج المبعوث الفرنسي أن شارل التاسع لن يستطيع أبدا أن يغسل يديه من دم الجريمة . وفي إنجلترا أهدق المطالبون بالثأر باليزابيث ،

(.) يحاول المؤرخ السكاوليكي باستور - برغم عدم اعتداده عن المذبحة - أن يعال فرحة البابا بأنها شعور الارتياح بعد الخوف من أن يقضى انقصار كوليني على السكاوليكية في فرنسا ، وأن يؤدي إلى اتحاد فرنسا مع إنجلترا وهولندا واسكتندناوه وشمال ألمانيا - وكلها بلاد بروتستنتية - في حرب إبادة للسكاوليكية في كل مكان (كتلك التي دعا إليها لوتر (٨٧)) .

ونصحها الأساقفة بأن السبيل الوحيد لهدئة غضب الشعب أن تعمد على الفور كل الكاثوليك الذين أودعوا السجون لرفضهم حلف يمين الولاء ؛ أو على الأقل يجب إعدام ملكة اسكتلندة فوراً (٨٨) . على أن اليزابث احتفظت بهدوئها . وارتدت ثياب الحداد الثقيل لتستقبل السفير الفرنسي ، وقابلت تأكيدات أن المذبحة فرضتها مؤامرة الهيجونوت الوشيكة بعهد التصديق الواضح . ولكنها واصلت ضرب أسبانيا بفرنسا ، ومما طلة النسون في الاستجابة لطلب يدها ، وفي نوفمبر وافقت على أن تكون عرابة لابنة شارل التاسع .

أما كاترين فقد خرجت من المقتلة مبهجة منتعشة ؛ لقد خضع لها الملك الآن من جديد ، وبدأ أن مشكلة الهيجونوت حلت . ولكنها أخطأت التقدير ، إذ تبين أن ارتداد الكثيرين من البروتستنت الفرنسيين الذين ارتضوا اعتناق الكاثوليكية بديلاً عن الموت لم يكن غير ارتداد مؤقت . فما مضى شهران على المذبحة حتى افتتح الهيجونوت الحرب الدينية الرابعة . وأغلقت لاروشيل وعدة مدن أخرى أبوابها في وجه جيش الملك وأفلحت في مقاومة الحصار . وفي ٦ يوليو ١٥٧٣ وقع شارل صلح لاروشيل الذي منح الهيجونوت حريتهم الدينية . إذن فالمذبحة لم تحقق من الناحية السياسية شيئاً .

وانصرف الآن رجال الفسك من الهيجونوت عن شارل التاسع في استمزاز شديد ، وهم الذين أعلنوا من قبل ولاءهم له ، وراحوا يشككون لافي حق الملوك الإلهي فحسب ، بل في نظام الملكية ذاته . ونشر فقيه هيجونوتي يدعى فرانسوا أوتمان بعد سنة من قراره إلى سويسرة عقب المذبحة كتاباً فيه هجوم عنيف على شارل سماه « الضجة الغالية » ، وقال فيه إن جرائم ذلك الملك أحلت شعبه من يمين الولاء له ، وأنه مجرم لا بد

من عزله ٥ وقبل أن ينصرم العام أصدر أوتمان من جنيف كتابه « غالة الفرنسية » وهو أول محاولة حديثة في كتابة التاريخ الدستوري ، وحجته أن الملكية الغالية - الفرنسية قامت على الانتخاب ، فالملك - إلى عهد لويس الحادى عشر - كان خاضعا لمجلس شعبي من نوع ما ، والبقايا المزيلة التى تخلفت عن هذه السلطة الانتخابية هى هذه « البرلمانات » الدليلة ، ومجلس الطبقات الذى طال إغفاله ؛ وهذه السلطة منحت لتلك الهيئات بتفويض من الشعب . « فالشعب وحده صاحب الحق فى انتخاب الملوك وعزلهم (٨٩) » . ثم طالب باجتماع مجلس الطبقات دوريا ، فهذه ائنيثة دون سواها هى التى يجب أن يكون لها سلطة إصدار القوانين ، وتقرير الحرب أو السلم ، والتعيين فى المناصب الكبرى ، وتنظيم ولاية العرش ، وعزل الملوك الفاسدين . فها هنا بداية هزيم الرعود التى انطلقت عام ١٧٨٩ .

على أن الحياة ذاتها هى التى أنزلت شارل التاسع عن عرشه بعد قليل . ذلك أن الخير والشر قد اضطربا داخله حتى تحطم جسده السقيم بفطرته تحت وطأة الصراع . كان حينما يشعر بالارتياح الخبيث لجرأة جريمته وعنفها ، وحينما ينحى على نفسه باللوم لأنه وافق على المذبحة ؛ وظلت صرخات القتلى من الهيجونوت ترن فى أذنيه وتطرد النوم عن اجفانه . وبدأ يؤنب أمه ويقول لها « من غيرك تسبب فى هذا كله ؟ قسما بدم الإله إنك أنت السبب فى كل ما حدث » . أما هى فكانت تشكو من أن ولدها مجنون (٩٠) . ورائت عليه الكآبة والحزن ، وبات نحيل الجسد شاحب الوجه . وكان فيه استعداد قديم للسيل ، فلما ضعفت مقاومته هذه المرض ، وما أقبل عام ١٥٧٤ حتى كان يبصق الدم . وفى الربيع اشتد نزيفه وعادته روى ضحاياه ، وصاح بمرضته « أى سفك للدماء ، أحمى قتل ! يا لها من مشورة شريرة تلك التى اتبعتها ! غفرانك ربي ! ... »

إننى هلك ! (٩١) . وأرسل يوم وفاته - ٣٠ مايو ١٥٧٤ - فى طلب هنرى نافار . فعانقه فى حب وقال له « يا أخى ، انك فاقد صديقا وفيا . فلو أننى استمعت إلى كل ما قيل لى لما كنت الآن على قيد الحياة . ولكننى أحبتك دائما . . . وفيك وحدك أضع ثقى بأن ترعى زوجتى وابنتى . صل إلى الله من أجلى . وداعا » . ثم مات بعدها بقليل قبل أن يبلغ الرابعة والعشرين .

الفصل الرابع عشر

هنرى الرابع

١٥٥٣ - ١٦١٠

١ - الحب والزواج

كانت أم هنرى فى العمد مارجريت أنجوليم ، أميرة فالوا ونافار ، والأخت الثقية الحساسة ، المحبوبة ، لفرانسيس الأول ، الحرى ، الأنيق ، عاشق النساء . أما أمه فجان دالبير المهرطقة ، العنيدة ، المتمردة ، وأما أبوه انطوان بوربون حفيد القديس لويس فكان وسيا ، شجاعا ، كيسا ، مغرورا ، ميالا إلى التذبذب من مذهب إلى مذهب . ولا بد أن هنرى حمل بين جنبيه - وهو يخرج إلى النور (١٤ ديسمبر ١٥٥٣) فى مدينة بواقليم بيارن - كل صفات اسلافه إلا التقوى . وقد أقنع جده السعيد أمه جان وهى فى المخاض بأن ترتل للعداء ترتيلة ، لثقتة بأنها ستكون فالأ حسنا ، ثم دعك شفتى الوليد بالثوم وسقاه النبيذ على سبيل العمد فى بيارن . أما البطل فقد استنفد لبن ثمانى مرضعات .

لم يستطب التعليم ، فقد كره الكتابة ، وهرب من النحو ، ولكنه تعلم كيف يكتب بأسلوب ساحر . وقرأ بلوتارخ كأنه إنجيل البطولة . وربنى أكثر وقته فى الخلاء ، وبرز فى الحرى والوثب والمصارعة والركوب والملاكمة ، وأكل الخبز الأسود والجبن والبصل ، واستمتع بالصيف والشتاء بلدة سخرت من التشاؤم . نشئ هيجونوتيا ، ولكنه لم يسمح قط للدين بأن يعطل الحياة . وحين دعى فى التاسعة للعيش فى البلاط وتعلم آدابه وأخلاقه ، اعتنق الكاثوليكية فى غير تردد ، ولما عاد إلى بيارن فى الثالثة عشرة استأنف العقيدة الميجونوتية كأنه يغير ملبسه وفقا لتغير المناخ .

وكان يتنقل بيسر أعظم من غرام إلى غرام - فأحب نجنوتفيل الصغيرة ،
والآنسة مونتاجو ، وأرنودين ، ولأجارس (البغي) ، وكاترين دلوك ،
وآن دكامبفور . لقد كان يطرح العقائد والخليلات دون أن يعذب ضميره
أو يغير هدفه .

فأما هدفه فهو أن يتربع على عرش فرنسا . فلما ناهز التاسعة عشرة ،
أصبح ملكا على نافار بعد أن مات أبوه ؛ ولكن هذا لم يكن سوى لقمة
أثارت شهيته للملكية دون أن تشبعها ، وذهب إلى باريس ليزف إلى
مارجريت فالوا ، فاستقبل استقبال وريث للعرش لا يسبقه في خط الوراثة
غير دوق أنجو ودوق أُلنسون . وعندما وقعت المذبحة عقب زواجه ،
تمالك جأشه وأنقذ رأسه بالارتداد المؤقت عن مذهبه .

وأما عروسه « مارجو » فكانت أعظم نساء فرنسا فتنة وألينهن
عريكة . فجعلها لا يرقى إليه شك ، وقد تغنى به رونسار ، ورتل بروننوم
قصائد الغزل المشبوب في بشرتها الطرية الناعمة ، وشعرها المتموج أو
باروكاتها المتنوعة ، وعينها اللتين ترشقان المرح أو الغضب أو الشيطنة ،
وقوامها الممشوق كقوام محظية من محظيات القصور ، المهيب كقوام
ملكة ، وقدمها الرشيقتين تقودان رقصات البلاط ، وفيض حيويتها في
جيل كله صراع وكآبة ، كل هذه المفاتن اجتذبت العدد الوفير من العشاق
إلى مخدعها ، وأتهمها الشائعات بالاستسلام للبق للغرام بل ولعشق المحارم^(١) .
ولم يكن في وسع هنرى أن يشكو وهو ذو العين الزائفة بين الحسان ،
ولكن حين استأنفت مارجو ذبذباتها - وكانت تزوجته على غير إرادتها
- بعد انحناء قصيرة منه لزواج المرأة الواحدة ، بدأ يساءل من ترى
سيكون أبا لأطفاله . واتخذ له خليله ، ثم مرض ، فلم تدخر جهدا في
تمريضه ، وإن عزت علته إلى « افراطه مع النساء » . ولكن سرعان
ما باعدت بينهما الشكوك المتبادلة حتى لقد كتبت تقول « لم نعد ننام معا ،
ولا يكلم أحدهنا الآخر^(٢) » .

وظل في البلاط ثلاث سنوات على كره منه . وذات ليلة (١٥٧٥)
بينما كان يصيد ، رمح بجواده خارج الحدود ؛ ثم هرب متنكرا عبر
فرنسا ، وشق طريقه وسط الاخطار إلى نيراك ، وحكم بيارن وجين
حكما تميز بالعدل والذكاء . وهجر الكتلكة ، ورد للبروتستنت سلطانهم
في بيارن ، وحامهم في جين . وبعد ثلاث سنوات لحقت به مارجو ،
وأعانها الملك الشاب - في أوقات فراغه من الصيد أو قتال الكاثوليك -
على جعل مباهج بلاطها الصغير تغطي على خياناتهما . وفي عام ١٥٨٢ ،
وبعد أن تعبت من تقديم العون لتحليلاته في مخاضهن ، عادت إلى باريس ،
ولكن مغامراتها هناك كانت صارخة بحيث أمرها هنري الثالث بأن تعجل
بالعودة إلى زوجها . وبعد أن قضت عامين آخرين في بيارن اعتكفت في
آجن . ووافق الملكان - « هنريان » الآن - على أن تعيش أشبه بالحبيسة
في قصر أوسون الريفي ، وقررا لها معاشا طيبا (١٥٨٧ - ١٦٠٥) .
وحولت سجنها صالونا ، واستقبلت فيه الشعراء والفنانين والعلماء والعشاق ،
وألفت مذكراتها الحافلة بالقليل والقال . وقد أطرى ريشليو أسلوبها ،
وأهداها مونتيني بعض مقالاته ، وأثنى الوعاظ على برها بالفقراء . وبعد
اغراءات لا يستهان بها وافقت على فسخ زواجها ، وسمح لها بالعودة إلى
باريس والبلاط (١٦٠١) . فاستأنفت هناك غرامياتها وصالونها ، ثم
غدت بدينة ، وتابت ، واتخذت فانسان دبول قسيسا لها ، وبنت دبرا ، ثم
ماتت في سلام وتقوى (١٦١٥) بالغة من العمر اثنين وستين عاما . وهكذا
اختتمت حياتها ، كما قال معاصر لها ، « مرجريت ، البقية الباقية من
سلالة فالوا ، أميرة كلها . . . نيات طيبة . . . لم تؤذ أحدا إلا نفسها (٣) » .

٢ - هنري الثالث : ١٥٧٤ - ٨٩

بعد أن تربع الدوق أنجو فترة قصيرة على عرش بولندة عاد في الرابع
والعشرين ليعتلى عرش فرنسا باسم هنري الثالث ، آخر ملوك فالو
الفرنسيين . وهو يطالعنا في صورة له باللوفر لا يعرف مصورها ، ففي

طويلا، نحىلا، شاحبا، حزينا - رجلا ذانية طيبة، شوشت عليه حياته الوراثة السيئة . كان ضعيف البنية ، قلق العاطفة، سريع الأعياء ، وكان عليه أن يجتنب الركوب والصيد ، ويلزم فراشه أيا ما لثر دقائق من الغرام النشيط . وقد شكا حكة فى جلده لا سبيل إلى برئها ، وصداعا فى رأسه ووجعا فى معدته ونزفا فى أذنه . أبيض شعره وسقطت أسنانه قبل أن يبلغ السادسة والثلاثين . أما غطرسته البادية فلم تكن فى حقيقتها سوى جبن ، وأما قسوته فخوف ، فإذا أرسل نفسه على سجيبتها كان لطيفا حذرا . ولكنه لسوء الحظ كان شديد الوله بارتداء ثياب النساء . ظهر فى حفلة رقص مرتديا ثوبا انخفضت فتحة عنقه وأحاط برقبتة عقد من اللآلىء ، وكان يلبس الجواهر فى أذنيه والأساور فى ذراعيه . وجمع من حوله اثنى عشر « غندورا » ، شباب جعلوا شعورهم الطويلة وصبغوا وجوههم ، وازدانوا بالثياب البهية ، وضمخوا أنفسهم بالعطور التى نشرت أريجها حولهم . ومع أشباه الرجال هؤلاء ألف أحيانا - وهو متنكر فى ثوب امرأة - أن يعربد فى الشوارع ليلا ويلعب ألعبيه على المواطنين . وقد أفرغ خزانة بلده المشرف على الافلاس والفوضى على أحبائه الذكور ، فأنفق أحد عشر مليونا من الفرنكات على زفاف أحدهم ، وضاعف ثمن المناصب القضائية ليشتري هدية زواج لآخر . على أنه أنفق بعض مال شعبه فى أغراض نافعة - فبنى البون نوف وحسن الوفور ، وانتشل بعض أجزاء باريس من قذارتها إلى حسن العمارة والنظافة . وأعان الأدب والمسرح . وبذل جهودا متقطعة للنهوض بالادارة . وتكفيرا عن كل سيئاته حج مرات راجلا إلى شارتر وكليرى ، وفى باريس مشى من كنيسة إلى كنيسة - وهوى بحث بمسبحات كبيرة ، وجمع فى حماسة الكثير من الصلوات الربانية والسلامات المريمية ، وسار فى مواكب « التائبين الزرق » الليلية الرهيبة وجسده فى غرارة بها ثقب لقدميه وعينه . ولم يعقب . أما أمه التى حملت إليه بذور الانحلال من أبوين مريضين فكانت تتطلع فى أسى إلى تدهور سلالتها وانقراضها للوشيك .

كان في الموقف السياسي من الاضطراب مالا يرقى إليه ادراك هنري ؛ فهو لم يخلق للحرب ، وكانت كاترين تتوق إلى السلام وقد تقدم بها العمر ؛ ولتس الهيجونوت ما زالوا ثائرين ، فهم يائسون ولكنهم لم يذلوا . وكان أخوه الدوق أليسون يتودد إلى ملكة بروتستنتية تجلس على عرش إنجلترا ، وإلى ثوار بروتستنت في الأراضي المنخفضة ، وإلى هنري نافار في بيارن . كانت أقلية من زعماء الكاثوليك ، سماهم نقادهم بـ « السياسيين » ، في أفكار لوبيتال (الذي مات حزينا عام ١٥٧٣) ، فاقترحوا التسامح المتبادل بين المقتولين ، ودافعوا عن فكرة مكروهة في المعسكرين ، وهي أن استطاعة الأمة أن تحيا دون وحدة في العقيدة الدينية . وقالوا إن على فرنسا أن تحظر البابوات مثل هذا التوفيق بين الفريقين أن تقطع روابطها الدينية مع روما . فلما خاف هنري التعاون بين هؤلاء السياسيين والهيجونوت ، وخشى غارات الجنود الألمان القادمين لتعزيز قوة البروتستنتية ، أنهى عام ١٥٧٦ الحرب الدينية الخامسة بتوقيعه « صلح المويسو » في يوليو ، وصادره مرسوم تهدة - هو مرسوم يوليو - الذي منح الهيجونوت حرية العبادة في كل مكان بفرنسا ، وحق اختيارهم لجميع المناصب ، وسمح لهم بتماني مدن يكون لهم فيها كامل السلطة السياسية والعسكرية .

وصدمت هذه التنازلات الممنوحة لفريق ظن الناس أنه تحطم وانتهى . معظم الكاثوليك الفرنسيين ، لا سيما جماهير باريس الشديدة التمسك بعقيدتها . وكان كردينال اللورين قد اقترح عام ١٥٦٢ « حلفا مقدسا » يقسم أعضاؤه على الدفاع عن الكنيسة بكل وسيلة أيا كانت ، وبأى ثمن كائنا ما كان . ونظم هنري جيز مثل هذا الحلف في شميانيا عام ١٥٦٨ . ومن ثم ألقت الآن جماعات كهذه في كثير من الأقاليم . وفي عام ١٥٧٦ أعلن الدوق جهارا تأليف « الحلف المقدس » واستعد لزال يسحق به الهيجونوت سحقا .

ولا حاجة بنا لتتبع سير 'محروب الدينية السادسة والسابعة والثامنة إلا

في تأثيرها على مجرى الأفكار في فرنسا . هنا دخلت الفلسفة ساحة الوعى مرة أخرى . ففي عام ١٥٧٩ أصدر مؤلف غير معروف الاسم - ربما كان قليب دوبليسى - مورنيه ، أحد مستشارى نافار - من بازل بياناً مشيراً سماه « دفاع (عن حقوق الشعب) ضد الطغاة » . كتبه باللاتينية ، ولكن سرعان ما ترجم إلى اللغات القومية . وقد دام أثره قرناً كاملاً ، واستخدمه الهيجونوت في فرنسا ، والهولنديون ضد فليب ، والبيورثان ضد تشارلز الأول ، والوجز تبريرا لعزلهم جيمس الثانى . واتخذت النظرية القديمة ، نظرية « العقد الاجتماعى » الضمنى المبرم بين الشعب وحاكمه ، شكلاً محدداً في هذا الكتاب ، وسنشهدا مرة أخرى في هوبز ، ولوك ، وروسو . فالحكومة أولاً هى ميثاق بين الله ، والشعب ، والملك ، لدعم « الدين الحق » والامثال له - وهو البروتستنتية في هذه الحالة ؛ وأى ملك يقصر في هذا يحل عزله - والحكومة ثانياً هى ميثاق بين الملك والشعب - الأول ليحكم بالعدل ، والثانى ليطيع مسالماً . والملك والشعب على السواء خاضعان للقانون الطبيعى . أى قانون العقل والعدالة الطبيعية ، الذى يمثل للقانون الأدينى الإلهى ، ويعلو على كل قانون « وضعى » (أى من صنع الإنسان) . أما وظيفة الملك فصيانة القانون الوضعى والطبيعى والإلهى ، فهو أداة القانون لا سيده . « والرعايا . . . بوصفهم هيئة ، يجب اعتبارهم سادة المملكة وأصحابها المطلقين . » ولكن من الذى يقرر أن الملك طاغية ؟ لا الشعب في جمهوره ، « ذلك الوحش الكثير الرعوس » ، بل ليقدر ذلك القضاة ، أو مجلس كمجلس الطبقات الفرنسى مثلاً . ولا يصح أن يتبع كل فرد خاص ضميره ؛ فقد يحسب شهواته ضميره ، وهنا تأتى المفوضى ؛ ولكن إذا دعاه القاضى للعصيان المسلح فعليه أن يابى الدعوة . على أنه يحل قتل الطاغية بيد أى إنسان إذا كان مغتصباً (٤) .

واشدد صراع القوى والأفكار بعد أن مات دوق أليونسون (١٥٨٤) ،

واعترف هنرى الثالث بهنرى نافار وريثا افتراضيا للعرش . وكف الهيجونوت بين عشية وضحاها عن حديث الطغيان والعزل وأصبحوا المؤيدين المتحمسين للشرعية لما توقعوا من قرب انهيار ملك فالوا المتهاافت وتسليمه فرنسا لرجلهم البروتستنتى البوريونى . وإذا القوم يعرضون عن كتاب « الدفاع » الذى كان بالأمس القريب بيانا هيجونوتيا ، بل إن أوتمان ذاته صرح بأن مقاومة هنرى نافار خطيئة (٥) . ولكن أكثر فرنسا كان يقشعر فرقا من فكرة ملك هيجونوتى يتربع على عرشها . فكيف يمكن أن تسمح الكنيسة بالزيت المقدس بروتستنتيا فى مدينة رامس ؟ وهل يستطيع أحد يغير هذه المسحة أن يكون ملكا شرعيا لفرنسا ؟ أما رجال الاكليروس السنيون ، يتزعمهم اليسوعيون المتحمسون ، فقد نددوا بالوراثة وأهابوا بجميع الكاثوليك أن ينضموا إلى الحلف . وانضم إليه هنرى الثالث بعد أن جرفه هذا التيار ، وأمر جميع الهيجونوت بأن يعتنقوا الكتلثة أو يرحلوا عن فرنسا . وناشد هنرى نافار أوروبا أن تعرف بعدالة قضيته ، ولكن البابا سيكستوس الخامس حرمه ، وصرح بأنه لا يمكن أن يرث العرش لأنه زنديق سادر فى زندقته . وهنا أعلن شارل ، كردينال بوربون ، نفسه وريثا افتراضيا للعرش . وعادت كاترين محاولتها فى سبيل السلام ، فعرضت أن تؤيد نافار إذا تخلى عن بروتستنتيته ، ولكنه أبى ، وامتنق الحسام على رأس جيش بعضه كاثوليكي ، واستولى على ست مدن فى ستة شهور ، وهزم جيشا للحلف يبلغ ضعف جيشه عند كوترا (١٥٨٧) .

وسيطر الهيجونوت الآن وهم لا يتجاوزون جزءا على اثنى عشر من السكان (٦) على نصف مدن فرنسا الكبرى (٧) . ولكن باريس كانت قلب فرنسا وهى مع الحلف قلبا وقالبا . ولم يرض الحلف بالتأييد الفاتر الذى لقيه من هنرى الثالث ، فأقام فى العاصمة حكومة ثورية تتألف من ممثلين للأحياء الستة عشر ، وتفاوضت حكومة « الستة عشر » مع أسبانيا لتفزو إنجلترا وفرنسا ، وبيتت اعتقال الملك . وأرسل هنرى فى طلب حرس سويسرى ،

ودعت حكومة الستة عشر دوق جيز إلى تقلد السلطة في باريس ، ف نهه الملك ، ولكن الدوق وصل ، وهتفت له الجماهير زعيما لقضية السكثلكة في فرنسا . وفر هنرى الثالث إلى شارتر وقد شعر بالهوان وتوعد بالانتقام . ثم فقد أعصابه مرة أخرى ؛ ففبرا من هنرى نافار ، وعين هنرى جيز قائدا أعلى للجيش الملكية ، ودعا مجلس الطبقات للاجتماع في بلوا .

فلما اجتمع المندوبون لاحظ الملك في سخط مظاهر التكريم التي حظي بها جيز والتي تقرب مما يحظى به الملوك . وفي يوم تصميم مسعود أقنع بعض أعوانه بقتل الدوق . ودعاه إلى لقاء خاص ، وبينما التيل الشاب يقترب من حجرة الملك طعنه تسعة من المهاجمين طعنات أودت بحياته ، وفتح الملك الباب وتطلع في رضى يشوبه الانفعال إلى هدفه الذى تحقق (٢٤ ديس بر ١٥٨٨) . ثم أمر بسجن زعماء الحلف وقتل السكردينال جيز أخى الدوق . وفي فخر ورعب أنهى إلى أمه بطولاته التي ناب فيها عنه غيره ، فعصرت يديها في يأس وقالت له « إنك خربت المملكة » .

ولم يمض اثنا عشر يوما حتى ماتت في التاسعة والستين وقد أضنتها المسؤوليات والهموم والدسائس ، وربما تبيكت الضمير أيضا . ولم يكد أحد من الناس يتوقف ليحزن على موتها . ودفنت في مقبرة عامة ببلوا ، لأن حكومة الستة عشر أعلنت أنها ستلقى جثتها في السين إذا جرى بها إلى باريس . واتهم نصف فرنسا هنرى الثالث بالقتل ، وجاب الطلاب الشوارع مطالبين بعزله ، أما لاهوتيو السوربون يؤيدهم البابا فقد أحلوا الشعب من ولائه للملك ، ودعا القساوسة إلى المقاومة المسلحة له في كل مكان . وقبض على مؤيدى الملك ؛ واحتشد الرجال والنساء داخل الكنائس مخافة أن يحسبوا من أنصار الملك . واعتنق مؤلفو كرايس الحلف الايديولوجية السياسية للهيجونوت ، فاعلنوا أن الشعب صاحب السيادة ، وله الحق في خلع الطاغية عن طريق البرلمان أو القضاة ، وأى ملك في المستقبل ينبغي

أن يخضع للقيود الدستورية ، وأن يكون واجبه الأول فرض الدين الحق — وهو الكاثوليكية في هذه الحالة (٨) .

أما هنرى الثالث ، الموجود الآن في تور مع بعض النبلاء والجنود ، فقد وجد نفسه بين نارين . فجيش الحلف يزحف عليه من الشمال بقيادة دوق ماين ، وجيش نافار يزحف من الجنوب فاتحاً المدينة تلو المدينة ، إذ أن فاحدى القوتين قابضة عليه لا محالة . واغتنم هنرى الهيجونوتى فرصته ، فأوفد دوبليس — مورنى ليعرض على الملك محالفته وحمايته ونأييده . والتقى الهنريان عند بليسى — كى — تور وتعاهدا بوفاء كل منهما لصاحبه (٣٠ أبريل ١٥٨٩) . وهزم جيشاهما المتضاهان ماين وزحفاً على باريس .

وفى العاصمة المسعورة استمع راهب دومنيكى يدعى جاك كليان فى حماسة إلى ما تردد من اتهام لهنرى الثالث بالاغتيال . وقد أكدوا له أن القيام بعمل عظيم فى سبيل قضية مقدسة سيمحو كل تبعة عن أوزاره ، وأثار ثأرته حزن كاترين دوقه مونيبيسيه ، شقيقة الأخوين القتيلىن جـيـز ، وحركة جمالها . فاشتري خنجرآ ، وتسلى إلى معسكر الملك ، وطعنه فى بطنه ، فقتله الحراس ، ومات واثقاً من ثواب الجنة . أما هنرى فالوا فقد مات غداة طعنه (٢ أغسطس ١٥٨٩) وهو يتوسل إلى اتباعه أن يلزموا هنرى نافار . وانتشرت الفوضى فى جيش المحاصرين ، وتبدد أكثره ، وأجل الهجوم المقترح على باريس . أما فى داخل المدينة فقد بلغت فرحة الحلف وتابعيه حد الهذيان . ووضعت بعض الكنائس صورة الراهب فوق مذبحها (٩) ، وهلل الأنقياء لاغتيال الملك باعتباره أنبل عمل فى سبيل الله تم منذ تجسد المسيح (١٠) . واستدعيت أم كليان من الريف ، فوعظت فى الكنائس ، واحتفل القوم بها بترتيل ترنيمة مقدسة : « طوبى للبطن الذى حملك ، وللثدى الذى أرضعتك » (١١) .

٣ — الطريق إلى باريس (١٥٨٩ — ٩٤)

بلغ هنرى نافار الآن نقطة الحسم فى حياته . لقد وجد نفسه فجأة ،

بحكم القانون والتقليد ، ملك فرنسا ، ولكن نصف جنده تركوه يمثل هذه السرعة الفجائية تقريباً . أما النبلاء الموالون لهنرى الثالث فقد انطلقوا إلى ضياعهم ؛ واختفى معظم الكاثوليك الذين كانوا يحاربون في جيشه . ورفض ثلثا فرنسا فكرة الملك البروتستانتى رفضاً باتاً . أما جماعة « السياسيين » فقد أسكتهم الاغتيالان بركة ؛ واعترف برلمان باريس بالكردينال بوربون ملكاً على فرنسا ؛ ووعد فليب ملك أسبانيا الحلف بذهب الأمريكتين ليحتفظ بفرنسا في حظيرة الكاثوليكية . وكان التفسخ الذى أصاب إنتاج فرنسا وتجارها قد جلب على البلاد من الدمار ما لم يبق لها معه إلا نشوة الحقد والكراهية القاتلة . وهو أمر لم يحزن فليب كثيراً .

كان محالاً على نافر أن يهاجم مدينة كباريس تكن له العداء الشديد ، بجيش انفرط عقده وتقلص نده . ومن ثم فقد عمد في كفاية قيادية ، عطلها خيلاته أكثر مما عطلها العدو ، إلى سحب قواته إلى الشمال ليتلقى المعونة من إنجلترا ، وتبعه ماين بما أتاحت له بدانته من سرعة . والتقى الجيشان عند آرك جنوبى ديب مباشرة ، وعدة جيش هنرى ٧,٠٠٠ ، وجيش ماين ٢٣,٠٠٠ (٢١ سبتمبر ١٥٨٩) . ونستطيع أن نفهم نتيجة المعركة من رسالة هنرى إلى رفيقه فى السلاح كريون ، « اشتق نفسك أيها الشجاع كريون ، لقد خضنا المعركة عند آرك ، ولم تكن أنت هناك » وشدد الانتصار من عزيمة أعوان هنرى السريين في كل مكان . ففتحت عدة مدن أبوابها له مغتبطة ، واعترفت به جمهورية البندقية ملكاً ، أما الزابث ، التواق كالبندقية إلى الحيلولة دون سيطرة أسبانياً على فرنسا ، فقد أرسلت له ٤٠٠٠ جندي ، و ٢٢,٠٠٠ جنيه ذهبي ، و ٧٠,٠٠٠ رطل من البارود ، وشحنات من الأحذية ، والطعام ، والنبذ ، والجمعة . ورد فليب إلى هذا بارساله تجريدة من فلاندر إلى ماين . والتقى الجيشان المعززان عند إفرى على نهر أور في ١٤ مارس ١٥٩٠ . ورشق هنرى في خوذته ريشة شرف كبيرة بيضاء - لا يكاد المرء يسميها ريشة طائر

بيضاء - وقال بلجنده « إذا فرقكم وطيس المعركة لحظة فتجمعوا تحت
أشجار الكهثرى تلك التى ترونها على يمينى ، وإذا فقدتم أعلامكم فلا تغفلوا
عن ريشتى البيضاء - ستجدونها دائماً فى طريق الشرف ، وفى طريق
النصر أيضاً كما أرجو » . وقاتل فى المقدمة كما كان شأنه دائماً . وورم
خزاعه الأيمن وتشوه سيفه من كثرة مقارعة العدو . وقد خدمه اشتباره
بالرأفة ، إذ استسلم له الآلاف من الجنود السويسريين الذين كانوا فى
جيش ماين والذين لم تدفع لهم رواتبهم . وخلف انتصار هنرى الحلف
بغير جيش ، فزحف على باريس دون مقاومة تقريباً ليحاصرها .

ومن مايو إلى سبتمبر ١٥٩٠ عسكر جنده الجائعون المقلسون حول
العاصمة وهم يتحرقون شوقاً لمهاجمتها ونهبها ، ولكن صدمهم عن هذا رفض
هنرى الموافقة على مذبحه ربما كانت شرأ من مذبحه القديس برتلميو ؟
وبعد شهر من الحصار كان الباريسيون يأكلون لحم الخيل والقطط والكلاب ،
ويغتلبون بالعشب . ورق لهم قلب هنرى فسمح للأقوات بأن تدخل
المدينة . وجاء دوق بارما ، وإلى فليب على الأراضى المنخفضة ، لنجدة
باريس بجيش حسن التجهيز من صناديد الاسبان ، وتقهقر هنرى إلى
روان بعد أن غلبته مناورات العدو ، وتبعه بارما فى صراع الاستراتيجية .
ولكن المرض أعجز الدوق ، وعاد جيش هنرى يحاصر العاصمة
من جديد .

وواجه الآن هذا السؤال الفاصل : أيستطيع ، وهو البروتستنتى ،
أن يظفر بعرش بلد ٩٠ ٪ منه كاثوليك ، وأن يحتفظ بهذا العرش ؟ لقد
كان الكاثوليك كثرة غالبية حتى فى جيشه . ولا ريب فى أنه لم يكن من
بهمومه الصغيرة تناقص موارده المالية وعجزه عن دفع رواتب جنده بعد
ذلك . ومن ثم دعا معاونيه واعترف لهم بأنه يفكر فى اعتناق الكاثوليكية ،
فوافق بعضهم على الخطة لأنها السبيل الوحيد إلى السلام ، وندد آخرون
بها باعتبارها تخلياً قاسياً شائناً عن الهيجونوت الذين أعطوه الدم والمالك

أملا في أن يكون لهم ملك بروتستنتي . هؤلاء أجابهم هنري بقوله : « لو اتبعت نصيحتكم لما بقي في فرنسا بعد قليل ملك ولا مملكة . أريد أن أمنح السلام لرعاياي والراحة لنفسى . فتشاوروا فيما بينكم ماذا تريدون ضحائاً لأمنكم . وأنا على الدوام مستعد لإرضائكم (١٢) » . ثم قال « ربما لم تكن شقة الخلاف بين المذهبين واسعة إلا لما بين المبشرين بهما من حقد وعداء . وسأعمل يوماً باستعمال سلطتى على أن يستقيم هذا الأمر كله » (١٣) . ثم حدد صلب عقيدته بقوله « إن الذين يتبعون ضميرهم دون عوج هم على دينى ، وأنا على دين كل إنسان شجاع طيب (١٤) » . وهجر دوبليسى - مورنيه ، وأجربيا دوبنيه ، وكثير من زعماء البروتستنت الآخرين الملك ، ولكن اللوق صلى ، أصدق مستشارى هنرى ، الذى ظل بروتستنتيا وفيا . وافق على قرار مولاه « أن باريس تستأهل قداسا (١٥) » (*) .

ففى ١٨ مايو ١٥٩٣ أرسل هنرى إلى البابا واكليروس باريس يبدى رغبته في أن يدرس العقيدة الكاثوليكية . وكان جريجورى الرابع عشر قد جدد حرمه . ولكن الاكليروس الفرنسى الذى لم يذل أبداً لروما تأهب لإعداد النائب الحديد لأن يكون ملكا تقيا . على أنه لم يكن بالتلميذ السهل القياد . فهو يرفض أى تعهد بأن يشن حربا على الهرطقة ، وهو يأبى أن يوقع أو يؤمن بـ « هراء هو واثق كل الثقة من أن أغلبهم لا يؤمنون به (١٦) » ، ولكنه وافق في سماحة على عقيدة المطهر لأنها « أعظم مصادر دخلكم (١٧) » . وفى ٢٥ يوليو كتب لخلياته آنذاك « سأقفز القفزة الخطرة » ثم ذهب إلى كنيسة دير سان دنيس ، واعترف ، ونال الغفران ، واستمع إلى القداس .

ورماه الآلاف في المعسكرين بالنفاق . وأنكر اليسوعيون كثلثته وواصل زعماء الحلف مقاومتهم . ولكن موت دوق بارما والكردينال يوربون كان قد أوهن قوة الحلف ، وفقدت حكومة الستة عشر منزلتها في أعين الوطنيين الفرنسيين لتأييدها خطة فليب الرامية إلى جعل ابنته ملكة

على فرنسا . ومال كثير من النبلاء إلى هنرى بوصفه القائد الحربى الكفيل بكبح جماح فليب ، والحاكم الرحيم الذى يستطيع أن يرد العافية إلى وطن استشرت فيه الفوضى حتى كادت تمزق أوصاله . وأعربت مجلة ذكية تدعى « سانير منيبه » (١٥٩٣ - ٩٤) عن عواطف جماعة « السياسيين » والبورجوازيين ، وسفرت فى ظرف وتهكم باليسوعيين والحلف ، وأعلنت أنه « ما من سلام بلغ من الظلم ما يجعله لا يرجح أكثر الحروب عدلاً (١٨) » . وطلب الجميع السلام فى شوق ، حتى باريس المتعصبة . واستمرت الاشتباكات الصغيرة ثمانية شهور أخرى ، ولكن فى ٢٢ مارس ١٥٩٤ ، زحف هنرى إلى باريس ودخلها ولم يكد أحد يعترضه ، وعظم ترحيب الجماهير به حتى أنه حين أراد أن يدخل نوتردام لم يكن بد من رفعه فوق الرؤوس . وثبت ملكاً فى ذلك اللوفر ذاته ، الذى كان فيه قبل اثنين وعشرين عاماً سجيناً قاب قوسين من الموت ، واستسلم للبهجة والفرح ، فأصدر بطريقته المرحية ، عفواً عاماً شمل حتى آل جيز وحكومة الستة عشر . واكتسب بعض أعدائه بالغفران عنهم دون تردد وبالمعاملة السمحة الكيسة ورشا البعض بمال اقترضه .

على أنه لم يكسب الجميع إلى صفه . ففى ليون اشترى بيير بارير مدية وشحذها ثم شد رحاله إلى باريس معلناً نية اغتيال الملك . فقبض عليه فى ميلون وشنق دون إبطاء . وقال هنرى « واأسفاه ، لو علمت بالأمر لعفوت عنه . » وأرسل البابا كلمنت الثامن للملك حل الكنيسة ، ولكن اليسوعيين واصلوا مهاجمته فى مواضعهم . وفى ٢٧ ديسمبر هجم فتي فى التاسعة عشرة يدعى جان شاتيل على الملك بنحجر ولكن لم يصبه بأسوأ من قطع فى شفته وكسر فى سنه . ومرة أخرى رأى هنرى العفو عن هذا المتعصب ، ولكن رجال السلطة أوقعوا بشاتيل كل أنواع التعذيب التى نص عليها القانون ضد قتلة الملوك . وقد اعترف الرجل فى كبرياء برغبته فى قتل الملك لأنه زنديق خطر ، وأعلن استعدادده لبذل محاولة أخرى فى

سبيل خلاص نفسه . وقال في اعترافه إنه تلميذ لليسوعيين ، ولكنه أبى أن يورطهم بأكثر من هذا في مغامرته . وقد رويت عن اليسوعى الأسباني خوان دماريانا (الذى سنلتقى به ثانية) عبارات وافق فيها على اغتيال الملوك الفاسدين ، لا سيما هنرى الثالث ، وتبين أن اليسوعى الفرنسى جان جينار كتب يقول إنه كان من الواجب قتل هنرى الرابع فى مذبحه القديس برتلميو ، وإذ يجب للتخلص منه الآن « بأى ثمن وبأية طريقة » (١٩) . وفى بواكير عام ١٥٩٥ أمر برلمان باريس اليسوعيين بالرحيل عن فرنسا بناء على التماس من الاكليروس العلماني فى السوربون .

٤ — الملك الخلاق : ١٥٩٤ — ١٦٠

تبين هنرى أن مهمة التعمير أشق من قهر القوة المسلحة . ذلك أن اثنين وثلاثين عاما من « الحروب » الدينية ، خلفت فى فرنسا من الخراب والفوضى ما خلفته حرب المائة عام فى القرن السابق . فبحرية فرنسا التجارية كادت تختفى من البحار ، وقد بلغ عدد البيوت التى دمرت ثلثائة ألف ، وأعلن الحقد تعطيله للفضيلة ، وسم فرنسا بشهوة الانتقام . وأغار الجنود المسرحون على الطرق والقرى سرقة وتقتيلا وتآمر النبلاء ليفرضوا استرداد سيادتهم الاقطاعية ثمنا لولائهم للملك ، وكانت الأقاليم التى طال تركها معتمدة على مواردها تقسم فرنسا إلى دويلات مستقلة ذاتيا ، وكان الهيجونوت يطالبون بالاستقلال السياسى والحرية الدينية ، والحلف لا يزال يحتفظ بجيش فى الميدان ؛ واشترى هنرى قائده ماين بالمال فارتضى الهدنة ثم الصلح فى النهاية (يناير ١٥٩٦) . وبعد أن وقعت الشروط ، اصطحب هنرى الدوق البدين فى مسيرة طويلة جعلته يلهث لإعياء ، ثم أكد له أن هذا هو انتقامه الوحيد منه (٢٠) . ولما تزعم أحد قواده المدعو شارل جونتو ، دوق بيرون ، مؤامرة ضده ، عرض عليه هنرى العفو إذا اعترف ، ولكنه أبى ، فأمر بمحاكمته ، وأدين بالجرime وقطع رأسه

(١٦.٢) . وأدركت فرنسا الآن أن نافار ملك . وسمح له شعب فرنسا الذى أرهقته الفوضى — بل توسلت إليه طبقات رجال الأعمال — أن يجعل ملكية البوربون الجديدة مطلقة السلطان . لقد كانت الاستبدادية الملكية نتيجة للحرب الأهلية فى فرنسا بينما كانت فى إنجلترا سببا لها .

وجي هنرى الضرائب لأن حاجة الحكومة الأولى كانت للمال . أما مجلس المالية الموجود فقد انبعث منه من نفع الرشوة والفساد قدر أكثر من المؤلف . وولى هنرى صلى الجرىء رئاسة المالية ، وأطلق يده فى تنقيسة الهواء واخلأ الطريق بين ما يدفعه الشعب من الضرائب وما يصل منها إلى الخزانة . كان مكسميليان بتون ، بارون روزنى ، دوق صلى ، صديق هنرى الوفى مدى ربع قرن ، قد قاتل جنبا إلى جنب مع هنرى خلال أربعة عشر عاما ؛ وهاجم الآن — وهو بعد فى السابعة والثلاثين — الموظفين المختلسين عديمى الكفاية بهمة لا تعرف الكلل ، حتى أصبح أعظم أعضاء مجلس الملك قيمة وأقلهم شعبية . وصورته التى رسمها له ديمونستيه معروضة فى اللوفر ، يطالعا فيها رأس كبير وجبين عريض وعينان مرتابتان حادثتان . ها هنا العبقرية العملية التى لا غنى عنها لكبح الروح الرومانسية لملك شغله لعب دور كازانوفاف عن لعب دور شارلمان كاملا . وجعل صلى من نفسه الحارس الرقيب على الإدارة الحكومية . وإذ كان مديرا للمالية والطرق والمواصلات والمباني العامة والتحصينات والمدفعية ، ومأمورا للباستيل ، ومشرفا عاما على باريس ، فقد وجد فى كل مكان ، واشرف على كل شئ ، وأصر على الكفاية والاقتصاد والنزاهة ، وقد عكف على العمل خلال كل ساعات يقظته . وعاش عيشة التقشف فى حجرة بسيطة على جدرانها صور لوثر وكالفن . ثم رعى مصالح إخوانه الهيجونوت ، وثبت العملة ، وأعاد تنظيم البيروقراطية وهذبها ، وأكره لصووص الموظفين على أن يتقيأوا ما سرقوا . وقد استرد للدولة كل الأملاك والموارد التى تملكها الأفراد خلال الحروب . وألزم ٤٠٠.٠٠٠ من المتهربين من الضرائب بدفع

ضرائبهم . وجد خزانة الدولة مدينة بمبلغ ٢٩٦٠٠٠٠٠٠ رطل جنيه ، فسدد هذه الديون ، ووازن الميزانية ، وجمع فائضا بلغ ١٣٠٠٠٠٠٠ رطل جنيه . وحى وشجع كل نواحي الحياة الاقتصادية ، وبنى الطرق والكبارى ، وخطط للقنوات الكبرى التى أزمعت أن تربط الأطلسى بالبحر المتوسط ، والسين باللوار (٢١) . وأعلن أن جميع الأنهار الصالحة للملاحة جزء من الأملاك الملكية ، وحظر وجود العوائق فيها ، وأعاد من جديد تدفق السلع داخل البلاد .

واستطاع هنرى أن يخلق فرنسا من جديد بمعونة وزراء أحسن اختيارهم كوزيريه صلى . فرد للمحاكم و « البرلمانات » وظائفها وسلطتها الشرعية ، وإذا كان قد سمح للموظفين البيروقراطيين بتوريث مناصبهم لأبنائهم لقضاء ثمن يودونه ، فإن الدافع له لم يكن مجرد جمع المال ، بل كفالة استقرار الإدارة والنهوض بالطبقات الوسطى - ولا سيما رجال القضاء « نبالة الرداء » - ليكونوا مقابلا وموازنا للاستقرارية المعادية . وقد درس هذا الملك ، الذى كان فيه من الحرص على الحياة والعمل ما لا يسمح له بقراءة كتاب أوليفيه ديسر المسمى « مسارح الزراعة » (١٦٠٠) - درس هذا الكتاب بعناية ، وفيه اقتراحات لأساليب زراعية أكثر علمية ، وأرسى هذه التحسينات فى أراضى التاج لتكون نماذج وحوافز للفلاحين الخاملين . وكان يقول إنه يتوق لرؤية « دجاجة فى كل قدر يوم الأحد » (٢٢) . وحظر على النبلاء أن يركبوا خيلهم فوق الكروم أو حقول الغلال وهم منطلقون إلى صيدهم ، ومنع غارات الجند على أراضى الفلاحين . وألغى عشرين مليون جنيهه من متأخرات الضرائب المستحقة على الفلاحين (ربما لأنه عرف أنه لن يستطيع جمها أبداً) ، وخفض فريضة الرعوس من عشرين إلى أربعة عشر مليوناً من الجنيهات . وسبق كولبير بحمايته الصناعات الموجودة بالرسم الجمركية ، وإدخال الصناعات الجديدة كصناعة الخزف المصقول والزجاج وتربية دودة القز ، وزرع أشجار التوت فى حدائق التويلرى وفونتبلو ، وأمر بأن

يزرع منها عشرة آلاف في كل أسقفية ، وأعان ووسع مصانع السجاد المرسوم التي يملكها آل جوبلان . ورغبة في تفضي السياسات المقيدة التي فرضها معلمو الحرف على نقاباتهم ، أعاد تنظيم الصناعة الفرنسية على أساس تعاوني — فأصحاب العمل والعمال متحدون في كل حرفة ، خاضعون للتنظيم الذي تفرضه الدولة . ولكن الفقر لم يبرح نجما على البلاد ، من جهة بسبب الحرب والطاعون والضرائب ومن جهة لأن عدم التكافؤ الطبقي في القدرات ، وسط تساوي الجميع في الجشع ، كفيل في كل جيل بأن تستوعب قلة من الناس أكثر السلع . أما الملك فتوخى القصد في عيشه ، إلا أن يسرف مع خيالاته . ورغبة في شغل المتعطلين وتنقيسة الريف من قدامى المحاربين العاطلين النهمين ، مول عددا كبيرا من الأشغال العامة المختلفة : فوسعت الشوارع ورصفت ، وشقت القنوات ، وغرست الأشجار على الطرق العامة ، وفتحت المتنزعات والميادين — كالبلاس رويال (وهو اليوم بلاس دي فوج) والبلاس دوفين — لتتيح لباريس متنفسا . وأنشأ الملك مستشفى المبرة للعجزة . ولم يكتمل نضج هذه الإصلاحات كلها قبل موته المفاجيء ، ولكن حينما ختم حكمه كانت البلاد تتمتع برخاء لم تشهد منذ أيام فرنسيس الأول .

وأهم من ذلك كله أن هنري أنهى الحروب الدينية ، وعلم الكاثوليك والبروتستانت أن يعيشوا في سلام . لافى مودة وصداقة ، لأن أحدا من غلاة الكاثوليك لم يكن ليسلم بحن هيجونوتي في الوجود ، ولا كان أى هيجونوتي حار الإيمان لينظر إلى العبادة الكاثوليكية إلا على أنها عبادة أصنام . وقد وضع هنري حياته على كفه وأصدر (١٣ ابريل ١٥٩٨) مرسوم نانت التاريخي ، الذي أباح الممارسة الكاملة للعقيدة البروتستنتية ، ومنح الصحافة البروتستنتية حريتها ، في جميع مدن فرنسا الثمانمائة إلا سبع عشرة مدينة كانت فيها الكاثوليكية المذهب الغالب (كما في باريس) . وثبت مبدأ صلاحية الهيجونوت للمناصب العامة ، وكان منهم في مجلس الدولة

اثنان فعلا ، وتقرر تعيين تورين الهيجونوتي مارشالا لفرنسا . كذلك
تقرر أن تدفع الحكومة رواتب القساوسة البروتستنت ونظار المدارس البروتستنتية
وأن يقبل الأطفال البروتستنت في جميع المدارس والسكليات والجامعات
والمستشفيات كالأطفال الكاثوليك سواء بسواء . أما المدن التي كان يسيطر
عليها الهيجونوت مثل لاروشيل ، ومونبليه ، ومونتوبان - فتظل على
حالها وتتفق الدولة على جامعاتها وحصونها . على أن الحرية الدينية التي منحت
على هذا النحو كانت لا تزال ناقصة ، فهي لم تشمل غير الكاثوليك والبروتستنت ،
ولكنها كانت أكثر ألوان التسامح الديني تقدما في أوروبا . لقد اقتضى تحويل
« جلالة الملك المسيحي جداً » ، إلى مسيحي حقا ، رجلا ذا عقيدة مشكوك
في سلامتها .

وتصايح الكاثوليك في طول فرنسا وعرضها بالسخط على المرسوم
زاعمين أن فيه حثا بما تعهد به هنري من تأييد لعقيدتهم . وندد به البابا
كلمنت الثامن « كأعلن ما يمكن تصوره ، منحت به حرية الضمير للجميع ،
وهكذا أسوأ شيء في الوجود (٢٣) . » وأعلن الكتاب الكاثوليك من
جديد بأنه يحل خلع الملك الزنديق أو قتله ، أما المؤلفون البروتستنت أمثال
أوتمان ، الذين دافعوا عن سيادة الشعب إبان حكم هنري الثالث ، فقد أطروا
فضائل الاستبداد - في ملك بروتستنتي (٢٤) . وأبي برلمان باريس طويلا
أن يختم المرسوم بخاتم التسجيل الرسمي الذي اقتضاه العرف حتى يصبح أي
مرسوم ملكي قانونا مقبولا . ودعا هنري الأعضاء ، وبين لهم أن ما فعله
لم يكن عنه غنى للسلام ولتعمير فرنسا . فأذعن البرلمان ، وقبل ستة من
الهيجونوت بين أعضائه .

وسمح هنري لليسوعيين بأن يعودوا إلى فرنسا (١٦٠٣) ربما ليسكت
المعارضة الكاثوليكية ويسترضى البابا . وعارض صلى بقوة هذه الخطوة ،
وقال إن اليسوعيين « رجال نابغون ، ولكنهم شديداو الخبث والدهاء » ،
ولأنهم ملزمون بقضية الهايسبورج ، ومن ثم بتفضية خصمي فرنسا - أي

أسبانيا والنمسا ، وأنهم متعهدون بالطاعة العمياء للبابا وميالون إليها ، وهو ليس إلا سجيناً جغرافياً للهابسبورج وتابعا ماليا لهم ، فهم لا محالة مملون على هنرى سياساته إن عاجلاً أو آجلاً ، فإن اخفقوا فسيقنعون أحد المتعصبين « بأن يقضى عليك بالسم أو بغيره . » وأجاب هنرى بأن مساندة اليسوعيين مستحسن له عونا كبيرا على توحيد فرنسا ، وأن استمرار نفهم وعدائهم أشد خطراً على حياته وسياساته من عودتهم إلى فرنسا^(*) . وقبل اليسوعى بيير كوتون كاهن اعتراف له ، ووجدته انساناً لطيفاً وفيماً ، ثم فرغ بعد ذلك لحكم فرنسا ولزعازع الحب العائىة .

٥ - زير السماء

فى متحف كونديه بشأنى لوجه شائقة رسمها فرانس بوربى الابن ، يبدو فيها هنرى فى عنفوان قوته وعزته . رشيق البنية ، بسيط الملبس فى سراويل منفوخة وصدرة وجوارب سوداء ، ذراعه اليسرى على خاصرته ، وتحت لحيته الشيباء طوق مكشكش ، ثم أنف أتم ، وفم حازم ، وعينان فيهما تيقظ وتشكك ورحمة . ولقد خلعت عليه سنو الحملات الطوال مشية الجندى وخلقه وريحه : فهو قوى نشيط لا يكل ، له من شواغله ما يمنعه من الاسراف فى النظافة أو من تغيير ملابسه حين يجب تغييرها ؛ قال صديق له كان أحياناً « تفوح من جسده رائحة خبيثة كأنه الجيفة »^(٢٥) . كان بعد يوم من السير أو القتال يفاجئ معاونيه بتنظيم رحلة صيد . إنه مضرب المثل فى بسالته ، ولكن أمعاءه تبحج إلى الاسهال إذا دنت المعركة^(٢٦) ، وقد عانى فى السنين السبع الأخيرة من حياته من الدوسنتاريا وعسر البول والقرس . أما ذهنه ففى نشاط جسده ومرونته . وهو سريع فى تبين الزيف والهراء ، يلتقط لب الأمور للتو والساعة ، ويكتب الرسائل التى لا تزال تنبض بالحياة ، ويشرح بظرفه صدر فرنسا

(*) مذكرات صلى ، ١٠ - ١١ . ولا سبيل الى التعقق من صحة رواية هذا الحديث الخامس .

والتاريخ . حين عين لافيوفيل في أحد المناصب قال الرجل متمثلا بعبارة وردت في الإنجيل « مولاي ، لست مستحقا » أجاب هنرى « أعلم ذلك جيدا ، ولكن ابن أخى طلب إلى أن أعينك » (٢٧) . وذات يوم اعترضه صاحب حاجة وهو فى طريقه إلى الغداء وبدأ يقول فى لغة طنانة « مولاي الملك ، ان أجيسىلا ، ملك لاكيديمون — » وقال هنرى وهو يئن « ويحك ! لقد بلغنى نبؤه ، ولكنه كان قد تغدى ، أما أنا فلم أفعل » (٢٨) . يقول مؤرخ فرنسى « لقد كان أذكى ملك أنجبته فرنسا » .

ثم كان أحبهم إلى الناس . لم يكن بعد أكثرهم شعبية ، لأن نصف فرنسا . مازال يقبله على مضض ، ولكن الذين عرفوه معرفة حميمة كانوا لا يترددون فى أن يساقوا إلى الموت حرقا من أجله ، وبعضهم يفعل وهو آخذ كل شئ فى اعتباره ، فهو أقرب الحكام منالا ، لا ادعاء فيه ولا غرور ، يرسل نفسه على سجيتهما ، طيب القلب ، بطيء الغضب ، سريع العفو دائما . شكت حاشيته من كرهه للظهور فى أبهة الملوك . وسمح للشعراء وكتاب المسرحيات بالسخرية منه ، وان أعجبه أكثر أن يمثله الميرب ربا للفضيلة والحسن . وكان يذهب للتفرج على الهزليات التى تهجو ، ويوهن من شرها بضحكه . ولم ينتقم ممن عارضوه بالقول أو الفعل « لو اننى شنت كل من كتبوا أو وعظوا ضدى لما وجدت فى كل غابات مملكتى ما يكفيهم من المشائق » (٢٩) . كان له حساسية الشاعر ، فهو يحس فقر الشعب برهافة إحساسه بجمال النساء . لم يكن رواقيا ، فالتحكم فى عواطفه ليس من شيمه ؛ كانت له عيوبه الكثيرة ، فقد يكون وقحا دون قصد ، أو جلفا فى مرح وابتهاج . وكانت تسكنه روح رابليه ، فهو يستمتع بالقصص المكشوفة ويروىها بطريقة لا تبارى . يسرف فى لعب الورق ، ويخسر المبالغ الكبيرة ، ويغش أحيانا كثيرة ، ولكن يرد مكاسبه الحرام دائما (٣٠) . وكان يهمل مظاردة عدو متقهقر ليطارد امرأة متقهقرة .

ولا حاجة بنا لأن نعدد غرامياته كلها . على أن ثلاث نساء على
«الاحص كن معالم طريقه إلى العرش . إنه يكتب الرسائل الغرامية الملتببة
إلى « كوريساند الجميلة » ويقول في احداها « إني ألهم يدك . . . وأقبل
قدميك مليون مرة . . . انها لبقعة مقصرة حقاً تلك التي نمل فيها وجودنا
معاً » (٢٢) . ولكن لم يأت عام ١٥٨٩ حتى كان قد ملها ، واكتشف
استر امير ديوالامير . وبعد عام ، حين كان في السابعة والثلاثين ، ودون
أن يعوقه مرض السيلان (٢٣) ، وقع في غرام جابريل دستريه ، وكانت
يومها فتاه في السابعة عشرة ، خلع عليها أحد الشعراء « الشعر الذهبي » ،
وعيون النجوم ، ونحر الزئبق ، وأصابع اللؤلؤ ، وثدى المرمز (٢٤) .
وصف حببها بلجارد في لحظة طيش مفاتها للملك فعدا هنرى بفرسه اثني
عشر ميلا وهو متنكر يشق أرض العدو ليراها . وضحكت على أنفه
الطويل ، ووقع عند قدميها ، وانسحب بلجارد . واستسلمت هي لسحر
المال والملك ، وولدت لهنرى ثلاثة أطفال . وكان يأخذها لبلاطه وفي
رحلات صباه ، ويعانقها علنا ، ويفكر في الزواج منها إذا ارتضت
مارجو طلاقه . وتضافر الوعاظ الهيجونوت والكاثوليك في التنديد به
زانيا ضالا ، ووبخه صلى الشجاع على تبديده أموال الدولة على محظياته .
فطلب المغفرة معتذرا بأنه وقد جاهد هذا الجهاد في الحرب والحكم ،
وأخفق هذا الاخفاق في الزواج ، فإن له ما لكل جندي من الحق في
شئ من الترفيه (٢٥) . وأقام على حب جابريل ثمانى سنين بكل الافتتان
الذى في طاقة روح شديدة الثقل والتنقل . ولكن جابريل غدت بدينة
حريصة على الاقتناء . وراحت تدس لصلى ، وتدعوه « التابع » ، وقال
لها هنرى في غيظه إن وزيراً مثله أئمن في نظره من عشر محظيات مثلها .
ثم لان وعاد إلى حديث الزواج منها ، ولكنها ماتت في ١٠ أبريل ١٥٩٩
وهى تلد طفلا ميتا . وبكاها بكاء مرا وكتب يقول : « لقد ماتت نبتة
الحب التي في باطنى » (٢٦) .

ولكن النبذة انتعشت بعد شهرين حين التقى بهرييت دنتراج ، ابنة ماري توشيه ذاتها التي كانت خلية شارل التاسع . ونها ، أبوها وأمه وأخوها لأبيها أن تستسلم إلا لخاتم الزواج ، فكتب لها هنري تعهدا بالزواج مشروطا بأن تنجب له ولدا ، ولكن صلى مزقه أمامه ، فكتب هنري تعهدا آخرًا وسلمه لها مع عشرين ألف كراون . وبرئ ضمير السيدة وأصبحت محظية الملك . ورأى بعض دبلوماسيه أنه قد آن له أن يستقر . فأقنعوا مارجو بقبول الطلاق شريطة ألا يتزوج هنري من خليلته . ووافق البابا كليمان الثامن على منح الطلاق بنفس الشروط ، واقترح ماريه مديتشي ابنة دوق توسكانيا الكبير عروسا لهنري ، واقترح المصرفيون والفلورنسيون إلغاء دين فرنسا الضخم لهم إذا جعل هنري ماريا مليكته (٢٧). واحتفل بالزواج غيبيا في فلورنسة (٥ أكتوبر ١٦٠٠) . وانتزع هنري نفسه من ساحة قتال لينذهب إلى ليون ليحيى زوجته ، ووجدها طويلة بدينة متعجرفة ، وبذل لها كل مجاملة ملكية ، وأنجب منها لويس الثالث عشر ثم عاد إلى الأنسة دنتراج على أنه كان يقوم بواجباته الزوجية بين الحين والحين . وأنجبت له ماري دمديسى (كما كانت تسميها فرنسا) سبعة أطفال في عشر سنين . ورباهم هنري ، مع أبنائه من جابريل وهنرييت ، في سان - جرمان - أن - لي .

وقدمت هنرييت إلى الملكة ، واسكنت قصرا بقرب اللوفر ، ولكنها بعد أن ولدت للملك ولدا أصرت على أنها هي ، لا ماري ، الملكة الشرعية . وتآمر أبوها وأخوها لأبيها ليخطفها هي وابنها إلى أسبانيا ويجعلها فليب الثالث يعترف بالغلام « الدوفين » الشرعي لفرنسا (١٦٠٤) . واكتشفت المؤامرة وقبض على الأخ ، وأفرج عن الأب حين رد تعهد هنري بالزواج . وواصل هنري مطاردته لهنرييت كأنه الزير الخائع . وكانت تقابل ملاطفاته بالاشتمزاز والكراهية ، وتقبل الرشا من فليب الثالث ثمنا لتجسسها لحساب أسبانيا (٢٨) .

وسط هذه السخافات التي لا تصدق خطط الملك لكسر الحصار الذي طوق آل هابسبورج فرنسا به - ذلك النطاق الحديدي المؤلف من الأراضي المنخفضة ، وليكسمبورج ، واللورين ، وفرانش كونتيه ، والنمسا ، والممرات الفالتيلية ، وسافوى ، وإيطاليا ، وأسبانيا . وزعم صلى في مذكراته أنه اقترح على هنرى وجيمس الأول ملك إنجلترا « خطة عظمى » تتحد بمقتضاها فرنسا ، وإنجلترا ، واسكتلنده ، والدنمرك ، والسويد ، والأقاليم المتحدة (هولنده) ، وألمانيا البروتستنتية ، وسويسرة ، والبندقية ، ضد الهابسبورج ، وتنزع أمريكا من أسبانيا ، وتحرر ألمانيا من ريقه الامبراطور ، وتطرد الأسبان من الأراضي المنخفضة ، ثم يقسم المنتصرون كل أوروبا - فيما عدا روسيا وتركيا وإيطاليا وأسبانيا - إلى « جمهورية مسيحية » فدرالية من خمس عشر دولة مستقلة ذاتيا ، يتجر بعضها مع البعض دون رسوم جمركية ، وترفع سياساتها الخارجية إلى مجلس فدرالى مسلح بقوة عسكرية عليا (٢٩) . أما هنرى فيبدو أن الفكرة الفخمة لم تخطر بباله قط ؛ ولعل قصارى ما حلم به أن يمد فرنسا إلى « حدود طبيعية » عند الرين ، وجبال الألب ، والبرانس ، والبحر ، وأن يحررها من الخوف من أسبانيا والنمسا . وفى سبيل هذه الأهداف كان يلجأ إلى أى وسيلة متاحة له : فسعى إلى عقد الأحلاف مع الدول البروتستنتية ، وساعد الهولنديين فى ثورتهم على أسبانيا ، ودبر تأييد ثورة يقوم بها المسلمون فى بلنسية ، وشجع الترك على مهاجمة النمسا (٤٠) .

وأتاح نزاع تافه لإشعال شرارة هذا العداء البوربونى - الهابسبورجى ليصبح حربا أوروبية . ذلك أن الدوق نجون وليم ، حاكم إمارة بيليش - كليفس - بيرج الثلاثية الصغيرة القريبة من كولونيا ، مات فى ٢٥ مارس ١٦٠٩ دون أن يعقب . وادعى الامبراطور رودلف ، بوصفه السيد الاقطاعى الأعلى للامارة ، أن له الحق فى تعيين كاثوليكي لهذا العرش

الصغير . واحتج هنرى بأن المزيد من اخضاع الدوقية لها بسبورج سيعرض حدود فرنسا الشرقية للخطر . وانضم إلى براندنبورج والبالاتينات والأقاليم المتحدة في تصميمها على تعيين خلف بزوتستنتى لحون ولیم ، فلما احتل الأرشيدوق ليوبولد النمساوى ييليش بالجيش الامبراطورية اتخذ هنرى أهبطه للحرب .

وتوافق غرامه الأخير توافقا مثيرا مع الدعوة إلى هذه المعركة الفاصلة الكبرى . ذلك أنه برغم بلوغه السادسة والخمسين وما بدا عليه من اكتمال أحس تلديجا في ١٦٠٩ بحزن طاغ لشارلوت مونمورنسى ذات الستة عشر ربيعا . وتأبى عليه ، ولكنها قبلت أمره بأن تزوج أمير كونديه الجديد . وروى أن خليلته هنرييت وبختة ساخرة بقولها « ألسنت شريرا جدا لأنك تريد أن تضاجع زوجة ابنك ؟ فأنت عليم بأنك أخبرتنى بأنه (أى الأمير) ولدك . » وهرب كونديه بعروسه إلى بروكسل ، وتحرق هنرى شوقا إلى مطاردتها ، ونظم ماليرب هذا التحرق شعرا . والتقى فيلرأ وزير خارجية هنرى من الأرشيدوق البرت حاكم الأراضى المنخفضة أن يعيد الأميرة إلى باريس ، ولكن الأرشيدوق رفض بتشجيع من فليب الثالث ملك أسبانيا . وهدد فيلرأ بحرب « قد تشعل نارا في أربع أركان العالم المسيحى (٢) » . وبدا لهنرى أن من توفيق العناية أن تقع بروكسل فى الطريق إلى ييليش : فهو إذن قاهر هذه السيدة — والأراضى المنخفضة الأسبانية — تمهيدا لتحطيم الامبراطورية واذلال أسبانيا . واستأجر المرتزقة السويسريين واستعد لجمع جيش عدته ثلاثون ألف مقاتل . ووعد جيمس الأول ملك إنجلترا بأربعة آلاف آخرين .

وروعت فرنسا الكاثوليكية ، فقد أسرفت في تصديق الشائعات التى تواترت بأن مفاتن الأميرة هى سبب الحرب الحقيقى ، وأفزعتها أن يكون حلفاء الملك وقواده أكثرهم من البروتستنت ، وتساءلت ماذا عساه يكون مصير الكاثوليكية والبابوية فى أوروبا إذا انهزم جنوبها الكاثوليكي

على يد شماها البروتستنتى ، وعلى يد ذلك الملك الذى كان بالأمس القريب هيجونوتيا . وهبطت الضرائب المفروضة لتمويل هذه الحرب المروية بشعبية هنرى ، وهى أبدا قلقة لا ثبات لها ، وحتى بلاطه تحول عنه لأنه رأى فيه رجلا أعماه الحمق عن أن يدرك أنه لم يعد فى طاقته أن يجمع بين لوثاريو والاسكندر فى شخصه . وأرجفت التنبؤات بأنه مقتول عما قريب - وربما كانت تحريضات مشجعة لمن يتأثرون بها .

وسمع فرانسوا رافايك بهذه التنبؤات ، وكان موطنه أنجوليم . وقد أطل التامل فى سجنه الذى أودعه بالحرمة لم يقتربها ، ورأى الرؤى ، ودرس اللاهوت ، وقرأ الكتيبات التى تدافع عن قتل الطغاة . وإذا كان قوى الذراع ، ضعيف العقل ، فقد راح يداعب هذه الفكرة ، وهى أن الله اختاره لتحقيق التنبؤات ولانقاذ فرنسا من مصيرها البروتستنتى . فلما أفرج عنه انطلق إلى باريس (١٦٠٩) ، ونزل عند مدام دسكومان ، وهى صديقة لهيريت دنتراج ، واعترف لها بأنه يفكر فى قتل الملك . وأرسل تحذير لهنرى ، ولكنه كان قد ألف مثل هذه الأذونات ألفا جعله لا يعبا بالتحذير . وبينما كان يخرق الشوارع حاول رافايك أن يقترب منه ، وأوقفه الجند ، فقال إنه يريد أن يسأل الملك أصحح أنه يدبر الحرب على البابا ، وأن الهيجونوت يستعدون لذبح الكاثوليك . ثم حاول أن يدخل ديرا وينضم إلى اليسوعيين ، ولكن طلبه رفض . فعاد إلى أنجوليم ليقوم بواجبه فى الفصح ، وتناول القربان ، وتسلم من أحد الرهبان حقبة صغيرة قيل له إنها تحتوى على شظية من الصليب الذى مات عليه المسيح . واشترى مدية ، ثم عاد إلى باريس . وأرسلت مدام دسكومان تحذيرا إلى صلي قابليغ الملك به .

وكان هنرى يتأهب للحاق بمجيئه فى شالون . وفى ١٣ مايو ١٦١٠ حين الملكة وصية خلال غيابه . وفى اليوم الرابع عشر رجاه ابنه غير الشرعى ، دوق فاندوم ، ألا يبرح بيته لأن التنبؤات بمقتله حددت هذه

اليوم نهاية حياته . وفى العصر قرر أن يخرج فى نزهة بعربته ، وأن يزور صلى المريض ، ويستمتع بـ « نسمة هواء . » وتفاديا لانتباه الناس صرف حرسه ، ولكن كان يرافقه سبعة من الحاشية . واقتفى رافايك أثر العربة وكان يراقب اللوفر . وعند نقطة فى شارع فيرونيى وقفت العربة لتشابك فى المرور . وهنا قفز رافايك على سلمها وطعن الملك طعنة نجلاء بلغ من عنفها أن السلاح اخترق قلبه ، فمات هنرى للتو تقريبا .

وتحمل رافايك وزر جريمته كاملا حين عذب ، وأنكر أن له محرضين أو شركاء ، وأسف على عنف فعلته ، ولكنه صرح بثقته بأن الله غافرها كما يغفر للمذنبين فى سبيل قضية مقدسة . ومقرت أربعة جياد أوصاله ، وأحرق جذعه فى ميدان عام . واتهم الكثير من اليسوعيين بأنهم ألبسوا عقل القاتل ، وقيل إن كتاب ماريانا عن الملكية « دى ريجى » الذى يبرر قتل الطغاة كان يباع علناً فى حوانيت باريس . ورد اليسوعيون بأن هذا الكتاب شجة صراحة مجمع لليسوعيين عقد بباريس عام ١٦٠٦ . وحكمت السوربون على اليسوعيين بأنهم مسئولون عن التعاليم الخطرة وأحرقت كتاب ماريانا رسمياً (٤٢) . أما مارى مديسى فقد حمت اليسوعيين من الأذى بصفتها وصية ، وقبلت ارشادهم فى الإيمان والسياسة .

وأصاب فرنسا الاضطراب والفرقة لمشروع هنرى الأخير وموته المفاجئ . وارتضت قلة هذا الاغتيال على أنه عمل إلهى فى سبيل الدفاع عن الكنيسة . ولكن الكثرة العظمى ، من الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، تاجت على ملك رجعت جهوده من أجل شعبه أخطاء وهاقته وذنوبه رجحاناً كبيراً . ولم يكن قد غاب عن ذاكرة الفرنسيين كل ما ورثه مع العرش من فقر وخراب ، ومن اضطراب دينى ، ومن فساد وعجز حكوميين ؛ لقد رأوا الآن أمة نظيفة منظمة ، غنية برغم الضرائب المرتفعة ، لها من القوة ما يتيح لها أن تتحدى السيادة الأسبانية الطويلة . وذكروا فى حين ما طبع عليه هنرى من بساطة فى اللبس والمسلك والحديث ،

وذكروا روحه المرحه وطبيعته الرقيقة ، وبسالته المبهجة فى الحرب ،
هوكياسته فى الصداقة والدبلوماسية ، وأغضى تراخيم الخلقى عن تلك
المغامرات الغرامية التى لم يبد فيها إلا رجلا على هواهم . لقد وصف نفسه
بحق بأنه « ملك وفى ، أمين ، صاقد » (٤٤) ، ولكنه كان إلى ذلك
أعظم ملوك فرنسا إنسانيه ورحمة ، ثم إنه كان منقذ فرنسا . ربما بدت
خطته فى الوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية أمراً غير عملى ، ولكن
ريشليو اتبعها بعد عشرين عاماً ، ثم حققها لويس الرابع عشر بعد ذلك .
ولم يمض طويل زمن على موته حتى أجمعت أوروبا على تلقيبه بهنرى
الأكبر . وفى الثورة الفرنسية أدين جميع الملوك الفرنسيين من خلفائه ،
إلا هنرى الرابع ، فقد ظل يتربع المكان الأول فى قلب الشعب .

الفصل الخامس عشر

ريشليو

١٥٨٥ - ١٦٤٢

١ - بين ملكين : ١٦١٠ - ٢٤

خلف موت هنري الرابع المفاجئ فرنسا في فوضى متجادة ، تأصلت جذورها الكثيرة في صراع النبلاء مع الملكية ، والطبقات الوسطى مع الاستقراطية ، والكاثوليك مع الهيجونوت ، والاكليروس مع الدولة ، والملك الصغير لويس الثالث عشر مع أمه ، وفرنسا مع النمسا وأسبانيا . أما ذلك العبقري الساحر ، الجبار ، الذي أحال كل هذه الفوضى نظاما ، وهزم الرجعية الاقطاعية ، وهذا ثورة الهيجونوت ، وأخضع الكنيسة للدولة ، وأنقذ ألسانيا البروتستنتية من الانهيار ، وكسر شوكة الهابسبورج المحدثين بفرنسا ، ورفع الملكية الفرنسية إلى سلطانها المطلق في الداخل وإلى أسمى مقام في أوروبا - هذا الرجل كان قسيسا كاثوليكيا ، وكان أعظم السياسيين في تاريخ فرنسا ، وأشداهم دهاء ، وأقسام قلبا :

إن بعض مأساة هنري أن وريثه لويس الثالث عشر كان عند موته غلاما في الثامنة لا حول له ولا قوة . وأن الأرملة التي ترك لها الوصاية عليه كانت امرأة فاقت شجاعتها ذكاءها ، على استعداد لتسليم الحكم لمحاسبيها الايطاليين ما دامت تستمتع بلذائد الحياة في وفرة عارمة . فخلت عن خطة هنري في حرب تشن على الهابسبورج حتى الموت ، بل لأنها على العكس ألقت بين فرنسا وأسبانيا بتزويج أبنائها من أبناء فليب الثالث - فزوجت أبنها لويس لآن النمساوية ، وابنتها اليزابيث للفي الذي أصبح فيما بعد فليب الرابع . على أن إرادة ريشليو ستكون أقوى من هذا الدم المخلط .

ترك هنرى وصلى . . . ر ٣٤٥ ر ٤١ جنيسه فى خزانه الدولة .
والنف كونشينو كونشيني ، وزوجته ليونورا جاليجاي ، ودوق ابيرون ،
وغيرهم من أفراد الحاشية المتعطشين للمال ، التفوا حول هذا الكنز واستعدوا
للاجهاز عليه . وعارض صلى ولكنه غلب على أمره ، فاستعمل ساخطا ،
واعتكف فى ضياعه يكتب المذكرات عن مليكه المحبوب .

ورأى النبلاء فى عجز الحكومة المركزية وفسادها الفرصة لاسترداد
سيادتهم الاقطاعية القديمة . فطالبوا بدعوة مجلس الطبقات ظنا بأنه سيكون .
كما كان من قبل صوتهم وسلاحهم ضد الملكية ، وأجيب الطلب . ولكن
حين التام شمل المجلس بباريس فى أكتوبر ١٦١٤ ، أقلقتهم قوة الطبقة الثالثة .
ومقترحاتها — هذه الكتلة الشعبية المجردة من النبالة والكهانة ، الممثلة يومها
كما هى ممثلة اليوم فى المحامين ، والمعبرة عن قوة الطبقة الوسطى ورغباتها .
أما النبلاء والاكليروس الذين وضعوا عراقا للأصل ومسحة الكهانة
فوق التروة والقانون ، فقد تحدوا نظام توريث المناصب القضائية الحديث ،
وهو نظام آذن بخلق نبالة قضائية منافسة . وردت الطبقة الثالثة بطلب
التحقيق فى المنح والمعاشات العريضة التى تلقاها النبلاء مؤخرا من الحكومة ،
وطالبت باصلاح ما فسد فى الكنيسة ، وعارضت فى أن تطبق فى فرنسا
الأوامر الصارمة التى أصدرها مجمع ترنت ، وطالبت بأن يخضع رجال
الدين للقوانين والمحاكم التى يخضع لها العلمانيون ، وبأن تفرض القيود
على اقتناء الكنيسة المعفاة من الضرائب مزيدا من العقارات ، وبألا يتقاضى
القساوسة أجراً على قيامهم بشعائر العمد والزواج والدفن ، وأخيرا دافعت
عن سلطة الملك وحقه الإلهى ضد دعاوى النبلاء فى حق الهيمنة عليه .
والبابوات فى حق خلعه . كانت تلك ثورة غير متوقعة . فهذه المندوبيون .
المشاغبون بالعودة وحل المجلس (مارس ١٦١٥) . ثم نسي أكثر هذه
العودة ، واستأنف الاختلاس وسوء الإدارة . ولم يدع مجلس الطبقات
مرة أخرى إلا حين انهارت الملكية وطبقنا النبلاء والاكليروس على السواء
عام ١٧٨٩ .

على أن الكليروس الكاثوليكي الفرنسي اكتسب شرفا باصلاح ذاته اصلاحا مخلصا فعلا . ولم يكن المسئول دائما عن المفساد التي أشاعت الفوضى في الكنيسة ، لأن كثيرا من المفسد نجم عن أن الأساقفة ورؤساء الديورة كان يعينهم الملاك أو النبلاء الذين يحون حياة أشبه بحياة الوثنيين ، وأحيانا تساورهم شكوك العقيدة (١) . مثال ذلك أن هنرى الرابع منح صلي الهيجونوتى أربعة ديورة لبرتزق من دخلها ، وعين خليلته « كوريزاند » رئيسة لدير شاتيون — سير — سين . وخلع السادة النبلاء الأسقفيات ورياسات ديورة الرهبان والرهبات على أبنائهم الصغار، وأبنائهم غير الشرعيين، وجنودهم البواسل ، ونسائهم الاثيرات . وإذا كانت قرارات الاصلاح الصادرة من مجمع ترنت لم تقبل بعد في فرنسا، فإن عدد الكليات اللاهوتية التي تعدد القساوسة كان قليلا ؛ فكل شاب منذور يقرأ نص القداس اللاتيني ويتعلم مبادئ الطقوس يصلح لاختياره للكهانة ، وكثير من الأساقفة الذين كانوا رجال دنيا يعيشون على هواهم قبل أن يكافأوا بمنصب الأسقفية عينوا لرعاية الشعب رجالا حظهم من التعليم قليل ومن التقوى أقل . قال قسيس « لقد أصبح اسم القسيس مرادفا للجهل والفجور (٢) » . وقال سان فانسان دپول « ان أعدى أعداء الكنيسة هم كهنتها غير الحديرين بالكهانة » (٣) .

وقد حاول الأب بوردواز علاج الجانب الخلقى للمشكلة بانشاءه «مجتمع القساوسة» (١٦١٠) وهو نظام تطلب من جميع قساوسة الأبرشية أن يعيشوا معا عيشة البساطة والوفاء بنورهم . وفي عام ١٦١١ أسس الأب برول « جماعة المصلين » على غرار مؤسسة شبيهة أقامها القديس فليب نيرى فى إيطاليا ، وقد أصبحت مدرسة لاهوتية . لتدريج شباب القساوسة على تعليم وتكريس أفضل وفى عام ١٦٤١ نظم الأب جان جاك أوليه الطريقة الميليسية لاعداد الرجال للكهانة ، وفى عام ١٦٤٦ افتتح مدرسة القديس سلبس اللاهوتية وكثيستها فى باريس وفى عام ١٦٤٣ ألف الأب جان (القديس يوحنا) أود « جملة يسوع ومريم » لتأهيل الرجال

للكهانة والبعثات التبشيرية . وهكذا أعد أعلام من رجال الأجيال التالية كبوسويه ، وبوردالو ، ومالبرانث ، وأرسى أساس قوة الكنيسة وبهايتها في عصر لويس الرابع عشر .

وكشفت طوائف دينية جديدة عن تقوى الشعب ونفخت فيها حياة جديدة . فدخلت الراهبات الأورسوليات فرنسا حوالى عام ١٦٠٠ واضطلعن بتعليم البنات ، ولم ينقض قرن على دخولهن حتى كان لهن ١٠٠٠ بيت و ٣٥٠٠ جمهورا من العابدين . ورحبت مارى مديسى بدخول طائفة « أخوة الرحمة » إلى فرنسا ، وهى التى أسسها (١٥٤٠) القديس يوحنا الإلهى فى أسبانيا ، وسرعان ما أعدت ثلاثين مستشفى . وفى عام ١٦١٠ أنشأت بارونة شانثال (القديسة شانثال) ، بمساعدة فرانسوا سال ، « طائفة السيدة العذراء للافتقاد » لرعاية المرضى والقراء ، وما وافت سنة ١٦٤٠ حتى كان لها مائة دير ، وفى عام ١٧٠٠ كان لفرع واحد منها أربع مائة دير للسنة . وبلغت جملة الراهبات فى فرنسا عام ١٦٠٠ حوالى ثمانين ألفا (٤) .

وهناك رجلان يحتلان مكانا بارزا فى هذا الإحياء الكاثوليكي الذى حدث فى القرن السابع عشر . وأولهما فرانسوا سال الذى اتخذ جزءا من اسمه من مسقط رأسه القريب من آنسى فى سافوا . درس القانون فى بادوا وأصبح موظفا فى مجلس شيوخ سافوا . ولكن للدين كان يجرى فى عروقه فرسم قسيسا ، واضطلع (١٥٩٤) بمهمة شاقة ، هى أن يرد إلى حظيرة الكاثوليكية إقليم شابلية الواقع جنوبى بحيرة جنيف ، وكان قد اتبع مذهب كلفن منذ عام ١٥٣٥ . ولم تمض خمس سنوات حتى تمت المهمة ، وساعد على ذلك نفى من لم يهتدوا ، ولكن أكثر الفضل فى إتمامها كان لما أوتى فرانسوا من تقوى وصبر وكياسة مقلعة . فلما رقى أسقفا كرس نفسه لتعليم الأطفال والكبار . وحين زار باريس أحبته نساء الطبقة العليا محبة

الأكابر والتبجيل ، وأصبحت التقوى هي الزى الفاشى فى المجتمع
حينما من الزمن .

أما حياة ثانى الرجلين ، وهوفانسان دبول ، فقد سلكت مسالك
أقيل اتباعا للتقاليد . ذلك أنه بدأ راعى خنازير ، ولكنه بطريقة ما وجد
سبيله إلى كلية فرانسيسكانية بفسقونيا ؛ وإذ كان أبوه — ككل أب
كاثوليكي — تواقاً للظفر بثواب الآخرة لأسرته بتكريس أحد أبنائه للكنيسة ،
فقد باع زوجا من الثيران ليرسل ولده إلى جامعة تولوز ليدرس اللاهوت ؛
وهناك رسم فانسان قسا (١٦٠٠) . وفى رحلة على البحر المتوسط أسره
القراصنة وباعوه عبدا فى تونس . ولكنه هرب ، وذهب إلى باريس ،
وأصبح قسيسا خاصا لمارجو طليقة هنرى الرابع ، ثم أصبح المرشد
الروحى لمدام جوندى . وبفضل المال الذى أعانته به هذه السيدة نظم البعثات
التبشيرية بين الفلاحين ، وبعد كل بعثة تقريبا أسس « مبرة » لأغاثة فقراء
الناحية ، ورغبة فى استمرار هذه المؤسسات نظم « جماعة قساوسة البعثة »
— ويطلق عليهم أحيانا كثيرة اسم « اللعازيين » نسبة إلى دير القديس
لعازر الذى استخدموه مقرا رئيسيا لهم فى باريس . ولما كان المسيو
جوندى قومنداناً لسفن تشغيل المجرمين الفرنسية فقد اضطلع فانسان بالتبشير
للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فى هذه السفن . وإذ روعته شدائدهم
وأمرضهم ، فتح لهم المستشفيات فى باريس ومرسيليا ، وأيقظ ضمير
فرنسا لتعامل المسجونين معاملة أفضل . ثم اقنع النساء المبسورات بأن يقمن
بالخدمة فى المستشفيات بين الحين والحين ، وجمع المبالغ الطائلة لتوزيعها
على شئون البر ؛ ورغبة فى التصرف فى هذه الأموال ، وفى إعانة جماعة
وسيدات البر ، إلى نشأها ، نظم عام ١٦٣٣ جماعة « أخوات البر » (وكان
يفضل أن يدعوهن بنات البر) — اللاتى يخدمن الآن الانسانية وكنيستهن
فى أصقاع كثيرة من العالم .

وقد كسب « مسيو فانسان » قلوب كل من عرفوه تقريبا برغم ما افتقر إليه من جاذبية الجسد ، وما ارتداه من رث الثياب ، وما في طلعته من شبه بمعلم ناموس يهودى ملتج مغضن الوجه ، وذلك بفضل جهاده في سبيل الفقراء والمرضى والمجرمين . وقد جمع الأموال الكثيرة ، وأنشأ المستشفيات ، والملاجئ ، والمدارس اللاهوتية ، وبيوت الشيوخ ، ومعتكفات العلمانيين والقساوسة ؛ وقد تضخم حجم الحسابات التي تسجل خيراته . وخلال حرب الفروند التي نشبت بين عامي ١٦٤٨ و ١٦٥٣ ، وأثناء حصار باريس ، أشرف على إطعام خمسة عشر ألفاً من المعدمين ؛ على أن التثبت بالعقيدة هنا غلب نوازع الخير ، فقد تطلب اعتراف الشخص بالعقيدة الكاثوليكية شرطاً لنيله الطعام^(٥) . وانضم إلى الحملة على بور - رويال ، ولكنه حاول التخفيف من اضطهاد رهاباتها^(٦) . فلما مات نأح عليه نصف باريس ، وكان شعور الارتياح شاملاً حين سلكته الكنيسة في عداد «ديسها» (١٧٣٧) .

وبفضل هذا الرجل ، وبفضل فرانسوا سال ، وبفضل اليسوعيين الذين لا يتطرق اليأس إلى نفوسهم ، وبفضل الخدمة الصادقة التي قدمتها نساء لا حصر لهن ، ولدت الكاثوليكية الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر ميلاداً جديداً يتميز بالقوة والورع . فعادت الطرق الديرية إلى نظمها ، وأصلحت أديار الراهبات نفسها ؛ وبدأ الآن بور - رويال وقديسوه الجانسنيون . ووجد التصوف نفراً جديداً من الداعين والممارسين للاستغراق في التأمل المباشر لله . أما الملك الشاب الذي انتقلت إليه حماسة العصر فقد وضع فرنسا في إجلال تحت حماية مريم العذراء ، « حتى يكون الفردوس ثواب جميع رعاياه المخلصين . . . لأن هذه مشيئته الطيبة ومسررة نفسه^(٧) » على حد قول المرسوم الملكي . واستمر الحراس يوقظون الباريسيين كل صباح كما ألفت فرنسا أيام العصور الوسطى بنداء للصلاة من أجل الموتي الراحلين :

« استيقظوا أيها النائمون
وصلوا لله من أجل الراحلين »^(٨)

ولكن صراع العقائد واصل طريقه في مرارة . والتزمت ماري مديسي ،
بمرسوم نانت - بأمانة على الرغم من تمسكها بعقيدها . ولكن لا الكاثوليك
ولا الهيجونوت كانوا يميلون للتسامح . وندد البابا وسفيره والاكليروس
الكاثوليكي بالحكومة لتساهلها مع الهرطقة . وحيث كانت الغلبة للكاثوليك
رائخوا يشرون على الخدمات البروتستنتية ويدمرون كنائس البروتستنت
وبيوتهم وأحيانا حياتهم^(٩) ، وأخذوا الأطفال عنوة من آبائهم الهيجونوت
بحجة أنهم يحولون بينهم وبين تحقيق رغبتهم في اعتناق الكاثوليكية^(١٠) .
وحيث كان البروتستنت أصحاب الكلمة العليا ردوا على هذا بمثله .
فحظروا ترتيل القداس في نحو ٢٥٠ مدينة خاضعة لهم^(١١) ، وطالبوا
بأن تحرم الحكومة المواكب الكاثوليكية في البلاد البروتستنتية ، وكانوا
يسخرون من هذه المواكب ويشوشون عليها وأحيانا يهاجمونها ، ومنعوا
البروتستنت من حضور شعائر العباد أو الزواج أو المآتم الكاثوليكية ،
وأعلن رعاتهم أنهم سيمنعون الآباء الذين يتزوج أبناءهم من الكاثوليك
من تناول القربان^(١٢) . قال مفكر حر مشهور « بينما كان الكاثوليك نظريا
أكثر تعصبا من البروتستنت ، أصبح البروتستنت أكثر تعصبا من
الكاثوليك^(١٣) » ، ونافس الوعاظ البروتستنت الكهنة الكاثوليك في قمع
الهرطقة وتكريم النقد ؛ فحرموا جريمى فيرييه (ولكنهم لم يحرقوه)
و « أسلموه للشيطان » لأنه هزأ بالمجتمعات الكنسية ، وهاجمت كتاباتهم
المذهب الكاثوليكي في « كتب قل أن يكون لها نظير في مرارة الشعور ،
ويستحيل بالتأكيد أن تبزها كتب أخرى^(١٤) . » وخشى الهيجونوت إلغاء
مرسوم نانت ، وساءهم الحلف بين فرنسا وأسبانيا فناضلوا لكي
يجعلوا نصيبهم من فرنسا مستقلا سياسيا ، آمنا حريا ، له جيشه وقوانينه
الخاصة .

وحين زار لويس الثالث عشر (١٦٢٠) صدمه ألا يجد كنيسة كاثوليكية واحدة يصلى فيها (١٥) . ونظر الملك الشاب فى استيلاء وفرع إلى مذهب لم يهدد بأن يقسم روح فرنسا فحسب بل جسدها أيضا . وفنش فى لفة بين حاشيته عن رجل فى دمه من الحديد ما يكفل تحويل هذه الفوضى - فوضى العقائد والقوى المفرقة - إلى أمة موحدة .

٢ - لويس الثالث عشر

لقد أيقن أنه هو ذاته يفتقر إلى صحة البدن وقوة الذهن التى تتطلبها هذه التحديات . ولد فى السنة الثامنة والأربعين لأب ربما أوهن من قواه الافراط الجنسى ، لذلك كان يشكو السل ، والتهاب الأمعاء ، وتعثرا مربكا فى منطقته . وكان فى فترات طويلة أضعف من أن يمارس الرياضة ، إنه يعزف الموسيقى ويؤلفها ، ويزرع البازلاء للسوق ، ويسيج أرض الصيد ، ويساعد فى المطبخ . لم تبق له الوراثة والمرض على أى جمال فى القوام أو الوجه ، فهو نحيل نحولا خطرا ، ضم الرأس والأنف ، تركت شفته السفلى المتدلية فيه مفتوحا دائما بعض الانفتاح ، ينسجم وجهه الطويل الشاحب مع ردائه الكابى عن عمد . ولم تكن معاناته من الطبيعة بأشد من معاناته من أطبائه ، فقد فصده فى سنة واحدة سبعا وأربعين مرة ، واعطوه ٢١٥ حقنة شرجية ، وألقموه ٢١٢ دواء (١٦) . على أنه احتفظ بالحياة بفضل ممارسته الرياضة حين يستطيع ، والصيد ، والانضمام إلى جيشه ، والنوم فى الهواء الطلق ، وتناول طعام الجنود البسيط .

كان مدرسه يضر به مرارا ، لذلك اشتد بغضه للتعليم ، ويلوح أنه لم يقرأ قط كتابا ألا للصلاة . واعتاد أن يتلو صلوات العبادة السبع كل يوم ، وقبل فى غير تشكك ذلك الايمان الذى لقنه فى صباه ، وكان ينضم دائما إلى أى موكب يحمل القربان المقدس ويصاحبه إلى النهاية . وقد أفسدت مزاجه الرقيق بطبعه نزعة مريضة إلى القسوة تتناوب بين الحين والحين .

كان خجولا ، كتمة ، مكتئبا ، لا يستشعر الحب الشديد لحياة لم تحبه . واعتبرته أمه إنسانا ضعيف العقل ، فأهملته ، وفضلت عليه في صراحة أخاه الأصغر جاستون ، واستجاب لذلك بكرهه إياها وعبادة ذكرى أبيه . ثم اكتسب تدريجا بغض النساء ، وبعد أن تأمل على استحياء جمال الأنسة أوتفور منح الشبان حبه . تزوج من آن النمسوية زواجا سياسيا ، فكان يساق إلى فراشها سوفا . وحين أسقطت جنينها لم يمسه ثلاثة عشر عاما . ونصحته بطانته بأن يتخذ له محظية ، ولكن كان له ميول أخرى . ثم حاول ثانية وهو في السابعة والثلاثين . مدعنا لمطالبة فرنسا كلها بولي للعهد ، وأعطت آن الشاكرة العالم لويس الرابع عشر (١٦٣٨) . وبعد عامين ولدت فليب أورليان الأول . الذى واصل تقدير أبيه لمفانن الذكور .

على أن لويس كان له بهض شيم الملوك . من ذلك أنه وهو بعد ذلام فى السادسة عشرة ، وقد سئم وقاحة كونيشتي واختلاساته المالية ، أصدر فجأة أوامره السرية باغتياله (١٦١٧) ، وحين احتجت الملكة الأم على هذا الختام لحياة محسوبها نفاها إلى بلوا واختار شارل دالير وزيرا أول له ، وكان هو الذى اقترح عليه هذه الضربة ، ورقى الآن دوقا على لون . وتحت إلحاح الدوق والبابا بولس الخامس ، أمر لويس الهيجونوت يرد كل الأملاك التى أخذوها من الكنيسة . فلما تجاهل إقليم بيارن المرسوم زحف عليه وفرض عليه الطاعة ووضع بيارن ونافار - مملكة أبيه الشخصية فيما مضى - تحت حكم الملك المباشر . ولم يقاوم الهيجونوت من فوردهم ، ولكن جمعيتهم العامة المجتمعة فى لاروشيل أقوى مدتهم ، طالبت برد الأملاك المستعادة لأنها ملك للشعب لا للكنيسة ؛ ثم قسمت فرنسا ثمانى « دوائر » وعينت لكل منها مديرا عاما ومجلسا لجمع الضرائب والجند . وأعلن لويس أن فرنسا لا يمكن أن تسمح بدولة داخل الدولة . وفى أبريل ١٦٢١ قاد جيشا ، وزحف قواده الآخرون بثلاثة جيوش ، وجهت كلها ضد القلاع البروسنتية ، فسقط عدد منها ، ولكن مونتوبان التى دافع عنها

هنرى دوق روهان ثبتت للهجوم . وترك القواد غير الأكفاء الحرب تتعثر عاما ونصفا . ومنعت معاهدة الصلح المعقودة فى ٩ أكتوبر ١٦٢٢ التجمعات البروتستنتية ، ولكنها تركت مونتوبان ولاروشيل فى أيدي الهيجونوت . وفى خلال هذه الحملات مات لون (١٦٢١) ، وارتقى ريشليو إلى مركز القوة .

٣ - السكردينال والهيجونوت

كيف يشق لإنسان طريقه إلى القمة ؟ فى تلك الأيام كانت تعيينه على ذلك عراقا أصله . وكانت أم أرمان جان دبليس دريشليو ابنة محام فى برلمان باريس ، أما أبوه فهو السنيور دريشليو ، المدير الأكبر لبית الملك فى عهد هنرى الرابع . وورثت أسرة بواتو العريقة الحق فى أن توصى الملك باختيار من ترشح لاسقفية لوسون . وقد عين هنرى أرمان بهذه الطريقة (١٦٠٦) وكان يومها فى الحادية والعشرين . وإذ كان أصغر من السن المشترطة للأسقفية بسنتين ، فإذ سارع إلى روما ، وكذب فى أمر سنه ، وألقى أمام بولس الخامس خطابا لاتينيا جميلا حمل البابا على أن يسلم له الأسقفية . أما وقد تحقق له « الأمر الواقع » ، فقد اعترف ريشليو بكذبه ، وطلب المغفرة . وامثل البابا وهو يقول « إن هذا الفتى سيكون محتالا كبيرا » (١٧) .

وصف الأسقف الشاب أسقفيته بأنها « أفقر وأقذر » الأسقفيات فى فرنسا ، ولكن كانت الأسرة تملك بعض المال ، فما لبث أن امتلك المركبة والآنية الفضية . ولم يتخذ وظيفته منصبا شرفيا عاطلا ، بل فرغ لأداء واجباته فى اجتهاد ومثيرة ، ولكنه وجد الوقت لتمعق كل صاحب نفوذ ويسخر كل صاحب قوة . فلما اختار كهنة بواتو مندوبا لمجلس الطبقات (١٦١٤) كان أرمان رجلهم . وأعجب كل من كان بالمجلس ، لا سيما مارى مديسى ، بوجهه الرزين ، وقبائه الفارع المشقوق ، وقدرته القانونية

تقريبا على تفهم الموضوعات تفهما واضحا وعرضها عرضا مقنعا . وعين سكرتيرا للدولة بنفوذها ونفوذ كونشيني (١٦-١) . وبعد عام قتل كونشيني وفقد ريشليو وظيفته . وبعد أن خدم الملكة الأم المنفية في بلوا فترة قصيرة عاد إلى لوسون . وبيتت ماري الهروب ؛ واشتبه في اشتراك ريشليو في المؤامرة ، فنفى إلى أفنيون (١٦١٨) ، وبدأ أن مجرى حياته السياسية قد انتهى . ولكن الجميع - حتى خصومه - اعترفوا بقدراته ، ولما تددت ماري ليلا من إحدى نوافذ قلعتها في بلوا وانضمت إلى قوة من النبلاء المتمردين ، استدعى لون الأسقف الشاب وعهد إليه أن يرد الملكة إلى رشداه ويصلح بينها وبين الملك . فأفلخ في مهمته ، وحصل له لويس على قلنسوة الكردينالية ، وعينه في مجلس الدولة . وسرعان ما وضح للبيان تفوق ريشليو عقلا وارادة ، فأصبح رئيسا للوزراء في أغسطس ١٦٢٤ وهو في التاسعة والثلاثين .

وقد وجد الملك فيه بالضبط تلك الصفات التي افنتقدها في نفسه : الذكاء ، الموضوعي ، والهدف الواضح ، وصلابة الغايات ، ومرونة الوسائط ؛ وكان للويس من الصحافة ما جعله يتقبل ارشاد البكردينال في المهمة الثلاثية - مهمة اخضاع الهيجونوت ، والنبلاء ، وأسبانيا . قال ريشليو في مذكراته مقدرا له هذه الخلة « إن قدرة الملك العظيم على أن يسمح بأن يخدم (أي بأن يفوض غيره بالسلطة) ليست من أقل صفات الملك العظيم شأنًا (١٨) » . لم يكن لويس متفقا مع وزيره في جميع الحالات ، وكان أحيانا يوبخه ، وكان دائما يغار منه ، وقد فكر بين الحين والحين في طرده . ولكن أنى له أن يرفض رجلا يجعله مطلق السلطة في فرنسا وصاحب الكلمة العليا في أوربا ، ويحصل له من الضرائب أكثر حتى مما كان صلى يجمعه ؟ :

وتجلت روح الكردينال أول ما تجلت في موقفه من الدين . فلقد قبل في غير نقاش عقائد الكنيسة ، وأضاف إليها بعض الخرافات التي يعجب المرء لأن عقلا أوتي مثل هذه القوة آمن بها . ولكنه رفض ما ذهب

إليه حزب « مؤيدى سيادة البابا المطلقة » من أن للبابوات كامل السيادة على الملوك ، وحافظ على « الحريات الغالية » للكنيسة الفرنسية ضد روما ، واخضع الكنيسة للدولة فى الأمور الزمنية بنفس المضاء الذى اخضعها به أى لإنجليزى ، ونفى الأب كوسان ، الذى تدخل فى السياسة بوصفه كاهن الاعتراف الملكى ، ففى رأيه أن أى دين من الأديان يجب ألا يختلط بشئون الدولة . أما التحالفات التى أدخل فيها فرنسا فكانت مع الدول البروتستنتية والكاثوليكية على السواء .

وقد طبق مبادئه فى حزم على الهيجونوت المشتغلين بالسياسة : ذلك أنهم برغم صلح ١٦٢٢ جعلوا لاروشيل مدينة صاحبة سيادة من الناحية الفعلية ، يشرف عليها تجارها ووزراؤها وقوادها . ومن هذا الميناء الاستراتيجى أرسل التجار تجارتهم مع العالم ، وأقلع القراصنة ليقترضوا أية غنيمة أو مركب ، حتى المراكب الفرنسية ؛ وكان فى استطاعة أى عدو لفرنسا أن يدخل البلاد من هذا الميناء إذا أذن له الهيجونوت . كذلك انتهك لويس ذاته المعاهدة ، فقد وعد بهدم « حصن لويس » الذى كان خطرا دائما على المدينة ، ولكنه بدلا من أن يهدمه زاده تحصينا ، وحشد أسطولا صغيرا فى تغر لابلافيه القريب . فاسر بنيامين روهان (أخوه نرى) ، سيد سوبيز ، الذى قاد أسطولا هيجونوتيا ، هذا الأسطول الملكى وقطره ظافرا إلى لاروشيل (١٦٢٥) لذلك بنى ريشليو أسطولا آخر ، ونظم جيشا ، ورافق الملك فى حصاره للقلعة الهيجونوتية .

وأقنع سوبيز دوق بكنجهام بأن يرسل أسطولا ضخما قوامه ١٢٠ سفينة لحماية المدينة . فحضر الأسطول ، ولكنه عانى الويل من مدفعية الحصون الملكية القائمة على جزيرة رى . فاضطر إلى التسلل عودا إلى إنجلترا وهو يجر أذيال الخزي والعار (١٦٢٧) . وكان ريشليو خلال ذلك قد استولى على جميع الطرق البرية المؤدية إلى لاروشيل (بوصفه قائدا للملكه المريض) . ولم يبق إلا حصارها من البحر . فأمر مهندسيه

وجنده أن يقيموا تلا من الحجر طوله ١٧٠٠ ياردة بعرض مدخل الميناء ،
تاركين فتحة لحركة المد والجزر . وقد بلغ عنف هذه الحركة ، التي ارتفعت
فيها المياه وهبطت اثني عشر قدما ، مبلغا جعل تنفيذ المشروع يبدو مستحيلا ،
نفى كل يوم كان الماء يكتسح نصف الأحجار المبنية يومها . وملّ الملك
هذه الحرب التي لم تسفك فيها دماء وانطلق إلى باريس ، وتوقع كثير من
رجال الحاشية أنه طارد ريشليو لعجزه عن أخذ المدينة عنوة . ولكن التل
اكتمل بناؤه أخيرا وبدأ مهمته المرسومة . ومات نصف سكان لاروشيل
جوعا . ولم يستطع الحصول على القليل من اللحم غير أغنياء القوم ،
فكانوا يدفعون خمسة وأربعين جنيها ثمنا للقط ، وألغى جنيها ثمنا للبقرة .
أما جان جيتون عمدة المدينة فقد توعد كل من يجرى على لسانه حديث
الاستسلام بالقتل بخنجره . ولكن المدينة استسلمت في رأسها بعد ثلاثة
عشر شهرا من المجاعة والمرض (٣٠ أكتوبر ١٦٢٨) . ودخلها ريشليو
معتظيا جواده ومن خلفه الحند يوزعون الخبز رحمة بالناس .

وتصايح نصف فرنسا مطالبيا باستئصال شأفة الهيجونوت . ولم يكن
في وسعهم — بعد أن أضنتهم الحرب — إلا أن يتوسلوا . ولكن ريشليو
فاجأهم بشروط صلح رأى فيها الكاثوليك تساهلا شائنا . صحیح أن لاروشيل
فقدت استقلال بلديتها ، وحصونها ، وأسوارها ، ولكن أشخاص سكانها
وأملأهم لم تمس ، وسمح لمن بقي من الجنود الهيجونوت بالرحيل
بأسلحتهم ، ومنحت حرية العبادة في المدينة للبروتستنت والكاثوليك على
السواء . وتلقت مدن هيجونوتية أخرى مثل هذه الشروط بعد استسلامها .
ووجب رد الأملاك الكاثوليكية التي انتزعها البروتستنت ، ولكن القساوسة
الهيجونوت الذين فقهوا مأوهم مؤقتا عوضوا باعانة من الدولة بلغت
٢٠٠٠٠٠ جنيه ، وأعفوا من برضة الرؤوس (التاي) شأن الاكليروس
الكاثوليك (١٩) . ومنح عفو عام لجميع من شاركوا في التمرد . وثبت
مرسوم نانت الذي أصدره هنري الرابع في كل نصوصه الجوهريّة ،

بمرسوم ريشليو المسمى « مرسوم العفو » (٢٨ يونيو ١٦٢٩) وفتحت وظائف الجيش والبحرية والحكومة أمام الجميع دون نظر للعقيدة . وأذهل أوروبا أن ترى الكاثوليك الفرنسيين يتبعون ويبجلون قوادا من البروتستانت كتورين وشومبير وهنرى روهان . قال ريشليو « منذ ذلك الحين لم تمنعنى قط خلافات الدين عن أداء كل أنواع الخدمات للهييجونوت (٢٠) » . وقد تبين الكردينال العظيم ، فى حكمة افتقدها لويس الرابع عشر فيما بعد افتقادا مؤسفا ، قيمة الهييجونوت الاقتصادية الهائلة لفرنسا — كما سيتبينها كولبير . ومن ثم فقد ألقوا عن الثورة ، وانصرفوا فى هدوء إلى التجارة والصناعة ، وأصابوا من التوفيق والفلاح ما لم يصيبوه فى أى وقت مضى .

٤ — الكردينال والأشراف

يمثل هذا المضاع ، وبتساهل أقل ، تناول ريشليو النبلاء الذين ما زالوا يرون فى فرنسا التعدد لا الوحدة . لم تكن الاقطاعية قد ماتت قط ، فلقد حاربت من قبل فى الحروب الدينية لتبىم على الحكومة المركزية . وكان كبار النبلاء يحتفظون بقلاعهم المنيعه ، وقواتهم المسلحة ، وحروبهم الخاصة ، وبطاناتهم ، وموظفيهم القانونيين ، وبغلاحيهم تحت رحمتهم ، ويتقاضون الرسوم المعوقة على التجارة التى تخترق أملاكهم . ان فرنسا لم تكن بعد أمة لأن الاقطاع والدين قطعاً أوصالها ، بل كانت مجموعة مضطربة قلقة من البارونات المغرورين ، أشباه المستقلين ، القادرين فى أية لحظة على تكدير السلام وتمزيق اقتصاد الدولة . وكان أكثر الأقاليم يحكمه الادواق أو الكونتات الذين يدعون لأنفسهم حق حكمها مدى الحياة ويورثونها أبناءهم .

ولاح لريشليو أن البديل العملى الوحيد لهذه الفوضى المضعفة هو تركيز النفوذ والسلطة فى الملك . ويخيل إلينا أنه ربما أمكنه أن يجاهد ليوازن هذا التركيز برد قسط من الاستقلال للبلديات . ولكنه لم يستطع رد كومون العصر الوسيط الذى اعتمد على نقابات التجار والصناع والاقتصاد المحلى

المحمى ؛ ذلك أن الانتقال من سوق المدينة إلى سوق الأمة قوض هذه النقابات والكومونات ، وتطلب التشريع المركزى لا المحلى (*) . ولعل العقول التى تجمدت فى الأوضاع الحاضرة لا ترى فى السلطة الملكية المطلقة التى نشرها ريشليو غير استبدادية رجعية ؛ أما فى رأى التاريخ ، وفى رأى الكثرة الغالبة من الفرنسيين فى القرن السابع عشر ، فلأنها كانت تقدما حرر البلاد من الطغيان الاقطاعى إلى الحكم الموحد . لم تكن فرنسا قد نضجت بعد للديمقراطية ، فأكثر سكانها مفتقرون إلى الغذاء الطيب والكساء الجيد ، أميون ، رائت على عقولهم الخرافة وتوحشت نفوسهم بفعل التعصب للعقيدة . وكانت المدن يهيمن عليها رجال الأعمال الذين لا يستطيعون التفكير إلا فى كسبهم أو خسارتهم ، ولم يكن هؤلاء الرجال ، الذين عرقلت الامتيازات الاقطاعية كل خطوة من خطواتهم ، ميالين إلى الاتحاد مع صغار النبلاء كما حدث فى اتحلته لإقامة برلمان يقف فى وجه السلطة الملكية . ولم تكن « البرلمانات » الفرنسية برلمانات تمثيلية تشريعية ، إنما كانت محاكم عليها غدتها السوابق ورسختها ، ولم تكن منتخبة من الشعب ، وقد غدت قلاعاً للمحافظة . وحبذت الطبقات الوسطى ، ومهرة الصنائع ، والفلاحون ، سلطة الملك المطلقة بوصفها الحماية الوحيدة التى يرونها ضد سلطة النبلاء المطلقة .

فى عام ١٦٢٦ أصدر ريشليو باسم الملك مرسوما طعن الاقناع فى الصميم ، فقد أمر بهدم جميع القلاع إلا ما كان منها على الحدود ، وحظر تحصين المساكن الخاصة فى المستقبل . وفى نفس العام (بعد أن مات أخوه الأكبر منه سناً فى مبارزة) اعتبر المبارزة جريمة كبرى ، فلما تبارز مونتورنسى بوتفيل والكونت دى شاييل برغم هذا الأمر أعدمهما . وقد اعترف بأنه « يحس كدرا شديداً فى روحه » لهذا الاجراء ، ولكنه قال لمولاه ،

(*) مثل هذا التطور أضعف « حقوق الولايات » فى الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن العشرين .

« إن الأمر خيار بين القضاء على المبارزات أو على أوامر جلالتهكم (٢١) ». وأقسم النبلاء أن ينتقموا من الوزير ، وراحوا يتآمرون على إلقاءه .

وقد وجدوا في الملكة الأم حليفا مشوقا إلى الانتقام منه . فهذه الأم التي كانت يوما ما حامية ريشليو باتت تبغضه حين رآته يعارض سياستها ، ولما مرض لويس مرضا خطيرا (يوليو ١٦٣٠) مرضته هي والملكة حتى استعاد بعض صحته ، ثم طلبا إليه رأس الكردينال مكافأة لهما . وكررت ماري مديسى المطلب بالحاح شديد وهي في قصرها - قصر اللكسمبورج - ظانة أن ريشليو بعيد جدا ، ثم اقترحت ميشيل دمارياك ، حامل الاختتام ، بديلا راغبا في الحلول محله . ولكن ريشليو الذي أتى بطريق ممر سرى ، دخل الحجرة في غير إذن وواجه الملكة الأم ، واعترفت بأنها أخبرت الملك بأن عليه أن يختار بين أن تذهب هي أو هو - أي ريشليو . وانسحب الملك المرهق ، وانطلق راكبا إلى كوخ صيده في فرساي . وتقاطرت الحاشية حول ماري في اغتباط بفوزها المنتظر . ولكن لويس أرسل في طلب ريشليو ، وثبته رئيسا للوزارة ، وأكده مساندة الملك له ، ووقع أمرا بالقبض على ماريك . وأشاع « يوم المغفلين » هذا (١٠ نوفمبر ١٦٣٠) الفوضى والحقن في صفوف النبلاء المتآمرين . وسمح لمارياك بالبقاء حيا ، ولكن أخاه الذي كان مرشالا لفرنسا اتهم بعد ذلك بالاختلاس وأعدم في شيء من العجلة (١٠-٣٢) . وأمر لويس أمه أن تعتكف في قصرها الريفي بمولان وأن تنفض يدها من السياسة . ولكنها هربت إلى فلاندر بدلا من ذلك (١٦٣١) ، وجمعت لما حاشية في منفاها ببروكسل ، وراحت تعمل لاقاط ريشليو . ولم تقع عينها قط على الملك بعد ذلك .

أما ولدها الثاني ، « مسيو » جاستون ، دوق أورليان ، فقد حشد جيشا في اللورين وقاده في تمرد صريح على أخيه (١٦٣٢) . وانضم إليه عدة نبلاء ، ومنهم أرفع شريف في فرنسا - هنري ، دوق مونمورنسي ،

وحاكم لانجدوك . وانضوى الآلاف من الطبقة الارستقراطية تحت لواء الثورة . وعلى مقربة من كاستلنودارى (أول سبتمبر) اشتبك مونمورنسى ، البالغ من العمر سبعة وثلاثين ربيعا ، مع القوات التى جردها عليه ريشليو . وقاتل حتى أسقطه سبعة عشر جرحا ، وتحطم جيشه هو وجاستون تحت وطأة الهجوم ، وكان جيشا غنيا فى الألقاب فقيرا فى النظام ، وأسر مونمورنسى . واستسلم جاستون ، ودل على شركائه ثمنا للعفو عنه . وأمر لويس برلمان تولوز بأن يحاكم مونمورنسى بتهمة الخيانة ؛ وكان الحكم هو الاعدام . وهكذا مات آخر أدواق مونمورنسى دون خوف أو تدمير وهو يقول « أننى أعد هذا الأمر الذى أصدره قضاء الملك أمرا أصدرته رحمة الله (٢٢) » . وأدان معظم فرنسا الكردينال والملك لهذه الصرامة المجردة من الشعور ، وأجاب لويس « ما أنا بملك لو كان لى شعور الأشخاص العاديين » . أما ريشليو فدافع عن الاعدام بأنه انذار ضرورى للنبلأ بأنهم هم أيضا خاضعون للقوانين قائلا « لا شئ يدعم القوانين كعقاب الأشخاص الذين تعظم رتبهم عظم جرمهم » (٢٣) .

بقيت عقبتان أخريان فى طريق سياسة ريشليو ، ولاية الأقاليم والبرلمانات . لقد ساء الكردينال فقدان إيراد الأقاليم بسبب ما شاب سلوك الملوك الولاية النبلاء والقضاة من البورجوازيين أو صغار النبلاء عن فساد ونقص فى الكفاية ، لذلك أوفد الكردينال لكل قسم «محافظين» للإشراف على إدارة المالية والقضاء وتنفيذ القوانين . واتخذ هؤلاء الموظفون الملكيون مكانا أعلى من الموظفين المحليين كائنه ما كانت رتبهم ، وضمحل استقلال الأقاليم الذاتى ، وانتعشت الكفاية وزادت حصيلة الضرائب . ونظام المحافظين هذا الذى استبق هنرى رابع إليه بقدر ما ، والذى عطله النبلاء فى ألفروند ، والذى دعمه لويس الرابع عشر ، ثم اقتبسه نابليون — هذا النظام أصبح من الملامح البارزة للبرقراطية المحكومة مركزيا التى أدارت منذ الآن قوانين فرنسا .

أما برلمان باريس فقد خيل إليه أن الفرصة في ظل ملكية ضعيفة مواتية لتوسيع وظائفه من تسجيل القوانين وتفسيرها إلى دور المجلس الاستشاري للملك . ولكن ريشليو ما كان ليطلق مثل هذه المنافسة لمجلس دولته ، فدعا لويس زعماء البرلمان ، على الأرجح بتحريض منه ، مستعملا عباراته الحادة ، وقال لهم « لقد عينتم لا لشيء إلا لتقضوا بين زيد وعمرو من الناس ، فإذا تماديتم فيما أنتم فيه فاني مقلم أظافركم قلمي حادا تأسفون له (٢٤) » . وأذعن برلمان باريس ، وحذت برلمانات الأقاليم حذوه . واختزلت وظائفهم حتى التقليدي منها ، فأقام ريشليو « لجنا فوق العادة » لتنظر في الدعاوى الخاصة . وأصبحت فرنسا دولة بوليسية ، وانتشر جواسيس الكردينال في كل مكان حتى في الصالونات ، وغدت « الأوامر المختومة » أداة مألوفة في الحكم . وهكذا أصبح ريشليو الآن في حقله الأمر وواقعه ملك فرنسا .

٥ — الكردينال صاحب الكلمة العليا

أما وقد ملكت يده هذه السلطة المركزة ، فقد فعل كل شيء من أجل فرنسا ، ولم يفعل إلا القليل من أجل الشعب . كان يرى فرنسا دولة لا مجموعة من الأفراد الأحياء ؛ انه لم ينظر إلى الرجل العادي نظرة مثالية ، ولعله رأى « العذوبة واللباقة » في أن يموت أمثال هؤلاء الرجال في سبيل وطنهم ، فهو راغب في التضحية بهم ليؤمن وطنه المستقبل من تطويق الهابسبورج له . وكان يشقى ساعات الليل الطويلة في تصريف شئون الدولة ، ولكن همه كان أكثر الوقت سياستها الخارجية . لم يكن لديه متسع من الوقت لتحسين الاقتصاد ، إلا أن يكون لتصديد المهربين من الضرائب وجلب الدخل و « الأنباء » لباريس بقدر أقل من التسرب وهي في الطريق . وفي عام ١٦٢٧ نظم البريد العام .

وكانت الضرائب ما زال يجمعها رجال المال الذين « أقطعوا » هذه الضرائب ، وكانوا يقتضون المثلين ، وأحيانا ثلاثة أمثال المبلغ الذي يؤدونه

للحكومة . وقد أعفى النبلاء ورجال الدين من الضرائب الهامة ؛ ووجد مهرة رجال الأعمال وثروات الموظفين المختزنة السبل للهرب من الجباة أو سترضائهم ، أما المدن فكانت تدفع مبلغا صغيرا لتتنجو من فرضة الر-وس ؛ ووقعت وطأة الضرائب على طبقة الفلاحين التي فصدها ريشلو حتى الفاقة ليجعل من فرنسا أقوى دولة في العالم المسيحي . وكان كهنرى الرابع يؤثر أن يقهر أعداءه بالمال لا بالدم ، وكثير من المعاهدات التي خاض بها الحرب تضمن إعانات مالية للحلفاء ورشا للأعداء المحتملين . وكان أحيانا يقرض الخزانة من جيبه الخاص إذ أعوزه تدبير المال ، ومرة استأجر أحد المشتغلين بالكيمياء القديمة ليصنع له الذهب (٢٥) . وتضاfer نظام الضرائب ، والسخرة الحكومية على الطرق ، مع الحفاف والمجاعة والطاعون وغارات الجنود ، لتدفع الفلاحين إلى حال من اليأس تقرب من الانتحار ، حتى لقد قتل عدد منهم أسرهم وأنفسهم ، وقتلت الأمهات الجائعات أطفالهن وأكلتهم (١٦٣٩) (٢٦) . وفي عام ١٦٣٤ ، في رواية ربما يولغ فيها ، كان ربع سكان باريس يتسولون (٢٧) . وكان الفقراء ينتفضون في فترات دورية وأوقات متفرقة انتفاضات قعت في غير رحمة .

واستخدم ريشليو الضرائب لبناء الجيوش والأسطول ؛ ذلك أن الحق في رأيه لا يجد أذنا صاغية ؛ إلا إذا تكلم بالمدفع . ولما اشترى منصب الأميرال الأكبر ، قام بواجباته بعزيمة ماضية . فأصلح الموانئ وحصنها ، وأنشأ الترسانات ومخازن الذخيرة في الثغور ، وبني خمسا وثمانين سفينة ، وأسس مدارس لمرشدى السفن . ودرب أفواج الجنود البحريين . وجند مائة فوج من المشاة ، وثلاثمائة جندي من الخيالة ؛ ورد النظام إلى الجيش . ولم يخفق إلا في جهوده لاقصاء مومسات الجيش . وبفضل هذه القوات الحربية التي بث فيها الحياة من جديد تصدى لفوضى العلاقات الخارجية التي خلفتها وصاية ماري مديسى ، وعاد إلى سياسة هنرى الرابع ، ووجه كل قواته لهدف واحد — هو تحرير فرنسا من نطاق القوة الهابسبورجية

فى الأراضى المنخفضة والنمسا وإيطاليا وأسبانيا .

كانت مارى قد ألفت بين فرنسا وأسبانيا — أى أنها فى رأى ريشليو خضعت للعدو ، وأقصت أولئك الذين اعتمد هنرى الرابع على صداقتهم وهم الانجليز ، والهولنديون ، وبروتستنت ألمانيا . ورأى ريشليو بعين القائد الاستراتيجية اللامحة أن الممرات الفاتيلية التى تربط النمسا بإيطاليا الأسبانية هى المفتاح لقوة أسبانيا والامبراطورية الموحدة فى تبادل المؤن والجنود . وكافح اثنى عشر عاما للظفر بهذه الممرات ، وقد صرفته عن هذا الهدف وهزمته حروبه مع الهيجونوت والنبلاء، ولكنه استرد بالدبلوماسية أكثر كثيرا مما خسر فى الحرب . ذلك أنه اكتسب « فرانسوا اوكليرك دوترمبلية » خادما أميناً ، وكان قد اتخذ اسم جوزف حين أصبح راهبا كبوشيا . وأوفد « الأب جوزف » فى كل مكان فى بعثات دبلوماسية شائكة فأداها بمهارة ، وبدأت فرنسا تزواج بين الراهب الرادى العبادة الذى لقبته « صاحب القداسة الرمادى » ، وبين ريشليو ذى العبادة الحمراء الذى لقبته « صاحب القداسة الأحمر » . أما وقد ظفر الكردينال بهذا المعين ، فإنه أقسم أنه « مثبت للعالم أن عصر أسبانيا فى سبيل الزوال ، وأن عصر فرنسا قد أقبل (٢٨) » .

فى عام ١٦٢٩ بدأ أن الصراع الطويل فى ألمانيا أوشك أن ينتهى بنصر الامبراطور الهابسبورجى الكاثولىكى نصرا مؤزرا على الأمراء البروتستنت . ولكن ريشليو قلب الأوضاع قلبا كاملا بالمال . ذلك أنه أبرم مع جوستاف أدولف (١٦٣١) معاهدة نصت على أن يغزو ملك السويد المغوار ألمانيا وينتقد الدويلات البروتستنتية ، يعينه على ذلك مليون من الجنهات تدفعها له فرنسا كل عام . وندد أنصار السلطة البابوية المطلقة فى فرنسا بالوزير خائنا لدينه ، أما هو فكان رده أن الحياذ خيانة لفرنسا . فلما مات جوستاف وهو ضافر فى ليزن (١٦٣٢) واستسلم معظم الأمراء الألمان

للالامبراطور، دخل ريشليو الحرب فعلا . وزاد الجيوش الفرنسية من ١٢٠٠٠ ر ١٢ في عام ١٦٢١ إلى ١٥٠٠ ر ١٦٣٨ . وأعان الثورة التي قام بها القتلونيون في أسبانيا، وبفضل دبلوماسيته سيطر على كوبلنتز ، وكولمار ، ومانهايم ؛ وبازل ؛ واستولى جنوده على اللورين وشقوا طريقهم عنوة مخترقين سافوا إلى ميلان قلب القوة الأسبانية في شمال إيطاليا .

ثم دار الحظ دورته وبدا أن كل هذه الانتصارات لا معنى لها . ففي يوليو وأغسطس ١٦٣٦ عبرت قوة كبيرة من الجيوش الأسبانية والامبراطورية الأراضي المنخفضة ودخلت فرنسا ، واستولت على اكس - لا - شابل (آخن) وكوربي ، وزحفت على أميان ، واجتاحت أودية السوم والواز الأخضر . وكانت جيوش ريشليو بعيدة جدا ، وأصبح الطريق إلى باريس مفتوحا عديم الدفاع أمام العدو . واغتنبت الملكة الأم في بروكسل ، والملكة في سان جرمان ، وحزبها الموالي لأسبانيا في فرنسا ، وراحوا يعدون الأيام لسقوط الكردينال المنتظر . وازدحمت الجماهير الغاضبة في باريس في الشوارع منادية بموته - ولكن حين طلع عليهم بادى الهدوء فوق جواده المهيب ، لم يجرؤ أحد منهم على أن يمسه ، وابتهل الكثيرون لله أن يمنحه القوة لانقاذ فرنسا . وهنا لم تتضح شجاعته فحسب ، بل بعد نظره واجتهاده ؛ ذلك أنه كان قد نظم منذ أمد بعيد مواطني باريس في ميليشيا احتياطية ، واخترن السلاح والمؤونة لهم ، ومن ثم فقد نفخ الآن فيهم روح الحماسة فاستجابوا لندائه ، وأقر برلمان باريس والمجالس البلدية والنقابات الحرفية المال اللازم ، ولم تمض أيام حتى كان جيش جديد في طريقه إلى التمثال ، فحاصر كوربي . وتلكأ جاستون أورليان المتولى قيادة الجيش ، فحضر ريشليو ، وتولى القيادة ، وأمر بالهجوم . وفي ١٤ نوفمبر سقطت كوربي ، وتقهقرت الجيوش الهابسبورجية إلى الأراضي المنخفضة .

وفي عام ١٦٣٨ استولى برنارد ، أمير ساكسي - فيمار الذي قاد جيشا ألمانيا بموله ريشليو ، على ألزاس ، فلما مات بعد سنة أوصى بها

لفرنسا ، وأصبحت الرأس ولوثرينجن الالزاس واللورين ، وبدأت تتحول
فرنسية . وفي عام ١٦٤٠ سقطت أراس . وفي عام ١٦٤٢ استولت قوة
يقودها الملك والكردينال على برينيان ، واقتطع لإقليم زوسيون المحيط
بها من أسبانيا . وهكذا بدأ ريشليو الآن في كل مكان المنظم للنصر .

على أن النبلاء الذين ظلوا على خصومتهم ، والحزب الأسباني في البلاط ،
والنساء النبيلات المغرقات في الدس ، كل أولئك بذلوا آخر محاولة لأسقاط
الوزير عن كرسيه . ففي سنة ١٦٣٢ مات المركز إفيا بعد أن خدم الكردينال
طويلا في الدبلوماسية والحرب تاركا أرملة وغلما وسيما في الثانية عشرة من
عمره يدعى هنري كوافيه دروريه ، مركز سانك - مارس . وبسط ريشليو
حمايته على الصبي وقدمه للملك ، ولعله رأى بهذه اللعبة أن يصرف لويس
عن الآنسة أوتفور التي كانت واحدة من « الدساسات » . وهذا ما حدث .
فقد افتتن الملك بحسن الغلام وظرفه ووقاحته ، وعينه مشرفا على خيول
الملك ورجاه أن يشارك الملك في فراشه (٢٩) . ولكن سانك - مارس ،
الذي نصح الآن إذ بلغ الحادية والعشرين ، أثر المحظية الحسناء ماريون
ديلورم ، ومارى دجونزاج المتعاليه ، ملكة بولندة المستقبله ، التي كانت الآن
من أجمل خصوم الكردينال . ولعل الشاب ألح على لويس أن يدخله عضوا
في مجلس الملك ويجعله قائدا في الجيش بإعازمها وإثارة من خلواتها الاستراتيجية .
فلما لم يرض ريشليو عن هذه المقترحات التمس سانك - مارس من الملك
أن يطرد وزيره . ورفض الملك ، فانضم الفتى إلى جاستون أورليان ودوق
بويون وغيرهما في مؤامرة لتسليم سيدان إلى الجيش الأسباني ، واتفق على أن
يدخل المتآمرون باريس وهذا الجيش من خلفهم ويعتقلوا الملك ،
وتعهد جاستون بأن يدبر اغتيال الكردينال في طريقه إلى برينيان . واتمس
جاك أوجست دتو ، صديق سانك - مارس ، تعاون الملكة . ولكن آن
النمساوية التي توقعت موت لويس القريب ووصولها إلى السلطة بوصفها

وصية أرسلت إلى ريشليو إشارة خفية بالمؤامرة : وتظاهر هذا بأن لديه نسخة من الاتفاق مع أسبانيا ، فصدقه جاستون واعترف ، ثم دل على شركائه كما هي العادة . وقبض على سارك — مارس ، ودتو ، وبويون . وأيد بويون اعتراف جاستون ثمنا للعفو عنه . وحوكم البابان أمام محكمة في ليون ، فديننا بالإجماع ، وشرفا خيانتهم بموت رابط الخأش . وهرع الملك إلى باريس ليحمي قوته . أما ريشليو ، المريض مرضا مميتا ، فقد حمل على محفة محترقا بلدا يموت من الانتصارات ويصرخ طلبا للسلام .

٦ — رثاء

أى رجل كان هذا الكردينال الذى لم يكذب يكون مسيحيا ، هذا الرجل . العظيم الذى شعر أنه ليس فى وسعه أن يكون إنسانا طيبا ؟ لقد أسلمه فليب دشامبان إلى الأجيال التالية فى لوحة من أشهر اللوحات فى اللوفر . قوام فارغ تنقذه أثوابه من مظهر السخف ، تخلع عليه السلطة عباءة وقبعة حمرايين ، يقف كأنه فى مرافعة قانونية ، يعلن عن نبأته بقسماته الواعجة المحددة ويديه الرقيقتين ، ويتحدى أعداءه بعينه الحادتين ، ولكنه شاحب بفعل السنين المفضنية ، محزون بوعيه بالزمن الذى لا يرجم . هنا دنيوية السلطان يعارضها نسل التكريس .

كان عليه أن يكون قويا ليمنع عيوبه من أن تهزم مراميه . بدأ سيرته فى البلاط يتواضع متملق ، انتقم له بعد حين بكبرياء لا تعترف بغير سيد واحد دون غيره . فبينما كانت الملكة تروره ذات مرة ظل جالسا — وهو خروج على الأدب لا يؤذن به إلا للملك . كان (كأكثرنا) مغرورا بمظهره ، شرها للألقاب ، كارها للنقد ، تواقا إلى الشعبية . كان ينسار من كورني ، فاشتبهى أن يشهر

هو أيضا كاتباً مسرحياً وشاعراً ، وقد كتب فعلاً النثر الرائع كما تشهد بذلك مذكراته . وقد وفق في غير تردد - كما وفق ولزى - بين اتباع المسيح ، والاهتمام الحذر بشيطان المال . رفض الرشا ولم يتقاض راتباً ، ولكنه استولى على دخل الكثير من الرتب الكنسية ، زاعماً أنه في حاجة إلى تمويل سياساته . وشيد لنفسه كما فعل ولزى قصراً بلغ من فخامته أنه رأى من الحكمة قبل موته أن يهديه إلى ولي العهد ؛ وهكذا أصبح الباليه كرينال الباليه رويال ؛ ولنا أن نفترض أنه مبنئ للموظفين الإداريين وللمظهر الدبلوماسي أكثر من الترف الشخصي . لم يكن بخيلاً ، وقد أثرى أقرباءه ، وكان في وسعه أن يسخر بمال الدولة . وأوصى بنصف ثروته للملك ، ونصح به بأن يستعمله « في الظروف التي لا تحتل بطء الإجراءات المالية » (٢٠) .

أما ما يبدو لنا قسوة شديدة فيه فكان في رأيه ضرورة من ضرورات الحكم ، فن القضايا المسلمة عنده أن الناس - والدول بالتأكيد - لا يمكن أن يساسوا باللطف ، بل لا بد من تخويفهم بالصرامة . إنه أحب فرنسا ، ولكن الفرنسيين لم يبعثوا فيه حرارة الحب . وقد وافق كوزيمو دى مديتشى على أن الدولة لا يمكن حكمها بالصلوات الربانية ، ووافق مكيافللى على أن أخلاقيات المسيح لا يمكن اتباعها بأمان في حكم الأمة أو صيانتها . كتب يقول « ان المسيح لا يسعه الإبطاء في العفو عن الإساءة ، ولكن الحاكم لا يسعه الإبطاء في عقابها إذا كانت جريمة ضد الدولة ولا بقاء للدول بغير هذه الفضيلة (فضيلة الصرامة) التي تصبح شفقة بقدر ما يمنع عقاب مجرم واحد ألف مجرم من نسيانه » (٢١) . ورشليو هو الذي روج عبارة « مبرر الدولة » ، أى أن القانون الأخلاقي يجب أن يخضع لمبررات الدولة (٢٢) . ويبدو أنه لم يخامر قط شك في أن سياساته هي واحتياجات فرنسا شيء واحد ، ومن ثم اضطهد أعداءه الشخصيين بنفس الحزم الذي عاقب به أعداء الملك .

على أنه كان داخل قلعته وجهته الدبلوماسية إنساناً ، يهفو إلى الصداقة ،

ويحس عزلة العظماء ووحشتهم . ويريدنا كتاب تالمان « أقاصيص » المملوء بالقليل والقال أن نصدق أن ريشليو حاول أن يجعل من مارى مديسى خلية له ، وكانت تكبره بعشرين عاما (٢٣) ؛ ولكن هذا بعيد الاحتمال . وهناك أساطير أخرى عن علاقات الكردينال الغرامية السرية ، حتى مع نينون دلانكلو ؛ وما كان لينتهك عرف العصر أن يعزى رجل السياسة المهرق نفسه ببعض الانحرافات . بيد أن كل ما نعرفه عن عواطفه معرفة واضحة هو أنه كان شديد التعلق بابنة أخته مارى — مادلين دكومباليه . فقد أرادت أن تدخل ديرا عد أن ترملت عقب زواجها ، ولكن ريشليو أقنع البابا بمنع هذا ؛ وأبقاها قريبة منه لتدير بيته ، واستجابت بالاخلاص له اخلاصا أشد حرارة من أكثر العلاقات الغرامية . وكانت تلبس لباس الراهبة وتخفى شعرها . وسلك ريشليو منها مسلك اللياقة الواجبة كله ، ولكن المملكتين رفضتا تبرئتها لفقدان الأدلة الكافية على إدانتها ، وسبقنا غيرهما إلى حديث الشائعات الذى أضاف وخزة لديدة لقصة الكردينال . إنه لم يجب « رجلا ، ولا امرأة أيضاً » وقد ثار كلاهما منه .

أما ما كان يملكه فوق كل شيء فهو الإرادة . وقليل من الناس فى التاريخ كله من اجتمعت لهم هذه الوحدة فى الهدف ، وهذا المضاء والثبات فى السعى إليه ؛ وما كان لقوانين الحركة أن تكون أكثر ثباتا . ولا بد أن نعجب باخلاصه لواجباته ، وإفناؤه نفسه فيها طول سنين من الجهد وليالى حرم فيها النوم . وقد كرس هذه الجهود لأولئك الذين يسرهم النوم دون مخاوف مستظلين برعايته الساهرة . ولا بد أن نعترف له بالشجاعة الفائقة التى تصدت للنبللاء الأقوياء والنساء الدسائس ، وقاومتهم وصدتهم ، وقضت عليهم فى غير خوف ولا رهبة وسط المؤامرات المتكررة على حياته . وقد غامر برأسه المرة بعد المرة بسبب نتائج سياساته .

وقلما كان يشعر بالعافية . فقد عرضته الحمى التى ابتلته بها مستنقعات يواتو لصداغ متكرر كان أحيانا يلازمه أياما بطولها . ولعل جهازه العصبي

كان ضعيفا بالوراثة . أو مضرورا بالخلقة ، فقد كانت إحدى شقيقاته ضعيفة العقل ، وأحد إخوته مجنوناً بعض الوقت ، وأرجفت شاعات القصر أن الكردينال ذاته تعزيره نوبات من الصرع وهلوسات جنونية^(٣٤) . وكان يعاني من البواسير ، والبثور ، ومرض المثانة ؛ وكانت أزماته السياسية تزداد تعتدا أحيانا بحصر البول كما كان الشأن مع نابليون^(٣٥) . وقد حملته علته على التفكير غير مرة في الاعتزال ، ولكنه وهو حبيس لإرادته كان يأخذ الزمام ثانية ويواصل النضال .

ولسنا نستطيع أن ننصفه إلا إذا نظرنا إليه في مجموعه ، بما فيه من ملامح تتخذ شكلها ونحن ماضون في الروية . لقد كان رائدا للتسامح الديني ، رجلا واسع الثقافة حساسا ، ذواقة للموسيقى ، وجاعا خبيرا للفنون ، وعاشقا للدراما والشعر ، وصديقا معينا لرجال الأدب ، ومؤسسا للأكاديمية الفرنسية . ولكن التاريخ يذكر فيه بحق أولا وقبل كل شيء الرجل الذي حرر فرنسا من تلك السيطرة الأسبانية التي نجمت عن الحروب الدينية والتي جعلت من فرنسا ، بمقتضى الحلف ، دولة تتلقى من أسبانيا معاشا ، بل تكاد تكون تابعة لها . انه حقق ما كان فرنسيس الأول وهنري الرابع يصبوان طويلا إليه وما أخفقا في تحقيقه ، فقد كسر « النطاق الخائق » الذي طوقت به دولتا الهابسبورج فرنسا . ولا بد أن تفصل الصفحات التالية تلك الاستراتيجية البعيدة النظر التي حسم بها حرب الثلاثين سنة ، وأنقذ البروتستنتية الألمانية باعتبارها حليف فرنسا الكاثوليكية ، ويسر لمازران أن يصوغ صلح وستفاليا البناء . أما لفرنسا ذاتها فقد خلق وحدة وقوة على حساب دكتاتورية واستبدادية ملكية ولدت الثورة حين حان وقتها . وإذا كان أول واجبات رجل الدولة أن يجعل شعبه سعيدا حرا ، فإن ريشليو كان شديد القصور في تحقيق هذا الهدف . وقد أدانه الكردينال ريتز - وهو قاض ذكي ولكنه لم يتجرد من التحامل - لأنه « أرسى أشنع وأخطر طغيان استرق دولة ربما في التاريخ كله^(٣٦) » . ولم

سئل ريشليو في هذا لربما أجاب بأن على رجل الدولة أن يأخذ في الاعتبار سعادة وحرية الأجيال القادمة لا جيله فحسب ، وأن عليه أن يقوى وطنه ليحميه من الغزو أو السيطرة الأجنبية ، وأن له في سبيل هذا الهدف أن يضحي بحق جيلا حاضرا من أجل أمن الأجيال التالية . وبهذا المعنى رأى فيه أوليفاريس ، غريم ريشليو الأسباني ، « أقدر وزير في العالم المسيحي في الألف السنة الأخيرة (٢٧) » . ورأى فيه تشستر فيلد « أكفأ رجل دولة في عصره وربما في أى عصر آخر (٢٨) » .

وكانت عودته من نصره النهي في روسيون موكب الجنازة لرجل ما زال على قيد الحياة . استقل زروقا من تاراسكون إلى ليون على الرون ، ومكث في ليون حتى حوكم سائك — مارس ودتو وأعدما ، ثم اضطر لضعفه من ألم تسبب عن ناسور شرجي أن يذهب إلى باريس على محفة حملها أربعة وعشرون من حراسه ، واتسعت لسرير الرجل المحترق ، ومائدة ، وكرسی ، وسكرتير يملئ عليه أوامر للجيش ورسائل دبلوماسية . واستنقرت مسيرة الموت هذه ستة أسابيع ، وعلى طول الطريق احتشد الناس ليلقوا نظرة خاطفة على الرجل الذي لم يكن في قدرتهم أن يعطوه الحب ، بل الخوف ، والاحترام ، والتبجيل ، بوصفه التجسيد المهيب للكنيسة والدولة جميعاً ، ونائب الله والمك . فلما بلغ باريس نقل إلى قصره دون أن يبرح محفته . وأرسل استقالته لمولاه الذي رفض قبولها . وحضر لويس إلى فراشه ، ومرضه ، وأطعمه ، وتساءل ماذا عساه يفعل إذا توقفت هذه الإرادة المتجسدة عن الحياة . أما كاهن اعتراف الكردينال فقد سأله بعد أن ناواه القربان الأخير هل غفر لأعدائه ، فأجاب بأنه لم يكن له قط أعداء إلا أعداء فرنسا . وبعد يوم من الغيبوبة مات في ٤ ديسمبر ١٦٤٢ ، وهو في السابعة والخمسين . وأمر الملك بأسبوع كامل من مراسم الحداد ، وموت صفوف المشاهدين بجمانه طوال يوم ونصف . ولكن الناس في كثير من الأقاليم أشعلوا نيران الفرح شكراً لله على موت الكردينال الحديدي (٢٩)

واستمر يحكم فرنسا حيناً . وذلك أنه أوصى بجوليو مازاريني خلفاً له في الوزارة ، ووافق لويس . وقد ترك عشرة مجلدات من المذكرات ، مسجلة فيها أعمال الدولة كأنها ليست أعماله بل أعمال الملك . وكان في سنواته الأخيرة قد أهدى لويس « ميثاقاً سياسياً » « يصلح بعد موتى لإدارة مملكتك وسياستها . » هنا ، وسط بعض الملاحظات التافهة نجد قواعداً دقيقة بليغة للحكم ، صيغت في أسلوب يضارع أى أسلوب في زمانه . إنه ينصح الملك بأن يجتنب الحرب ، باعتبارها شيئاً لا يصلح له جلالته بطبعه . « إن مصالحة عشرة أعداء أجدى وأدعى للفخر من القضاء على عدو واحد (٤٠) » . تم أسر إليه أن الفرنسيين قوم لم يخلقوا للحرب ، ففى بدايتها يكونون الشجاعة كلها والحماسة كلها ، ولكن يعوزهم الصبر ورباطة الجأش انتظاراً للحظة المواتية ، وبمضى الوقت « يفقدون الاهتمام ، ويغدون أضعف حتى من النساء (٤١) » . ويجب أن يكون للملك ، كالكائد ، شجاعة الرجال القادرة على مقاومة الميول العاطفية ، وعليه ألا يعطى النساء كلمة في الحكومة ، لأنهن يتبعن نزواتهن وأهواءهن أكثر مما يستمعن لصوت العقل (٤٢) . على أن « العسكر » في المرأة لا يناسبها « لأنى لم أر فى حياتى امرأة عالمة لم يفسدها علمها (٤٣) » . والنساء لا يستطعن كتمان السر ، « والكتمان روح السياسة (٤٤) » ، ورجل الدولة الحصيف قليل الكلام كثير الإصغاء (٤٥) . وهو يحذر أن يسىء بكلمة غافلة ؛ وهو لا يتكلم بشر عن أحد إلا إذا اقتضى ذلك صالح الدولة (٤٦) . ومن واجب الملك أن يكون لديه معلومات عامة عن تاريخ جميع الدول ونظامها ، لاسيما دولته (٤٧) . « ثم يرجو المؤلف شيئاً من التفهم لوزارته وخلقه » إن عظماء الرجال الذين يعينون لحكم الدول أشبه بالمحكوم عليهم بالتعذيب ، مع فارق واحد ، هو أن هؤلاء يتلقون العقاب على سيئاتهم ، أما أولئك فعلى حسناتهم (٤٨) . »

وعاش الملك خمسة أشهر بعد موته . وقد ذكر الناس حكم لويس

القصير شاكرين ، لأنه أطلق السجناء السياسيين ، وسمح بعودة المنفيين ،
وأناح لفرنسا أن تتنفس . وكان يشكو من أن الكردينال لم يدعه يتصرف
كما يشاء . كانت أمة قد ماتت قبل ريشليو بيضاً شهوراً ، فأمر بجلب
جثمانها من كولونيا واحتفل بدفنها رسمياً ، وفي لحظاته الأخيرة توسل أن
يعفو الله والناس له الحشونة التي عاملها بها .

ورأى نفسه يهاوى ، ولكنه اغتبط بما كان عليه ولده البالغ من العمر أربعة
سنين من عافية ووسامة . سأله معاذاً « ما اسمك ؟ » فأجاب
الصبي « لويس الرابع عشر » فقال الملك مبتسماً « ليس بعد يا بني ،
ليس بعد » . وأمر بطانته بقبول وصاية الملكة حتى يبلغ ابنه سن الرشد .
ولما أخبروه أن قد حانت منيته قال « إذن فأنا راض من كل قلبي
يا إلهي (٤٩) » ومات في ١٤ مايو ١٦٤٣ وقد بلغ الحادية والأربعين . قال
تالمان « ذهب الناس إلى مآتمهم كأنهم يذهبون إلى حفل زفاف ، وظهروا
أمام الملكة كأنهم في مباراة رياضية (٥٠) » . وكان الكردينال الرهيب قد
أعد كل شيء لمحبي « الملك العظيم » و « القرن العظيم » .

الفصل السادس عشر

فرنسا إبان الحروب

١٥٥٩ - ١٦٤٣

١ - الأخلاق

بدأ الدين ، الذى اتخذ ألوانه ذرائع كاذبة لحروب كثيرة ، يعانى من تسخيريه فى السياسة ؛ وازداد المتشككون فى قداسة عقائد تحاج بالمباراة فى سفك الدماء ؛ وبدأت فى الطبقات العليا الشكوك حول الآداب المسيحية تختلط بالتشكك فى العقيدة . وكان من علامات الزمن أن يبين قسيس تقي مثل بيير شارون جدارة الغريزة الجنسية وجهازها المضحك بالاحترام^(١).

أما الفلاحون فقد احتفظوا بأيمانهم ، وقدسوا الناموس المسيحى حتى وهم ينتهكونه ؛ لقد يقتلون بعضهم بعضاً فى غضبة عابرة ، وقد ينحرفون عن سنة الزواج بوحدة إذا واتهم الفرصة ونامت أعين الرقباء ، ولكنهم فيما عدا ذلك يحيون حياة مهذبة إلى حد محتمل ، ويستمعون إلى القداس بانتظام ، ويتناولون جسد المسيح ودمه مرة فى العام على الأقل . وأما الطبقات الوسطى - سواء من الكاثوليك أو الهيجونوت - فقد ضربت خير مثال للفضيلة المسيحية . كان أفرادها يحتشمون فى لباسهم ، ولا يتزوجون غير مرة واحدة ، ويهتمون بأعمالهم وأطفالهم ، ويختلفون إلى الكنيسة ، ويعطون الدولة كهنتها وأطبائها ومحاميها وقضاتها واستقرارها . وكان هناك نساء مثاليات حتى فى الطبقة الارستقراطية ، وقد وصف شارل التاسع امرأته اليزابيث النسوية بأنها أكثر نساء العالم فضيلة ؛ ولكن يمكن القول عموماً إن العلاقات الغرامية فى الطبقات ذات الفراغ فى العاصمة ، وفى الصناعات المهرة فى المدن ، أخذ زمامها يفلت . كان عصر حوافز

جسدية لاختفاء فيها . وقد بقي أثر من الحب الأفلاطوني ، الذى تسلى به بيمبو وكاستليونى فى : ليا ، ومرجريت نافار فى فرنسا ، فى ندوة مدام درامبويه (وهى ذاتها إيطالية) ، ولكنه كان فى أكثره حيلة نسائية ، ومقاومة فى العمق لإضفاء المجد على القلعة .

كانت كاترين مديسى - على قدر علمنا - زوجة مخلصنة وأما شديدة الاهتمام بأبنائها ، ولكن الشائعات آتهمها بتدريب النساء الجميلات على إغراء أعدائها حتى يخضعوا (٢) ، وقد وصفت جان دالير (وفيها بعض خلق المتحشمت) بلاط كاترين بأنه « أفسد المجتمعات قاطبة وألغى (٣) » . وكان برانتوم مروجاً للفصائح ، ولكن شهادته يجب أن تدخل الصورة : « أما نساؤنا الفرنسيات الجميلات . . . فقد تعلمن فى السنين الخمسين الأخيرة قدراً كبيراً من اللطف والرفقة ، وكثيراً من الجاذبية والفتنة فى ملبسهن ، وفى نظراتهن الجميلة وأساليبهن الفاجرة . . . بحيث لا يستطيع أحد الآن أن ينكر تفوقهن على جميع النساء من كل وجه . . . ثم إن لغة الحب اللابى هى فى فرنسا أشد خلاعة وأكثر إثارة وأحلى منطقاً مما هى فى اللغات الأخرى . وفوق هذا كله ، فإن هذه الحرية الماركة التى أتيت لنا فى فرنسا . . . تجعل نساءنا مرغوبات ، ساحرات ، لينات ، طبعات أكثر من جميع النساء ، يضاف إلى هذا أن الزنى لا يلقى عموماً من العقاب ما يلقاه فى أقطار أخرى . . . وباختصار فإن ممارسة العشق فى فرنسا شىء لطيف (٤) » .

وقد ضرب الملوك المثل فى الخلق الفاشى فى المجتمع . فقد مات فرنسيس الثانى قبل أوانه بسبب شهواته . وكان لشارل التاسع محظيته مارى توشيه . وانتقل هنرى الثالث من الغايات إلى المرد . أما هنرى الرابع فثبت على عشق المرأة . ويبدو أنه لا هو ولا خليلته جابريل دستريه اعترضاً على تصويرها عارية حتى خصرها (٥) . ولما تزوجت ابنته هنريتا ماريا الفرنسية البالغة سبعة عشر ربيعاً ، من تشارلز الأول ، بلغت اتصالاتها الغرامية من

الكثرة مبلغاً حمل كاهن اعترافها على أن ينصحها بأن تتخذ المحذية مثالا لها ، وانجلترة كفارة عن ذنوبها (٦) .

ولكن حتى مع هذه الأوضاع كان لطف النساء ولين جانبهن متخافاً عن نهم الرجال ، وجهدت الموسسات لإشباع الطلب المتزايد عليهن . وقد عرفت باريس منهن ثلاثة أنواع : « العنزة المصهففة الشعر » للبلاط ، و « الطير الصداح » للبورجوازية ، و « الحجيرية » التي تسد مطلب الفقراء وتسكن بدروسا من الحجر . وكان هناك غايات متعلبات لرجال الطبقة الارستقراطية ، مثل ماريون ديلورم ، التي اعترفت عشر مرات وهى تحتضر ، لأنها بعد كل حل ذكرته نفها بخطايا لا حصر لها (٧) . وقد أصدر شارل التاسع وهنرى الثالث مراسيم بحظر المواقير ، ونص أمر أصدره لويس الثالث عشر (١٦٣٥) على أن كل بغى تضبط يجب أن « تضرب بالسوط ويجز شعرها وتنقى » وأن كل الرجال المشتركين فى هذه التجارة يجب أن يرسلوا إلى سفن تشغيل المحرمين مدى الحياة (٨) . واحتج عدة رجال ، ومنهم مونتيني وقسيس هيجونوتى ، على مثل هذه الإجراءات وطالبوا بإجازة المواقير صيانة للأخلاق العامة (٩) . وظلت هذه القوانين فى السجلات القانونية حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تكن تطبق إلا نادراً . وحاولت قوانين أخرى عبثاً أن تقضى على انحرافات الطبيعة ونزواتها . ويروى مونتيني قصة فتاة تحولت رجلاً فى الثانية والعشرين (١٠) . ووجد الأدب الفاحش سوقاً رائجة ، وعرضت نوافذ حوانيت المطابع صوراً فاجرة دون أن تلقى أى تدخل مما نعرفه اليوم .

وعانت الفضيلة الاجتماعية والسياسية من الحروب . وتوسع فى بيع الوظائف العامة حتى أوشك أن يكون رشوة شاملة . وكانت الإدارة المالية قبل أن يطهرها صلى فاسدة إلى حد الوضى (١١) . ولم تكن الحرب تدمر تدميراً أعمى كما أصبحت بعد قليل فى عهد لويس الرابع عشر ، ومع ذلك نسمع بجيوش ، من الهيجونوت والكاثوليك على السواء ، تشتبك فى جرائم بالحملة من قتل ونهب واغتصاب وتعليق للمواطنين من أباهم أو إشعال

للنار تحت أقدامهم لانزاع الذهب الذى يخفونه . وزاد انتشار المبارزة فى القرن السادس عشر ، ربما لأن السيوف أصبحت جزءا مألوفًا من ملابس الرجال . وقد حرمها شارل التاسع بحض ميشيل لوبيتال ، ولكنها كادت تصبح وباء متفشيا فى عهد هنرى الثالث ، وكان ينتظر أن يشتبك الشاهدان كما يشتبك الحصان الرئيسيان ؛ يقول مونتيني إن المبارزات غدت الآن معارك . واختلف مرسوم ريشليو الذى حرم المبارزة عما سبقه فى أنه نفذ تنفيذا صارما - لا تحيز فيه . ولكن العادة انتعشت بعد موته .

وكانت الجريمة مألوفة . وكان أكثر باريس لا يضاء ليلا ؛ وأفترحت السرقة والقتل ، وأشاعت المشاجرات العنيفة القوضى فى الشوارع ، وكان السفر فى الريف خطرا يهدد الحياة والأوصال . أما العقوبات فوحشية ، ولسنا على ثقة من أنها كانت معوقات ناجعة للجريمة ، ولكن لعل الجريمة كانت بدونها تستشرى . وأما السجن فكان لطيفا للسادة ، ففى استطاعة النبلاء نزلاء الباستيل أن يدفعوا ثمنا لمساكن مريحة تفرش بأثاثهم وتنزلها نساؤهم . أما عامة المحرّمين فقد يزج بهم فى زرنانات خانقة أو يرحلون إلى المستعمرات أو يحكم بتشغيلهم فى سفن العبيد والمحرّمين . وترجع آثار هذه العقوبة إلى عام ١٥٣٢ ، ولكن أول تشريع لها فى القانون الفرنسى يرجع إلى عام ١٥٦١ . وكان يحكم على نزلاء هذه السفن عادة بعشرين سنين ، وتدمغ ظهورهم بالحروف الثلاثة الأولى لجرمي السفن « جال » . وكانوا فى الشتاء يمتكون فى سفنهم حبيسين أو يحشرون كالأنعام فى السجون لاسية فى طولون أو مارسيليا . وفى أثناء الحروب الدينية حكم على كثير من الهيجونوت الأسرى بالسجن فى هذه السفن ، وهناك يلقون من المعاملة الوحشية ما يحلو أمامه الموت . وتفجرت أوبئة الانتحار فى تلك السفن البرية ، وعلى الأخص بين نساء ليون ومارسيليا .

٢ - آداب السلوك

تحسنت آداب السلوك بينما انحطت الأخلاق . فقد جلبت كاترين دى

مدينة تشي معها الأدب الإيطالي ، واحساسا بالجمال ، وولعاً بالأناقة ، ورهافة في الأثاث والملبس . وكان من رأى برانتوم أن بلاطها أروع بلاط وجد ، « فردوس أرضي حقيقي » يتألق « بثلاثمائة سيدة وآنسة على الأقل » (١٢) مرتديات أغلى الثياب وأفخرها . وأزاحت مراسم البلاط الفرنسي التي أرساها فرنسيس الأول المراسم الإيطالية من مكان الصدارة والقُدوة لأوروبا . وأنشأ هنري الثالث منصب المدير الأكبر للمراسم الفرنسية ، وأصدر مرسوماً يفصل مراسم السلوك في البلاط وبروتوكوله ، ويحدد الأشخاص الذين يسمح بمثلهم بين يدي الملك ، وطريقة مخاطبته ، وخدمته في يقظته وزينته ، وطعامه ، ونومه ، ومن يرافقه في نزهته أو صيده ، ومن يحضر مراقص البلاط . وقد أصر هنري الثالث ، الحجول النيق ، على هذه القواعد ، وانتهكها هنري الرابع في غير تحرج ، وتجاهلها لويس الثالث عشر ، وتوسع فيها لويس الرابع عشر حتى أصبحت طقوساً تنافس القديس المطول .

أما ملابس القصر فقد ازدادت غلاء وزخرفاً . فقد ارتدى المارشال باسومبيير سترّة قماشها من الذهب أثقلها لآلء تزن خمسين رطلاً وثمنها أربعة عشر ألف إيكو (١٣) . ولبست ماري مديسي في حفل عماد ولدها عباءة مرصعة بثلاثة آلاف ماسة واثني وثلاثين ألف حجر كريم آخر (١٤) . وكان الرجل من رجال البلاط يعد نفسه فقيراً ما لم يملك خمساً وعشرين سترّة من مختلف الطرز . وتعددت القوانين المقيدة للانفاق على الطعام والكساء ولكنها سرعان ما كانت تهمل . فحظر قانون منها أصدره هنري الرابع « على جميع سكان هذه المملكة أن يلبسوا الذهب أو الفضة على ثيابهم ، إلا البنايا والاصوص (١٥) » . ولكن حتى هذا الربط الذكي كان عديم الجدوى . وشكا الوعاظ من المجازفة المبيتة التي أقدمت عليها السيدات حين لم يسترن ما استدار من أعضائهن إلا بمقدار . ويزعم مونتيني ، الذي لم يكن كثير الوقوع في خطيئة خداع النفس بالأوهام ، « أن سيداتنا

(وإن كن أنيقات رقيقات) يرين مرارا مكشوفات الصدر حتى السرة (١٦) .
ورغبة في تأكيد بياض البشرة أو حمرة الخدود ، بدأت النساء في القرن
السابع عشر تزيينها ببقع أو رقع سماها أصحاب الأمزجة غير الشعرية
« الموش » أو الذباب . وقسين مشداتهن بعظم الحوت وفردن تنانيرهن
المطوقة بالسلك . ورفعن شعورهن في العديد من الأشكال المغرية أما
الرجال فأطلقوا شعورهم المجددة طويلة مرسة ، وتوجوا رؤوسهم بقبعات
عريضة يزينها ريش مرح . وأفشى لويس الثالث عشر بدعة الشعر المستعار
لها أصابه من صلع مبكر . وهكذا تبارى الجنسبان في غرور المظهر
وخيالاته .

ولم تمنعهم آدابهم من تناول الطعام بأصابعهم . ولم تحل الشوك محل
الأصابع ، حتى بين النبلاء ، إلا عام ١٦٠٠ ، وليس قبل عام ١٧٠٠ تقريبا
في غيرهم من الطبقات . وقد حقق مطعم عصرى يدعو لاتور دراجن
الشهرة بتقديمه الشوك لزبائنه ، وكان هنرى الثالث يتغدى فيه وهو عائد
من صيده ، وكان الفرنسيون يأكلون الضفادع والقواقع في القرن السابع
عشر . أما شرايهم المفضل فهو النبيذ . وقد بدأوا يستعملون القهوة ولكنها
لم تكن بعد شرابا لاغنى عنه . وكان الكاكاو قد دخل فرنسا من المكسيك
بطريق أسبانيا ، وذمه بعض الأطباء زاعمين أنه ملين في وقت غير مناسب ،
ووصفه غيرهم دواء للأمراض التناسلية ، وروت مدام دسيفيتي أن
سيدة حاملا أسرفت في شربه لإسرافا جعلها تلد « ولدا صغيرا أسود
كالشيطان » (١٧) .

وانعكس التحسن في آداب السلوك على وسائل الانتقال والترفيه .
فشاع الآن استخدام المركبات العامة في غرب أوروبا ، وبدأ الميسورون
من الفرنسيين يسافرون في عربات فخمة مجهزة بالستائر والزجاج . وفشت
لعبة التنس ، وأولعت كل الطبقات بالرقص . ودخلت رقصة البافان
من أسبانيا ، وقد اشتقت اسمها من كلمة « بافو » الأسبانية ومعناها الناووس ،

وأصفت عليها حركاتها الرشيقة المتعالية نزعة ارسطراطية ، وأعان التقبيل الذى كان جزءا منها على إثارة الدم فى العروق ، وفى عهد كاترين مديتشى أصبح البالية قمة أسباب الترفيه فى البلاط، إذ جمع بين الموسيقى والرقص ليقص قصة بالشعر أو الإيماء (البانتوميم) ، وشاركت فيه أجمل نساءها، فى ملابس ومشاهد صممت تصميميا فنيا ، وقد أقيم حفل من حفلات البالية هذه فى التويلرى غداة مذبحه القديس برتلميو .

وكان الموسيقيون أبطال الساعة العابرة . افتتن بهم الفرنسيون فتنه كبرى ، حتى أن رجلا من الحاشية كان يحضر حفلة موسيقية عام ١٥٨١ ضرب سيفه بيده وأقسم أنه متحد أول رجل يقابله للمبارزة ، وهنا قاد قائد الفرقة فرقته فى لحن رقيق هداً من هياجه (١٨) . وظل العود الآلة المفضلة ، ولكن حدث فى عام ١٥٥٥ أن بلتازار دى جويابو ، أول عازف كمان شهير فى التاريخ ، جلب فرقة من عازفى الكمان إلى بلاط كاترين وأشاع موسيقى الكمان . وفى عام ١٦٠٠ تبع أوتافيو رينوتشنى مارى مديسى إلى فرنسا ، وأدخل فيها فكرة الأوبرا . وكان الغناء لا يزال الموسيقى المفضلة ، وقد رأى الأب مرسين بحق أنه ليس فى الطبيعة صوت يضارع جمال صوت المرأة (١٩) .

واجتمعت الآن الموسيقى ، والأدب ، والسلوك المذهب ، والحديث المثقف — لتؤلف كلها إضافة من أهم الإضافات التى أغنت بها فرنسا الحضارة — وهى الصالون . وكانت إيطاليا ، الأم الراحية للفنون الحديثة ، قد مهدت له باللقاءات المهيبة ، كتلك المنسوبة لأورينو فى كتاب كاستليونى « رجل البلاط » ، ومن إيطاليا انتقل الصالون إلى فرنسا — كما انتقل إليها الكمان ، والقصر الريفى (الشاتو) ، والبالية ، والأوبرا ، والزهرى . وقد ولدت مؤسسة الصالون بفرنسا فى روما (١٥٨٨) لجان ديفيون . السفير الفرنسى لدى البابا ، وجوليا سافيللى إحدى وريثات أورسبى . وتلقت كاترين ديفيون تعليمها لم تألفه الفتيات فى القرن السادس

عشر . وحين بلغت الثانية عشرة تزوجت من شارل دانجيين ، وكان يشغل في عهد هنرى الرابع ولويس الثالث عشر مئصباً كبيراً بلقب المركز رامبويه . وشكت المركزية الشابة من قصور لغة الحديث وآداب السلوك في فرنسا عنها في إيطاليا سلامة وتهذيباً ، ولاحظت في استنكار ذلك الفصل بين الطبقات المفكرة—من شعراء وأدباء وعلماء—وبين النبلاء . وفي عام ١٦١٨ صممت لأسرتها « الأوتيل درامبويه » في شارع سان — توما — دلو فر بياريس . وفي غرفة منه علقت لوحات من الخمل الأزرق حواشيها من الفضة والذهب . في هذا « الصالون الأزرق » الفسيح استقبلت المركزية ضيوفها في ما أصبح أشهر صالون في التاريخ . وقد حرصت على أن تدعو إليه رجالاً ونساء ذوى آداب متجانسة ويمول متنوعة : نبلاء مثل كونديه الكبير ولاروشفوكو ، وكنسيين مثل ريشليو وأويه ، وقواداً مثل مونتوسيه وباسومبير ، وسيدات من ذوى النسب العريق كالأميرة كونتى ودوقى لونجفيل وروهان ، وأدبيات مثل مدام دلافيت ومام دسفيني والآنسة دسكوديرى ، وشعراء مثل ماليرب وشابلان وجى دبالزاك ، وعلماء مثل كونرار وفوجلا ، وظرفاء مثل فواتور وسكارون . هنا وعظ بوسويه عظة وهو في الثانية عشرة ، وقرأ كورنى تمثيلياته . هنا تعلم النبلاء أن يهتموا باللغة والعلم والدرس والشعر والموسيقى والفن ؛ وتعلم الرجال من النساء آداب المجاملة ، وتعلم المؤلفون أن يخفوا غرورهم ، والفقهاء أن يهذبوا فقههم ، والتقى الظرفاء بذوى النسب ، وناقش القوم الكلام الصحيح واكتسبوه ، وأصبح الحديث فناً من الفنون .

وتناولت المركزية هذه الأسد والنمر بلباقة قلمت مخالبها دون أن توجعها . ومع أنها ولدت سبعة أطفال ، إلا أنها احتفظت بمجالها فترة كفت لإلهام فولتير وماليرب العاطفة المشبوبة ، فكان الشاعران يلتهبان لكل ابتسامة ، ولكنها برغم هذه النيران كانت محـل احترام الجميع لوفائها لزوجها الحامل ؛ وبرغم ضعف صحتها ضريت لضيوفها المثل في البشاشة والذكاء المفعم بالحياة ؛ وبرغم فقدانها ولدين اختطفهما الموت وثلاث بنات

اختطفهن الدين اسكتت حزنهما حتى كتبت قبريتهما . وفي جل من الإباحية الجنسية والحديث الحامح أشاعت من حولها جوا من الأدب واللياقة . وأصبحت « سلامة الذوق » جواز الدخول لصالونها . وكان القواد والشعراء يتركون سيوفهم ورماحهم في البهو ، وخفف الأدب من حدة الخلافات ؛ وازدهر النقاش وأقصى الجدل العنيف .

وأخيرا أسرف القوم في هذا التهذيب . لقد رسمت المركيزة قانونا يتوخى الدقة في القول والفعل ، ولكن الذين طبقوه في تزمتم سموا « المتحذلقين » ر « المتحذلقات » ، وفي عام ١٥٩٠ حين كانت المركيزة قد اعتزلت وأصبحت وحيدة ، انقض فولثير على هذه الرواسب الغريبة المتخلفة من فنها وقضى عليها بسخريته القضاء المبرم . ولكن حتى الاسراف كان له نفعه ، فهولاء « المتحذلقات » ساعدن على جلاء معنى الألفاظ والعبارات ومدلولها . وتنقية اللغة من الإقليمية ، والنحو الرديء ، والتفعر ؛ هنا بذرة الأكاديمية الفرنسية . وفي الأوتيل درامبويه طور ماليرب وكونرار وفوجل قواعده الذوق الأدبي التي أفضت إلى بوالوالعصر الكلاسيكي . وقد ساهمت « المتحذلقات » في ذلك التحليل للعوائف الذي أطال الروايات الغرامية ، وفن به ديكارت وسبينوزا ، وساعدن على توشية علاقات الحسنيين باستراتيجية الانسحاب والتنع ، وما يتبعهما من تصور الكثر الرواغ تصورا مثاليا ، مما أفضى إلى الحب الرومانسي . وبفضل هذا الصالون وما جاء بعده من صالونات أصبح التاريخ الفرنسي أكثر منه في أي وقت مضى ثنائى الجنس . وارتفع مقام النساء ، وازداد أثرهن في الأدب واللغة والسياسة والفن . وعظم احترام المعرفة والفكر ، وانتشر الاحساس بالجمال .

ولكن أكانت الصالونات والأكاديمية جاعلة رابليه مستحيلا ؟ أكانت موصدة العقل الفرنسي أمام فسيولوجية مونتيني المرحية ، وأخلاقياته السمحة ، وحذلقلته المتزايدة ؟ أم كانت موجهة هذين العبقرين قسرا ورافعة إياهما إلى فن أكثر رهافة وعلوا ؟ .

ولكننا سرنا شوطاً أبعد مما يجب . فحين فتحت مدام درامبويه صالونها كان قد مضى على موت مونتيني ستة وعشرون عاماً . فلترجع في مسيرتنا ونستمع ساعة إلى أعظم كاتب ومفكر فرنسى فى هذا الجيل .

٣ — ميشيل ديمونتيي ١٥٣٣ — ٩٢

١ — تعليمه

وصف جوزف سكا: ليجر والد مونتيني بأنه بائع رنجة . ولكن هذا العالم الكبير قفز . ٧ ؛ ذلك أن الجدة ، واسمه جريمون إيكيم ، هو الذى كان يصدر الأداة والأسماك الخفيفة من بوردو . وقد ورث هذه التجارة من جد ميشيل الأكبر ريمون إيكيم ، الذى جمع المال للأسرة بهذه الطريقة ، تم اشترى (١٤٤٧) القصر والضيعة المعروفين باسم مونتيني على تل خارج المدينة . ووسع جريمون ميراثه بزواج حكيم . أما ابنه بيير إيكيم فقد فصل الحرب على الرنجة ، وانخرط فى الجيش الفرنسى ، وقاتل فى إيطاليا مع فرنسيس الأول ، وعاد بندوب وبآثار من النهضة ، وارتقى إلى منصب عمدة بوردو . وفى عام ١٥٢٨ تزوج أنطوانيت ، ابنة تاجر غنى من تولوز يهودى المولد ، مسيحى العباد ، أسباني الثقافة . وولد ميشيل إيكيم ، الذى أصبح السيد الإقطاعى على مونتيني ، لبير وانطوانيت ، وقد اختلط فى رأسه اندم الغسقونى واليهودى . ثم زاد أفقه اتساعاً أن أباه كان كاثوليكياً تقياً ، وأمه على الأرجح بروتستنتية ، وأخته وأخاه كالفينيين .

وكان لبير آراء فى التعليم . يقول عنه ميشيل « إن هذا الأب الطيب أرسلنى حتى وأنا بعد فى المهد لأنشأ فى قرية فقيرة يمتلكها ، وأبقانى فيها طوال الرضاع وبعده بقليل ، لأنتربنى أفقر وأبسط تربية شائعة (٢٠) » . وبينما كان الصبى فى الحضانة عين له تابع ألمانى لم يكلمه بغير اللاتينية . « ناهزت السادسة وأنا لا أفهم من الفرنسية أكثر مما أفهم من العربية (٢١) »

فلما دخل كلية جين كان أساتذته (فيا عدا جورج بوكانان) يكرهون التحدث إليه باللاتينية ، لأنه يتكلمها بطلاقة . وقد برز فيها إلى هذا الحد « دون كتب ، أو قواعد ، أو نحو ، أو ضرب بالسياط ، أو أنين ونزاح » .

ولعل الأب كان قد قرأ ما قاله رابليه في التعليم . فحاول أن ينشئ ولده على المبادئ التحررية ، مؤثرا الحب على القسر . واستطاب مونتيني هذا النظام وأوصى به في خطاب طويل عن التعليم^(٢٢) ، صرح أنه كتبه إلى الليدى ديان دفوا ، ولكنه أنهكه في مقال متأخر وأوصى بالعصا معنا مقنعا للمنطق^(٢٣) . كذلك لم يحذ حذو أبيه في تفضيله اللاتينية أو الدراسات الكلاسيكية ومع أن ذاكرته كانت فياضة بالشواهد والمثل الكلاسيكية . إلا أنه استنكر الاقتصاد على التعليم الكلاسيكى ، واحتقر التعليم من الكتب والمكبين على الكتب ، وآثر على هذا كله الاهتمام بتدريب الجسد ليل الحكمة والفضيلة . « لسنا في حاجة إلا لقليل من التعليم لكي تكون لنسا عقول سليمة^(٢٤) » ، وقد نتعلم من مباراة في النرد أكثر مما نتعلم من خطاب لاذع ضد كاتلين . وينبى أن يربى البدن على أن يكون جلدا شجاعا ، قادرا على تحمل الحر والبرد دون تدمر ، وعلى إساءة مخاطر الحياة التي لا مفر منها . كان مونتيني يستشهد بالكتاب الأثينيين ، ولكنه آثر طرق الأسبرطيين في العيش ؛ مثله الأعلى فضيلة رجولية ، تقريبا بالمعنى الرومانى الذى جعل هذه العبارة نافلة — وأضاف إليه المثل الأعلى الإغريقى « لا إفراط » — الاعتدال فى كل شيء ، حتى فى الاعتدال ، فعلى المرء أن يشرب الخمر فى اعتدال ، على أن يكون قادرا إن دعتسه المناسبة على الشرب الكثير دون أن يغيب عن وعيه .

وقد يكون السفر جزءاً هاماً من التعليم إذا تركنا أهواءنا وراعنا . « قيل لسقراط إن فلاناً لم يفده السفر مثقال ذرة ، فأجاب : أجل ، لأنه حمل نفسه معه فى سفره »^(٢٥) . فإذا استطعنا أن نفتح عقولنا وعيوننا وجدنا الدنيا خير كتاب نقرأه ، لأن « الكثير جدّاً من الأمزجة الغربية ،

والملل المتعددة . . . والآراء المتنوعة ، والفوائين المختلفة ، والعادات الطريفة ، تعلمنا أن نصدر الحكم السليم على نظائرها عندنا (٢٦) . ثم بعد السفر يأتي التاريخ أفضل معلم لنا ، وهو ليس إلا سفرأ يمتد إلى الماضي . فالطالب المستعينا بكتب التاريخ يحيط بأفضل العقول في خير العصور . . . فأى فائدة لا تجنيها . . . بقراءة « تراجم » بلوتارخ ؟ (٢٧) « وأخيراً يجدر بالطالب أن يتلقى بعض الفلسفة — لا « جدليات المنطق الشائكة » بل الفلسفة التي تعلمنا كيف نعيش . . . وما يجب معرفته وما لا يجب ، وما الشجاعة ، والاعتدال ، والعدل ؛ وأى فرق بين الطموح والجشع ، والرق والحرية ، وما العلامات التي يتبين الرجل بها القناعة الصادقة الكاملة ؛ وإلى أى حد يجب أن يخاف . . . الموت أو الألم أو العار . . . إن الطفل القادم من الحضانة أقدر على تلقي (هذه الدروس) من تعلم القراءة والكتابة (٢٨) .

وبعد أن أنفق مونتيني سبع سنين في كلية جيبين دخل الجامعة ليدرس القانون . وما من شيء كان أقل من هذه الدراسة نجاحاً مع عقله المستطرد وحديثه الواضح . فهو لا يمل من اطراء العادة وذم القانون . وقد لاحظ في تبهاج أن فرديناند الثاني ملك أسبانيا لم يبعث بحامين إلى أمريكا الأسبانية مخافة أن يضاعفوا أسباب النزاع بين الهنود ، وتتمنى لو أنه منع الأطباء أيضاً مخافة أن يخلقوا بعقاقيرهم أمراضاً جديدة (٢٩) . وعنده أن شر البلاد ما استكثر من القوانين ، وقدر أن بفرنسامها « أكثر مما لدى بقية العالم » . ولم ير أى تقدم في نزعة القانون الإنسانية ، وتساعل هل بين الهمج وحشية كتلك التي يمارسها القضاة ذوو العباءات ، ورجال الكنيسة الخلقو الرعوس ، في غرف التعذيب بالدول الأوروبية (٣٠) . وافتخر بأنه « حتى اليوم (١٥٧٨) أنا برىء من جميع الدعاوى القانونية (٣١) » .

ب - صداقته وزواجه

ومع ذلك نجده عام ١٥٥٧ مستشاراً في محكمة الاعانات في بيريجو ، وعام ١٥٦١ عضواً في برلمان بوردو — وهو المحكمة البلدية . وهناك لقي

وأحب إثنين دلابويقي . وقد رأينا في موضع آخر من هذا الكتاب أن هذا الاستقراطي الشاب كتب وهو بعد في الثامنة عشرة مقالا مشبوب العاطفة ولكنه لم ينشره ، واسمه « مقال عن الرق الاختياري » ، وقد اشتهر باسم « كونتران » - أى ضد حكم الرجل الواحد . وقد دعا الشعب فيه بكل البلاغة التي أوتيها دانتون فيما بعد ، إلى الثورة على الحكم المطلق . ولعل موتينى نفسه شعر ببعض الحماسة الجمهورية في شبابه . على أى حال جذبه هذا المتمرّد النبيل ، الذي بدا له - وكان يكبره بثلاث سنوات - آية في الحكمة والزهارة :

« لقد فتش الواحد منا عن صاحبه قبل أن يراه ، ومن الأخبار التي سمعها عنه . . . أظن أننا بأمر سرى من السماوات تعانقنا باسمينا . وعند أول لقاء لنا ، وكان بالصدفة في وليمة كبيرة واجتماع مهيب لمدينة بأسرها ، وجدنا نفسينا مندهشين ، متعارفين ، . . . مرتبطين ، بحيث أن شيئاً من الأشياء لم يقترب منا بعد ذلك اقتراب كل منا من صاحبه (٢٢) » .

ما السر في هذه الصداقة العميقة ؟ يجيب موتينى « لأنه كان هو ، ولأننى كنت أنا (٢٣) » - لأنهما كانا مختلفين اختلافًا جعلهما يكمل الواحد منهما صاحبه . ذلك أن دلابويقي كان المثالية كلها ، والاخلاص الحار ، والرقّة والحنان ؛ أما موتينى فكان فيه من الثقافة والحصافة وعدم التحيز ما يمنعه من التفانى إلى هذا الحد ، وقد وصفه هذا الصديق ذاته بأنه « يميل إلى الرذائل والفضائل البارزة على السواء (٢٤) » . وربما كانت أعمق تجربة مر بها موتينى في حياته هي مشاهدته صديقه يحتضر . ففي عام ١٥٦٣ ، وخلال طاعون تفشى في بوردو ، مرض دلابويقي فجأة بالحمى والدوسنتاريا . وقد احتمل موته البطيء بجلد رواقى وصبر مسيحى لم يغب قط عن ذاكرة صديقه الذى ظل ملازماً لفراشه في تلك الأيام الأخيرة . وورث موتينى مخطوطة المقال الخطر وخبأها ثلاثة عشر عاماً ، ثم نشرت منه نسخة في طبعة مسروقة (١٥٧٦) ، وهنا نشر الأصل ، وأوضح أنه تدرّب في البلاغة الصبي « في السادسة عشرة » .

وجعلت هذه الصداقة كل علاقة إنسانية بعدها تبدو لموتيتنى تافهة غثة .
وقد كتب المرة بعد المرة أن نصفه مات مع لا بويتى « لقد ألفت أن أكون
دائماً أنثى ، ولم اعتد أن أكون وحدى قط ، حتى ليخيل لى أنى لست
إلا نصف نفسى (٣٥) » . وفى حرارة هذه الذكرى رفع الصداقة فوق الحب
بين الوالد والولد ، والفتاة والفتى ، الزوج والزوجة . ويبدو أنه لم يكن
يشعر بأى عاطفة رومانسية نحو أى امرأة . « فى شبانى عارضت الأفكار
الشائعة عن الحب ، والى أحسست أنها تغلبنى على أمرى ، وجاهدت
لأقلل من متعته مخافة أن . . . يسترقى فى النهاية ويضعنى تحت رحمته (٣٦) » .
ولا يعنى هذا أنه لم تكن له أويقات غرام ، فهو على العكس يعترف
بعلاقات واسعة متعددة قبل زواجه (٣٧) . وقد وصف الحب الجنىسى بأنه
« ليس إلا لذة تدغذغ الجسم نتيجة إفراغ الأوعية المنوية ، أشبهه باللذة
التي تعطينا إياها الطبيعة فى إفراغ الأعضاء الأخرى ورى أنه من
المضحك أن الطبيعة « خلطت لذاتنا وأوساخنا معاً (٣٨) » .

وقد وافق أكثر الفلاسفة على أن حافز الجماع ليس مبرراً للزواج .
« لست أرى زيجات أسرع فشلاً وأكثر كدرأ من تلك التي تعقد من أجل
الجمال ، أو تتم فى عجلة استجابة لرغبات الغرام (٣٩) » . فالزواج يجب أن
يرتبه « طرف ثالث » ، وينبغى أن يرفض صحبة الحب (الجنىسى) وشروطه
« وأن يحاول » محاكاة شروط الصداقة « ؛ ويجب أن يصبح الزواج
صداقة إن أريد له البقاء . وكان يميل لى رأى المفكرين اليونان القائل بأن على
الرجل ألا يتزوج قبل الثلاثين . وقد اجتنب هذا الرباط أطول ما استطاع .
ولمذ كان لا يزال أعزب وهو فى الثامنة والعشرين ، فإنه سافر لى باريس ،
وافتن بها (٤٠) ، واستمتع بحياة البلاط حيناً (١٥٦٢) ، ورأى الهنود
الأمريكيين فى روان ، وتردد بين مفاتن الحضارة والهمجية المتنافسة ،
ثم عاد لى بوردو ، وتزوج فرانسواز دشاسين (١٥٦٥) .

ويلوح أنه تزوج لأسباب منطقية تماماً: هى أن يكون له بيت وأسرة ،

وأن يورث الأسرة ضيعته واسمه . وفي صفحاته الخمسمائة والألف لا يكاد يذكر شيئا عن زوجته — ولكن لعل هذا من قبيل حسن الأدب وهو يزعم أنه كان وفيًا لها ، « مع أن الناس يذيعون عني أنني إباحي ، إلا أنني (بنية صادقة) تقيدت بقوانين الزواج بدقة أكثر مما وعدت أو أملت (٤١) » . وكانت تغتفر استغراقات العبقريّة في ذاتها ، وتعني بكفاية بالبيت والأرض وحتى بالحسابات ، لأنه لم يكن يميل إلى الأشغال التجارية . أما هو فقد أعطاها الاحترام كله ، وأماراة حب أو كلمته بين الحين والحين — كاستجابته الشاكرة لمساعدتها السريعة له بعد سقوطه من طهر جواده ، وكأهدائه إياها طبعته للترجمة التي قام بها لابويّ الخطاب بلوتارخ « خطاب عزاء » . وكان زواجا موفقا ، وعلينا ألا نأخذ مأخذ الحد الشديد تلك السخريات الموجهة ضد النساء في « مقالات » مونتيني ، فقد كانت بدعة فاشية بين الفلاسفة . وولدت له ورائسواز ستة أطفال ، كلهم بنات ، متن جميعا في طفولتهن إلا واحدة ، يتكلم عنها في حنان (٤٢) . وحين بلغ الرابعة والخمسين تبي في أسرته فتاة في العشرين اسمها ماري دجورنيه « أحببتها حبا صادقا يفوق حب الأب لابنته واعتبرتها جزءا من خير أجزاء كياني ، وهبت لي في بيتي وعزلتي (٤٣) » . إنه لم يكن فوق مشاعر الانسانية المشتركة بين البشر .

ج — مقالاته

في عام ١٥٦٨ مات أبوه ، فورث ميشيل الضيعة بوصفه الابن الأكبر . وبعد ثلاث سنوات أو أربع استقال من برلمان بوردو ، واعتزل ضواضا المدينة إلى ملل الريف . ولكن حتى في الريف كان السلام قلقا ، لأن الحرب الدينية كانت تقسم فرنسا ومدنها وأسرها . فالجنود يغيرون على القرى ، ويدخلون البيوت ، ويسرقون ، وينتهكون الأعراض ، ويقتلون . « ذهبت إلى فراشي ألف مرة . . . وأنا انخيل أنه قد يخونني

من انتمت أو قد أذبح في فراشي (٤٤) . ورغبة في نفي القوم عن العنف كان يترك أبوابه غير موصدة ويأمر بأن يستقبل المغيرون إن أتوا دون مقاومة . على أنهم لم يأتوا ، وترك مونتين حرا ليعيش في ركنه الفلسفي بين صراع العقائد وصليل السيوف ، وبينما كانت باريس وغيرها من الأقاليم تقتل البروتستنتية في مذبحه القديس برتلميو ، كتب مونتين أجل أثر في النثر الفرنسي .

وكان أحب الحلولات إليه مكتبته الكائنة بالطابق الثالث من البرج الذي يرتفع في واجهة قصره الريفي (دمرت النار القصر عام ١٨٨٥ ولكن البرج باق) . وقد أحب مكتبته كنفسه ، فكانت ذاته الثانية .

« شكلها مستدير ، وليس فيها جانب مستو إلا ما يصلح لمكتبي ومقعدى ، وهو وضع . . . يتيح لى بنظرة واحدة أن أشتمل ببصرى كل كتي . . . هناك كرسي ؛ هناك عرشى . وأنا أحاول أن اجعل حكى فيها مطلقا ؛ وأن اختص بذلك المركز الوحيد دون صحبة زوجتى ، وأطفالى ، ومعارفى (٤٥) » .

وقل بين الرجال من استطاب مثله العزلة وهى أخوف ما نخاف :

« على المرء أن يفصل ويسترد نفسه من نفسه . . . علينا أن تحتفظ بعين لأنفسنا . . . خاص بنا دون غيرنا . . . نخزن فيه حريتنا ونرسيها . إن أعظم شئ للانسان فى العالم أن يعرف كيف يكون نفسه » (٤٦) .

فى مكتبته تلك كان لديه ألف كتاب ، أكثرها مجلد مزخرف . وكان يسميها « مواطن لذى » ، فيها استطاع أن يختار صحبته ويعيش مع أحكمهم وأخيرهم . ففى بلوتارخ وحده « لأنه يتكلم الفرنسية » (فى ترجمة لأميو) استطاع أن يجد مائة عظيم يحضرون ويتحدثون إليه ،

وفي « رسائل » سنيكا استطاع أن يتذوق رواقية لطيفة صيغت في عبارات رخيمة ؛ هذان (بما فيهما كتاب بلوتارخ « موراليا ») كانا أحب المؤلفين إليه ، « منهما أستقى مائى كما فعلت الدنايديات ، وأملأ دون توقف حالما يفرغ المضاء (٤٧) . ٠٠٠ والألفة التي نمت بيني وبينهما ، والعون الذي ميداني به في شيخوختي ، وكتابي الذي لم أصغه إلا مدا غنمت منهما ، كل أولئك يلزمني صيانة شرفهما (٤٨) » .

وهو لا يستشهد بالكتاب المقدس أبدا (ربما لأنه مشهور جدا) ، وإن اقتبس مرارا من القديس أوغسطين . وهو في الأغلب يؤثر القداى على المحدثين ، والفلاسفة الوثنيين على الآباء المسيحيين . كان « انساني » الفلسفة بقدر ما أحب آداب اليونان والرومان وتاريخهم ، ولكنه لم يكن عابدا أعمى للكلاسيكيات والخطوطات ؛ ورأيه في أرسطو أنه سطحي ، وفي شيشرون أنه ثرثار دعى . ولم يكن مطلعاً كل الاطلاع عل آثار اليونان ، ولكنه استشهد بالشعراء اللاتين في تبحر طواف ألم حتى بواحد من أخص اجرامات مارشال . وقد أعجب بفيرجل ، ولكنه فضل عليه لوكريتيوس . وقرأ « الأقوال المأثورة » لأرزم في نهم . وكان في مقالاته الأولى متحذلقاً ، يرصع كلامه بالعبارات الكلاسيكية المعادة . ومثل هذه الاقتباسات كانت تتفق وأسلوب العصر ، وقد استطاب القراء من لم تسعفهم قدراتهم على قراءة الأصول هذه النماذج باعتبارها نوافذ صغيرة يلمحون منها العالم القديم ، وشكا بعضهم من أنه لم يستكثر منها (٤٩) . ولكن من كل سرقاته الصغيرة خرج مونتييني هو هو على نحو فذ ، ضاحكاً من الحذاقة ، محمداً فكره وكلامه . فهو في ظاهره أشبه بالمقصص واللصوق ، ولكن مذاقه طيب كقطعام الآلهة .

وهكذا ، على مهل ، صفحة فصفحة ، ويوما بعد يوم ، كتب

« المقالات » بعد عام ١٥٧٠ (*) . ويلوح أنه اخترع الاسم (٥٠) Essais ، والنوع تقريباً ، ذلك أنه مع وجود « الأحاديث » discours و dsicours من قبل ، إلا أنها كانت شديدة الشكلية ، لا شبه بينها وبين أحاديث مونتيني الطبيعية ، الكثيرة التلايف ، وقد نحا هذا الأسلوب المتمهل ، الذي يكره القارئ على الاستماع ، إلى طبع المقال بهذا الطابع منذ موته ، فجعله نوعاً أدبياً تغلب عليه العصرية . يقول « إني أتحدث إلى الورق كما أتحدث إلى أول شخص ألقاه (٥١) » . والأسلوب هو الرجل ، طبيعياً ، حميماً ، وثيقاً ، وإنها لراحة أن يتحدث إلينا أحد أئمة الفكر بهذه الألفة . افتتح أى صفحة في مقالاته ، تجده يمسك بذراعك ويسوقك معه دون أن تعرف ، وقلما يهملك ، إلى أين يمضى بك . كان يكتب جزءاً فجزءاً ، في أى موضوع يخطر بباله أو يوافق مزاجه ؛ ويستطرد في فوضى بعيداً عن الموضوع الأصلي أثناء تجواله ، فترى مقاله « عن المركبات » مثلاً ينطلق مخترقاً روما القديمة وأمريكا الجديدة . وفي المجلدات الثلاثة ثلاثة تتألف من استطرادات . لقد كان مونتيني كسولاً ، وما من شيء أشق من خلق النظام وحفظه في الأفكار أو الرجال . وقد اعترف بأنه « متموج متنوع » ولم يقدس الثبات على الآراء ؛ فكان يغير آراءه كلما تقدم به العمر ، إنما الصورة المركبة النهائية هي مونتيني .

ووسط تدفق أفكاره المضطرب تجد أسلوباً واضحاً كأنه البساطة بعينها . ومع ذلك تراه يتألق باستعارات عجيبة كاستعارات شكسبير ، وبنوادر منيرة تحول المجرد فور الواقع . ويختطف فضوله الفاحش هذه الأمثلة أينما وجدها دون اكتراث لأى معوق خلقى . وهو يسلمنا في عناية ملاحظة

(*) اتمت الطبعة الأولى ، ١٥٨٠ ، على السكتابين الأول والثاني ، ووسعت الثانية السكتابين ١٥٨٨ ، وزادت كتاباً ثالثاً ، أما الطبعة الثالثة المحتوية على تنقيحه النهائى والتي نصرتها الأئمة دجورنيه فقد ظهرت عام ١٥٩٥ بعد موته ، وظهور تسع طباعات بين عامى ١٥٨٠ و ١٥١٨ شاهد على شعبيتها .

تلك المرأة التولوزية التي شكرت الله بعد أن غشيها عدة جنود «لأنني مرة في حياتي ملأت بطني دون أن آثم» (٥٢) .

د - الفيلسوف

إنه يزعم أن لديه موضوعاً واحداً — هو نفسه . « إنني أنظر داخل نفسي ، ليس لي شأن إلا مع نفسي ، فأنا لا أكف عن النظر في أمر نفسي وتذوقها » (٥٣) . وهو يعمد إلى دراسة الطبيعة البشرية مباشرة ، عن طريق دوافعه ، وعاداته ، ومحابه ، ومكارهه ، وأسقامه ، ومشاعره ، وأهوائه ، ومخاوفه ، وأفكاره . انه لا يقدم لنا ترجمة ذاتية ، فهو لا يكاد يذكر في المقالات شيئاً عن اشتغاله مستشاراً أو عمدة ، ولا عن أسفاره ، زياراته للبلاط ، وهو لا يكشف عن دينه أو مذهبه السياسي ، بل يعطينا شيئاً أثنى — ذلك التحليل الصريح النفاذ لجسمه وعقله وخلقه . وهو يبسط أخطائه ورذائله في لذة واسهاب . وتحقيقاً لهدفه يستأذن في أن يتكلم بحرية ، فهو عامد إلى انتهاك أصول الذوق السليم ليعرض علينا إنساناً عارى الجسد والروح . تراه يتحدث في صراحة صاخبة عن وظائفه الطبيعية ، ويستشهد بالقديس أوغسطين وفيف في موضوع التطل اللحنى (امتلاء البطن بالغازات) ، ويطنل التأمل في الجماع :

« كل منا يجتنب رؤية إنسان يولد ، ولكن الجمع يهرعون لرؤيته يموت . فلهمده نلتمس مكاناً رحباً ونوراً قوياً ، ولكننا لبنائه نخشى في ركن مظلم ونعمل في تكتم ما استطعنا » (٥٤) .

وحتى مع هذه الصراحة يزعم انه مارس شيئاً من التحفظ . « إنني أقول الحق ، لا كما أشتهى ، بل على قدر ما أجرؤ » (٥٥) .

وهو يقول لنا الكثير عن نفسه الجسدية ، ويرعى صحته من صفحة إلى صفحة . فالصفحة هي الخير الأعظم « وللشهرة أو المجد يشترهما رجل في مثل مزاجي بثمن غال ، باسم الله » (٥٦) ، وهو يسجل تقلبات أمعائه في

تفصيل المحب لها . لقد بحث عن حجر الفلاسفة ووجده مستكناً في مثانته . وكان يأمل أن ينزل هذا الحصى في نشوة من الحب ، ولكنه بدلا من ذلك وجد أنه « يخونه إلى حد غريب (٥٧) » ويهدده بالعجز في غير أوانه . وقد عزى نفسه بقدرة يفخر بها ، هي « أن أقبض مائى عشر ساعات كاملة (٥٨) » وأن يظل على سرجه ساعات طويلة دون أن يناله الاعياء الشديد . كان بدينا قويا ، يأكل بنهم حتى كاد بعض أصابعه في شرهه . وقد أحب نفسه في لذة لا يعترىها الملل .

كان مغروراً بنسبه ، وبشعار نبالته (٥٩) ، وبثيابه الفاخرة ، وبما نال من تشريف حين أصبح أحد فرسان القديس ميخائيل — وكتب مقالا « في الغرور » . وهو ينسب لنفسه أكثر الرذائل ، ويؤكد لنا أنه ان كان فيه فضيلة فإنها تسلت إليه خلصة . ومع ذلك فإن لديه الكثير من هذه الفضائل : الأمانة ، والطيبة ، وروح الفكاهة ، والاتزان ، والرحمة ، والاعتدال ، والتسامح . كان يقذف بالأفكار المتفجرة في الهواء ، ثم يلقفها ويطفئها قبل أن تسقط . وفي عصر المذابيح العقائدية توصل إلى إخوانه في الإنسانية أن يعتدلوا في تعصبهم على هذا الجانب من المقتلة ، وأعطى العالم العصرى مثالا من أول أمثلته في العقل المتسامح . ونحن نغفر له عيوبه لأننا نشاركه فيها ، ونجد تحليله لنفسه ساحراً لأننا نعلم أننا نحن الذين يروى هذه القصة عنهم .

ولكى يحسن فهم نفسه درس الفلاسفة . وقد أحبه على الرغم من دعاواهم المغرورة بأنهم يحللون الكون ويرسمون مصير الإنسان وراء القبر . ونقل عن شيشرون قوله « ما من شيء سخي فقل إلا سبق أن قاله أحد الفلاسفة (٦٠) » . وقد امتدح سقراط لأنه « أنزل الحكمة البشرية من السماء حيث طال ضياعها ، ليردها إلى الإنسان من جديد (٦١) » . وردد نصيحة سقراط بدرس أقل للعلوم الطبيعية ، وأكثر للسلوك الإنساني . لم يكن له « مذهب » بعينه يدين به ، فلقد كانت أفكاره في تطوره دائماً الحركة بحيث استحال على أى تسمية أن تقيد تحليله الفلسفى .

ففي بواكير تفكيره الجريئة اعتنق الرواقية . إن المسيحية التي تفرقت شيعاً يقتل فيها الناس لإخوتهم ، ولطخت نفسها بدم الحرب والمذابح ، قد أخفقت بجلاء في أن تعطي الإنسان قانوناً خلقياً قادراً على ضبط غرائزه ، لذلك اتجه مونتيني إلى الفلسفة ملتمساً مبدأ خلقياً طبيعياً ، وفضيلة لا ترتبط بقيام العقائد الدينية وسقوطها . وبدله أن الرواقية قريبة من هذا المثل الأعلى ، فهي على الأقل شككت بعضاً من أعظم الرجال في العصور القديمة . وجعلها مونتيني مثله الأعلى حيناً ، فهو مدرب إرادته على التحكم في نفسه ، وهو صادف عن كل العواطف التي تكدر سلامة سلوكه أو هدوء عقلاء ، وهو مواجه صروف الدهر بنجاش رابطة ، متقبل الموت دانه على أنه نهاية طبيعية مغتفرة .

وبقي فيه عرق رواق إلى النهاية ، ولكن روحه الحياشة وجدت بعد قليل فلسفة أخرى تبرر ذاتها . لقد تمرد على رواقية تبشر باتباع « الطبيعة » وتحاول مع ذلك قمع الطبيعة في الإنسان . وقد فسر « الطبيعة » من خلال طبيعته هو ، وقرر أن يتبع رغباته الطبيعية ما دامت لا تحدث أذى محسوساً . وسره أن يجد أبيقور مدافعاً عاقلاً عن المتع السليمة ، لاشهوانياً رخيصاً ، وأدهشه أن يكشف قدراً كبيراً من الحكمة والعظة في أوكريتيوس . فأعلن الآن في حماسة شرعية اللذة . أما الخطيئة الوحيدة التي تينبها فهي الإفراط . « ان الإفراط هو الطاعون الذي يفتك باللذة ، والاعتدال ليس سوط اللذة ، بل الملطف لها (٦٢) » .

ومن تذبذب آرائه ، ومن انحطاط المسيحية المعاصرة في فرنسا ، انتهى إلى الشكوكية التي اصطبغ بها أكثر فلسفته بعد ذلك . وكان أبوه قد تأثر بكتاب « اللاهوت الطبيعي » الذي ألفه اللاهوتي التولوزي ريمون سبوندي (مات ١٤٣٧ ؟) والذي واصل جهد السكولستين النبيل في البرهنة على معقولية المسيحية . وطلب الأب إلى ابنه أن يترجم البحث ، ففعل ، ونشر الترجمة (١٥٦٩) . واستنار به السنيون الفرنسيون ، ولكن بعض

٢ للنقاد اعترضوا على حجج ريمون . وفي عام ١٥٨٠ أدخل مونتيني في « الكتاب » الثاني من « مقالاته » فصلا مائتي صفحة فيه « دفاع عن ريمون سبونند » عمد فيه إلى الرد على الاعتراضات . ولكنه لم يفعل هذا إلا بالتخلي على هدف ريمون ، محتجاً بأن العقل أداة محدودة لا يوثق بها ، وانه خير لنا أن نرسي الدين على الإيمان بالكتب المقدسة وبالكنييسة الأم المقدسة ، وهكذا هدم مونتيني ريمون في واقع الأمر حين يفهم منه ظاهرياً أنه يؤيده . وقد رأى بعضهم ، مثل سانت بوف ، أن هذا « الدفاع » ليس إلا حجة ساخرة لتأييد عدم الإيمان (٦٣) . أيا كان الأمر ، فهو أشد ما كتبه مونتيني هدماً ، وربما كان أكمل عرض للشكوكية في الأدب الحديث .

ويؤكد لنا مونتيني ، قبل لوك بزمن طويل ، أن « المعرفة كلها توجه إلينا بواسطة الحواس (٦٤) » . وأن العقل يعتمد على الحواس ولكن الحواس خداعة في تقاريرها محدودة جدا في رقعتها ، ومن ثم كان العقل لا يعتمد عليه . « أن باطن الانسان وظاهره مملوءان ضعفا وكذبا » (٦٥) . (هنا ، في بداية عصر العقل ، وقبل يكون وديكارت بجيل ، يسأل مونتيني ذلك السؤال الذي لا يقفان ليسألاه ، والذي سيسأله بسكال بعد ثمانين عاما ، والذي لا يتصدى له الفلاسفة حتى مجيء هيوم وكانط ، لم يجب أن نثق بالعقل ؟) بل إن الانريزة مرشد أسلم من العقل . فانظر كيف يحيا الحيوان بالانريزة حياة ناجحة — أحيانا على نحو أحكم من الانسان . (هناك فرق بين بشر وبشر أكثر كثيرا من الفرق بين البشر والحيوان (٦٦) » . وليس الانسان مركزا للحياة كما أن الأرض ليست مركزا للكون . ومن التبجح أن يظن الانسان أن الله يشبهه ، أو أن شئون البشر هي مركز اهتمام الله ، أو أن العالم وجد ليعلم الانسان . ومن السخف أن نظن أن في استطاعة عقل الانسان أن يسير طبيعة الله . « أيها الانسان الأحمق ، يا من تعجز عن خلق دودة ، ولكنك تريد أن تخلق أربابا بالعشرات ! » (٦٧) .

ويعصل مونتيني إلى الشكوكية بطريق آخر — وهو التأمل في تنوع وتذبذب الإيمان بالقوانين والأخلاق ، وبالعلم والفلسفة والدين ؛ فأى هذه الحقائق هو الحق ؟ وهو يفضل الفلك الكوبرنيقي على الفلك البطلمي ، ولكن « من يدري ، فلعل رأيا ثالثا يأتي بعد ألف سنة قد يقلب هذين الرأيين » و « أليس أكثر احتمالا أن الجرم الضخم الذى نسميه الدنيا شئ آخر غير ما نحكم به عليه ؟ » (٦٨) و « ليس هناك علم » ، إنما هى فروض دعوية لعقول مغرورة (٦٩). وخير الفلسفات قاطبة فلسفة إرو — وخلصتها أننا لا نعرف شيئا. « أن أكبر مقدار فيما نعرفه هو أقل مقدار فيما نجهله » (٧٠) « وما من شئ يؤمن الناس به إيمانا أرسخ من إيمانهم بما يعرفونه أقل معرفة » و « ان الاقتناع باليقينية شاهد واضح على الحمق » (٧١) . وبعبارة موجزة ، ليس هناك وجود ثابت ، لا لكياننا ولا للأشياء . ونحن ، وحكمنا . وكل الأشياء الفانية الأخرى ، لا تكف عن الدوران ، والتحول ، ثم الزوال ، فلا شئ يمكن إثباته على التحقيق . وليس بيننا وبين الوجود اتصال (٧٢). إذن فشفاء لكل الجراح يختم مونتيني باعادة تأكيده لإيمانه المسيحى ، والإشادة بالإله الذى لا يمكن استكناهاه (٧٣) .

بعدها طبق شكوكيته على كل شئ ، دائما مع انخلاء احترام للكنيسة . وأصبح شعاره « ماذا أعرف » ، محفورا على خاتمه ومكتوبا على سقف مكتبته . وزينت شعارات أخرى عوارض السقف المماثلة « الحجج المؤيدة والمعارضة كلاهما ممكن » ، « يجوز ولا يجوز » ؛ « لا أقر شيئا ؛ لا أفهم الأشياء ؛ أعلق حكمى ؛ أمتحن » (٧٤) . « وبعض هذا الموقف أخذه عن شعار سقراط « لا أعرف شيئا » ، وبعضه عن إرو ، وبعضه عن كورنيلبوس أجريبا ، وكثير منه عن سيكستوس امبريكوس . قال ، منذ الآن « سأقيد نفى بما أرى وأمسك به ، ولا أذهب بعيدا عن الشاطئ » (٧٥) .

ورأى الآن النسبية فى كل مكان ، والمطلقات فى غير مكان ، وأقلها

في مقاييس الجمال ، ويجد فيلسوفنا الشهواني متعة بالغة في ملاحظة مختلف الآراء بين مختلف الشعوب عن مقومات الجمال في ثدي المرأة (٧٦) . وهو يعتقد أن كثيرا من الحيوان يفوقنا جمالا ، ويرى أننا كنا حكماء حين اكتسبنا بالثياب . وهو يدرك أن دين الانسان وأفكاره الخلقية تقررها بيئته عادة . « إن طعم الخير أو الشر يتوقف إلى حد كبير على رأينا فيهما » ، وهو ما سيقوله شكسبير ، و « ان الناس تعذبهم آراؤهم عن الأشياء لا الأشياء ذاتها » (٧٧) ، وقوانين الضمير لا تنبثق من الله بل من العادة . وما الضمير إلا القلق الذي نحسه حين ننهك عرف قبيلتنا (٧٨) .

وكان لمونتيني من الفطنة ما منعه من الرأى بأن الأخلاق يصح إغفالها مادامت نسبية . فهو على العكس من ذلك آخر من يمس ثباتها واستقرارها . وهو يتكلم بجرأة عن الجنس ، ويطالب بكثير من الحرية — للرجال ، ولكنك إذا دقت النظر فيه وجدته فجأة ~~سنيئا~~ فهو ~~موصى~~ بالهفة للشباب ، وحجته أن الطاقة التي تبذل في الجنس مصدرها مستودع القوة المشترك في البدن ، وهو يلاحظ أن الرياضيين الذين كانوا يتدربون للألعاب الأولمبية « امسكوا عن جميع الأفعال الجنسية وامتنعوا عن ملامسة النساء » (٧٩)

وكان بعض من يمد شكوكيته إلى الحضارة ذاتها ، وأن يسبق في ذلك روسو وشاتوبريان . أوحى إليه الهنود الذين رأهم في روان بأن يقرأ تقارير الرحالة ؛ ومن هذه الروايات كتب مقالته « عن أكلة لحوم البشر » وعنده أن أكل الموتى أقل همجية من تعذيب الأحياء . « لست أجد في هذه الأمة (أمريكا الهندية) شيئا همجيا ولا وحشيا ، إلا إذا سمى الناس ما لم يألفوه همجية » (٨٠) . وقد تخيل هؤلاء الوطنيين أصحاب لا يمرضون إلا نادرا ، سعداء دائما تقريبا ، عائشين في سلام وطمأنينة دون قوانين (٨١) وامتدح فن الاراتكة وطرق الانكا . وأجرى على لسان هنود روان تنديدا بشراء أوروبا وفقرها . « لقد ادركوا أن بيننا رجالا أنخموا بكل أنواع السلم في حين يتضور غيرهم جوعا ، وعجبوا كيف تحمل الفقراء هذا

الظلم ولم يأخذوا بتلاييب الآخرين » (٨٢) . وقارن بين أخلاق الهنود وأخلاق فاتحي بلادهم ، واتهم هؤلاء فقال إن المسيحيين المزعومين . . . جلبوا عدوى الرذيلة لنفوس بريئة تواقه للتعلم ، طيبة بطبيعتها (٨٣) . ونسى مونتيني لظنه لحظة فتفجر في غضبة مضرية للحق :

« ما أكثر المدن العامرة التي نهبت وسويت بالتراب ، وما أكثر الأمم التي دمرت أو أقنرت من أهلها . وكم من ملايين لا تحصى من الناس الأبرياء من الجنسين ، ومن جميع المراكز ، والأعمار ، قتلوا ونهبوا وأعمل هبهم السيف ؛ وأغنى بقاع الأرض وأجملها وأفعلها قلبت طهرا على عقب وخربت وشوهت من أجل تجارة اللؤلؤ والفلل ! إيه أيها الانتصارات الآلية ، ويا أيها الغزو الوضع ! » (٨٤) .

أكان احترامه للدين مخلصا ؟ واضح أن تنقيبه في الكلاسيكيات قد فطمه منذ زمن طويل من تعاليم الكنيسة . لقد احتفظ بإيمان غامض بالله الذي تمثله آنا في الطبيعة ، وآنا في روح الكون ، ذلك العقل غير المفهوم للعالم . وهو أحيانا يحس إحساس لير في مسرحية شكسبير ، « إن الآلهة تلعب بها الكرة فتقذفنا علوا وسفلا (٨٥) » . ولكنه يتكلم بالألحاد لأنه « شئ غير طبيعي وبشع (٨٦) » ، ويرفض اللاأدرية باعتبارها نوعا آخر من الدخاطية ، فأنى لنا أن نعرف أننا لن نعرف أبدا ؟ (٨٧) . وهو ينحى جانبا كل محاولات بذلت لتعريف النفس أو تفسير علاقتها بالجسد باعتبارها محاولات باطلة كلها غرور (٨٨) . وهو راغب في قبول خلود النفس بالإيمان ، ولكنه لا يجد دليلا عليه في التجربة أو العقل (٨٩) ؛ ثم ان فكرة الوجود الأبدي تروعه (٩٠) . « لولا الإيمان لما صدقت المعجزات (٩١) » ، وهو يسبق حجة هيوم المشهورة ؛ « كم أجده أكثر طبيعية واحتمالا أن يكذب رجلان ، عن أن تحمل الريح رجلا في اتنتى عشرة ساعة من الشرق إلى الزر (٩٢) » . (ولعله كان باحثاً عن مثل آخر اليوم) . وهو يسبق فولير إذ يحكى قصة الحاج الذى حكم بأن المسيحية لا بد دين

إلهي لأنها حافظت على نفسها هذا الزمن الطويل برغم فساد مديريها^(٩٣) . وهو يلاحظ أنه مسيحي بمحض الصدفة الجغرافية ، ولولا ذلك « لآثرت أن أكون أحد عباد الشمس^(٩٤) » . وهو لا يتكلم على المسيح غير مرة واحدة ، على قدر ما يذكر أحد قرانه^(٩٥) . ولم تستهو تلك القصة الجميلة ، قصة أم المسيح ، روحه غير العاطفية إلا بمقدار ، ومع ذلك نراه يعبر إيطاليا ليضع أربعة تماثيل نذرية أمام مزارها في لوريتو . وكان يفتقر إلى ملامح الروح الدينية — وهى التواضع ، والاحساس بالذنب وتبكيك الضمير والتكفير ، والشوق إلى الغفران الإلهي والنعمة القادية . لقد كان رجلا حر الفكر ، فيه حساسية ضد الاستشهاد .

على أنه ظل كاثوايكيا بعد أن كف طويلا عن أن يكون مسيحيا^(٩٦) . وكما كان أى مسيحي فطن من المسيحيين الأوائل ينحني لأحد الأوثان انحناء عابرة ، كذلك فلان مونتيني ، أكثر المسيحيين وثنية ، يتحول بين الحين والحين عن أرائه اليونان والرومان ليقدّم الاحترام للصليب المسيح أو حتى ليلثم قدم أحد الياثبات . فهو لم ينتقل كما انقل باسكال من الشك إلى الإيمان ، بل من الشك إلى الطاعة . ولم يكن هذا بدافع الخذر فحسب ، فلعله أدرك أن فلسفته التى تسلب حركتها تردداته وتناقضاته وتشككه قد تصلح ترفا لعقول هيئت من قبل للحضارة (بالدين ؟) ، وأن فرنسا ، حتى وإن أغرقت عقائدها فى الدم ، إلا أنها لن ترضى بديلا عنها متاهة فكرية ليس فيها شيء يقينى غير الموت . ورأى أن الفلسفة الحكيمة تصالح الدين :

« إن أصحاب العقول السليطة ، الأقل فضولا ، والأقل حظاً من التعاليم ، يجعلون مسيحيين طبيين ، وهم بالتبجيل والطاعة يحتفظون بإيمانهم البسيط ويلتزمون بالقوانين . والعقول متوسطة القوة والكفاية هى التى يتولد فيها خطأ الآراء ... أما خير العقول وأكثرها استقرارا وأصفها نظرا فتخلق نوعا آخر من خيار المؤمنين ، الذين ينفذون بالبحث الطويل والتمحيص الدينى إلى معنى أعمق وأعوص فى الأسفار المقدسة ويكتشفون

الأسرار الخفية الإلهية للنظام الكنسى . . ان الفلاحين البسطاء قوم أمناء ، وكذلك الفلاسفة (٩٧) » .

وهكذا ، بعد كل لدعاته للمسيحية ، ولأن جميع الأديان على السواء إنما هى أستار تغطى جهلنا المرتعد ، ينصحنا بأن نقبل دين زماننا ومكاننا . أما هو ، ففى وفائه لجغرافيته ، عاد إلى شعائر آبائه ، فأحب الدين الطقسى العطر الحسى ، لذلك فضل الكاثوليكية على البروتستنتية . ونفرد من الكلفنية اصرارها على الجبرية (٩٨) ، وإذا كان لإرزمى الأرومة فقد مال إلى كرادلة روما العالمين اللطفاء دون لويولا جنيف (كالفن) أو أسد فنبرج (لوثر) . وأشد ما أسف له أن العقائد الجديدة كانت تقلد القديمة فى تعصبها . ومع أنه سخر من المهرطقين لأنهم حمق يثرون ضجة حول ميثولوجيات متنافسة ، إلا أنه لم يرأى معنى لحرق هؤلاء الخوارج . « على أى حال إنه تقدير عال لآرائنا أن نشوى الناس أحياء بسببها (٩٩) » أو أن نسمح للناس بأن يشوونا .

كذلك نراه فى ميدان السياسة يختتم مسيرته محافظا مطمئنا إذ لا جدوى من تغيير أشكال الحكومة ؛ فستكون الحكومة الجديدة سيئة كالقديمة لأنها ستدار بأيدي البشر . فالجتماع « اطار شاسع جدا » ، وجهاز شديد التعقيد من الغريزة والعرف والأسطورة والقانون ، يتشكل فى بطء بحكمة الزمن الحاصلة من التجربة والخطأ ، بحيث يستحيل على أى عقل مفرد مهما أوتى من قوة وذكاء أن يفصصه ثم يعيد تركيبه دون فوضى وعذاب لاحصر لهما (١٠٠) . وخير للناس أن يخضعوا لحكامهم الحاليين مع ما فيهم من سوء ، إلا إذا حاولوا أن يغلوا الفكر ذاته ، عندها قد يستجمع موتئفى شجاعته وينسخ بالثورة ، لأن « عقلى لم يشكل لينحنى أو يذل ، أما ركبته فى فنعم (١٠١) » ، والعاقل من ابتعد عن المنصب وإن احترمه ، « أن أعظم وظيفة هى إنقاذ الدولة ونفع الكثيرين » ، « أما أنا فنصرف عنها (١٠٢) » ، ومع ذلك فقد خدم الدولة فى فترتى منصبه .

وقد أحزنه أنه عاش نصف حياته خلال تدمير فرنسا (١٠٣) ، « في جيل شديد الفساد وزمان مغرق في الجهل . » « اقرأ كل القصص القديمة ، ما لم تكن من الفواجع ، فلن تجسد ما يعدل تلك التي نراها تمارس كل يوم (١٠٤) . » إنه لم يتخذ موقف الحياد في الصراع الدائر حول فرنسا ، ولكن « ميلى لم ينسئ لا صفات خصومنا المحموده ، ولا الصفات المعيبة التي وصمت من أويدهم (١٠٥) » . وهو يأبى أن يحمل بندقية ، ولكنه يجرد قلمه لمناصرة جماعة « السياسيين » ، هؤلاء الكاثوليك المؤثرين للسلام والذين نادوا بقدر من التوفيق مع الهيجونوت . وقد امتدح ميشيل دلوبيتال لاعتداله الأنسانى البعيد النظر ، واغتبط حين تقدم صديقه هنرى نافار إلى النصر على مبادئ لوبيتال . لقد كان مونتيني أعظم الفرنسيين تحضرا في ذلك العصر الهمجى .

هـ — الحجر الدوار

لقد ضايقه حصى المثانة أكثر من حروب فرنسا . ففي يونيو ١٥٨٠ ، عقب نشر أول طبعة من « مقالاته » ، خرج في رحلة طويلة في أوروبا الغربية ، من جهة ليرى الدنيا ، ومن جهة ليزور ينابيع المياه الطبية أملا في تطهير « المغص » (كما سماه) الذى كان يعطله بالألم المرة بعد المرة . وترك زوجته لتعنى بشئون الضيعة ، ولكنه اصطحب معه أخا أصغر ، وزوج أخت يسمى البارون استيساك وسكرتيرا أملاه شطرا من يوميته في الرحلة ؛ فإذا أضفنا بطانة من الخدم وسائقى البغال ، لم نعد نعجب لفقر هذه المذكرات الفكرى . لقد قصد بها الذكرى أكثر مما قصد بها النشر ، فأخفاها مونتيني في صندوق بعد رجوعه ، حيث اكتشفت بعد أن انقضى على موته ١٧٨ عاما .

وقصدت الجماعة أولا باريس ، حيث قدم المؤلف الفخوز نسخة من مقالاته لهنرى الثالث ، ثم انطلقت على مراحل مريحة إلى بلومبيير حيث أخذ مونتيني نفسه بشرب نصف جالون من المياه الطبية كل يوم طوال

تسعة أيام، وأفلح في التخلص من بعض الحصى الصغير بألم شديد^(١٠٦). ثم اتخذ سمته إلى سويسرة بطريق اللورين. جاء في يوميته التي تحكى ذكرياته عن شخص غائب « لقد وجد لذة لا تعدلها لذة في مشاهدة حرية هذه الأمة وحكومتها الصالحة^(١٠٧) ». ثم استشفى بمياه بادن — بادن وواصل راحلته في ألمانيا. وحضر الخدمات الدينية عند الكلفنيين واللوثريين كما حضرها عند الكاثوليك، وناقش اللاهوت مع رجال الدين البروتستنت. وهو يروى حديث قسيس لوثرى أقسم أنه يؤثر أن يستمع إلى ألف قداس عن أن يشارك في تناول القربان على مذهب كالفن^(١٠٨) — لأن الكلفنيين أنكروا الوجود الجسدى للمسيح في سر القربان. وفي التيرول شعر بجلال الألب قبل روسو بزمان طويل. ومن إنزبروك صعدت الجماعة إلى ممر بريئر، وتخلص مونتيني في الطريق من « حصاة متوسطة الحجم »، ثم من ترنت إلى فيرونا وفنشنزا وبادوا والبندقية، حيث أضاف إلى القناة العظمى « حصاتين كبيرتين ». ورأى أن المدينة ليست بالروعة التي توقعها ولا مومساتها بالجمال الذى انتظره. ومعنى إلى فيرارا، حيث زار تاسو المختلط العقل (كما ذكرت المقالات لا اليومية)، ثم إلى بولونيا وفلورنسة حيث تلقى نهر ارنو « حصاتين وكية من الرمل^(١٠٩) »، ومن سينا إلى روما حيث « أنزل حصاة كبيرة كبزرة الصنوبر^(١١٠) ». ولعل هذه الإضافات المفترزة التي سجل أخبارها كانت في مجموعها تبني هرماً لا بأس بحجمه.

وفى روما زار مجمعاً يهودياً، وشهد ختاناً، وناقش مع معلمى الناموس شعائر دينهم. وتبادل الفلسفات مع محظيات روما. ولم يكن (كما خيل لستندال) عديم الإحساس بالفن في روما^(١١١). فقد راح يطوف اليوم تلو اليوم بين الآثار القديمة وعجبه لا ينتهى من بهائها. ولكن الحدث الكبير كان زيارته لجريجورى الثالث عشر. وكأى ابن للكنيسة ركع مونتيني ليلثم حذاء البابا، فتعطف البابا برفع حذائه تيسيراً للمهمة^(١١٢). ووجد موظفو الجمر ك خلال ذلك نسخة من « المقالات »

سلموها لمحكمة التفتيش : ودعى مونتينى إلى الهيئة المقدسة ونبه فى رفق إلى أن فقرات فى مقالاته تشتم منها رائحة الهرطقة ، أفلا يرى تغييرها أو حذفها فى الطبقات المقبلة ؟ فوجد « خيل إلى أننى تركتهم راضين عنى كل الرضا » ، وهذا حق ، بل لقد دعوه للحضور إلى روما والعيش فيها (ولكنه لم يبال بالوفاء بوعده ، وفى عام ١٦٧٦ أدرج كتابه فى قائمة الكتب المحظورة من الكنيسة) . ثم سافر عبر إيطاليا قاصداً مزار العذراء فى لوريتو وأهداها لوحة نذرية ، ربما ليطمئنهم ويطمئن نفسه . ثم عاد إلى عبور الابنين للاستشفاء بمياه لوكا .

وهناك (فى ٧ سبتمبر ١٥٨١) تلقى رسالة تقول انه اختير عمدة على بوردو . فطلب إعفائه ، ولكن هنرى الثالث أمره أن يقبل ، ولم يستطع أن يتجاهل تقليد خدمة الدولة الذى خلفه له أبوه . على أنه لم يتعجل العودة إلى فرنسا ، فلم ير قصره الربيعى إلا فى ٣٠ نوفمبر ، بعد سبعة عشر شهراً من بدء جولته . وكانت واجبات العمدة خفيفة ، ومكافأته التشریف دون الاجر . وقد أدى واجبات وظيفته على وجه مرضى ، لأن انتخابه أعيد (أغسطس ١٥٨٣) عامين آخرين . وفى ديسمبر ١٥٨٤ زاره هنرى نافار ومعه خلية وأربعون تابعاً ، ونام ملك فرنسا المقبل فى فراش الفيلسوف . وقرب ختام فترة عمدته الثانية تفشى الطاعون فى بوردو ، فغادر مونتينى المدينة إلى الريف كما غادرها كل موظفى الدولة تقريباً . وفى ٣٠ يوليو ١٥٨٥ حول شارات منصبه لخلفه واعتزل فى بيته .

لم يكن قد جاوز الثانية والخمسين ، ولكن الحصى كان يعجزه فى فترات دورية ، وأحياناً يحصر بوله أياماً (١١٣) . وفى أوائل عام ١٥٨٨ بقى فيه من القوة ما يكفى للقيام برحلة نالفة إلى باريس . وهناك قبض عليه بأمر من الحلف الذى كان آنئذ يسيطر على العاصمة لاتهامه بالولاء لهنرى الثالث ، وأودع الباستيل (١٠ يوليو ١٥٨٨) ، ثم أفرج عنه فى الليلة ذاتها بشفاعة كاترين دى مديتشى . وفى اكتوبر حضر اجتماع مجلس الطبقات

في بلوا ولكنه عاد إلى بوردو في الوقت المناسب للنجاة من التورط في تقلبات
هنرى الثالث عقب اغتيال الدوق جيز .

وفي آخر مقالاته وأروعها « في التجربة » أورد وصفاً لانهلال جسده .
فاسنانه مثلاً وصلت فيما يبدو إلى « النهاية الطبيعية لبقائها (١١٤) » . وهو يحتمل
« انطلاقه » دون مرارة ، فلقد عاش حياته كما رسمها ، واستطاع أن
يكتب في فخر : « راجع العالم القديم كله ، نجد مشقة في اختيار اثني عشر
رجلاً وجهوا حياتهم في مجرى واحد . . . مستقر ، أكيد . وهو أجمل
توجيهات الحكمة (١١٥) » . فلما أنبىء بقرب منيته ، جمع أهل بيته وورثته
من حوله ، وأعطاهم بشخصه المبالغ أو الأشياء التي أوصى لهم بها في وصيته .
ثم تناول أسرار الكنيسة في تقوى رجل لم يكتب قط كلمة شك أو ارتياب .
ومات في ١٣ سبتمبر ١٥٩٢ بالغاً من العمر تسعة وخمسين عاماً .

وانتشر تأثيره طوال قرون ثلاثة وعمّ قارات أربعة . وقد قبل ريشليو
في ابتهاج إهداء الأنسة جورنيه إياه طبعه « المقالات » الأخيرة . وفي تاريخ
مبكر (١٦٠٣) ، نسقها صديقه وتلميذه شارون في فلسفة شكلية منتظمة
وجعلها فلوريو من عيون الأدب الانجليزي (١٦٠٣) ، ولكنه غتبى
بساطة المؤلف وإيجازه بالاطناب المفرط في التفقه . ولعل شكسبير رأى تلك
الترجمة فأعانته على تشكيل شكوكية مآسيه الكبرى وصوغ عباراتها ، وقد
سجلنا من قبل ديونا يدين بها لمونتيني . وربما كان بن جونسون يعنى
شيكسبير حين آتهم الكتاب الانجليزي بالسرقة من مونتيني (١١٦) . وقد شعر
ببكون بذلك التأثير ، ولعل ديكارت وجد في « المقالات » الحافز لشككه
العام الأول . أما بسكال فقد أشرف على الجنون وهو يحاول انقاذ إيمانه
من تشكيكات مونتيني . ومن مونتيني ابثق بيل . وفوفنارج ، وروسو ،
وديدرو ، وفولتير — أما روسو فن اعترافات مونتيني ومقالاته « في
التعليم » و « في أكلة لحوم البشر » ، وأما فولتير فن باقى أعماله كلها .
لقد كان مونتيني جسداً حركة التنوير كما كان بيل أباه . وقالت مدام

دو ديفان ، أقل نساء جيلها اللامع أوهاما ، ان بودّها أن « تلقى في النار جميع مؤلفات الفلاسفة الضميمة إلا موزيني ، الذي هو أبوهم كلهم (١١٧) » . وبفضل مونتيني دخل تحليل العقل والخلق النفسى إلى الأدب الفرنسى ، من كورنيي وموليير ، ولاروشفوكو ولابروير ، إلى أناطول فرانس . أما ثورو فقد نهل الكثير من هذا المورد ، كذلك استحم فيه إمرسون قبل أن يكتب « مقالاته » . ويمكن أن نقول في مونتيني مالا يصدق إلا على قلة من المؤلفين قبل القرن الثامن عشر ، وهو انه مقروء اليوم كأنه كتب بالأمس .

وتبين العالم عيوبه واغفرها له منذ زمن طويل . وقد اعترف بالكثير جداً منها حتى لقد استنفد أسلحة نقاده . كان عليا بأنه ثرثار مغرور ، وقد يصيبنا الأعياء حيناً بعد حين من شواهد الكلاسيكية ، ونقع لحظة في ذلك الحكم الظالم الذى أصدره المبرانش على « المقالات » إذ زعم أنها « ليست إلا نسيجاً من النوادر التاريخية ، والقصص الصغيرة ، والكلمات الطريفة ، والأشعار ، والأقوال المأثورة » التى لا تدل على شيء (١١٨) . وما من شك في أن مونتيني يخلط بسماعته في فوضى وكسل خلطاً يقلل من تأثيرها ومغزاها ، وهو يناقض نفسه في مائة موضوع ، فهو لا بد إذن مصيب ، لأنه يقول كل شيء ونقيضه . وفي الشكوكية الشاملة شيء يبتلى المرء بالشلل ، فهى تحفظنا من قتل الناس باللاهوت ، ولكنها تثبطنا بما تسبقنا إليه من حجة وتستنزف جسدنا . ونحن نتأثر بمحاولة يسكال اليائسة أن ينقذ إيمانه من مونتيني ، تأثراً أعمق من تأثرنا برغبة مونتيني في ألا يكون له إيمان على الإطلاق .

بيد أننا لا نستطيع أن نضع قلوبنا في نقد كهذا ؛ فهو لا يقطع إلا مؤقتاً تلك الهبة التى نجدها في الثقافة الضاحكة ، والفكر المرح المنبعث من هذا الثرثار الذى لا يمكن إسكاته وفي تفكيكه السريع . فأين نجد مرة أخرى مثل هذا المركب المفعم بالحياة ، مركب الحكمة والفكاهة ؟ ان بين هاتين

الصفتين شها دقيقا ، فكلتاهما منبثقة من رؤية الأشياء في أوضاعها الصحيحة ، وهما في مونتيني تصنعان رجلا واحداً . أما ترثرته فتعوضها طرافته ووضوحه ؛ وليس هنا عبارات ناصلة اللون ، ولا يخف طنان رنان . ثم إننا مللنا اللغة التي يستعملها أصحابها لإخفاء الفكر أو إخفاء انعدامه ، بحيث نستطيع أن نغتفر الأناثية في هذه الكشوف عن النفس . ويدهشنا من هذا المحدث اللطيف معرفته الحميمة بقلوبنا ، ويرى عنا أن نجد حكماً مثله يشاظرنا أخطائنا ، ثم يتفرها لنا في غير تردد . ومن بواعث الغراء أن نرى انه هو أيضاً يتردد ولا يعلم علم اليقين ، وبهيجنا أن يقال لنا ان جهلنا — إذا أدركناه — يصبح فلسفة . ثم ياله من تفريج أن نصادف ، بعد مذبحه القديس برتلميوس ، رجلاً لم تبلغ به الثقة بالعقيدة حداً يكفي لحمله على القتل !

وأخيراً ، وبرغم هجومه على العقل ، ندرك أن مونتيني يبدأ في فرنسا عصر العقل كما بدأه بيكون في إنجلترا . إن مونتيني ، ناقد العقل ، لم يكن شيئاً إن لم يكن هو العقل ذاته . وبرغم كل انحناءاته للكنيسة ، فإن هذا اللاعقلاني كان عقلانياً . ولم يرتض الطاعة إلا بعد أن بذر بذور العقل في فكر فرنسا . ولما كان قد حاول كي يكون أن يفعل هذا دون أن يقلق إيمان الفقراء المعزى ، فوجب ألا نأخذ حيطة أو ترفقه حجة عليه . إنه لم يخلق ليحرق . فلقد علم أنه هو أيضاً قد يكون مخطئاً ، ولقد كان رسول الاعتدال كما كان رسول العقل ، وكان فيه من النبيل الكثير ما منعه من أن يشعل النار في بيت جاره قبل أن يوفر له ملجأ آخر . لقد كان أعمق من فولتير ، لأنه تعاطف مع ما هدم .

وفي تقدير جيبون أنه « في أيام التعصب تلك لم يكن سوى رجلين متحررين (يدينان بأفكار حرة سمحة) في فرنسا : هنري الرابع ومونتيني^(١١٦) » . أما سانت — بوف ، فبعد أن نظر إلى مونتيني نظرة غير

متعاطفة خلال عيني بسكال (١٢٠) ، ختم حديثه بأن حكم ، في نوبة نادرة من الحساسة ، بأنه « أحـ من عاش من الفرنسيين قاطبة (١٢١) » .

٤ - خالدين يوما واحداً

بعد مونتيني اعتمد الأدب الفرنسي على مجذافيه جيلاً بأكمله . لقد أفلح تقريباً في النجاة من الحروب الدينية، فأخفى نفسه في نفسه حتى جاوزت الحروب . ولكن في غير مونتيني ابتلى الأدب في فرنسا بالحمى الحربية اللاهوتية ، وبين مونتيني وكورنيي تخلفت فرنسا عن إنحلتها وأسبانيا في الأدب ، تماماً كما تخلفت إنجلترة عن فرنسا بعد الحرب الأهلية . وعمرت سماء الأدب سلسلة من الشهب الغازية التي لم تخلف وراءها نجوماً ثابتة . وقد حاول ريشليو أن يغذو النبوغ بالرواتب ، ولكنه عطله بالرقابة وأغراه بمديحه . فلما مات ألغى لويس الثالث عشر هذه الرواتب بحجة قلم ، « لن يزعجنا هذا الأمر بعد اليوم » ، وكان أكثر حفزاً للأدب تلك السهرات الأدبية في الاوتيل درامبويه . وإنشاء ريشليو للأكاديمية الفرنسية .

بدأت الأكاديمية باجتماعات للادباء والمؤلفين في بيت خاص - هو بيت فالنتان كونرارا ، وكان سكرتيراً للملك (١٦٢٧) . وعرض ريشليو ، وهو اليقظ للأدب يقظته للحرب ، الغيور من أكاديميات إيطاليا وأدب أسبانيا ، أن يؤسس الجماعة بوصفها هيئة عامة تعترف بها الدولة . وعارض بعض الأعضاء الخطة باعتبارها رشوة للسنية ، ولكن الشاعر شابلان (الذي كان يتمتع بمعاش من الكردينال) ذكرهم بأن « عليهم أن يتعاملوا مع رجل يمضي فيما يريد دون تردد (١٢٢) » . وانتصرت حيلة شابلان ، وقررت الجماعة بالاجماع أن « تستجيب لمسرة نيافة » ، وانشئت (١٦٣٥) باسم « الأكاديمية الفرنسية » وقد أعلنت قوانينها ما يأتي :

« يبدو أنه لا يبق لا كمال سعادة المملكة إلا أن تحذف هذه اللغة التي تكلمها من قائمة اللغات الهمجية ... حتى ينسى لها ، وهي اليوم أكمل

من أى لغة حية، أن تخلف أخيرا اللاتينية كما خلفت اللاتينية اليونانية لو أتيح لها من العناية أكثر مما تلقى إلى اليوم ؛ وإن وظيفة أعضاء الأكاديمية ينبغي أن تكون تنقية اللغة من الشوائب التى شابتها سواء فى أفواه الناس أو فى حشود المحاكم ... أو بفعل عادات رجال الحاشية الجهلة » (١٢٣) .

وعهد إلى أحد الأعضاء الثلاثين الأول ، ويدعى كلود فوجلا ، بتصنيف قاموس ؛ وكان لا بد أن ينقضى ستة وخمسون عاما قبل أن ينشر لأول مرة (١٦٩٤) . ورفعت الأكاديمية أثناء ذلك مكانة الأدباء بشكل ملحوظ ، فأصبح انتماء انسان إلى « الخالدين » الأربعين (عدددهم عام ١٦٣٧) شرفا يضارع شرف المناصب الحكومية العليا ؛ ولم تكرم أمة الأدب كما كرمته فرنسا . صحيح أن الأكاديمية ، وأكثر أعضائها شيوخ ، كثيرا ما كانت كايحا محافظا يعطل التطورات الأدبية أو النمو الدنيوى . وكانت بين الحين والحين توصد أبوابها فى وجه العبقرية (مولير وروسو) ؛ ولكنها رفعت رأسها فوق الأحزاب ، وعلمت أعضائها أن يتسامحوا بأدب مع مختلف الأفكار ؛ وقد كافأتها فرنسا باستقرار ثبت لصدمات التغير فى الوقت الذى تهاوى فيه الكثير .

بعد أن جمع ريشليو الشعراء والأدباء وسيج من حولهم ، نظر بعينه البقطة إلى الصحفيين . ففى مايو ١٦٣١ بدأ تيوفراست رينودو ، بمعونة من الكردينال ، نشر أول صحيفة فرنسية سميت فيما بعد « غازيتة فرنسا » . وكانت تظهر أسبوعيا فى هيئة فرخ يطوى ثمانى صفحات ، وتنشر من « الأنباء الرسمية ما يسمح به ريشليو أو يمدحه به ، وأضافت بعض صفحات من « الأخبار العادية » . وكان لويس الثالث عشر من كتابها المؤلفين . ورد فيها على ناقدى الحكومة ودافع عن نفيه أمه ، وكان أحيانا يأخذ الفقرات التى يكتبها بشخصه ليشراف على صف حروفها ، ولا عجب فالمرء - حتى إذا كان ملكا - يستهويه أن يجد كلامه مطبوعا . وكانت الصحافة الفرنسية منذ بدايتها أداة دعاية - وفى هذه الحالة وسيلة لشرح سياسات

الدولة للقلة القارئة . وسرعان ما فقد الناس ثقتهم في الغازية وقضوا أن يشتروا الوريقسات البديئة التي يبيعها في الطرق أجراء أعداء الكردينال .

أما أروج نتاج العصر الأدبي فقصة رومانسية . كانت روايات الفروسية آخذة في الزوال ، لا لمجرد تهكم سرفانتيس وغيره من الكتاب عليها ، بل لأن الاقطاع الذي خضع الآن للملكية ، كان يفقد المزيد من امتيازاته ومكانته . وحل محل قصص الفروسية أيام الزمان روايات رومانسية أليمة عن الرغبة المعوقة . وهكذا قرأ كل من ألم بالقراءة وملك الفراغ في عهد لويس الثالث عشر رواية « آستريه » (١٦١٠ - ١٩) التي ألهاها أونوريه دورفيه . أما عبقرية المؤلف فانبعثت من جرح أصاب حبه . ذلك أن زوجته ، التي سميت ديانا بحى ، آثرت عشرة الصيد على عشرة الزواج ، فكانت تواد كل كلابها على مائدتها وتشاركها فراشها . وكانت تجهض كل سنة (١٢٤) . واعتكف أونوريه في ضيعته واخفى سيرته الحزينة وراء رواية رومانسية رعوية . وقد وجد دواء الكلام هذا ناجعا ، فزاد روايته إلى ٥٠٠ ر ٥ صفحة في خمسة مجلدات صدرت على فترات من ١٦١٠ إلى ١٦٢٧ . وفي قصة غرام الراعى كيلادون بالراعية آستريه نسمع صدى لانهية له لقصة مونتمايور « ديانا العاشقة » وقصتي مانازارو وسبني « أركاديا » ، ولكن الصدى كان هنا شجيا ، وكان للرعاة والراعيات كل جمال البلاط الفرنسي وزينته ، وحقت اللغة كل مطالب ندوة الأوتيل درامبويه ، وناfst تجارب العشق المتنوعة تجارب هنرى الرابع ، وابهجت عبادة المرأة ربات الصالونات اللأفى جعلن الكتاب دستور سلوك للحب الأفلاطونى . هنا ذلك الينبوع الفوار الذى جرت منه الرومانسيات العاطفية التى كتبها الآنسة سكودرى ، والأبيه بريفوست (انطوان بريفوست دجسيل) ، وصموئيل رتشاردسون ، وجان جاك روسو - الذى صرح بأنه كان يقرأ الكتاب مرة كل عام طوال أكثر حياته . وظل سادة القصور الفرنسية

والألمانية والبولندية وسيداتهما ، قرابة قرن من الزمان ، يتخذون أسماء « لاستريه » ويلعبون أدوارها ، وكرس نصف النثر المكتوب في فرنسا نفسه للرومانس .

أما النصف الآخر فاشتمل على بعض النثر الحدير بالذكر . فكانت « رسائل » جان لوى جى دبالزاك « (١٦١٤ وما بعدها) في حقيقتها مقالات ، قصد بها أن تعجب « المتحذلقات » ، وشاركت فوجيلا وماليرب في تنقية اللغة ، وساعدت على إعطاء النثر الفرنسى شكل العصر الكلاسيكى ومنطقه ... أما بيير ديوردي دبرانتوم ، الذى عاش حياة مرحلة في الجيش والبلاط ، فقد ترك عند موته (١٦١٤) حزمة من المذكرات تفصل في ذوق غراميات النساء الفرنسيات ، وفضائل كاترين مديتشي ، وجمال ماري ستوارت ، وظرف مارجريت فالوا ؛ ومن المؤسف أن أروع قصصه لا يمكن التحقق من صحة نسبتها إليه . وكان يرى « أنه لا يحسن بالمرء أن يشيخ وهو في ذات الجحر ، وما من إنسان شجاع فعل هذا قط ، وعلى المرء أن يغامر بجرأة في جميع النواحي ، في الحب كما في الحرب » . وفي لحظة أكثر حكمة اعترف بأن « أعظم ما ينعم الله به علينا في زواجنا هو الذرية الصالحة لا التسرى » ... وأما جاك أوجست دتو ، القاضى ومستشار الدولة أيام صديقه هنرى الرابع ، فقد ساعد في صياغة مرسوم نانت والمفاوضة على إصداره ، وكرس نصف حياته لكتابة « تاريخ عصره » (١٦٠٤-٨) ، وهو كتاب يتميز بعمق الدرس ، وبالحياة والشجاعة في دمع مذبحة القديس برتلميو لأنها « تفجر للجنون لا نظير له في تاريخ أى أمة » . . . وألف اللوق صلي ، في شيخوخته وبمساعدة سكرتيره ، كتابه المشهور « مذكرات عن الاقتصاديات الداخلية والسياسية والحربية ، الحكمة ، الملكية ، لهزى الأكبر ، الذى أهدها « إلى فرنسا ، إلى جميع الجنود الطيبين ، وإلى جميع الشعب الفرنسى » . وفي آخر سنى لويس الثالث عشر بدأت جماعة من اليسوعيين الفلمنكيين يزعهم جان دبولان نشر كتاب « اكنا سانكتورم »

(أعمال القديسين) الذى أورد فى نقد حذر سير القديسين حسب الترتيب الذى تخلدهم به الكنيسة الكاثوليكية . وتابعت الجماعة هذا الجهد فى حماسة على الرغم مما اعترى جمعية اليسوعيين من غير ، حتى بلغت مجلدات الكتاب خمسة وستين عام ١٩١٠ . واحتج عليه بعض مروجى الأساطير ، ولكن الكتاب مفخرة لعلم أعظم الطوائف الدينية تفقها . وأخيراً يجب أن ندرج فى هذه القائمة للمرة الثانية ذلك الرجل المدهش كلى الوجود ، ريشليو ، الذى غمس قلمه فى كل ينبوع أدبى وترك لنا « مذكراته » — وفيها شئ من التحيز للكردينال ، ولكن مكانها رفيع فى ذلك الرتل الرائع من المذكرات الفرنسية التى لا ضريب لها فى أى لغة أخرى .

ولم يكثر صغار الشعراء مثل هذه الكثرة من قبل . فما زال الفرنسيون الأوفياء يقرءون ، ولو فى المدارس ، تيوفيل دفيو ، وفنسان فواتور ، وأونورا دوبويل ، مركيز راكان . وقد جعلت غراميات تيوفيل الإباحية وشكوكه الفاضحة منه « فيون » عصره ، وقد حكم عليه بالحرق ثم خفف الحكم إلى النفى . أما ذكاء فواتور المرح فقد جعله أكبر ظرفاء الأوتيل درامبويه (وقد أوشكنا أن نقول أكبر ساخره) . وحين وعظ بوسويه وهو بعد فى الثانية عشرة من عمره فى ذلك الصالون فى منتصف الليل ، قال فواتور أنه لم يسمع فى حياته عظة تلقى مبكرة متأخرة كهذه .

وشرف هذه الجهود الملكية شاعران كبيران . أما فرانسوا ماليرب فقد شرح المبدأ القائل بأن واجب كل عصر أن يرفض الماضى ويعكسه لى يستمتع بنفسه . وكانت رونزار العظيم لا يزال يغنى فى شباب ماليرب ، وكان هو وجماعة البلياد قد هذبوا الشعر الفرنسى بتوجيه صوب المثل والموضوعات الكلاسيكية ، ولكن خلفاءهما كانوا الآن يهددون فرنسا وخيلاتهم بسونيتات حافلة بالألفاظ الأثرية ، والعبارات الخيالية ، والشطحات الإيطالية ، والتقديمات والتأخيرات السقيمة ، والتلميحات الغامضة ، والأساطير العويصة . واستقر رأى ماليرب على أن الشعر الفرنسى قد أنجم بهذا كله .

وفد درس هذا الشاعر ، الذى ولد فى كان (١٥٥٥) ، فى بازل وهابيدلبرج ، وأنفق سنوات ^{١٢٥} سفار ، وكان قد بلغ الخمسين حين وصل إلى البلاط الفرنسى . وقد شق طريقه إليه برغم وقاحاته وكفرياته ، وأصبح الشاعر الأثير لدى هنرى الأكبر ، ولكن هذا على أى حال أعطاه « من التحيات أكثر مما أعطاه من المال (١٢٥) » . وعاش يبيع شعره لمن يدفع فيه أغلى الأثمان ، وروج لبضاعته بالإطاحة بمن سبقوه . فقد أعلن الحرب - كما أعلنتها متحذلقات صالون رامبويه - على الألفاظ التى تشتم منها الخلافة الريفية أو عمليات البسدن الأقل شاعرية ؛ فحرم التقديرات والتأخيرات ، والألفاظ الغامضة ، والتعابير العامية ، والكلمات الريفية والعسقونية (شق هذا على الملك) والحشو ، وتنافر النغمات ، واللحن ، والدخيل واللاتينى والفنى من الألفاظ ، والجواز الشعري ، والقوافى الناقصة . وقال إنه يجب أن يكون منذ الآن جلال فى الأفكار ، وبساطة ووضوح فى التعبير ، وتوافق فى الإيقاع ، واتساق فى الاستعارات ، وترتيب فى العرض ، وسطق فى العبارة . والكتابة الجيدة يجب أن تذر غيرها وأن ترتاح لها الأذن ، والتقاء الحرفين الصوتيين جريمة سمعية ، ومرض تنفسى . وكان ماليرب يجرب أشعاره على آذان خادمه (١٢٦) .

فلنستشق عبر إحدى قصائده - وهى « تغزية » ، وجهها لصديق فجع بموت ابنته :

« ولكنها كانت ربيبة هذه الدنيا ، حيث تنتهى أجمل الأشياء أنعس نهاية . وردة عاشت كما تعيش الورود ، إشارة صبح . . . ان للموت أحكاماً لا شبيه لها ، وعبثاً نتوسل إليه ، فهذا القاسى بصم أذنيه ويتركنا نصرخ . يخضع لنا موسى الفقير فى كوخه الحقيق ، ولا يقف الحارس الساهر على أبواب اللوفر سداً بينه وبين ملوكنا (١٢٧) » .

على أن تطبيق ماليرب كان أقل فاعلية من مبادئه ؛ وعانت أشعاره يرودة الصقيع من قواعده ، ولم ير جى دبالزك فى شعر ماليرب إلا نثراً

جيداً ، وكان يحاول في ذلك الوقت إصلاح النثر . ولكن الأوتيل دارمبويه احتضنه ، واعتنقت الأكاديمية مبادئه ، وورثها بوالو أساساً للأسلوب الكلاسيكي ، وقد أصبحت مدى قرنين قيصاً مقدساً صارماً من شعر وزرد يلبسه شعراء فرنسا الغنائيون . وانتفخ ماليرب في شيخوخته حتى أصبح إماماً حقيقياً للشعر ، وحجة يستفتى في مسائل اللغة والأسلوب ؛ وحياء بعض المعجبين بوصفه « أبلغ إنسان في جميع العصور » . وقد وافق على أن « ما يكتبه ماليرب سيخلد إلى الأبد (١٢٨) » . وحين كان على فراش الموت (١٦٢٨) أيقظ نفسه من غيبوبته الأخيرة لبوبنخ ممرضته على استعمالها فرنسية غير سليمة (١٢٩) .

أما ماتوران رينييه فقد رأى فيه شاعراً مملاً ، وتجاهل قواعده ، وأطلق الشعر كما أطلقه فيون بخارا مندفعاً من حر المواقير . هذا الرجل الذي نذر للقوسية ضيع نفسه في فينوسبرج حتى شاخ ، وشاب قرناه وهو بعد في شرح شبابه . ففي الحادية والثلاثين عجزه النقرس والزهرى . وكان لا يزال يجد « كل امرأة تروقني » ، ولكن كن أكثر منه تأثقاً في الاختيار . وقد كتب بعضاً من أقوى الشعر في اللغة ، فيه حديث مستهتر عن الجنس ، وهجو وحشي ، ومباراة مع هوراس في الشكل ومع جوفينال في المראה ، وحركة تزخر بالأشخاص أو الأماكن بما يحس أو يرى . وقد هزأ بصفاية « المتحذلقات » اللغوية وصرامة ماليرب الكلاسيكية ، وبدا له أن الحرية المشبوبة من شعلة باطنة أهم للشعر من التمسك بأصول النحو والبلاغة والعروض . هنا في فجر العصر الكلاسيكي نشطت الرومانسية . وحى العلم والفلسفة نالاً من ما يستحقان من قصاص وتوبيخ على تبجحتهما :

« أيها الفلاسفة الخالمون ، تكلموا في استعلاء ، وحلقوا في النجوم وأنتم لا تتحركون من الأرض ، واجعلوا السماوات كلها ترقص على لحنكم ، وزنوا أحاديثكم في ميزانها . . . واحملوا مصباحاً في زوايا الطبيعة . . . واعرفوا من يعطي الزهور هذا اللون البديع . . . وحلوا ألغاز الأرض

والسماء ، إن عقليكم يخدعكم كما تخدعكم عيونكم (١٣٠) » .

وفي عام ١٦٠٩ أصبح شاعر البلاط لهنرى الرابع . وبعد أربع سنوات مات وقد أضناه فسقه المشجى ، بعد أن كتب قبريته . « لقد عشت دون ما تفكير ، تاركاً نفسى أسير فى رفق ووفق قانون الطبيعة الطيب ، ولا أدرى لم يفكر الموت فى ، وأنا الذى لم أتنازل إلى التفكير فيه (١٣١) » .

٥ - بير كورني : ١٦٠٦ - ٨٤

كان بير كورني نجم الأدب فى سماء ريشليو ، فى صحبته أصبحت التمثيلية الفرنسية أدباً ، وأصبح الأدب الفرنسى قرناً من الزمان تمثيلية فى أكثره .

وقد مهدت له الطريق تجارب كثيرة . فى عام ١٥٥٢ أخرج إتيين جوديل أول مأساة فرنسية . وتلتها تمثيلات مشابهة تقلد سنيكا ، وتقوم كلها على طريقته فى قصص العنف ، والدراسات النفسية ، وتدفقات البلاغة ، وقد جردت من الخورس الكلاسيكى ولكنها حشرت فى وحدات أرسطو المزعومة ، وحدة الحركة المعروضة على أنها تحدث فى مكان واحد وزمان يوم واحد . ولكن أرسطو (كما رأينا فى غضون نقاشنا للتمثيلية الاليزابيثية) كان قد اشترط وحدة الحركة أو الحبكة ، ولم يطلب وحدة المكان ، ولم يصّر على وحدة الزمان . غير أن كتاب العالم جوليوس سيزار سكاليجر Poetices libris septem « الكتب الشعرية السبعة » (١٥٦١) طالب جميع الكتاب المسرحيين باتباع القوالب اليونانية واللاتينية ، وكرر جان شابلان هذا الطلب عام ١٦٣٠ . هذه الحجج التى تهاوت فى انجلترا أمام عبقرية رجل علمه باللاتينية قليل وباليونانية أقل ، انتصرت انتصاراً كاملاً فى فرنسا وريثة اللغة والثقافة اللاتينيتين ، وبعد عام ١٦٤٠ سيطر القالب السنيكى ذو الوحدات الثلاث على مسرح المأساة الفرنسية خلال كورني وراسين ، وخلال فولتير والقرن الثامن عشر ، وخلال الثورة ،

والإمبراطورية ، وعودة الملكية ، إلى أن كسبت الدراما الرومانزيكية في مسرحية هيجو « ايرنانى » (١٨٣٠) نصرها التاريخى المتأخر .

لم يكن للمسرحية الفرنسية وطن ثابت فى القرن السادس عشر ، فكان عليها أن تربي نفسها فى الكليات وتطوف من بلاط إلى بلاط ، ومن صالة إلى صالة . وفى عام ١٥٩٨ أنشئ أول مسرح فرنسى دائم فى الأوتيل دبورجون بشارع موكونسي . وفى عام ١٦٠٠ افتتح « التياتر دى ماريه » فى ما هو اليوم شارع « التاميل » القديم . وفى المسرحين كان الشكل قاعة طويلة فى الوسط ، حيث كانت الطبقات الأقل يسرا تقف ، وتاكل ، وتشرب ، وتقامر ، وتشاجر ، وتشاهد التمثيل وتحرس جيوبها ، بينما صفت على الجدران صفان من الألواح يجلس فيها السادة الميسورون . وقبل عهد ريشليو لم يكن يحضر المسرحيات من النساء غسبر من لا يملكن شيئاً يخشين على فقده . أما المسرح الذى كان مرفوعاً عند أحد طرفى المستطيل فقد بعد عن نصف المشاهدين بعداً جعل تمثيل الفكر أو الشعور بتعبيرات الوجه أمراً عديم الجدوى تقريباً للممثلين ، لذلك شجعوا الخطابة التى تستطيع الوصول إلى أبعد الآذان . وكانت الحفلات تقام بعد الظهر ، من الخامسة إلى السابعة عادة ، واشترط القانون أن تنتهى قبل حلول الظلام ، لأن المسرحين كانا يقعان فى أحياء خطيرة من المدينة . أما الممثلون فكانوا قبل مولير يستقدمون عادة من إيطاليا وأسبانيا . وكان النساء يؤدين أدوار المرأة . وفرضت الحاجة إلى الدخول الاتكاء الجرىء على الجذس فى التمثيلات الفكاهية . وحاولت الكنيسة والبرلمان عبثاً تنقية المسرح الفكاهى أو حظره . ونهض ريشليو بالمستوى الخلقى للدراما الفرنسية ببسط حمايته وإشرافه على بعض كتابها ، وبحضور الحفلات التمثيلية بشخصه ، وبالتعاون مع روترو ، وسكارون ، وغيرهما فى تأليف التمثيليات . وهكذا ، وتحت بصره الشامل ، مهد أسلاف كورنبي - وهم جارنييه وآردى وروترو - الطريق للنجاح التاريخى الذى حققته مسرحية « السيد » .

لدى كورني ما يلقاه كل مكافح في طريقه إلى التفوق من تقلبات . ولد في روان (١٦٠٦) ؛ وعوقته نشأته في عاصمة اقليمية بمنأى عن حوافر باريس وفرصها الأدبية ، ولكن أباه كان قاضياً نابها استطاع أن يوفر لبيير أفضل ما أتى من تعليم في كلية اليسوعيين المحلية . وقد استخدم هؤلاء المربون الغيورون المسرحية أداة للتعليم ، وعلموا الطلاب أن يمثلوا باللاتينية مسرحيات كلاسيكية وغيرها ، وقد أثر هذا التقليد اليسوعي في المسرحية الفرنسية موضوعاً وتقنيةً وأسلوباً . وبالطبع لم يقصد أحد ببير أن يكون كاتباً مسرحياً ، فقد نشأ في القانون ومارسه فترة ، ولعل فن الفصاحة القانونية واعتياده عليها شاركا في صوغ البيان الذي يجمل في مآسيه .

وحين ناهز الحادية والعشرين وقع في غرام المرأة والشعر في وقت معاً تقريباً ، ولكن السيدة صدته ، فوجد ملاذه في القوافي . وقد خالف الجرح فيه اكتئاباً وإحجاماً دائمين ، فثل بالمداد المسرحيات التي حرمت على دمه . وانقضت إحدى عشرة سنة قبل أن يجد له زوجة (١٦٤٠) - ولم يجدها إلا بمساعدة من ريشليو ، ولكنه خلال ذلك تصور العدد الكبير من مآسي أو مهازل فيها تودد المحبين أو شهامة الأبطال . وفي عام ١٦٢٩ حمل إلى باريس أولى تمثيلاته « مليت » ، فثلت في الأوتل دبورجون ، وكانت رباعية صنيعة من الحب والدسيسة ، ولكن حوارها المفعم بالحياة أعانها على النجاح ، واصطلى كورني في دفء الشهرة . وكلفه ريشليو هو وأربعة غيره بكتابة تمثيليات في موضوعات وبطرق اقترحها الكردينال . غير أن كورني أدخل على هذه الخطة الموضوعة له تعديلات في استقلال كثير . وعبس « صاحب النياقة الأحمر » ، فانسحب كورني غاضباً . لى روان ، ولكنه ظل يتسلم من ريشليو معاشاً قدره خمسمائة كراون في العام .

وحركه وجرح كبريائه نجاح مأساة « سوفونيسب » التي كتبها ميريه ، فهجر التمثيلية الفكاهية ، ودرس سنيكا ، وحمل إلى باريس عام ١٦٣٥ .

تمثيلية « ميديه » . هنا ظهرت صفاته الجوهرية لأول مرة — وهى قوة الفكر وسمو الحديث . وراح منذ الآن ، مع بعض الاستثناءات ، يملأ مسرحه رجال ونساء رفيعى المقام ، ويضئ عليهم العواطف الرفيعة التى يعرب عنها فى لغة جزلة وحجة قوية . وحين استمع وولر ، الشاعر الإنجليزى المعاصر ، إلى « ميديه » نادى به إماما جديداً ، « فغيره ينظم الشعر . ولكن كورني هو الوحيد الذى يستطيع أن يفكر » (١٣٢) . — واسمى ضروب الفن ما أشرب بالفلسفة . ومن مسرحية الرومان واليونان الملحمية ، ومن معلميه اليسوعيين ، ومن تأملاته الحريئة الموحشة — هذه الأبيات الجليلة ، السداسية التفاعيل ، تزحف زحف الجيش فى أحلامه — بلغ كورني مستوى من الفكر والأسلوب لم يعهد قط فى التمثيلات الفرنسية من قبل . وندر أن عرف بعده .

يضاف إلى هذا أدب درامى آخر اجتذبه وشكله . إنه لم يستطع أن يستقى من المرح الاليزابيثى غير القليل ، لأن هذا المسرح أغفل التواعد الكلاسيكية أغفالا لا يناسب قالباً كلاسيكياً . ولكن أسبانيا كانت فى هذا العصر مجنونة بالمسرح ، تغدق التكريم على لوبى دى فيجا وتيرسو دى مولينا وكالديرون دى لباركا كأنهم الورثة الأكفاء الوحيدون لسوفوكليس . وبوريديس ، وتيرينس وسينكا . وفى المسرحية الأسبانية وجد كورني موضوعاً درامياً بطبيعته — قانون الشرف أو العرض ، الذى فرض الموت جزاء لكل إهانة أو إغواء . فتعلم الأسبانية ، وقرأ « مغامرات السيد » لجليين دى كاسنرو (١٥٩٩ ؟) ، واستعار الحكمة دون اعتذار أكثر من اعتذارات شيكسبير ، وكتب أشهر تمثيلية فى الأدب الفرنسى (*) .

(*) السيد . وهى كلمة « السيد » العربية كان اللقب الذى لقب به المسلمون السيد رودريجو دياز البطل شه الأسطورى الذى اشترك فى حوالى عام ١٠٨٥ فى استرداد أسبانيا المسيح .

ومثلت السيد عام ١٦٣٦ . وشعر النظارة أنه لم يظهر على خشبة المسرح
الغالى بعد شيء بهذه القوة . قال معاصر « جميل جدا أنها ألهمت بالحب
حتى أكثر السيدات بزودا ، فتفجرت عاطفتهن أحيانا في المسرح العام .
وشوهد في الألوام ناس قل أن بارحوا قاعاتهم المذهبة ومقاعدهم المكسوة
بالزنبق شعار الملكية (١٣٣) » . ولم يعرف الكثيرون أن فكرة المسرحية
مستعارة مع أن كورني اعترف بهذا صراحة ، وتعجب الجميع من لطافتها
المتشابهة . فشيمن الفتاة العريقة المولد ، ورودريج النبيل ، عاشقان متيان .
ولكن أبا شيمن . وهو الدون جوميز ، يتشاجر مع والد رودريج ويسبه
وهو شيخ عليل ؛ ويتحدى رودريج جوميز للمبارزة ويقتله . وتشعر
شيمن ، وهى مبقية على حب رودريج ، بأن داعى الشرف يدعوا
لرجاء الملك فرديناند أن يقطع رأسه أو ينفية ؛ وهذا الصراع الذى يعمل
فيها بين « واجب الشرف » ودعاء الحب يضى على القصة وعواطفها
المتشابهة قوة وحدة فائقتين . أما رودريج فيقدم سيفه لشيمن ويدعوا
لقتله ، ولكنها لا تستطيع الانتهاء إلى قرار . فينطلق إلى محاربة المسلمين ،
 ويعود إلى إسبيلية وفي موكبه الملوك الأسرى وهالات الجند ، وتتغنى باسمه
لإسبيلية كلها ، ولكن شيمن لا تزال تطالب بموته . وحين يرفض
فرديناند ، تعد بأن تزوج أى رجل يتحدى حبيبها ويقتله . ويضطلع
سانشو بالمهمة . ويقترح رودريج أن يدع سانشو يقتله . ولكن شيمن
تندم على انتقامها ، وتتوسل إليه أن يدافع عن نفسه . فيهزم سانشو ،
ولكنه يبقى عليه ، وأخيرا يتم استرضاء قانون الشرف ، وتقبل شيمن
حبيبها ، وينتهى كل شيء نهاية سعيدة .

واحتفلت باريس طوال نصف موسم بحمال شيمن وناقشت سلامة
عقلها . وسمعت نغمات سياسية صاحبت النقاش . ذلك أن ريشليو حرم
المبارزات ، ولكنها تبدو فى التمثيلية جزءا من القانون الأعلى . أما النبلاء
الكارهون لريشليو فقد تهاوا لتثيل أرسنقراطية ما زالت تتولى العقاب

بنفسها . كذلك لم يسر الكردينال كثيرا لنجاح رجل توقف عن تلقي توجيهاته الأدبية ، فطلب إلى أكاديميته الوليدة أن تصدر نقدا منصفاً للتمثيلية ، ولم يكذب يخفي أمله في أن يكون الحكم ضدها . وأطالت الأكاديمية مناقشتها حتى تبدأ الأعصاب ؛ وأخيرا ، وبعد خمسة شهور ، نشرت رأيها ، وكان حكمها في جملة معتدلا منصفاً . فقد اعترضت على الاشادة الواضحة بالحب الرومانسي ، ورأت أن حل عقدة التمثيلية لا يحتمل التصديق ، ووجدت في كلمات شيمين الأخيرة لرودريج وهو ماض إلى قتال سانشو بعض الخلافة والغرور السخيف « عد ظافرا من قتال جائزته شيمين » . على أن هذا النقد لطفته الفقرة الختامية في حكم الأكاديمية تلطيفا جميلا :

« يجب أن يغتفر الناس ، حتى العلماء منهم ، بعض الاغترار شوائب . عمل ما كان يحظى بلهاج المجتمع إلى هذا الحد لولا ما فيه من مواطن جمال غير عادية وأن طبيعة عواطفه وعنفها ، وقوة الكثير من أفكاره ورقها ، والسحر الفائق الوصف الذي يمتزج بكل عيوبه — كل أولئك قد كسب له مكانا عاليا بين القصائد الفرنسية التي من هذا النوع (١٣٤) » .

ولم تتخذ الأكاديمية صفة القاضي الأدبي بعد ذلك إطلاقا . أما كورني فقد لطف من الموقف باهدائه تمثيلية « السيد » عند نشرها إلى ابنة أخت الكردينال المحبوبة ، ورائعته التالية « أوراس » (١٦٤٠) للكردينال نفسه ، وكان ليفي قد روى هذه الأسطورة في « تاريخه » . ففي اليوم ذاته ولدت أختان توأمان ، في مدينتين مختلفتين ، كل منهما ثلاثة توأم ذكور — أبو الأولين هوراتيوس في روما ، وأبو الآخرين كورياتوس في ألبا لونجا . وبعد جيل ارتبطت الأسرتان برباط أوثق ، وذلك بزواج ساينا ابنة كورياتوس ، بأوراس وهو ابن هوراتيوس ، وبجب كاميللا ابنة هوراتيوس لأحد توأم كورياتوس . ولكن المدينتين تنزلقان إلى الحرب ، ويلتقي جيشاهما وجها لوجه . أما ساينا وكاميللا فترتعدان في المعسكر الروماني ، وتحدد ساينا الموضوع النسائي الذي تردده التمثيلية .

« اننى وا أسفاه رومانية. ما دام أوراس رومانيا ؛ فقد اتخذت لقبه حين قبلت يده ، ولكن هذا الرباط سيسترقى لو حجب عن ناظرى مسقط رأسى - ألبا ، حيث بدأت أتنفس الحياة ، ألبا ، وطنى العزيز وحبى الأول ؛ اننى حين أرى الحرب تنشب بيننا وبينك أخاف النصر خوفاً من الهزيمة . فإذا شكوت يا روما من أن هذا خيانة لك ، فاصنعى لنفسك أعداء أستطيع أن أكرههم . فاقبلى وأنا أشهد من أسوارك جيشهم وجيشنا ، وأرى اشقائى الثلاثة فى جيش وزوجى فى الآخر ، أن أصوغ صلواتى وألح على السماء فى أن تسعدك دون أن يكون فى هذا خروج على الولاة (١٣٦) ؟ » .

وهكذا لا يعرض كورنبي موضوعا هو مجرد معركة سلاح ورجال ، إنما هو صراع الولاة المشبوبة ، ومأساة الحق يصارع الحق ؛ فإذا تلقى قلمه هذا الإلهام . انطلقت منه عبارات محكمة القوة ؛ وأبيات تسير بخطى عسكرية وأنغام مجلجلة .

أما قائد ألبا فيذكر الرومان بأنهم هم وأهل ألبا أبناء دم واحد ووطن واحد (أكان فى ذهن كورنبي الكاثوليك والهيجنوت ؟) ، وأن من الاجرام تلاميذ أوصال إيطاليا (فرنسا ؟) بالحرب الأهلية ، ويقترح إنهاء الحرب بنزال ثلاثة من أهل ألبا مع ثلاثة من أهل روما . ويقبل الاقتراح ، وتتاح للنساء ساعة من السعادة المرتجفة . ولكن قائد ألبا يختار توأثم كورياتوس الثلاثة ، ويختار القائد الرومانى توأثم هوراتيوس . وتبكي النساء ، ويرق الأبطال لحظة لدموعهن ؛ ولكن هوراتيوس الأب يوبخهم وهو يعلن الفكرة الرجولية ، لأنهم يضيعون الوقت مع النساء بينما يدعوهن داعى الشرف :

« أدوا واجبكم ، واتركوا الباقي للآلهة (١٣٧) » .

ولكن الآلهة تخطئ . فيقتل توأثم كورياتوس ، ولا يبقى عل قيد الحياة من توأثم هوراتيوس سوى أوراس . وتعنفه شقيقته كاميللا لقتله

تخطيها ، وتندد بروما وبناموس شرفها وحربها . فيقتلها وهو بعد سكران
منشوة المعركة لأنها ليست جديدة بأن تكون رومانية . وتوبخه زوجته ساينا
على قسوته ، وتبكي أشقاءها القتلى ، وتدعو أوراس ليقتلها هي أيضاً . أما
هو فيحاول اقناعها بأن الوطنية أسمى من الحب .

وفكرة التمثيلية بالطبع لا تصدق ، ولكنها في هذا لا تزيد عما في
شيكسبير . إن الدرامي بحكم تعريفه شاذ ؛ والمسرحية مقضى عليها إن هي
وصفت الواقع في غير تحيز . وهي ترتفع إلى مقام الفن إذا استطاعت
بتجاهلها ما ليس متصلاً بموضوعها واختيارها للمهم أن تزيدنا عمقاً بفهم
أكل الحياة . لقد ورث كورني تمجيد النهضة لروما القديمة ، وأيد المفهوم
الصارم للواجب أمام انحلالات الحب التي سيطرت على المسرح الفرنسي قبله ،
فصمم ألا يكون أبطاله عشاقاً أولاً ، بل وطنيين أو قديسين .

وقد اختار من التقويم الكاثوليكي قديساً يسيطر على تمثيلية أقوى حتى
من هذه . يقول سانت - بوف : « كل الناس يعرفون « بوليوكت » ،
ويعرفونها عن ظهر قلب » (١٤٨) . والبناء في هذه التمثيلية كلاسيكي على نحو
صارم ، إذ يتقبل الوحدات كلها ، ولكنه يبني داخلها مأساة معقدة ذات
قوة مركزة . ولا يصلنا اليوم سوى فصاحة التمثيلية في مكاتبنا ، ولكن
يجب أن نسمعها منطلقاً من أفواه الممثلين الفرنسيين يتحركون في جلال
على خشبة المسرح ، أو تحت النجوم في فناء الانفاليد أو اللوفر ، وحتى مع
توافر هذه الشروط يجب أن نملك ناصية الفرنسية وتكون لنا أرواح
فرنسية . ويجب أن نكسو أنفسنا من جديد بإيماننا الشاب . أما الحبكة
فتدور حول تصميم بوليوكت ، الروماني المثقف ، المعز بنفسه ، حديث
العهد باعتراف المسيحية ، على تحطيم مذبح الآلهة الوثنية . أما زمن التمثيلية
فهو الاضطهاد الديشي (٢٤٩ - ٥١ م) ، وأما مكانها فليتين ، وهي
عنقر أممي روماني في أرمينيا ، ومشهد الدراما كلها قصر فيلكس الوالي
الروماني . وقد دعى المسيحيون جميعاً ، مندرين بالموت عقاباً للمخالفين ،

أن يشتركوا في صلاة تنتظم الإمبراطورية بأسرها وقربان للآلهة القديمة طلباً لتأييدها للجيوش الرومانية ضد الهمج المغيرين المحدثين بها . ويشتمل بوليوكته بغيرة المؤمن المهتدى ، فيبغى بعمل مثير أن يشجع المسيحيين على مقاومة الأمر الإمبراطورى . ويعوقه عن هذا حبه لزوجته بولينى ، ابنة الوالى ، ولكنه يضغى بالحب في سبيل الواجب كما يفعل أبطل كورنى الصادقون . وفى حضرة فيلكس ذاته يقطع هو وصديق له الطقوس الوثنية ، ثم يناشدان العابدين أن ينصرفوا عن جوبيتر الفاجر إلى إله المسيحيين ، « الملك الواحد القهار للأرض والسماء » ، ولكى يفضحا «المسوخ العاجزة » التى يتألف منها مجمع الآلهة الرومانى يرتقيان المذبح ويحطان آنية الشعائر وتمثال جوبيتر . ويأمر فيلكس بالقبض على منتهكى هذه المقدسات . وتتوسل بولين إلى بوليوكت أن يتوب عن تدنيسه المعبد ، ولكنه يدعوها بدلاً من ذلك إلى اعتناق دينه الجديد . وتناشد بولين أباه أن يعفو عنه فبأنى ، وتجهر هى باعتناقها المسيحية وتستعد لمرافقة زوجها إلى الموت . ويتأثر فيلكس تأثراً يحمله على اعتزال منصبه واعتناق المسيحية . ثم ينهى الاضطهاد فجأة ، ويرد فيلكس إلى منصبه ، ولكن بوليوكت قاسى أثناء ذلك عذاب الاستشهاد .

وكل ما فى التمثيلية تحلية للتاريخ من قلم كورنى ، فيما عدا الاستشهاد وتدنيس المذبح ؛ كذلك هو خالئ وقاحة القديس المتعالية وعنف الفعل ، وحين قرأ المؤلف التمثيلية فى الأوتيل درامبويه ، أدا ن عدد من السامعين ، ومنهم أحد الأساقفة ، بوليوكت لخشونته وتطرفه فى غير ضرورة . وفكر كورنى حيناً فى وقف التمثيلية ، ولكن نجاحها على المسرح رفعه إلى أوج حياته الأدبية (١٦٤٣) . وبقي له فى أجله آنذاك واحد وأربعون عاماً سرى أنه أنفقها فى منافسة مع راسين ، ولكنه لم يؤت العلم بأنه قد كتب أعظم أعماله فى هذه المسرحيات الثلاث - بل يرى البعض أنها أفضل المسرحيات فى تاريخ المسرح الفرنسى كله . وهى تختلف عن الدراما

« الرومانسية ، التي شاعت في انجلترا الاليزابيثية أو فرنسا القرن التاسع عشر اختلافاً يقتضيها إعانة التاريخ بالخيال لتعليل سلطانها على زمانها وعلى مسرح اليوم . إن في كورني روجاً رومانسية أيضاً بقدر ما في شيكسبير ، وعواطف مدروسة بأكثر من عناية ديكارت ورهافته ، ولكن اتباع مثل العصر الكلاسيكية اقتضى إخضاع العواطف - على ما فيها من تعبير قوى - « للعقل » - أو للحجة . والإسراف في الحجج هو ثقل الموازنة لهذه التمثيلات ، بحيث قل أن تحلق التحليلات التي تكثر جداً في راسبين . أما الحركة فبعد عن خشبة المسرح ، فليس عليها سوى السرد ، والحض ، والفصاحة ، وكل شخص كورني محاجون بارعون . أما الفرنسيون فتلاشى في نظرهم هذه العيوب في بهاء الأسلوب وجلال الموضوعات . فإذا عن لنا في أى عمل فنى أن نلتمس السمو ، أو نبحت عن فكرة أو شعور يرفعنا فوق ذواتنا وزماننا ، وجدنا هذا مردداً في كورني . لقد كتب وكأنه يكتب للسلطة والفلاسفة ، ونظم أبياته وكأنه يلحن موسيقى ، وتحت عبارات ما زالت ملازمة للذاكرة فرنسا . وامتزجت الآن الروح الكلاسيكية والاستقرائية - روح العقل يكبح العاطفة ، والشكل يسيطر على المضمون - بضبط النفس الرواقى ، وبالشرف الأسبانى ، وبالذكاء الفرنسى ، ليخرج من هذا كله مسرح بعيد عن المسرح الاليزابيثى بعد السماء عن الأرض ، وهو مع ذلك ، بفضل راسبين وموليير أيضاً ، يعدله قيمة وتألقاً في تراث البشرية .

٦ - العمارة

أكان انتصار المزاج الكلاسيكى ملحوظاً في الفن كما في الأدب ؟ إنه يطالعنا في كل واجهة بناء فرنسى تقريباً في ذلك . لقد رمت بعض الكنائس القومية ترميماً قوطياً ، مثل كاتدرائية أورليان ، ولكننا نجد في الأكثر كنائس قديمة - كنائس سان جرفيز وسانت - إيتين - دومون -

زينت من جديد بواجهات من طراز النهضة . وقد نلاحظ في الكنائس الجديدة طرازا إيطاليا جديداً يعمها كلها ؛ وهكذا صمم جاك لومير سييه كنيسة السوربون على غرار كاتدرائية القديس بطرس — أعمدة ، وقواصر ، وقبة . ففي العمارة ، كما في الأخلاق ، والأدب ، والفلسفة ، أضفى الإحياء الوفنى على المسيحية وجهاً جديداً جريئاً .

وطوى تيار النهضة الكل حتى اليسوعيين ، وكانوا أسرع استجابة له لأنهم وهم طائفة دينية لم تقيدهم جذور من العصر الوسيط . ففي أجيالهم الأولى حين تزعمهم لويولا ولينيز ، كانوا مبشرين صارمين لا يخشون أحداً ، ومنافحين مخلصين عن المعتقد السليم والبابوات ، ولكنهم استبقوا قدراً من النزعة الكلاسيكية في مجمع ترنت ، وكما جعلوا الدراسات الكلاسيكية لب برامج التعليم في كلياتهم ، كذلك اختاروا في العمارة الواجهات الشبيهة بالكلاسيكية لأنهم معابدهم . ومن كنيستهم الرائعة في روما ، « كنيسة يسوع » ، حملوا طراز الزخرف الفاخر عبر الألب وفوق البرانس . على أنهم لم يكونوا ملتزمين بدرجة مماثلة بالزخرفة الفياضة . من ذلك أن أشهر معماريهم — الذى شيد واجهة جناح كاتدرائية أورليان — صمم كنائس وكليات متوخياً البساطة الشديدة التى تناسب خلقه وما تحت يده من مال . ولكن حين أثرت الطائفة بنت في وفرة بهيجة . ففي عام ١٦٢٧ بدأت بناء الكنيسة الحميلة التى تعرفها باريس عادة باسم « الجزويت » — وواجهتها رومانية ، وداخلها مزين زينة أنيقة بالتيجان والأقواس والكرانيش ، وأقبية الخورس تلتقى في انسجام لتدعيم قبة مضئنة ؛ وقد وصف جول افلين الذى كان يجوب باريس عام ١٦٤٤ هذه الكنيسة بأنها « من أكمل قطع العمارة في أوربا (١٣٩) » . لأنها لم تكن باروكا على نحو منفر ، ولم تحتو على أى شئ مشوه أو غريب . فالباروك في فرنسا رصنه الذوق الاستقراطى — تماماً كما هذب رونزار ومالرب قباحات رابليه .

وتخلفت العمارة الدينية خلال الحروب الدينية ، وفي فترات السلام التي تخللتها نمت العمارة المدنية . فارتفعت قاعات المدن في لاروشيل، وليون، وتروا ، و رانس . وفي باريس أرادت كاترين دي مديتشي أن تخلق قصر اللوفر لشارل التاسع ومليكنه، فاستأجرت فيليبير دي لورم لبنى لها ولمساعدتها قصر التويلد (١٥٦٤) - الذى اشتق اسمه من مصانع القرميد (التويل) الفخارى القريبة . وارتفع القصر بالحديد ، الذى قامت فى واجهته العمدة الكورنثية وفق طراز النهضة ، غربى اللوفر عند ميدان كاروسل الحالى ، وامتد ٨٠٧ قدما بطول السين . وقد أحرق فى فتنة الكومون عام ١٨٧١ ، ولم يبق منه سوى الحدائق - حدائق التويلرى اللذيذة .

واستعادت العمارة المدنية نشاطها سريعا فى عهد هنرى الرابع . وأصبح البون نوف ، الذى افتتح للمرور عام ١٦٠٤ ، أحب الجسور التي تمتد فوق السين . أما الأوتيل دفييل الذى أنجز فى السنة التي مات فيها هنرى ، فقد ظل إلى عام ١٨٧١ مفخرة للشعب تنافس النوتردام واللوفر . وكما فعل فرنسيس الأول ولويس الرابع عشر ، أظل هنرى الفنانين برعايته ، وفهمهم ونسق عملهم . فوسعوا له اللوفر بإضافة البافيون دفلور ووصلوا بينه وبين التويلرى بالرواق الكبير . وفى فونتبيلو بنوا المصلى ، ورواق الوعول ، والقناء والصالون البيضى ، والبورت دوفين ، ورواق ديان . ولقد كانت فونتبيلو فى عهد هنرى الأكبر ذروة النهضة الفرنسية .

أما أرملة مارى دمديسى ، فقبل أن تصطدم بريشليو، كلفت سالومون دبروس أن يصمم لها قصر لكسمبورج ، فى شارع فوجيرار جنوبى الين (١٦١٣ - ٢٠) . ولما تحرر لويس الثالث عشر وريشليو من نفوذها عهدا إلى لومرسييه أن يوسع اللوفر مرة أخرى بوصفه مقر الحكومة ، فأُنجز الآن البافيون دلورلوج ، ووسع الجناحان الكبيران ، واتخذ البناء الفخم شكله الحالى فى أساسه . ومن تصميمات لومرسييه بنى ريشليو فى باريس « الباليه كردينال » الأنيق حيث جمع مجموعاته فى التصوير

والتحت وغيرهما من الفنون ، هنا كانت أعمال مانتينا ، ودافنشى ، وفيرونيزى ، و « عبيد » ميكلانجلو . وقد انتقل أكثر هذا الكنز إلى لويس الثالث عشر والرابع عشر ، ثم إلى اللوفر ، ثم إلينا .

أما فى عمارة البيوت فقد أعاد فرانسوا مانزار تشكيل أفق باريس بتطويره « سقف مانزار » - وهو سقف ذو منحدرين ، أسفلهما أحد من أعلاهما ، مما يتيح تصريف الثلج والمطر بسرعة ، ويفسح فراغا أكبر فى الطابق العلوى ؛ وكم من طالب أو فنان باريسى سكن هذا « المانزار » أو العلوية . وصمم مانزار عدة كنائس فى باريس ، وعدة قصور ريفية فى فرنسا - وأنجحها فى حى يعرف اليوم بميزون لافيت ، وهو ضاحية من ضواحي العاصمة . وفى عام ١٦٣٥ عهد إليه « مسيو » جاستون دورليان أدر يعيد بناء قصر الأسرة فى بلوا ، ولم ينجر مانزار سوى الجناح الشمالى الغربى ، وما زالت واجهته المبنية بطواز النهضة وسلمه الفاخر رائعة « أبرع معمارى أنجبته فرنسا فى تاريخها » (١٤٠) .

٧ - فنون كثيرة

وبهذا المزاج نفسه ، مزاج التقاليد الكلاسيكية التى يرقى منها الصقل الشعور الفرنسيان ، زين النحاتون الكنائس ، والقصور ، والحدائق ، ومقابر العظماء . وقد ورث جرمان بيلون رشاقة النهضة التى اتسم بها تشالينى ، وبريماتيكو . وجان جوجون ، ولكنه لم يذس المزيج القوطى من الرقة والقوة . أما روائعه فتلاث مقابر ، إحداها - وهى المقامة فى كنيسة دير القديس دنى - جمعت فى الموت بين كاترين دى مدينشى وهنرى الثانى ، زوجها لفترة ما - وقد أضفى الفنان على الملكة جمالا مثاليا كان خليقا بأن يدفن قلبها المحش. والثانية ، الموجودة الآن فى اللوفر ، كرمت رينيه ديبراج ، مستشار فرنسيس الثانى وشارل التاسع - وهى صورة للكبرياء الخاضعة للتقوى ، ومعجزة من الثياب الطبيعية التقطها المبال فى البرونز . وإلى

جوارها مقبرة زوجة رينيه ، فالتفتين بالياني : وفي أعلاها ترى السيدة
في شرح شبابها وقد خلعت عليها الحلال أرواب تعلوها الوجوه ،
وفي أسفلها هذا الجمال ذاته منحوتا بغير رحمة في هيئة جثة لها
وجه وأيد وأرجل عجاف وصدر متغضن وثديان فارغان غائران ؛
إنها صبيحة غضب قوية على الدهر وانتهاكه الساخر للجمال . وهذه
المقابر وحدها كانت تكفى لرفع بيلون إلى مقام أعلى من مقام أى
نحات في عصره ، ولكنّه أضاف إليها العدد الوفير من التماثيل ،
وكلها ذات محاسن أخاذة ، وأكثرها جمع في اللوفر ، خزانة فرنسا التي
لا ينضب لها معين .

وهناك أيضا ، وعلى بضع خطوات ، نستطيع أن نرى أعمالا
لخلفاء بيلون : تمثالا بالحجم الطبيعي لهنرى الرابع من صنع بارتلمى
تريمبليه ، وعلى فوه ابتسامة غامضة كابتسامة مونا ليزا ، ومقبرة
آن دمونتورنسى التي نحتها بارتلمى بريور ، وتمثالا حيا يسمى
« الشهرة » لبيربريار - هو امرأة عارية تنفخ أنفاسها من خدين
منتفخين وتكتب في الهواء كأنها تضيف تحسينا إلى كلمات كيتس « هنا
يرقد إنسان كتب اسمه في الريح » . وفي مصلى شانتني أثر يذكر
للكردينال ديبرول صنعه جاك سارازان . وقد درس بعض هؤلاء
النحاتين في روما وجلبوا معهم من برنيني ميلا باروكيا للزخرف والحركة
والعاطفة المسرفة ، ولكن هذا الاسراف سرعان ما تلاشى تحت نظرات
ريشليو الباردة وذوق لويس الرابع عشر الكلاسيكي . ويبدأ ظهور ذلك
الكمال الناعم الذي طبع « القرن العظيم » في ميداليات جان فاران ،
الذي وفد من لياج ليعيش في فرنسا ، والذي بلغ فنه في الصور الصغيرة
التي رسمها لريشليو ومارران وآن النمسية براعة لم يزه فيها أى رسام
ميداليات جاء بعده .

ولو لم تخلف لنا فرنسا أى نحت أو عمارة أو تصوير لحق لها برغم هذا أن تحوز احترامنا وحبنا لما أنجزته فى ميدان الفنون الصغيرة . فحتى فى هذه الفترة المضطربة بين حكم فرنسيس الأول وحكم لويس الرابع عشر ، نافست فرنسا - بل دأقت فى رأى البعض - إنتاج معاصريها من فلاندر إلى إيطاليا ، سواء فى الرسوم ، أو المحفورات ، أو اشغال المينا ، أو الصياغة ، أو قطع الأحجار الكريمة ، أو مشغولات الحديد أو الخشب ، أو المنسوجات ، أو السجاد المرسوم ، أو تصميم الحدائق . فرسوم جاك كاللو للفجر ، والشحاذين ، والمتشردين ، تحمل معها ريح الحياة ذاته ؛ أما سلسلة كلشيئات « آلام الحرب » فقد سبقت جويا بقرنين . وحسبنا حكما على براعة أشغال الحديد فى ذلك العصر حاجز القضبان المؤدى إلى قاعة أبولو فى اللوفر . أما السجاد المرسوم فكان صنعه فنا لا يقل أهمية عن النحت أو التصوير . كان جان جوبلان قد افتتح مصانع للصباغة بباريس فى القرن الخامس عشر ؛ وفى القرن السادس عشر أضافت المؤسسة مصنعا للسجاد المرسوم ، وأنشأ فرنسيس الأول مصنعا آخر فى فونتينبلو ، وهنرى الثانى مصنعا ثالثا فى العاصمة . وحين ذهبت كاترين دى مديتشى للقاء المبعوثين الأسبان فى بايون أخذت معها اثنتين وعشرين سجادة نسجت لفرنسيس الأول لتعرض ثراء فرنسا وفنها . ثم اضمحلت هذه الصناعة التى جمعت بين الحرفة والفن فى عهد هنرى الثانى ، ولكن هنرى الرابع أصلح من شأنها بجلب جيل جديد من الرسامين والصباغين والنساجين الفلمنكيين لمصنع جوبلان فى باريس . وهناك خمسة نماذج ممتازة ترجع إلى عهده - موضوعها صيد ديانا - تزين مكتبة مورجان بنيويورك .

وأحست الزخرفة الداخلية تأثير الباروك يتسرب إليها من إيطاليا . فنقشت الكراسى ، والموائد ، والصناديق ، والبوفيات ، والدواليب ، ومناضد ، بالزينة ، والسرر - ونقشت فى بذخ ، وورصت فى كثير من الحالات بالأبنوس أو اللازورد أو اليشب أو العقيق ، أو زينت بالتماثيل

الصغيرة . وفى عهد لويس الثالث عشر نجد الكثير من المقاعد بالمحمل ، أو أشغال الابرّة ، أو النسيج المرسوم . وقد تنقش الجدران والكرانيش والأسقف أو ترسم بمهرجان من صور النبات والحيوان . وفقدت المدافئ بعض صرامة العصر الوسيط ، وحليت أحيانا بنقوش عربية فى ألوان متعددة .

أما فى الخزف فكان العصر قمة فن رجلين عجوزين : ليونارليموزان ، الذى استمر حتى عام ١٥٧٤ ينتج أشغال المينا التى أذاعت شهرته أيام فرنسيس الأول(*) ، ثم برنار باليسى الذى ولد عام ١٥١٠ وعمر حتى عام ١٥٨٩ . وكان باليسى مجنونا بالخزف ، فيه فضول قوى ينتظم ميادين الزراعة والكيمياء والدين ، وله ولع بكل شئ من تكون الأحجار إلى طبيعة الإله . درس كيمياء أنواع التربة المختلفة ليحصل على أفضل الطفل لقميته ، وأجرى تجاربه سنين عديدة لينتج مينا بيضاء تتقبل الألوان الرقيقة وتحفظ بها . وأحرق نصف متاعه وقودا لفرن حرارياته ، وقد روى القصة وكأنه يتحدى تشللى . وكان يقوم بالعمل كله بنفسه لأن فقره أعجزه عن أن يستأجر من يساعده ، وكثيرا ما كانت يداه تمتلئان بالقطوع حتى قال « كنت أضطر لأكل حسائى ويدائى مربوطتان بأسمال » . و«بعد أن مضيت فى مثل هذا عشر سنوات نحل جسمى حتى لم يبد على ذراعى وساقى أى عضلات ، وبلغ النحول بساقى مبلغا استحال معه على رباط جواربى أن يثبت فوقها ... فإذا مشيت سقطت جواربى على حداثى البالى(١٤١) » . واتهمه جيرانه بأنه يمارس السحر ويهمل أسرته . وأخيرا ، وحوالى عام ١٥٥٠ ، وجد المزيج الذى ينشده ، وصنع مينا من طلاء متقزح اللون ، واستعملها فى تشكيل الآنية والتأثيل الصغيرة المزينة تزيينا بديعا بالسلك ، والسلاحف ، والأفاعى ، والحشرات ، والطيور ، والأحجار - كل غنى الطبيعة الوافر . وأبهج كاترين دى مديتشى أن تضع هذه المتحفرات الصناعية فى حديقتها وأحواض أزهارها ، ووهبت الخزاف

(*) لاحظ النماذج البدعة المحفوظة فى مجموعة والاس بلندن ومجموعة فريك بنويورك .

العجوز مصنعا في التويلرى ، فأضاف في يثنه الجديدة الحوريات المختلفة لزعارفه . ومع أنه كان هيجونوتيا غيوراً ، إلا أنه أعفى من مذبة القديس بارتلميو ، لأن كاترين وحاشيتها بهرتهم زهرياته وكثوسه وأطباقه وشمعداناته وأفكاره الطريفة . ولكن في عام ١٥٨٨ أمر الحلف الكاثوليكي بمحاكمة العروتستنت من جديد ، فأودع باليسى سجن الباستيل . قال أحد كتاب اليوميات في عام ١٥٩٠ :

« في هذا العام (عام ١٥٨٩ في واقع الأمر) مات في حجرات سجن سجن الباستيل الأستاذ برنار باليسى ، السجين بسبب دينه ، بالغاً من العمر ثمانين عاماً ، وقد خرت تحت وطأة الألم ، وسوء المعاملة ، والحاجة . وحين ذهبت عمة هذا الرجل الطيب لتسأل عنه . . . قال لها السجن أنها إن أرادت رؤيته فستجده جثة مع الكلاب على الأسوار ، حيث أمر بإلقائه كما يلقي كلب مثله (١٤٢) » .

٨ — بوسان والمصورون

كان التصوير الفرنسي لا يزال أسيراً لفلاندر وإيطاليا . فسيطر رسامو السجاد الفلمنكيون على فهم في باريس ، وزكا المصورون الفلمنكيون في باريس ، وليون ، وتولوز ، ومونبلييه ، وبوردو . وكانت أفضل لوحات هذه الفترة من صنع الفلمنكيين في فرنسا . كصورة إليزابث النموية البديعة (الموجودة باللوفر) بريشة فرانسوا كلويه ، وصورة هنرى الرابع المعتر بنفسه (في شانتى) بريشة فرانسز بوربي الابن ، وأهم من ذلك كله صورة ريشليو التى رسمها فليب دشامبين .

ولكن التأثير المسيطر على التصوير الفرنسي في هذه الحقبة كان إيطالياً . كان طلاب الفن يذهبون إلى روما ، على نفقة الحكومة الفرنسية أحياناً ، ويعودون مترددين بين مثالية فنائى القرن السادس عشر الفلورنسيين ، وواقعية فنائى القرن السابع عشر البولونيين والتابولين القائمة . وقد وفق أحد الفنانين الفرنسيين واسمه سيمون فوييه ، وهو بعد في الرابعة عشرة

(١٦٠٤) ، إلى إذاعة اسمه بين المصورين، حتى تنافست عليه ثلاث دول . وحاول تشارلز الأول أن يحتفظ به في لندن ، ولكن بارون سانسي أخذه في بعثة إلى القسطنطينية ، حيث رسم سيمون صورة رائعة للسلطان أحمد الأول ، بعد أن درس ملاحظه خفية خلال ساعة مثل فيها السفير بين يديه . وفي عودته مخترقا إيطاليا ، وقع فوييه في حب البندقية وفيرونيزي ، ثم أحب كارافادجو في روما ، حيث بسط عليه أدواقها وكرادلتها من الرعاية ما أغراه بالبقاء في إيطاليا خمسة عشر عاما . وفي عام ١٦٢٧ دعاه لويس الثالث عشر ليكون مصور البلاط ، وكان يجرى عليه معاشا سنويا قدره أربعة آلاف جنيه ، ثم أعطاه سكنا في اللوفر . وسرعان ما تهافتت فرنسا كلها عليه . فزين مصلى قصر ريشليو الريفى ، ورسم لوحة مذبح لكنيسة سانت أوستاش ، وصمم رسوما للسجاد الملكى ، وصور لوحات للحاشية . وإذا غرقته هذه المهام فقد جمع حوله معاونيه في مدرسة نمت حتى أصبحت الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت ، وهناك درب واستخدم لوسويور ، ومينار ، وانوتر ، وبوردون ، ولوبرن . ولا تمكاد أعماله الباقية تبرر هذه الشهرة ، ولكن له في تاريخ فرنسا مكانا خطيرا هو مكان إعداد مصورى عصر القمة .

أما الأخوة الثلاثة ، أنطوان ، ولويس ، وماتيلونان ، فقد أدخلوا تنوعا على لوحات عصرهم بتصوير حياة الفلاحين تصويرا تشيع فيه الشفقة المعتمدة ، إذ وجدوا فيهم ذلك الفقر الصامت والقوة الشرسة التى اتسمت بها فرنسا فى القرن السابع عشر . كذلك وهب جورج دلاتور فرشاته للمساكين (وقد نبش عنه مؤخرا تقرير نقاد) ، وصورتاه المقابلتان « فلاح » و « فلاحه » أقرب إلى قمة التصوير فى العهود الملكية التى نحن بصدددها ؛ ونستطيع أن نحكم على شهرته ، السائرة من مبلغ الـ ٥٠٠.٠٠٠ دولار أو أكثر التى دفعها متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك ثمنا لصورته « العرافة » (١٩٦٠) . وقريب من هذا التحول من القصر إلى الكوخ ،

ذلك الاتِّجَازُ الخاص الذي حققه التصوير الفرنسي في هذا العصر - وهو تطوير المنظر الطبيعي بوصفه عنصرا كبيرا في فن التصوير .

أما نيكولا بوسان فكان أبوه جنديا في جيش هنرى الرابع . وبعد أن أسكن منزل نيكولا دليزمان هقب معركة إفرى ، تزوج ابنة نيكولا - وهى فلاحه لا تعرف كيف تكتب اسمها - وفتح مزرعة بقرب ليزاندليس في نورمانديا . وتعلم ابنهما حب الحقول والغابات ، واقتناص لحظات يسجلها فيها بالقلم الرصاص أو الحبر . ثم وفد ككتان فاران على ليزاندليس ليزين كنيسة بها ، وراقبه الفتى نيكولا في شغف وانتزع منه بالملاطفة دروسا في الرسم والتصوير . فلما رحل فاران ، هرب نيكولا إلى باريس ليدرس الفن (١٦١٢) وكان يومها في الثامنة عشرة . وهناك توجت الشهور التي كاد يتصور فيها جوعا بعثوره على محفورات ريموندى لأعمال رائييل . هنا تكشف لنيكولا أمران أولهما أن الخط لا اللون أداة الفن ، وتانيهما أن روما عاصمة الفن . وظل ثمانية أعوام يكافح للوصول إلى تلك القلعة . ومرة وصل في رحلته حتى فلورنسة ، ولكن الفقر واليأس والعلّة ردت به إلى باريس . ثم حاول ثانية ، ولكن دائنا عطله في ليون ، فزحف راجعا ليدفع ديونه ويكسب قوته بأشغال تصوير صغيرة في قصر الكسمبورج . وفي عام ١٦٢٢ استخدمه الشاعر الإيطالي جوفاني باتيستا ماريني ، الذي وفد وقتها على باريس ، ليرسم له رسوما لقصيدته « أدوني » ، وظفرت رسوما بوسان باستحسان ماريني وبيع بعض التكيليفات . ورسم نيكولا صورا للأشخاص على مضض واقتصد فرنكاته في حرص ، وأخيرا اكتحتلت عيناه بروية روما في عام ١٦٢٤ :

وأوصى به ماريني الكردينال فرانيسكو باربريني : « ستجد هنا شابا فيه عنف شيطاني » - شاب « مجنون بالتصوير » (خلافا لتحليل ايروشيچ لنفسه) . وكان مجنونا بإيطاليا أيضا ، غير أنه لم يكن بصور أئمة فنانى الهضة بقدر جنونه بكمال القطع المتخلفة في الساحة الرومانية (الفورم) ، ولا جن-

بالصور الجصية المتخلفة من العصور القديمة بقدر جنونه . بروما نفسها -
بأفاقها ، وحقوقها ، وأشجارها ، وتلاها ، وتربها ذاتها . ولا بد أنه
تساءل كما تسأل بعض المتحمسين لها ممن أتوا بعده . لم لم يكتب الله له أن
يولد في إيطاليا ؟

وامتحنه الكردينال باربريني بتكليفه برسم لوحة « موت جرمانيكوس » ،
فسرته النتيجة ، وسرعان ما اشتد الطلب على فن بوسان حتى جاهد لكي
يليه . كان زعاته - سواء العلمانيون أو الكنسيون - يتوقون للصور
العارية ، فاسترضاهم فترة بعروض لجسم المرأة كذلك التي نجدها في
« انتصار ربة الزهر(*) » التي رسمها للكردينال أوموديو ، وفي « منظر
باخوسى » لريشليو . واتخذ مقامه في روما ، وتزوج فتاة في السابعة عشرة
وهو يناهز السادسة والثلاثين ، وأنفق عشر سنوات سعيدة معها ومع ألوانه .
ثم دعاه ريشليو ولويس الثالث عشر إلى باريس (١٦٤٠) . فقال بوسان
« سأذهب كإنسان حكم عليه بنشر جسده نصفين (١٤٣) » ، ولقى هناك التكريم
العظيم وتلقى معاشا من ألف كراون ، ولكنه لم يرتح لمنافسة الفنانين
الباريسيين المفعمة بالحد ، فأسرع بالعودة إلى إيطاليا (١٦٤٣) مضحيا
بمستقبل عريض . واشترى بيتا على التل البنسى بجوار بيت كلود لوران ،
وهناك عاش حتى مات ، هادئا ، مهتما بأسرته ، مستغرقا في فنسه ،
قائما بحظه .

كانت حياته كصوره مزيجاً كلاسيكياً ، نموذجاً للنظام ، والاعتدال ،
وضبط النفس . ولم يكن له من أمارات الفنان غير القليل . اللهم إلا أدواته .
فلا هو بالعاشق النهم كرفائيل ، ولا برجل الدنيا كتيشان ، ولا بالعبقري
الشيطاني كميكلانجلو (برغم رأى ماريني فيه) ، لأنما هو رجل بورجوازي
يعنى بأسرته ويدفع ديونه . وحين رأى الكردينال ماسيمو بيته المتواضع
قال له « كم أرثى لك ، لأنه ليس لديك خادم ! » فأجاب بوسان « وكم أرثى

(*) جميع صور بوسان المذكورة هنا محفوظة بالوفر إلا إذا من على غير ذلك .

ذلك لأن لديك الكثير منهم (١٤٤) . في كل صباح يتمشى على تله ، تم
يرسم سخابة تهاره ، معتمداً على الجهد لا على الوحي . قال في فترة لاحقة ،
من حياة رداً على سائل سأله عن السر في امتلاكه ناصية الفن « لم
أهمل شيئاً (١٤٥) » .

وإذا أخذنا في الاعتبار طرقة الكثيرة الجهد ، التي لم يستعن فيها بأحد ،
وجدنا إنتاجه ضئيلاً . فلا بد أنه رسم أربعائة صورة ، لأننا نعرف أن
بعضها فقد ، وبقي منها ٣٤٢ ، أضف إلى هذا ألفاً وثلثمائة رسم تعز قلعته
ونذر بمائة منها لما تمتاز به من دقة ونقاء في الخطوط . ولم يتفوق في
تنوع صوره . وكثيراً ما تكون صوره العارية تماثيل عديمة الحياة ،
ولو كان فيها شهوانية أكثر لأسغناها . لقد كان نحائلاً يستعمل فرشاة ،
ينحو إلى النظر للنساء على أنهن أشكال تصلح للنحت - ولو أنه أحياناً كان
يرى فيهن الأصول الإلهية للفن . قال « إن الفتيات الجميلات اللاتي نراهن
في شوارع نيم يبهجن عيوننا ونفوسنا بهجة لا تقل عن أعمدة « الميزون كاريه »
البدية ، لأن هذه لبست إلانسخاً قديمة من تلك (١٤٦) » . كذلك لم ينطلق على سميته
في موضوعات الكتاب المقدس . وقد أجاد تصوير بعضها - مثل « الفلسطيني
حريعاً عند الأبواب » و « عميان أريحا » ، وما أجمل النساء ، وأجلهن في الوقت
نفسه ، في « البعاثر ورفقة » ! كان تفوقه يتجلى في الأساطير الكلاسيكية ،
مصورة وسط الخرائب الكلاسيكية ومن خلفها منظر طبيعي ذو هدوء
كلاسيكي . ولم يكن يرسم من نماذج خية ، بل من خيال أشرب بحب ، العالم
القديم وتوهمه - العالم الذي كان فيه كل الرجال أقوياء ، وكل النساء جميلات .
تأمل ذلك الكمال الذي نراه في الأنثى الوحيدة في لوحته « رعاة أركاديا »
التي رسمها بوسان اللويس الرابع عشر تلبية لطلب كولبير . ولاحظ في
مرورك الكتابة المنقوشة على قبر الراعي : « أنا أيضاً كنت مرة في
أركاديا » ، أهذا بوسان يحلم بأنه هو أيضاً عاش في اليونان القديمة مع
أورفيوس والأرباب ؟

و «مأتم فوكيون» أقوى لوحات بوسان الأسطورية ، ولكن «أورفيوس ويوريديسى» أشدها وقعاً في النفس ، ربما لأننا نتذكر الحان جلوك اليائسة . ومما يزعج الروح الرومانسية أن تجد القصة تائهة في المنظر الطبيعي على هذا النحو . فالحقيقة أن بوسان لم يحب الرجل ، ولا حتى المرأة ، بل المشهد المهذب للنفس ، مشهد الحقول والغابات والسماء المنبسطة - كل ذلك المنظر العريض المحيط باللوحه ، حيث يكون التغيير متمهلاً ، أو خجلاً أمام الدوام والاستمرار ، وحيث تذوب أوصال البشر في منظورات المكان والزمان . لذلك كانت أعظم صورته هي مشاهد الطبيعة ، التي يكون الانسان فيها عرضاً ضئيلاً ، شأنه في التصوير الصيني أو البيولوجيا الحديثة .

هذه المشاهد جليلة ، ولكنها رتيبة . ولولا أن بوسان أضاف هنا وهناك أشكالاً مميزة أو عنواناً خطه في إهمال لشق علينا أن نفرق بين الواحد منها والآخر . لقد أحب الخط في حكمة ولكنه أسرف في حبه ، وأهمس سلم اللون ، مستغلاً اللون البني فوق ما ينبغي ؛ لا عجب أن ار الفنانون الذين أتوا بعده على هذه «الصلصلة البنية» المتساقطة من أشجاره . ومع ذلك فإن هذه الآفاق الخافتة الأضواء ، الخافتة الألوان ، التي لم يرض عنها رجل مثل رسكن افتتن بوهج ترنر ، هي تفريج لنا بعد ما أصاب التصوير في أيامنا من احتياج وقلق أيديولوجي ، فهنا المفهوم الكلاسيكي للجمال بوصفه اتساق الأجزاء في كل ، لا الفكرة الحديثة عن الفن بوصفه «تعبيراً» - قد يكون صورة طفل لم يتقن رسمها أو صيغة بائع متجول . وفي وسط اللازمية والباروك ، وفي معارضة لقوة التصوير الإيطالي في القرن السابع عشر وعاطفيته ، تشبث بوسان بالمثل الكلاسيكي الأعلى ، الذي لا يغلو في شيء ؛ فلا ألوان صارخة ، ولا دموع ، ولا إغرائات ، ولا مقابلات مسرحية بين الضوء والظل ، بل فن ذكوري أشبه بكورني منه براسين ، وبياخ منه بيتهوفن .

والصورة التي رسمها لنفسه عام ١٦٥٠ تظالعنا منها عينان فيهما كلال ، ربما من الرسم أو القراءة على ضوء ضئيل . كان يقرأ كثيرا ، محاولا الامام بحياة اليونان والرومان في تفصيل مثير ، ولم يصب فنان مثل هذا العلم منذ ليوناردو . فلما أقبل على شيخوخته وجد عينيه تضعفان ويده تهتز ، وقطع موت زوجته في الحادية والخمسين (١٦٦٤) رباطا حيا ؛ فلم يعمر بعدها سوى سنة واحدة . كتب صديق يقول « مات أبيلدس » . وعلى المقبرة أو قربها في كنيسة أبرشية سان لورينزو ، أقام شاتوبريان (١٨٢٩) نصبا من الرخام كتب عليه كما يكتب أحد الخالدين من البشر الفاني لآخر :

ف . أ . دشاتوبريان

إلى

بيكولا بوسان

لمجد الفنون وشرف فرنسا

وكان أكبر منافسيه في تصوير مناظر الطبيعة جاره ، وصديقه . كاود جيليلي ، الملقب لوران نسبة إلى مسقط رأسه . وقد شعر هو أيضا بدافع يدفعه نحو إيطاليا ، وقبل أى وظيفة مهما حقرت لبصل إليها ويعيش فيها ، حيث تكشف كل لفظة للعين الباحثة عن أنز ما للفن المسيحي أو قطعة ملهمة من الفن القديم . وفي روما تتلمذ لأجوستينو تاسي ، ومزج له الألوان ، وطهى له طعامه ، وتعلم على يديه . وقد رسم على سبيل التجربة ألف رسم ، وحفر كلشيات يقدرها اليوم الخبراء العارفون . وكان يشتغل ببطء وتدقيق ، وقد يستغرق أسبوعين في تفصيل واحد . وأخيرا أصبح هو أيضا مصورا ، يرتزق من الطلب على صورة من الكرادلة والملوك الذين يقدرون فنه . وبعد قليل كان له بيته فوق التل البنسي ، وشارك بوسان في اشباع الطلب الجديد للمناظر الطبيعية .

وكان يستجيب لهذا الطلب عن طيب خاطر ، لأنه أحب أرض روما وسماها حبا دفعه أحيانا إلى الاستيقاظ قبل طلوع العجر ليشهد بزوغ النور

كل صباح ، ويقتنص تغيرات الضوء والظل التي تحدثها كل بوصة طالعة من الشمس . لم يكن الضوء عند كلود مجرد عنصر فى الصورة ، إنما كان موضوعه الأهم ، ومع أنه لم يحب - كما أحب تيرنر - أن ينظر فى عين الشمس ذاتها ، فإنه كان أول من درس ونقل غلاف الضوء المنتشر . وقد التقط حركة الهواء غير الملموسة على الحقول ، وورق الشجر ، والماء ، والغمام ؛ كانت كل لحظة من السماء جديدة ، وبدا أنه عقـد نيته على جعل كل لحظة سائلة تسكن نفسها فى فنه . وقد أحب ارتعاش القلوع وهى تقابل الريح ، وجلال السفن وهى تمخر البحر . وأحس فتنة المسافات ، ومنطق المنظور وسحره والحنين إلى رؤية لانهائية الفضاء وراء المرئى .

كانت المناظر الطبيعية لذته الوحيدة . ثم أدخل التراكيب الكلاسيكية فى صورهِ عملاً بنصيحة بوسان - كالمعابد ، الخرائب ، وقواعد الأعمدة - ربما ليضفى وقار الشيخوخة على المشهد العابر . ووافق على إضافة بعض الوجوه البشرية إلى مشهد الطبيعة العريض ، ولكن قلبه لم يكن فى هذه الزوائد . فهذه الوجوه « أضيفت دون مقابل » ، فكان « يبيع مناظره الطبيعية ، ويبع وجوهه » (١٤٨) . وكانت العناوين والقصص التى توحى بها هذه الوجوه تنازلات منه للعقول التى لم تستطع الإحساس بمعجزة الضوء وسر الفضاء دون جمال الأسطورة المسيحية أو بغير بطاقة من القصص الكلاسيكية . أما الواقع فهو أن كلود كان له موضوع واحد لا سواه - عالم الصباح ، والظهر ، والمساء . وقد وهب متاحف أوروبا تنويعات حيوية من الصور ، لا تعنى أسماؤها شيئاً ، ولكن فى وحدة وجودها تزوج صوفى بين الشعر والفلسفة .

وقد نسلم لرسكن (١٤٩) بأن كلود وبوسان يرياننا الطبيعة على نحو خداع وهى فى حالاتها الأرق ، غافلين عن جلالها ، مغفلين نوبات تدم الرهيب . ولكن بفضل جهودهما أرسى تقليد عظيم فى رسم المشهد

الطبيعى . وسنرى أنه سينافس صور الأجسام والوجوه ، والمناظر الكتابية
والأسطورية . لقد فتح الطريق لموكب الطبيعة من يعقوب وسليمان رويزدال
إلى كورو .

وهكذا نجد أن ريشليو والوحدة القومية ، وكورنيى والأكاديمية ،
ومونتيني ومالرب ، ودبروس ومانزار ، وبوسان ولوران - كل هذا لم
يكن حصيلة تافهة أنتجها بلد مشتبك فى الحروب . وها هو لويس الرابع
عشر يتأهب للوقوف فوق ذلك التراث الصاعد والتسيد على فرنسا فى
أعظم عصورها .



المراجع

CHAPTER IX

- 1 Evelyn, Diary, I, 225.
- 2 Ibid, 87
3. Camb Mod. History, IV, 631.
4. Molmenti, Venice, Ib, 218.
5. Ranke, History of the Popes, II, 119.
6. Funk, Manual of Church History, II, 147
7. Hazlitt, W. C., The Venetian Republic, II, 221, Encycl Brit, XIX, 1002.
8. Symonds, J. A, The Catholic Reaction, II, 105
9. On the inaccuracies of both historians of Ranke, Popes, III, 106-38.
10. Montaigne, Diary, 93; Shakespeare's England, I, 216.
11. Byron, Childe Harold's Pilgrimage, Canto IV, line 2
12. Molmenti, Ib, 181
- 13 Winckelmann, History of Ancient Art, II, 316
14. Taine, Italy Rome and Naples, 232.
15. Symonds, Catholic Reaction, II, 231
16. Ruskin, Modern Painters, II, 1, 7, 13
17. Evelyn, I, 160.
18. Ogg, Europe in the Seventeenth Century, 387.
19. Sitwell, Southern Baroque Art, 43.
20. Stirling-Maxwell, Annals of the Artists of Spain, III, 893.
- 21 Justi, Velázquez, 343.
- 22 Byron, Don Juan, XIV 71.
- 23 Pastor, XVIII, 121, 125.
24. Ranke, Popes, I, 286
25. Ibid., 273.
26. Pastor, XVII, 172
27. Lea, H C., Inquisition in Spain, II, 77.
28. Ranke, Popes, I, 322
- 29 Montaigne, Diary, 125.
30. Bacon, Fr, Apophthegm 60, in Phil, Works, 869
- 31 Sully, Memoirs, I, 218n.
32. Ranke, Popes, I, 341
- 33 Pastor, XXI, 83.
- 34 Ranke, I, 342
- 35 Lecky, History of European Morals, II, 97.
- 36 Sully, Memoirs, III, 29.
37. Camb. Mod History, IV, 687
38. Graves, F P, History of Education, 219
- 39 Monroe, Paul, Text-Book in the History of Education, 422.
40. Bacon, De Augmentis, vi, 4, in Phil. Works, 559
- 41 Ranke, Popes, II, 90
42. McCabe, Candid History, 97
- 43 Symonds, Catholic Reaction, II, 121.
44. Campbell, Thos, The Jesuits, 394.
45. Filmer, Patriarcha, in Locke, Two Treatises on Go-

- vernment, 253
 46. Campbell, 271
 47. Symonds, Catholic Reaction, I, 218; McCabe, Candid History, 184
 48. McCabe, 191
Secret of the Jesuits, 285.
 49. Fulop-Miller, Power and Secret of the Jesuits, 285.
 50. Ibid., 290
 51. Ibid., 300-1
 52. McCabe, 299
 53. In Campbell, 445
 54. Montaigne, Diary, 141.
 55. Ibid, 159.
 56. Molmenti, Venice, IIb, 27.
 57. Montaigne, Diary, 151.
 58. Symonds, Catholic Reaction, I, 268-74. The Cenci, by F. D Guerrazzi (Milan, 1872), is a novel
 59. Evelyn, I, 172.
 60. Ibid, 161.
 61. Ibid., Nov 8, 1644
 62. Burney, History of Music, II, 510; Grove's Dictionary of Music, III, 591, Brockway and Weinstock, The Opera, 1-3.
 63. McKinney and Anderson, Music in History, 321.
 64. Ibid., 334
 65. Granett, Richard, Italian Literature, 269.
 66. Ranke, Popes, I, 369
 67. Encycl. Brit., III, 132b.
 68. Johnoson, S., Lives of the Poets, I, 176.
 69. Guarini, The Faithful Shepherd, p. 64
 70. Ibid., 177
 71. Hallam, Literature, II, 181.
 72. Symonds, Italian Literature, II, 243
 73. Tr by Leigh Hunt, in Van Doren, Anthology, 590
 74. Symonds, Catholic Reaction, I, 367.
 75. Boulting, Tasso, 172-3.
 76. Ibid., 183, 174
 77. Symonds, Catholic Reaction, II, 35; Encycl. Brit., XXI, 831a.
 78. Symond,s I, 369.
 79. Boulting, 212
 80. Smith, History of Culture, I, 552.
 81. Boulting, 259
 82. Tasso, Gerusalemme liberata, xx, 1087.
 83. Galileo, Opere, ed. nazionale, IX, 69. in Smith, P., History of Culture, I, 552.
 84. Disraeli, Isaac, Curiosities of Literature, II, 444
 85. Burckhardt, J, Recollections of Rubens, 8.
 86. Pastor, XXII, 309.
 87. Justi, Velázquez, 350.
 88. Wittkower, Gian Lorenzo Bernini, 197.
 89. Ibid., 2
- CHAPTER X
1. El Greco, Phaidon ed, 7.
 2. Weisbach, Spanish Baroque Art, 35.
 3. Robertson, Freethought, II, 38, Hume, M., Spanish People, 416.
 4. Lea, Inquisition in Spain, III, 441.
 5. Prescott, Philip II, II, 498
 6. Lea, Inquisition, IV, 253.

- 7 Cf Cervantes, *Don Quixote*, Part I, ch 28; Vol. I, 223.
- 8 Stirling-Maxwell, I, 45
- 9 Lang, P. H., *Misc in Western Civilization*, 267.
- 10 Calvert, A. F, *The Escorial*, 7
- 11 Ibid, 65, Calvert, *Royal Palaces of Spain*, 4-6, El Gerco, Phaidon ed., 11
- 12 Stirling-Maxwell, I, 209
- 13 Davies, *Golden Age of Spain*, 120.
14. Froude, *Elizabeth*, I, 375
- 15 Motley, *Rise of the Dutch Republic*, I, 125.
16. *Encycl, Brit*, XVII, 722c.
- 17 Motley, I, 125.
- 18 Hume, M., *The Spanish People*, 382, Motley, II, 12.
- 19 Trend, *The Civilization of Spain*, 128
- 20 Motley, I, 125.
- 21 Voltaire, *Works*, XIVb, 278
22. Mariana, *General History of Spain*, Supplement, p 30.
- 23 Blok, *History of the People of the Netherlands*, II, 289, 119; cf *En. Br.*, XVII, 722 321; Armstrong, *Emperor*
24. Cf. Robinson, *Readings*, 321; Armstrong, *Emperor Charles V*, II. 376; Hume, M., *Spain : Its Greatness and Decay*, 150.
- 25 Prescott, *Philip II*, II, 431.
- 26 Davies, *Golden Age of Spain*, 150.
- 27 Perscott, *Philip, II*, II, 451.
28. Altamira, *History of Spain*, 384
29. Madariaga, *Spain*, 36, Davies, *Golden Age*, 194
- 30 Ibid., 198, *History Today*, June 1954, p 427
- 31 Ibid., Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 254-272.
- 32 Trevor-Roper, *Historical Essays*, 269, Altamira, *History of Spanish Civilization*, 133.
- 33 Davies, *Golden Age* 121
- 34 *En Br.*, XXI, 132
- 35 Prescott, *Philip II*, I, 68, 210, II, 26
36. Ogg, 170.
- 37 Davies, 230
38. Ibid., 233
- 39 Hume, M., *Court, of Philip IV*, 24; *Spain*, 211, *Camb. Mod. History*, III, 542.
40. *Don Quixote*, Part II, ch. 54.
- 41 Ximenes, Juan, *Life and Virtues of Juan de Ribera*, in Buckle, *History of Civilization*, II, 46.
42. Lea, *Inquisition*, III, 397, 407-8; Ogg, 364; Hume, M., *Spain*, 212.
43. Lea, III, 410.
44. *Camb Mod. History*, IV, 634.
- 45 Justi, Velázquez, 105.
- 46 Portrait in *Hispanic Society of America*, New York.
47. Rooses, Rubens, 486
48. Stephens, H. M., *Story of Portugal*, 249.
49. Camões, *Lusiads*, Introd, xvii.

50. Penrose, Travel and Discovery, 72.
51. Camões, Lusiads, iv, 83.
52. Ibid, 89
53. Bell, Aubrey, Portuguese Literature, 183.
54. Camões, Introd xxix
21. Don Quixote, Part I, ch. xii.
22. I, xi.
23. I, xiii.
24. II, xxxii
25. I, iv
26. II, xxxii.
27. II, xix; I, xx; II, iv.
28. I, xxxix
29. I, xxxvi.
30. Cervantes, Exemplary Novels, 5
31. Ibid., 3
32. Don Quixote, II, xlv
33. Schevill, Cervantes, 353.
34. Powys, J. C., Enjoyment of Literature, 174
35. Ticknor, II, 42.
36. Don Quixote, I, xxi; Bell, Cervantes, 27.
37. Tr. by Churton in Fitzmaurice-Kelly, History of Spanish Literature, 281.
38. Quevedo, The Dog and the Fever, 52
39. Tr. by John Masefield in Van Doren, Anthology, 645.
40. Fitzmaurice-Kelly, History 254.
41. Id., Some Masters of Spanish Verse, 98.
42. Id., History, 249-50.
43. Ford, J D, Main Currents of Spanish Literature, 129.
44. Fitzmaurice-Kelly, Some Masters, 43.
45. Lope de Vega, The Star of Seville, in Matthews, B., Chief European Dramatists, 171.
46. Lewes, G. N., Lope de Ve-

CHAPTER XI

- 1 Preface to Galatea
2. Hallam, Literature, I, 53
- 3 Schevill, R., Cervantes, 7
- 4 Altamira, History of Spanish Civilization, 143
- 5 Fitzmaurice-Kelly, History of Spanish Literature, 338
- 6 Gracian, Art of Worldly Wisdom, 20.
- 7 Ibid, 29.
- 8 32.
9. 36
- 10 49
11. 71
12. 144.
13. 150.
- 14 In Davies, Golden Age, 282
- 15 Ticknor, History of Spanish Literature, III, 150; cf Fitzmaurice-Kelly, History, 274.
- 16 In Smith, P, History of Modern Culture, I, 552.
- 17 Bell, Aubrey, Cervantes, 54, Ticknor, II, 58
18. Ellis, H, Soul of Spain, 233.
19. Schevill, Cervantes, 134.
- 20 Lockhart, J. G., Introd. to Everyman's Library ed. of Don Quixote, p. xx.

- ga, in Clark, Great Short Biographies, 596, Fitzmaurice-Kelly, Some Masters, 25.
 - 47 Shelly, Poetical Works, 645.
 48. Calderón, Life Is a Dream, II, ii, tr. D. F. McCarthy, in Matthews, 219.
- CHAPTER XII
1. Stirling-Maxwell, Annals of the Artists of Spain, I, 349.
 2. Dieulafoy, Art in Spain and Portugal, 243.
 3. Mâle, Émile, Religious Art from the Twelfth to the Eighteenth Century, 170.
 - 4 In the Escorial
 - 5 In Calvert, Seville, 108.
 - 6 Lassaigue, J., Spanish Painting from the Catalan Frescoes to El Greco, 131
 7. En Br, XXII, 69.
 - 8 Naples.
 9. Lassaigue, 106, Guinard, El Greco, 54.
 10. Goldscheider, El Greco, 10.
 - 11 Caffin, C. H, Story of Spanish Painting, 72.
 - 12 Guinard, 121
 13. Meier-Graefe, The Spanish Journey, 145
 14. Pacheco, in Guinard, 22.
 - 15 Johnson in Prologue to Addison's Cato,
 16. Soria, M. S., The Paintings of Zurbarán, 30.
 - 17 In Justi, Velázquez, 83.
 18. Duke of Wellington Collection, London.
 - 19 Boston Museum of Fine Arts
 20. National Gallery, London.
 21. Justi, 445.
 22. Rouen.
 - 23 New York, Frankfurt
 - 24 Dresden Gallery
 - 25 Modena
 26. Earl of Radnor Collection.
 - 27 Stirling-Maxwell, III, 847.
 28. Justi, 360.
 - 29 Cheney, World History of Art, 619
 - 30 Vienna.
 - 31 Washington
 - 32 Wallace Collection, London
 33. Vienna
 - 34 Calvert and Hartley, Velázquez, 176
 - 35 Ellis, H, Soul of Spain, 153.
 - 36 Meier-Graefe, 151, 200-5
 - 37 Stirling-Maxwell, III, 946
 - 38 Guinard and Baticle, Histoire de la peinture espagnole, 170
 39. Louvre
 - 40 Dresden
 - 41 Pliny, Natural History, xxxv, 36
 42. Stirling-Maxwell, III, 1003.
 43. Prado, Seville, Cádiz, Louvre, Leningard.
 - 44 Dulwich.
 - 45 Rome, Galleria Nazionale.
 - 46 Prado
 47. London.
 48. Leningrad.
 - 49 Altamira, History of Spanish Civilization, 137f.

CHAPTER XIII

1. Roeder, Catherine de' Medici and the Lost Revolution, 170
2. Sée, Modern Capitalism, 49.
- 3 Roeder, 250.
4. Guizot, History of France, III, 319.
5. Acton, Lectures, 156
- 6 Michelet, Histoire de France, III, 483.
- 7 Thieme, Women of Modern France, 38
- 8 Roeder, 309.
9. La Tour, Origines de la Réforme, IV, 255f.
10. Hearnshaw, Social and Political Ideas of .. the Renaissance and Reformation, 29.
11. Walker, W., John Calvin, 381.
- 12 Guizot, France, III, 303.
- 13 Sichel, Catherine de' Medici and the French Reformation, 111.
14. Ibid , 24
- 15 Brantôme, Book of the Ladies, 51
- 16 Michelet, Histoire, III, 490
- 17 Sichel, 10
- 18 Brantôme, 59
- 19 Sichel, The Later Years of Catherine de' Medici, 116.
- 20 Sainte-Beuve in Brantôme, 88.
- 21 Roeder, 361.
- 22 Ibid., 386
23. Allen, Political Thought,
- 24 Roeder, 254-6
- 25 Ranke, Civil Wars .. in France, I, 278-80.
26. Sichel, Catherine de' Medici, 119.
- 27 Pastor, History of the Popes, XVI, 179
- 28 Batiffol, The Century of the Renaissance, 201.
- 29 Ibid , 198, Pastor, XVI, 167; Camb Mod History, II, 300.
- 30 Pastor, XVI, 179.
- 31 Ibid
- 32 Ibid , 180-1.
- 33 Allen, Political Thought, 305
- 34 Sichel, 191, 196-7.
35. Lea, Studies in Church History, 496
36. Pastor, XVI, 172
37. Micheler, IV, 418; Batiffol, 203.
- 38 Guizot, History, III, 334.
- 39 Ibid., 335.
- 40 Batiffol, 211; Sichel, 224.
41. Froude, Elizabeth, I, 346.
- 42 Ranke, Civil Wars, I, 336; Batiffol, 215, Roeder, 366-9; Sichel, The Later Years, 19; Pastor, XVI, 203.
43. Guizot, III, 328
- 44 Ibid , 330; Pastor, XVIII, 116.
- 45 Guizot, III, 331.
46. Pastor, XVIII, 154.
- 47 Froude, Elizabeth, II, 446
- 48 Sedgwick, H D., Henry of Navarre, 34
49. Ibid , 90
- 50 Batiffol, 241; Belloc, Richelieu 139n
51. Pastor, XVI, 195-6
52. Roeder, 428

53. Guizot, III, 380.
54. Janssen, J., History of the German People, VIII, 114.
55. Ibid
56. Guizot, III, 384.
57. Ibid. z
58. Camb Mod. History, III, 18.
59. Ibid, 19; Pastor, XIX, 485.
60. Michelet, III, 458
61. Batiffol, 227
62. Sichel, The Later Years, 160.
63. Michelet, III, 462
64. Sichel, The Later Years, 162
65. Ibid., 164.
66. Ibid., 161.
67. Ibid; Roeder, 453
68. Batiffol, 229; Sichel, The Later Years, 164
69. Ibid., 167; Batiffol, 230.
70. Ibid
71. De Thou in Robinson, Readings, 331, Sichel, Later Years, 180
72. Michelet, III, 468; Roeder, 473.
73. Micheler, III, 476
74. Ibid
75. Acton, 160, Roeder, 463.
76. Ibid., 477.
77. Ibid., 479
78. Ibid., 489.
79. Pastor, XIX, 488.
80. Michelet, III, 478.
81. Acton, 162; Pastor, XIX, 489
82. Michelet, III, 483.
83. Pastor, XIX, 509.
84. Roeder, 464.
85. Batiffol, 236; Sichel, The

Later Years, 194.

86. Pastor, XIX, 507; Froude, Elizabeth, III, 411.
87. Pastor, XIX, 500-12.
88. Froude, Elizabeth, III, 419.
89. Roeder, 506
90. Sichel, Later Years, 205.
91. Guizot, III, 415.

CHAPTER XIV

1. Lacroix, History of Prostitution, I. 1170-1, 1276-91
2. Sedgwick, Henry of Navarre, 83
3. In Brantôme, Book of the Ladies, 212.
4. Brutus, Junius, Vindiciae contra tyrannos, 97, 109, 169; Carlyle, R W., History of Medieval Political Philosophy, 351f, Allen, Political Thought, 331
5. Ibid., 377.
6. Voltaire, Age of Louis XIV, 397.
7. Ranke, Civil Wars, I, 163
8. Allen, Political Thought, 347-50, Figgis, From Gerson to Grotius, 180.
9. Notes to Sully, Memoirs, I, 207.
10. Michelet, IV, 41.
11. Ibid., 21
12. Sedgwick, Henry, 223.
13. Michelet, IV, 60.
14. Maulde La Clavière, Women of the Renaissance, 469.
15. Sully, I, 299, 311-14, Michelet, III, 463; Guizot, III, 521
16. Ibid., 522.

17. Michelet, IV, 60.
18. Satyre Ménippée, 59-73
19. Guizot, III, 556, Campbell,
The Jesuits, 217; Ranke,
Popes, II, 55; Sully, I, 447;
Fulop-Miller, Jesuits, 317.
20. Sully, I, 2
21. Kirby, Engineering in His-
tory, 141.
22. Guérard, Life and Death
~~of an Ideal~~, 119.
23. Schaff, Swiss Reformation,
II, 699
24. Laski, H, in Brutus, Vindi-
ciae contra tyrannos, 9, 35
25. Lowie, R. H., Are We Civi-
lized?, 241.
26. Tallement des Réaux, Mi-
niture Portraits, 9.
27. Ibid, 5
28. Sedgwick, 274
29. Batiffol, 287.
30. Sully, IV, 128n.
31. Sully, III, 365; Michelet,
IV, 86.
32. Sedgwick, 130-5.
33. Lacroix, Prostitution, II,
1306.
34. Ibid., 1300
35. Sully, III, 31-2.
36. Sedgwick, 255
37. Ackerman, Phyllis, Tape-
stry, 262
38. Davis, Golden Age, 237
39. Sully, II, 404-10
40. Camb Mod History, III,
682, 684.
41. Janssen, History of the
German People, X 439n
42. Sedgwick, 288-9
43. Fulop-Miller, Jesuits, 127;
Gooch, English Democratic

Ideas, 23,

44. Sedgwick, 306,

CHAPTER XV

1. Barne, La Grande Made-
moiselle, 279.
2. Ibid, 278
3. Sanders, Bossuet, 54.
4. Michelet, IV, 197, Batiffol,
404
5. Michelet, IV, 370
6. Catholic Encyclopedia,
XIV, 437.
7. Jackson, C C, Old Paris,
45
8. Belloc, Paris 311.
9. Boulenger, Seventeenth
Century, 49
10. Michelet, IV, 200
11. Acton, Lectures, 171
12. Buckle, Ib, 399-406.
13. Ibid, 399.
14. 405.
15. 403.
16. Boulenger, 37; Barne, 15.
17. Jackson, 56.
18. Richeheu, Oeuvres, 18.
19. Michelet, IV, 156.
20. in Guizot, IV, 131.
21. Ibid, 46
22. 63.
23. Richelieu, 173
24. Guizot, IV, 79
25. Michelet, IV, 295
26. Schoenhof, History of
Money and Prices, 186.
27. Nussbaum, History of Eco-
nomic Institutions, 108
28. In Acton, 179
29. Michelet, IV, 327
30. Guizot, IV, 173.
31. Richelieu, 152, 201.

- 32 Guérard, Life and Death of an Ideal, 123.
33. Tallement des Réaux, 63.
34. Belloc, Richelieu, 90
35. Michelet, IV, 286, Boulenger, 35.
36. Retz, Secret Memoirs, 97.
37. Hefele, K. J., Life and Times of Cardinal Ximenes, 565
38. Chesterfield, Letters, 28 (Oct. 16, 1747).
39. Lodge, Richelieu, 229
- 40 Richelieu, Memoirs, 168.
41. Ibid., 125.
42. 181, 40.
- 43 182.
44. 168
- 45 32.
46. 19
47. 30.
- 48 35.
- 49 Motteville, Mme de, Me-
50. Tallement des Réaux, 27 mois, 1, 67.

CHAPTER XVI

- 1 Charron, De la Sagesse, I, 24, In Haydn, Counter-Renaissance, 569
2. Sichel, Catherine de' Medici, 6; Lacroix, History of Prostitution, II, 1159.
3. Sedgwick, Henry of Navarre, 55
4. Brantôme, Lives of Gallant Ladies, 131-2.
5. Now in the museum of the Château d'Azay-le-Rideau.
- 6 Michelet, IV, 222.
7. Tallement, 132.
- 8 Sanger, Wm., History of Prostitution, 199.
9. Ibid.; Lacroix, Prostitution, II, 1350.
10. Montaigne, Diary, 6.
11. Sully, Memoirs, I, 482, 507.
12. Brantôme, Book of the Ladies, 79.
13. Wright, Womankind in Western Europe, 305
14. Lacroix, Arts of the Middle Ages, 164
- 15 Wright, Womankind, 302.
- 16 Montaigne, Essays, II, 12 34.
17. Lowie, Are We Civilized?,
18. Burney, Charles, General History of Music, II, 217.
- 19 Ibid., 466.
- 20 Montaigne, Essays, III, 365
- 21 Ibid., I, xxv, 185
22. I, xxv
23. III, xii, 300.
- 24 III, xii, 292
- 25 I, xxxviii, 252.
- 26 I, xxv, 165
- 27 Ibid., 163
- 28 Ibid., 166, 172
29. III, xiii, 324.
30. II, vi, 48
- 31 Dowden, Michel de Montaigne, 45
- 32 I, xxvii, 201.
33. Ibid.
34. Gide, A., The Living Thoughts of Montaigne, 14.
- 35 I, xxvii, 207.
- 36 III, x, 265
- 37 III, v, 119
- 38 Ibid, 105.
39. 73.
40. Cf. his paeon to Paris in III, ix, 216

41. III, v, 76. &
- 42 II, viii, 71
43. Gide, 12.
- 44 III, ix, 213.
- 45 III, iii, 49.
- 46 I, xxxviii, 253-6.
- 47 I, xxv, 149
- 48 II, xxxii, 448
- 49 Sellery, G C., The Renaissance, 47.
- 50 Pater, Plato and Platonism, 174
- 51 In Dowden, Montaigne, 240
- 52 II, iii, 35
- 53 II, xvii, 385
54. III, v, 107.
55. III, ii, 24
56. II, xxxvi, 523
- 57 Ibid, 495
- 58 III, xiii, 354
- 59 Diary, 259
- 60 II, xii, 256, Cicero, De veritate, 11
61. III, xii, 291
- 62 III, xiii, 379
- 63 Sainte-Beuve, Port-Royal,
- 64 II. xii, 306.
II, 440.
65. Ibid., 317.
66. In Spencer, Theodore, Shakespeare and the Nature of Man, 36
- 67 II, xii, 237.
68. Ibid., 285-7.
69. 312.
- 70 202
- 71 250.
82. 324
73. 325
- 84 Sichel, E., Montaigne, 54.
- 75 II, xvii, 371.
- 76 II, xii, 180
- 77 I, xl, 269; Camb. Mod. History, II, 711
- 78 II, v.
79. II, viii, 72
- 80 I, xxx 219
81. II, xii, 198, 250.
- 82 I, xxx, 229
83. In Dowden, Montaigne, 63
84. III, vi, 144
- 85 III, ix, 201; v, 105
- 86 II, xii
87. II, xii, 204.
- 88 Ibid., 251.
- 89 225, 266.
90. I, xix, 90
91. III, v, 78
- 92 III, xi 285
- 93 II, xii, 130.
- 94 Ibid, 217.
- 95 133.
- 96 Sainte-Beuve, Port-Royal,
- 97 I, liv, 354; Tilley, A., Studies in the French Renaissance, 280.
- 98 II, xii, 225.
- 99 III. xi.
100. III, ix, 198.
101. III, viii, 173.
- 102 III, ix, 191.
- 103 III, xii, 301, ii, 26.
- 104 II xi, 121.
105. III, x, 263
- 106 Diary, 14
107. Ibid., 17
- 108 49
109. 107.
- 110 150.
111. Cf. Diary, 166-9.
- 112 Ibid., 123
113. Essays, III, iv, 59.
- 114 III, xiii, 368.

115. II, i 8.
116. Jonson, Volpone, III, ii.
117. Mme du Deffand, Lettres à Voltaire, 41; Jan 28 1759
118. Malebranche, De la Recherche de la vérité, III, v, p 264.
119. In Gide, 3
120. Sainte-Beuve, Port-Royal, II, 379-453.
121. In Frame, Montaigne, 139.
122. Guizot, IV, 194.
123. Van Laun, History of French Literature, II, 181.
124. Disraeli, I, Curiosities of Literature, I, 451.
125. Malherbe, in Sainte-Beuve, Portraits of the Seventeenth Century, II, 47.
126. Boileau in Malherbe, Racan, Maynard, Poésies Choiesies, 9n.
127. Ibid, 24-7
128. Winegarten, French Lyric Poetry in the Age of Malherbe, 8, 18.
129. Boulenger, Seventeenth Century, 122.
130. Faguet, Literary History of France, 341.
131. Régnier, De Viau, etc., Poésies choisies, 50.
132. Guizot, Corneille and His Times, 148.
133. Corneille, Le Cid, V, 1
134. Guizot, Corneille, 168
135. Livy, T L., History of Rome, i, 25.
136. Corneille, Horace, I, i.
137. Ibid., II, viii.
138. Sainte-Beuve, Port-Royal, I, 124.
139. Evelyn, Diary, I, 48.
140. Blomfield, History of French Architecture, II, 143.
141. Bupal, Bernard Palissy, 43.
142. In Sichel, Catherine de Medici, 318; Michelet, History de France, IV. 51.
143. Guizot, Histoire, IV, 571.
144. Sutro, E, Nicolas Poussin, 77.
145. Desjardins, Poussin, 71
146. Mousnier, Histoire générale des civilisations, IV. 218.
147. Ruskin, Modern Painters, II, ii, 18.
148. Craven, Treasury of Art Masterpieces, 172; Strahan, History of French Painting, 45.
149. Ruskin, Modern Painters, II, i, 7-5; IX, v.

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديمقراطي وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه. ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمون بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة.

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

